ذكريات
العهود الثلاثة

بقلم الأستاذ

محمد حسين زيدان

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م


بسم الله الرحمن الرحيم

محمد حسين زيدان

حياته ...
وفكره ...
وأدبه ...

هو **محمد حسين زيدان، الأديب الكاتب، والخطيب والصحفي والمحاضر. وُلد بالمدينة المنورة عام ١٣٢٥هـ، وتخرّج بالمدرسة الراقية الهاشمية في عام ١٣٤٣هـ، وانخرط، منذ صباه، في حلقات العلم التي كان يعقدها كبار الشيوخ بالمسجد النبوي الشريف، فدَرَسَ علوم: النحو، والفقه، والتفسير، والحديث، وغيرها.**

وقد شغل «زيدان» العديد من الوظائف الإدارية والصحفية والعلمية والتربوية، فاشتغل بالتدريس في المدينة المنورة، في كل من «المدرسة السعودية»، و«دار الأيتام». وذلك في الفترة من عام ١٣٤٦هـ إلى عام ١٣٥٨هـ. وشغل بعض الوظائف الإدارية المختلفة، مثل: رئيس قسم الأوراق بوزارة المالية، فسكرتير مديرية الحج، إلى أن كان مساعداً للمفتش العام بوزارة المالية.

أما في حقل الصحافة، فقد كان الأستاذ محمد حسين زيدان مدير تحرير جريدة «البلاد» بجدة، فرئيس تحريرها، كما رأس تحرير جريدة «الندوة» بمكة المكرمة أيضاً. وهو الآن عضو بمجلس إدارة «دارة الملك عبد العزيز»، التي تعد بمثابة مركز للأبحاث التاريخية، هذا إلى جانب توليه رئاسة تحرير مجلة «الدارة»، وهي مجلة علمية محكمة، توجه عناية خاصة للتراث التاريخي والأدبي، وتصدر بصفة فصلية، وما يزال «زيدان» يرأس تحرير هذه المجلة حتى الآن.

زيدان مؤلفاً

وتتعدد مجالات النشاط الأدبي والثقافي لدى «زيدان» بين التأليف، وتحرير المقال الصحفي، والمقال العلمي، والحديث الإذاعي والتلفزيوني، والمحاضرة، سواء في الأندية الأدبية أم في المحافل الثقافية والمؤتمرات. وقد جمع الكثيرَ من أحاديثه ومحاضراته ومقالاته في كتب حَمَلَت كلَّ طريف شائق من العناوين، والمفيد الجادّ من الموضوعات. وأهم هذه المؤلفات الجامعة لإنتاجه:

★ تمر وجمر، ويضم مجموعة من المقالات.
★ حصاد عمر وثمرات قلم، ويضم بعض المحاضرات والمقالات، فضلاً عن طائفة من تراجم الصحابة وسير الأبطال.
★ محاضرات وندوات في التاريخ والثقافة العربية.
★ ثمرات قلـــم.
★ صـــــور.
★ أشـــياخ ومقالات.
★ كلمــــة ونصف.
★ أحاديث وقضايا حول الشرق الأوسط. ومايزال لـ «زيدان» عدد من المؤلفات قيد الطبع، منهـا:
★ خواطـــر مجنحـــة.
★ الذكريات، مشاهدات ورحـــلات وذكريـــات.
★ عبد العزيـــر والكيـــان الكبيـــر.

أما محاضراته التي شارك بها في مجالات ثقافية مختلفة، فمنها:
★ رعاية الشباب، وهي محاضرة ألقاها بجمعية الإسعاف بمكة المكرمة عام ١٣٥٨هـ.
★ الإسلام والحضارة، ألقاها بجامعة الملك فيصل عام ١٣٩٧هـ.
★ جمال الدين الأفغاني، ألقاها بنادي جدة الأدبي عام ١٣٩٧هـ.
★ بنـو هلال بين الأسـطورة والحقيقـة، وهـو موضـوع ندوة علمية تاريخية، شارك فيهـا «زيدان»، وانعقدت في مدينة (الدوحة) بدولة قطر الشقيقة، ونظمتها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب عام ١٣٩٧هـ.
★ العرب بين الإرهاص والمعجزة، بحث ألقاه بمركز دراسات الشرق الأوسط في كامبردج عام ١٩٧٦م.
★ رحلات الأوربيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية، محاضرة ألقاها في قسم التاريخ، بكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض عام ١٩٧٧م.

ولا يخفى أن الاتجـاه إلى البحث التـاريخي، هو أبرز الاتجاهات وأغلبها على كتابات «زيدان» ومحاضراته.

زيدَان كَاتب السـيرة

عالج «زيدان» فن السيرة في مجموعة من المقالات، جمعها في كتاب واحد، جعل عنوانه (سيرة بطل)، ضمَّ تراجم تاريخية لطائفة من الصحابة والصحابيات، رضى الله عنهم، بلغ

عددهم ستة وستين صحابياً وصحابية، من بينهم: قدامة بن مظعون، ومصعب بن عمير، وأم المؤمنين خديجة، وسلمان الفارسي، وهند أم سلمة، وأسماء ذات النطاقين، وعبد الله بن جحش، وأبو دجانة، وعمرو بن عبسة.

ويهدف الكتاب، كما تشير مقدمته، إلى هدفين أساسيين، هما:

★ تلبية حاجة الأجيال إلى هذه السِّيَر، بما شخَّصَتْه من قيم روحية، ينبغي أن يستضيء بها الشباب المسلم، لبناء حاضره ومستقبله.
★ أن يعرف شبابنا رجالَ تاريخه وأمته، بعد أن جهل سيرهم. يقول في المقدمة: «هذه باقة عطرة من سير صحابة رسول الله، ﷺ، الذين نضّروا وجه التاريخ الإنساني بخلقهم وبطولاتهم ومُثُلِهم، ننشرها اليوم، وقد أصبحت أجيالنا الجديدة، في كل شبر من عالمنا الإسلامي، في أمس الحاجة إلى هذا النور المبين، تمشي به عبر الظلمات الكثيفة، التي تكتنفها، وتكتشف في ضوئه، زيف الحياة المادية والشعارات البراقة، التي تلعلع من حولها، وتستعين به لتخطيط حاضرها ومستقبلها».

إلى أن يقول: «وإنه لمما يحزن القلب أن يعرف شبابُنا عن مشاهير الأمم، من شرق وغرب، أكثَر مما يعرفون عن أبطال أمتهم وصُنّاع تاريخهم، الذين أضاؤوا الدنيا، وغيروا وجه التاريخ».

أما عن منهج الكاتب في كتابة «السيرة» فإنه، في إيجاز، يقوم على: رسم صورة حياة بشكل موجز، مع إبراز أهم ملمح في حياة الشخصية ومواقفها وخصائصها، وذلك بعد أن يلم في البداية بنسب الشخصية ومكانتها.

وكذلك يتحرى الكاتب، في ترجمته، الوقوف عند مواضيع العبرة والتنبيه إليها، مع عناية واضحة بربط سيرة الشخصية بالواقع المعاصر، والحاضر الذي نعايشه.

ولغة الكاتب تتوخى البساطة واليسر، مع الأداء البياني الذي يجعل قراءة السِّيَر أمراً محبباً شائعاً. كما يلحظ قارىء هذه المجموعة من السيرة جودة إلمام الكاتب بعلم الأنساب وتاريخ القبائل العربية، والموازنة الحاسمة بين الأنساب المتشابهة، والتي يُدْخِلُ التشابُهُ بينها، في بعض الأحيان، اللبسَ على الدارسين، والقارئين على سواء. هذا إلى وفرة ما طالعه الكاتب ورجع إليه من المصادر، مع سعة المعرفة بالتاريخ الإسلامي: رجالاً ومواقف وأحداثاً وأنساباً.

زيدان محاضراً

سلفت الإشارة إلى أن الأديب «محمد حسين زيدان» يشارك بالمحاضرة في المحافل

والندوات، وقد جمع بعض ذلك في كتاب عنوانه: «محاضرات وندوات في التاريخ والثقافة العربية».

وعنصر التاريخ، كما يتضح من العنوان، هو الغالب، وهو مزيج من التاريخ العربي والتاريخ الإسلامي. ونلتقي في هذه المحاضرات بتلك العناوين:
★ رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية.
★ بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة.
★ العرب بين الإرهاص والمعجزة.
★ الإسـلام والحضـارة.
★ العـرب وجزيرتهـم.

ومحاضرته عن «رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية» تكشف عن الدور المريب الذي لعبه الرحالة الأوربيون لدراسة شبه الجزيرة العربية من النواحي الاجتماعية المتعلقة بحياة البدو بصفة خاصة، والناحية الدينية المتصلة بالحج ومناسكه. ولما كان هؤلاء الرحالة غير مسلمين، ومن ثم لا يُسمح لهم بارتياد مكة والمشاعر، أو زيارة المدينة، فقد اضطروا إلى اعتناق الإسلام كذباً وزوراً، كما أتقنوا اللغة العربية، ودرسوا الإسلام وارتدوا ملابس البدو، كما وثّقوا علاقتهم بالبدو، وكسبوا صداقتهم وثقتهم. وقد تناول هؤلاء الرحالة بالدراسة «الحركة السلفية بقيادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب»، وأثرها في شبه الجزيرة العربية، والدور الذي قام به «محمد علي» في النّيْل من الحركة السلفية الإصلاحية، والتي كان لها تأثير عميق في حياة الشعوب الإسلامية، وإنشاء أول دولة إسلامية في العصر الحديث، تحتكم إلى شريعة الله. وأهمية هذه المحاضرة تتمثل فيما يلي:
★ كشفت عن واحدة من الوسائل الخبيثة التي مارسها الأوربيون ضد المسلمين المعاصرين، ووقائع حياتهم الاجتماعية والدينية.
★ استشعار الأوربيين الخطر الذي يتهددهم، ويفسد عليهم مخططاتهم، من جراء حركات الإصلاح واليقظة الإسلامية، وتقديرهم لحجم الخطر الكامن في الدعوة السلفية.
★ علاقة الرحالة الأوربيين بقادة الحركة الاستعمارية، وبخاصة نابوليون والحملة الفرنسية على الشرق العربي، وخضوع هذه الرحلات للتخطيط والتوجيه والتمويل.
★ إن معلومات الرحالة الأوربيين عن العالم العربي بعامة، وشبه الجزيرة العربية بصفة خاصة، كانت مفيدة للغاية في توجيه الحملة الفرنسية، وتحقيق الكثير من أهدافها.

أما محاضرة «زيدان» عن بني هلال والهلاليين، فعنوانها «بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة». إن أهم ما يقدمه «زيدان» للمثقف العربي، يتمثل في الدور الذي اضطلع به

الهلاليون في تعميق حركة التعريب العرقي واللغوي، سواء في مصر أم في دول الشمال الإفريقي»، خلال القرن الخامس الهجري وما بعده.

لقد استقرت قبائل «الهلالية» بمصر، بعد أن قَدِمَت إليها موجة إثرَ موجة، وتحركت بعد هذا إلى بلدان المغرب العربي منذ عهد «المعز الفاطمي»، حين أغرى قبائل الهلالية بغزو «القيروان» للقضاء على دولة «الصنهاجيين»، الذين أعلنوا المذهب السني بديلا للمذهب الفاطمي الشيعي، وخلعوا طاعة الخليفة الفاطمي في القاهرة.

وتتلخص أهمية هذه المحاضرة فيما يلي:
★ أن موجة بني هلال تمثل، بالنسبة لمصر، الموجة العربية الرابعة، منذ موجة الفتح الإسلامي.
★ أن الهلاليين عرب من بني قيس، قدمت موجاتهم إلى مصر من (نجد)، التي أدت مع سائر مناطق شبه الجزيرة العربية دوراً تاريخياً بارزاً في سبيل تعميق الوجود العربي: عرقياً، ولغوياً. وبالتالي عمّقت الوجود الإسلامي، المرتبط بالوجود العربي دائماً.
★ أن «الهلالية» ليست أسطورة، بل هي حقيقة، ودورها في المنطقة العربية دور أصيل.

ومن الواضح أن بحث «زيدان» عن «الهلالية» قد أفاد كثيراً من النتائج التي توصل إليها مؤرخ تونس الكبير الراحل «**حسن حسني عبد الوهاب**» في كتابه «**ورقات عن الحضارة العربية في إفريقيا**». إذ كان من أوائل المؤرخين المعاصرين الذين نبهوا إلى دور «**بني هلال**» في حركة التعريب، بعد أن اقترن خراب القيروان بالهلاليين.

ولو شئنا أن نخلص إلى رؤية شاملة لكتابات «زيدان» التاريخية ومحاضراته، لقلنا: إن هذه الكتابات والمحاضرات، تحرص، دائماً على الارتباط بهدف معين، هو تأصيل الانتماء العربي الإسلامي، ووصل الماضي التالد بالحاضر الواعد، وحث الشباب، بخاصة، على قراءة تاريخه واستطلاع تراثه. لأن الأمة التي تجهل تاريخها، تجهل طريقها.

زيدَان والمقَال السيَاسي

عالج «زيدان»: «المقال السياسي»، كما عالج ألواناً شتى من المقال، على نحو ما سوف نبين فيما بعد، فأصدر كتاباً كاملاً، جمع فيه مانشره مفرقاً من مقالاته السياسية، وأهمها:
★ إسرائيل والواقع العربي.
★ الصراع بين الاتحاد السوفييتي، والولايات المتحدة الأمريكية.
★ أساليب الاستعمار المعاصر في الاتجار بالسلاح.

★ الخطر الشيوعي .
★ كامب ديفيد ومكامن الخطر فيها .

وأول ما نسجله من الملاحظات على «مقال زيدان السياسي» أنه وثيق الارتباط بالحاضر العربي، وبما يجري على الساحة العربية من الأحداث. ومن هنا يأتي مقاله السياسي تعليقاً على هذه الأحداث، وتحليلاً لها، ونقداً للانحرافات، نقداً مغلفاً في أسلوب ساخر لاذع .

و «زيدان» الذي يهتم بالتاريخ، ويخصه بالأبحاث، لا يفوته أن يمزج «المقال السياسي» بالتاريخ. ويردُ ذلك عنده على صور شتى : منها، على سبيل المثال، بدؤه مقاله بذكر حادثة سياسية، ثم الانطلاق من هذه الحادثة القديمة إلى موقف حديث يناظرها، فيحلل ذلك الموقف، ويعقد الأواصر بين الماضي والحاضر. وقد لا تكون الإشارة التاريخية، لديه، نقطة البداية، بل ترد في ثنايا المقال، مع الموازنة والمقارنة .

وهكذا يتحول «التاريخ» في «المقال السياسي» عند «زيدان» إلى درس آخر، يؤصّل لديه الرؤية السياسية ويعمقها ويجعل «المقال السياسي» لديه أكثر من مجرد محاولة للتعليق على الأحداث والأخبار، عربياً وعالمياً، بل هـو درس يبقى بعد زوال الحدث، ليصبح امتداداً حياً في واقع الأمة .

ثمـة ملحظ آخر عن «المقال السياسي» لدى «زيدان»، وهو عنايته بالحدث العالمي ، وعنايته بالحدث العربي، وتناوله الحدث العالمي ، من وجهة نظر المثقف العربي، مع الربط بين الحدث العالمي ، والواقع العربي في حلقة واحدة .

ومن خصائص مقال «زيدان» بساطة الأداء اللغوي ، مع مزج التحليل والتعليق بروح الدعابة، التي لا تخلو، في الكثير من الأحيان، من السخرية اللاذعة .

كذلك يحرص «زيدان» في مقاله السياسي على العنوان الطريف المثير، مثل :
★ استرخاء موسكو وتوتر واشنطن .
★ لمسات، ورفعنا لك ذكرك .
★ تجارة السلاح بلطجة .
★ من المؤامرة إلى المغامرة .
★ منحة التوقيت . . نعمة التوفيق .

زيدَان والمقَال الاجتماعي

عالج «زيدان»، من خلال «المقال الاجتماعي»، العديد من الموضوعات الاجتماعية ،

التي تُصَوِّرُ وتَنْقُد بعضَ التقاليد والعادات، والظواهر الاجتماعية العارضة، مع الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي. ومن بين القضايا الاجتماعية التي تناولها: المغالاة في المهور، الإقبال على الاقتران بالرجل الثري، دون النظر إلى الاعتبارات الأسرية، بعض مظاهر أنانية الآباء في معاملة الأبناء.. الخ.

ويميل الكاتب، في مقاله الاجتماعي، إلى التركيز والإيجاز وتحري الواقع وصدق الوقائع، كما يغرم كثيراً بأسلوب الحوار، يلجأ إليه ويمزج به الصورة الحية النابضة، بما يضفي على المقال ملامح قصصية، ويشد إليه قارىء الصحيفة، ويكشف، في الوقت ذاته، عن حس فني لدى الكاتب، يعينه على تجسيد الفكرة الاجتماعية.

كما يلجأ الكاتب، في بعض الأحيان، إلى استخدام الكلمة العامية والتركيب العامي، حتى يضاعف من الطاقة الجاذبة للقارىء، ويقترب بقلمه من الواقع، هذا إلى نزوعه نحو الفكاهة، التي يستعين بها أحياناً في النقد الساخر المغلف.

في مقال له عن نقد بعض العادات المتبعة في حفلات العرس، يقول: «.. ونسأل الله أن يتم على العرائس والعرسان نعمة الفرحة في ليلة العمر، وفي أيام العسل، وفي الأيام التالية، من عمر مديد وحياة سعيدة. يغلبها بالمال، وتغلبه بالعيال، ويتغلبان على حياة، زاخرة بالمتغيرات والمتناقضات، بالعلم والمعرفة والصبر والشكر. مقدمة لا بد منها، ندخل بها على الأمهات والآباء. فهم يأبون إلا (الزيطة والزمبليطة)، تكثر فيها المصاريف ذاهبة هباء، لو صانوها لصانوا الكثير من المربح والمفرح والمعين..»!

زيدَان كاتب الصّورَة

مارس الكاتب تحرير لون من ألوان «الكتابة الصحفية»، يمكن أن نطلق عليه «الصورة»، أو «اللوحة»، وذلك إلى جانب المقال، الذي أوجزنا الحديث عنه فيما سبق. وهو، عادة يُعِنْونُ لهذا الشكل: أي الصورة، بعنوان «صور...».

وقد خص بهذا الشكل النثري كتاباً كاملاً، جعل عنوانه «صور».. كما لم تخل منه سائر ما جمعه من الكتب الأخرى، مثل: ثمرات قلم، وكلمة ونصف، وأحاديث وقضايا حول الشرق الأوسط. وفي كتابه «صور»، الذي اختصه بهذا الشكل النثري، يحاول أن يحدد لنا المقصود من لفظ «صور»، فيقول: «إن هذه الصور قالة من مقالة، كليمة من كلمة، قد يكون فيها الكلم لمن تجرح، وقد تكون قالة من مقالة، كليمة من كلمة، وقد تكون لما هو أكثر، أو لما هو أقل، هي بضاعة مزجاة، فعسى أن تلقى القبول».

وإذا كانت تلك السطور، لا تعطينا مفهوماً محدداً لفن «الصورة» لدى الكاتب، فبوسعنا أن نتعرف هذا المفهوم من خلال قراءة مستقصية، تستخلص الخصائص، وتحدد هذا المفهوم. فالصور على هذا لمحات قصار تتتابع في موضوعات شتى، من الدين إلى المجتمع إلى الأدب إلى السياسة، و غير ذلك.

وقد تكون هذه الصورة تسجيلاً لذكرى من ذكريات الكاتب، أو لخاطرة عابرة، أو لفكرة مقروءة، أَلَمَّ الكاتب بها فيما يلم به من مطالعاته، وقد تكون خبراً من الأخبار السيارة، أو حقيقة تاريخية أو علمية.

أما من حيث الشكل فهي، إلى جانب التنوع والاستطراد الموضوعي، تتسم بأنها أقصر، وأكثر تركيزاً من الشكل المقالي، الذي اعتاد الكاتب ممارسته.

كذلك قد تكون الصورة حواراً خالصاً، أو حكاية خالصة. كما قد تكون سرداً مباشراً مجرداً من الحوار أو القص. هذا إلى جانب عناية الكاتب، في الأعم الأغلب من «صوره»، بعنصر التصوير، حيث يكون حظُّ صُوَرِه منه أوفَر من حظ المقال.

وإذا كان البحث العلمي عند «زيدان» قد اتسم بالرصانة وعكَس لنا تنوع المعرفة، مع عناية خاصة بالتاريخ، فإن «المقال الصحفي» لدى الكاتب، قد اتسم بالخفة والظرف أيضاً، وعكس لنا «الحس الفني» لديه، مع ارتباط واضح بالواقع المعيش، إقليمياً، وعربياً، وعالمياً. اجتماعياً وسياسياً ودينياً. ومن هنا تنوعت منازع القول والتعبير لدى «زيدان» سواء من جانب المعرفة العقلية، والوجدانية الفنية، كما تنوعت وتباينت، في الوقت نفسه، ثقافاته ومعارفه، في مصادرها ومواردها

المواضيع:

ولعلي حريص على أن أعطي القارىء صورة عن هذه الذكريات ليعرف ماذا أكتب؟ ولأعرف من القارىء بعض ما نسيت أو ما جهلت ليمدني بها يعلم، بل وأكثر المدد أن يصوب ما أخطأت فيه، لهذا أطبع فهرسة لمواضيع هذه الذكريات أتقيد به ولا أقيد أحداً، وقد ينفك القيد عني إذا ما بصرني قارىء بما يعرف أكثر مني، وإليكم المواضيع:

١ ـ جغرفـــة المدينة

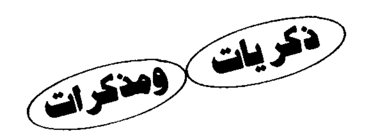
٢ ـ النشأة في المدينة.

٣ ـ المدينة عدة مدن.

٤ ـ المجتمع والعادات.

٥ ـ الأمن حولها والخوف حولها.
٦ ـ انفصام بين الحاكم والحاضرة.
٧ ـ الخصام بين الحاضرة والبادية.
٨ ـ الكتاتيب والمدارس.
٩ ـ المسجد وعلماؤه.
١٠ ـ الحكم العثماني.
١١ ـ عهد عبد الحميد، عهد رشاد، طورانية الاتحاديين والتريك.
١٢ ـ فصل المدينة عن إمارة مكة وعلي رضا الركابي.
١٣ ـ السكة الحديد.
١٤ ـ التلفون، اللاسلكي.
١٥ ـ الثورة العربية.
١٦ ـ ترحيل أهل المدينة إلى الشام، الحمى الراجعة لا التيفوس.
١٧ ـ حماقة أن كان المسجد مستودعاً للذخيرة
١٨ ـ فخري باشا، بصري باشا ما كان يعرف شيئاً عما يجرى حوله في المدينة.
١٩ ـ القلعة أكبر مستودع للسلام الثقيل.
٢٠ ـ تركة محمد علي والمدينة، الوحاق، المخزن، الأروب.
٢١ ـ حصار المدينة.
٢٢ ـ ابن الرشيد حجز عن عون فخري باشا.
٢٣ ـ النعيم
٢٤ قبائل نجد والثورة وموقف الملك عبد العزيز
٢٥ ـ حكم الأشراف.
٢٦ ـ في المدينة حكام ثلاثة.
٢٧ ـ جيش الأشراف مجموعة مرتزقة.
٢٨ ـ التكارنة وتجنيدهم، الألفاهاشم في العهود الثلاثة.
٢٩ ـ أشياخ، عبد الجليل برادة، الأسكوبي، أنور فشقي، شعراء العمري، الشلبي، حمزة غوث، بدر الدين النعغهاني، جريدة الحجاز.
٣٠ ـ حصار الجيش السعودي للمدينة، حصانة الملك عبد العزيز، رحمته للمدينة قبوله التحدي، الأمير محمد بن عبد العزيز يدخل المدينة سلماً يؤسس الحكومة بعض الرجال الذين عهد لهم الأمير محمد، إمارة المدينة وكلاء الإمارة.

٣١ ـ فتح المدرسة، أحمد كماخي، الشلبي، فأحمد صقر، فمحمود الحمصي، فتحت مدارس: دار العلوم الشرعية دار الأيتام. مدرسة النجاح.
٣٢ ـ مدارس بعض أهل المدينة بإذني ورجعوا بتكريم.
٣٣ ـ عمر كردي وزين العابدين في حديث لا بد منه عن نهضة الحسين.
٣٤ ـ الملك عبد العزيز والمدينة.
٣٥ ـ الفتن وكيف قضى عليها عبد العزيز ليتم الكيان الكبير.
٣٦ ـ معاهدة الطائف.
٣٧ ـ جميل مردم يتكلم، شكيب أرسلان يتكلم، شكري القوتلي، موقف الملك فؤاد، على ماهر، عبد الرحمن عزام، محمد الباسل.
٣٨ ـ أحمد زكي شيخ العروبة، محمد حسين هيكل، أهل الإيجاب، الملك فاروق في رضوى.
٣٩ ـ المحمل المصري انتهى الجراية والصدقات واليد العليا يد عبد العزيز.
٤٠ ـ رحلتي للهند.
٤١ ـ قدومي إلى مكة والوظائف فيها وفي الخرج والتقاعد والعمل والصحافة والإذاعة والتلفاز.
٤٢ ـ عبد الله السليمان، محمد سرور الصبان، يوسف ياسين.
٤٣ ـ العويني وإبراهيم شاكر وبكر ناظر، فؤاد حمزة، حافظ وهبة.
٤٤ ـ رجال وأحوال ومجال ومال تلك الخاتمة.
٤٥ ـ وأخيراً أستاذي الأول سوق الحراج.



الذكريـــــات

- الذكريات .. جغرفة لأرض المدينة المنورة
- مدينة داخل السور.. وأخرى خارجها
- فخري باشا أخفى السلاح والذخيرة في المسجد النبوى!

• السنة السادسة والعشرون • العدد ٧٢٢٥ ـ الإثنين ٢١ رجب ١٤٠٦ هـ الموافق ٣١ مارس ١٩٨٦ م •

المدينة يحيط بها سورها الشامخ الذي بناه السلطان سليمان العثماني

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (١)

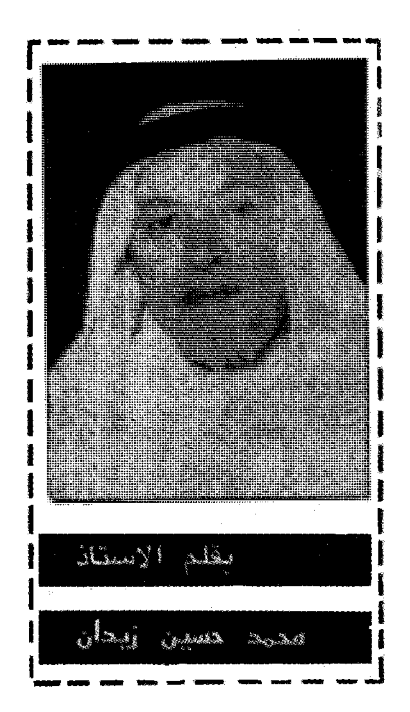
والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد هذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

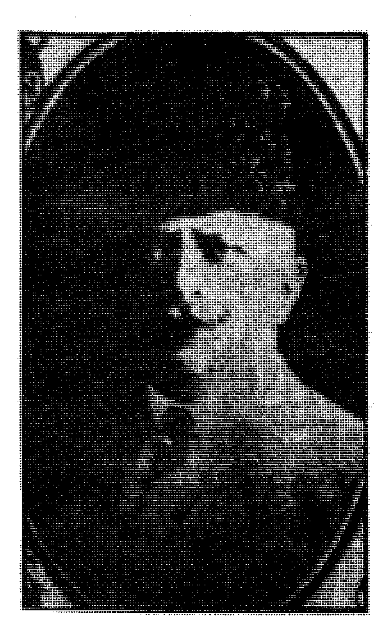
بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله فاطر السماوات والأرض. أنعم على المدينة المنورة بنعم شتى، فالهجرة إليها والنصر منها والإيمان يأرز إليها، ضمت جسد رسول الله ﷺ، إذ توفي فيها، كما ضمت الصحابة الأجلاء أنصاراً ومهاجرين.

والحمد لله أن كانت المدينة المنورة الدار والإيمان، لا ينشق عليها إلا ظالم لنفسه، ولا يتجنى عليها إلا من حرم نعمة الحب لتربة الحب، فالمدينة الحب أحبت من هاجر إليها، وأهلها أحبوا من هاجر إليها. والذين هاجروا كانوا هم الحب لها، وكانت المأوى والنصر.

فمن حق المدينة عليّ أن أكتب ذكرياتي عما شاهدت، وما عرفت، وكيف رأيت من أحوال وأحداث وما عرفت من رجال. ولن أقتصر في ذلك على الثناء والاطراء، بل من حق المدينة أن لا يدفن تاريخ الذين أساءوا إليها، والذين أجحفوا بها، حتى أنهم قد نزعوا من





صورة فخري باشا

أنفسهم الحرمة لأرض الاحترام. فهل هناك مسلم ليست عليه بصمة المدينة المنورة، هداية ونصراً وعلماً وأدباً؟ . فكيف تسنى لإنسان أن يلطخ هذه البصمة، يحيل الغرة البيضاء إلى لطخة سوداء؟!

كل هذا أرجوا أن أوفق لكتابته في فصول متعددة عن المدينة ومن إليها وما إليها، وفاء بحقها، وحياة لبعض التاريخ، وتاريخاً لحياة من عاشوا للمدينة، ومن لم يعيشوا إلا على هامشها، فاخرين بأنهم الأبناء ومادروا أنهم لم يفعلوا وفاء الأبناء.

وهذه الذكريات تباطأت أن أكتبها، فحق علي اللوم والعتاب من الصحاب والأصدقاء، إذا ما سمعوا حديثاً تحدثت به إليهم قالوا. . اكتب. لماذا لا تكتب؟ بعضهم خطأني وبعضهم جرمني ولئن اعتذرت عن الخطأ في وقت ما فإني شاكر هذا التأخر، لأني لو كتبت من قبل لذهب الكثير مما أنا قد أحطت به علماً وفقها وفهما.

فالبركة أن تأخرت، وما أحسن أن أرفع الخطأ وأرفع الجريمة، أبدأ أكتب هذه الذكريات

جغرفة المدينــة

المدينة المنورة روضة، غدير كبير، مجمع أبقعة. فالروضة والغدير وبقيع الغرقد وبقيع الخيل، كل هذا لأنها قد حصرت من الجنوب بالحرة المستعرضة، ومن الشرق بذراع الحرة «حرة قريظة»، ومن الغرب الذراع الأيسر «حرة واقم». أما الشمال فالانسياح حتى أجد وحتى الغابة.

إن هذا الحصر للروضة، أعني الغدير. أما المدينة المتسعة فهي أعرض وأكبر من ذلك، . فبعد الحرة شرقاً تمتد، وبعد الحرة غرباً لا تحد، وشمالاً لها المدد. أما الجنوب فهو متسع لها وإن هذه الجغرفة كانت هي الحافظ للمدينة المنورة، فهي لا تغرى من الجنوب، لأن الخيل والجمال ليس لها مجال على الحرة ميداناً يصلح لحرب. وكذلك من الشرق مثل الجنوب. ومن الغرب أيضاً، وبرهان ذلك أن غزوة أحد كانت في الشمال، أي في المتسع حيث لا حاجز. وغزوة الأحزاب حدد النبي ﷺ مكانها، هو وجيشه بين الخندق و «سلع» في شمال المدينة الأقرب إلى غرب المدينة الأبعد، فاضطر المشركون أن يكونوا في مواجهة الخندق، فإذا هم في ملتقى العقيق يبطحان وقناة. أي كما قال المؤرخون «ونزل المشركون في زغاب مجمع الأسيال برومة»، في مواجهة الجيش المسلم. ونزلت غطفان بقيادة عيينة بن حصن الفزاري في أعلى العيون بين أحد ومجمع الأسيال.

إن المدينة المنورة تحاط بوديان ثلاثة، بطحان «رانوناء» يمر وسطها، يسيل من أعلى الحرة، مسياله الآن بين قبا وقربان. ووادي العقيق غرب المدينة، يعانق الحرة الجنوبية، يمر بينها وبين جبل «عَيْر» ينساب إلى وجهته بين الجماء وحرة واقم. ووادي قناة يسيل من شرق المدينة يملأ «العاقول» الغدير البحيرة، يمر بين أحد والحزوم التي تشرف عليه.

فهذه الوديان الثلاثة تجتمع في «زغابة» تسيل واديا متحداً، عندها يصبح اسمه وادي الحوش[1]، يسيل إلى الغابة، يأخذ روافده من شعاب أحد، ثور ونقمى، حتى يجانب رضوى، يمر بين خيفين من خيوف ينبع النخل «المبارك» و «البركة»، حتى يصب في البحر. فقد ذكروا أنه حول «الوجه».

فهل هذه الجغرفة، بالنسبة للوديان، لها فائدة علمية، أم إنها ما تزال ناقصة؟ لا أعرف مسيلها الأول، ولا الشعاب التي تمدها، لو سئلت عن مسيل قناة الأول لما عرفت، وعن مسيل العقيق لما أجبت، كما هو الوضع في كل الوديان.

ولقد بح صوتي وأنا أطالب الجامعات ووزارة الزراعة والمياه أن تجغرف لنا الوديان والجبال والواحات وما إليها في أطالس ننتفع بها. ولعل عند وزارة البترول والثروة المعدنية ووزارة المواصلات المادة العلمية من خلال الكشوف التي قاموا بها حين صوروا الأرض بالطائرات.

مدينة . . أم مدائن؟!

اسمها مدينة واحدة، ولكن وضعها جعلها عدة مدن. اختلاف السكان، الفصام بين السكان، كل ذلك جعل الساحة وذاروان وحارة الأغوات ومقعد بني حسين وسويقة، والمسجد داخل السور، كأنها مدينة وحدها.

وكأنما السور حجز الذين عاشوا داخله في هذه الحارات على طراز معيشي ولهجة خاصة ونوازع ملتزمة وعنعنات فاخرة، بل وحتى أنواع الآكال جعلتها مدينة مستقلة.

واتسعت المدينة خارج السور، فقد كان هناك التزام ألا يقام في المناخة بناء، حتى أن سوق الحبابة والتمارة والطباخة والبقالة وبعض المقاهي وعشة المحتسب (البلدية)، كلها لم تقم على بنـاء من المدر يفرض له الثبات، بل أقيمت كلها على عشش وصناديق يمكن إزالتها. وجمعت كلها في مناخ واحد خارج السور أمام الباب المصري لا تمتد إلى الشمال، وكل امتدادها إلى الجنوب، بل ولا تمتد إلا قريباً من مسجد المصلى «مسجد الغمامة»، فبقيت المناخة سوحاً، مقراً لجمال الحجيج والشقادف وما إلى ذلك. وكان ذلك احتراماً للمناخة، لأنهم قالوا لنا إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد جعلها وقفاً، منع البناء فيها.

واتسعت المدينـة فإذا البنـاء يتسع لأحوشة، في الجنوب المحمودية، حوش منصور، المراكشية، التاجوري، التاجورية، كلها في الجنوب لا تصل إلى المناخة، وخارج السور في الجنوب على السمت المنظم نشأت البربورية وأحوشة النخاولة. وكان لوقاية هذه الأحوشة في الجنوب أن تقام حواجز لسيل بطحان «أبو جيدة»، فهذا السيل أو هذا الوادي كثيراً ما يأتي عرماً، وكان تسيله يطأ هذه الأحوشة التي في الجنوب الغربي ابتداء من حوش منصور إلى التاجور والتاجورية، وأول ما يطأ المحمودية والمراكشية والطيبية.

وأقيمت تلال من الجص تصد السيل لئلا يطأ هذه الأحوشة، والذي أقام هذه التلال من الجص كان جيدة جد آل برادة، ولعلي أضيف معلومة أن بيت برادة أسرة قديمة في المدينة هاجروا إليها من القيروان؛ وكان منهم علماء، ومنهم أصحاب قيم في المدينة المنورة، من أشهرهم عبد الجليل برادة العالم وعباس برادة أحد أشياخ المدينة وكان رأساً على «الوجاق» الرابع وسيأتي فصل خاص عن هذه الوجاقات.

وحين أقيمت هذه التلال تصد السيل انساح في مجراه الجديد بين المشرفية وهذه التلال وبـين صمـد العنـبرية «النقا» وبين مسجد الغمامة، يسيل حتى يصل إلى المساجد مجراه الطبيعي الأول.

ومعنى ذلـك أن الأحـوشـة في جنوب المدينة المنورة قد حفظت من وطأة السيل، كما حفـظت المناخة والأحوشة التي في الشمال الغربي لأن مجراه الأول يطأ بقيع الخيل، كأنما المناخة أولها بقيع الخيل.

وهنـاك خطأ عن بقيع الخيل، ففي بعض النصـوص أن مسجد الغمامة «المصلى» هو بجـانب البقيع، فحسب بعضهم أن مسجـد الغـمامة في شرق المدينة أي بجانب بقيع الغرقد. وهذا خطأ، فهو على الشرق من بقيع الخيل.

وحين تحاشوا البناء وسط المناخة بنى أعيان من المدينة المنورة خارج السور وعلى غرب المناخة بيوتاً لهم، كبيت البري على حافة النقا «العنبرية» وبيت الياس وبيت الكردي الكوراني والداغستاني وإبراهيم المفتي، بنوا بيوتهم على حافة المناخة، وكان هذا أول ما بنى خارج السور لأن هؤلاء الأعيان من سكان المدينة الأقدمين.

واتسع البناء مرة أخرى، فنحو الغرب كانت أحوشة العنبرية، حوش سنان (شنان) وقصر مراد باشا الذي تهدم وحوش مناع وأبو ذراع والسلطانية، سواء ما كان على النقا أو ما بني غرب سيل أبو جيدة.

وابتنوا بيوتاً أيضاً على حافة السيل فيما يسمى النورية، امتداداً لبيوت السيح، ثم بنى زقاق الطيار، حوش قره باش (الرأس الأسود)، حوش وردة، حوش خير الله، حوش قمر، حوش شلبية، حوش هتيم. ، حوش السمان، أم الورد، المجزرة.

واتسعت المدينة من الشمال الغربي فكان حوش خميس، القشاشي، الصديقي (علي خضر)، حوش السيد.

وكانت هذه الأحوشة امتداداً لزقاق جعفر والبيوت التي حولها.

وبعد وصول السكة الحديد وكثرة المهاجرين اضطر بصري باشا إلى فتح الباب المسمى باسمه يهدم السور ويفتح الباب ليتصل سكان باب المجيدي والسحيمي عن طريق يمرون من الساحة أو من زقاق الحبس ليخرجوا من هذا الباب وليدخلوا منه. لأن البناء ابتدأ في باب المجيدي، فبنيت بيوت كثيرة.

وقبل باب بصري، وحين ابتدأ السلطان عبد المجيد العثماني بعمارة المسجد النبوي الذي تمثل عمارته ما هو باعد الآن ابتداءً من باب الرحمة وباب جبريل إلى المحراب والروضة وباب السلام، فالبناء الجديد في العهد السعودي هو من شمال باب الرحمة شيل الحصوة وما بعدها إلى الشمال.

ولكي تصل مواد العمارة في العهد الثاني ـ إلى المسجد فتح باب المجيدي من داخل السور قبل باب بصري.

من هنا بنى عثمان باشا بيوتا باسمه، قام على بنائها وكيل عنه محمد حكيم واتسع البناء حول بئر «حاء» أول وقف خيري في الإسلام أوقفها صاحب رسول الله ﷺ أبو طلحة.

هذا الاتساع جاء من كثرة المهاجرين الذين بنوا هذه البيوت، مغاربة وتركستانيين وأناضوليين ومصريين ونجديين. ويعني ذلك أنهم جاءوا بمال، هاجروا من أرضهم بأموالهم فافتنوا وبنو. أما الأفارقة السمر ونسميهم في المدينة «التكارنة»، وهذه اللفظة محرفة عن لفظة

«دُكرور»، فالعرب الأوائل يطلقون على إفريقيا «أرض دكرور»، وانحرفوا عن هذه اللفظة في مصر فكانوا يسمونهم أخذا من لغة الفرنجة «نيقرو»، فقد هاجر من هؤلاء الأفارقة إلى المدينة كثيرون جاءوا للحج فسكنوا المدينة وكان لهم صولة تحت زعامة الشيخ الألفاهاشم، لأنه حفظ بقاءهم في المدينة لا يخرجهم فخري باشا منها، فتم للالفاهاشم الفوز حين رضي فخري باشا أن جعل هؤلاء «التكارنة» جنوداً دربوا فكان منهم ضباط كبار. كما أنهم بقوا جنوداً في حكم الأشراف حتى أصبحوا هم الحراس لأمير المدينة الشريف علي بن الحسين.

إن هذا التنوع في سكان المدينة له ما بعده فيما يتم شرحه في الفصول التالية.

الأحواش

ولعل من الجغرفة للمدينة المنورة أن نحيط القارىء بما تم من سعة لها وذلك حينما أضع أمامه اسم الحوش ولماذا بنى.. وما أكثر عددها.. حين كانت المخافة مسلطة من البادية على الحاضرة وأحيطت المدينة الأولى بالسور بنوا بيوتهم داخل أحواش، خلف البيوت سور وواجهة البيوت على الحوش، فالمدينة داخل السور لم تخل من الأحوشة حذراً واحتياطاً وصوناً.. فبداخل السور وعلى أول الساحة حوش الباشا، ولعل نسبته كما سمعت إلى عبد الرحمن الياس.. وأكثر سكانه من أهل القصيم... ثم حوش فواز وسقيفة الأمير وزقاق الطوال وزقاق الحبس وحوش الجمال.. وبعد الخروج من الساحة جنوباً بشهان العينية، وقد كان مغلقاً داخل السور ولكن فتحه فخري باشا ينصب في وسطه قضبان السكة الحديد.. يدخل منها القطار إلى المسجد.. يحمل السلاح والذخيرة، أي أن فخري باشا جعل المسجد النبوي مستودعاً للذخيرة لأنه يخاف من طائرات الإنجليز حلفاء العرب حينذاك أن تلقي قنابلها على القلعة، فكان من حماقة الرأي أن جعل المسجد النبوي أي في شماله مستودعاً للذخيرة.. وهو لم يحسب حساباً أن قائد الطائرة الإنجليزي إذا ما أراد أن يدمر الذخيرة لا يسأل عن المسجد. وبعد العينية سقيفة الرصاص، زقاق الزرندي، زقاق الخياطين، ثم إلى الجنوب «بروان» أي «زاروان» لأن البيوت بنيت وبقى هذا الاسم لأنه كان يطلق على بئر زاروان جنوب البيوت وعلى طريق باب العوالي.. وكانت خلف البيوت بئر زاروان التي تحدثوا أن الساحرة اليهودية دفنت السحر فيها.. غابت عنها عصمة الله لرسوله ﷺ وتأتي بعد ذلك حارة الأغوات كأنها مدينة وحدها وهي شرق المسجد وفيها بيت أبو أيوب الأنصاري وغازي باشا والشعاب أبو الجود والغالي ثم باب المسجد المجيدي وباب السور المجيدي وعلى زقاق البدور بنيت المدرسة الإعدادية وبيت الشيخ العزيز ابن الوزير وبيت الرفاعي. وفي داخل «جوا» المدينة.. السوق، الشونة مقعد بنى حسين، كلها أزقة وأحوشة كفلت الحماية، وفي حلقة ثانية الأحواش خارج السور.

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (٢)

جغرفة الانسان بعد جغرفة المكان



والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

وجغرفة المدينة عن طبيعة الأرض سبق ذكرها، وبقيت علينا جغرفة السكان والمجتمع، فمن العجيب أن تكون مدينة واحدة يعرف سكانها كل سكانها يتقابلون أو يتزاورون، فتجد الأفندي من الذين هم داخل السور، يختلف عن أكثر الذين هم خارج السور، لا يتفقون على لباس واحد، فالذين هم من داخل السور يتزيون بالجبة والعمامة والحزام الثمين والرقيق، كأنه جزء من (الشاية)، وأحذيتهم غير أحذية أولئك، جوالد وجزم، ماكانت تستورد لأن في ، المدينة صناع الجزم (الكندرجية) (عارف جمال سعيد افندي . . وغيرهما)، أما الذين خارج المدينة فإن لباسهم يختلف أيضاً فسكان حوش الباشا وأكثر السكان في شمال غرب المدينة أو في شمالها يتزيون بالعقال المقصب صناعة محمد القين والأشمغة والغتر، سواء كانت من الشاش أو من الغباني المطرز بالحرير الخفيف، أما غرب المدينة (زقاق الطيار) والسيح والعنبرية) فيحتزمون بالكشميري أو الدسماك، والتياهون يحتزمون بالسليمي ويعتمون بالبر يسمى الأحمر من الحرير، وأحذيتهم من صنع النجديين سواء من يصنعها

داخل المدينة أو من يستوردها من بريدة يطلقون عليها (الشرقية)، لأنهم يطلقون على نجد اسم الشرق، وعلى سكان المدينة من هؤلاء اسم «الشروق»، وأما جنوب المدينة فمشالح وعمائم من الشيلان، وهذا في الأكثر، وكما اختلفوا في الأزياء، اختلفوا في الآكال، داخل السور الخضروات والمحاشي والكنائف و اللقيمات والمشويات.. ونسينا سكان باب المجيدي فأزياؤهم تختلف والآكال مغربية (الكسكوسه وكعب الغزال ولحم بين نارين) وآكال تركية أشبه ماتكون بآكال الأفندية داخل السور، ثم الآكال التركستانية الرز البخاري واليغمش والشوشورة والفرموزة.. الخ، فالتركستانيون من بخاري وطاشكند وانديجان كانوا أهل ثروة بنوا بيوتاً كالمغاربة كبعض الهنود، فلم نعرف في أيامنا الأولى التنور والتميز لأنهم لا يحتاجون إلى هذه المهنة، ولأن كل بيت في المدينة يعجن دقيقه حتى يختمر ثم يصنعونه أقراصاً يخبز في الأفران، والأجرة للفران (حنانه) قرص صغير..

ويخضعني هذا إلى أن أجدول ساكن المدينة بالألقاب التي يحملها، ترك من الأناضول. تركستان من تركستان. مغاربة. نجديون من القصيم الذين كان منهم عقيل وهو جيش قوة للحكومة، أو تجار يبيعون المشالح والدخان العمايدي حتى المضير والعطور والعود. وصعايدة، كثروا أغلبهم من أسيوط ومن قنا، وإن كان بعضهم من الفيوم يعدون من جملة الصعايدة، ثم السادة العلوية جمل الليل والصافي وبافقيه والحبشي والجفري والسقاف ومن إليهم، النخاولة في حوش السيد أو في الزقاق المعروف باسمهم أو في العوالي وقربان وقباء والعيون فهم النخليون يعملون بالفلاحة، وداخل المدينة يعملون جزارين وخضرية..

لعلي أنكر العيب عليهم كسلوك وإن كانوا بالاسم شيعة، من الشيعة الإمامية ولعل الكثير لا يعرفون أن المدينة وما حولها كانت بيت التشيع أيام جعفر الصادق وأخيه إسماعيل وابن عمه عبد الله المحض وابنه محمد (زكي الدين) الذي قتله المنصور عباسياً قتل العلوي، يعني هاشمي. فبنو أمية لم يقتلوا إلا اثنين الحسين وحفيده زيد، أما العباسيون أبناء العم القريب فقد أسرفوا في قتل بني عمهم، شهوة السلطان والدفاع عن السلطان..

فالمدينة عدة مدن وعدة أجناس، ومن عجب أن (التكارنة) تأقلموا فيها، وأكثر الآخرين لم يتأقلموا إلا بعد حين، إن الذين اتسع بهم البناء هم المهاجرون إلى المدينة، حتى أن وادي مشعط (باب المجيدي) كان أهل المدينة الأوائل يبتعدون عنه ولكن اتساع الهجرة اتسع به البناء، فالمغاربة والأتراك وغيرهم بنوا في وادي مشعط، ونعود إلى الأحوشة خارج السور بعد، في الشمال الغربي على الحزم دون سلع (حوش خميس، القشاشي، الصديقي، حوش السيد، حوش الرشيدي) كما أن بعضهم استغل بعض الأمن فبنوا تحت سفح الجبل أو في شرق الجبل على الهضبة الضرس من سلع، كبيت توفيق عبد المطلب وبيت السيد علوي

المنفلوطي وبيوت أخرى كبيت الداغستاني حسن ثم بيوت العطن وفي شرق الطريق من باب الشامي بنوا بيوتاً أشهرها بيت سليم (مصطفى) ثم بيت الجلوني، إن بيت سليم كان خارج باب الشامي على طريق التمار وشمال سقيفة بني ساعدة وغرب باب المجيدي، سكنه في آخر أيام بصري باشا وأول أيام فخري باشا الشريف علي بن الحسين وأخوه الشريف فيصل، وقد كانا يعدان للثورة مع بعض قبائل المدينة ومع أهل العوالي أشراف بني حسين، وغريب أن أعرف ذلك ولما أبلغ العاشرة من عمري ولم يعرفه فخري باشا. . وللحديث صلة. .

ومن الغريب أن الحضرميين كانوا في مكة وجدة ولم يكن منهم أحد في المدينة، أعني من غير السادة العلوية، طوال مدة الأتراك ولكن أيام حكم الأشراف وجدنا ثلاثة من الحضارمة، بادرب. . باظبي. . باعامر الفوال، ذلك أن أهل المدينة ليسوا في حاجة إلى هؤلاء، وهؤلاء يسكنون البلد الذي هو في حاجة إليهم، أو الذي يستطيعون فيه ممارسة البيع والشراء، وما أكثرهم في جدة ومكة، فأصبحوا من خير أهلها، تأقلموا وأقلموا. .

الأحوشة

وذكرنا الأحوشة داخل السور، ولنذكر عددا منها خارج السور، في شمال غرب المدنية على الحزم من باب الكومة ودون سلع، حوش خميس حوش القشاشي وسكانهما عرب من قبائل شتا، بيت الجيار، الصرير، ابن مطلق، ابن فضلون، ثم حوش الرشيدي، قالوا إنه ملك البرادعي الجهيني، وقد خلا من السكان، ويقابل هذه الأحوشة، حوش الصديقي، أو هو على خضرة ومن أبرز سكانه محمد القين ورشوان، وبعده إلى الغرب الحوش المستقل بذاته حوش السيد، سكانه ينسبون أنفسهم إلى مزينة، وهم نخليون كان أنظف الأحوشة لأنه لا تدخله الحيوانات فهو نظيف يرش بالماء، وفي الليل يجتمع الرجال في وسط الحوش والنساء أمهات وبنات يجتمعن بعيداً عن الرجال يتغنين بالرجيعي، يضربن الدفوف، طيران لا تستورد فهم يصنعونها ومن الطرف الظريفة أن شاعر المدينة وهو في مكان الرئاسة ومن سكان زقاق جعفر يخرج إلى هذا الحوش ومعه الأستاذ أحمد عابد الشاعر أيضاً التابع للأفندي أنور والتلميذ له، يخرجان سوياً يدخلان حوش السيد، يجلسان وحدهما بعيداً عن النساء قريباً من الرجال ليسمع الأفندي أنور الغناء إنه ابن العقيق عامل الوراثة فيه قوي، وسمع مره مطلع هذه الأغنية (ياسيد. . ياللي ساقك يشبه الماء. . ويش أسوي كيف يخرج الماء من الماء) فأطربه هذا المعنى، يقول لأحمد عابد ما أحسن أن ينظم في قصيدة، وقال أحمد عابد يذكرنا هذا بقول الشاعر:

صاح في العاشقين يالكنانة رشأ في الجفون منه كنانه
بدوي بدأت لواحظ خديه فكانت فتاكة فتانه
خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمي بنانه

وتأتي الأحوشة الأخرى زقاق جعفر في حوش العبيد ثم أحوشه زقاق الطيار حوش كرباش. خير الله، قمر، وردة، الجربي، الرشايدة، شلبية، السمان، فسيح، العريضة، والقماش، أما العنبرية فحوش سنان، أبو جمر، الراعي، أبو دراع، مناع، ولعلي نسيت بعضها، ثم جنوب المدينة حوش منصور المراكشية، المحمودية، الطيبية، الجديدة التاجور، والتاجورية، والبربورية، إن هذه الأحوشة بناها الحذر والخوف كل حوش كأنه حصن والسكان لديهم البنادق لأن حرمة المدينة كان يهتك الخصام بين البادية والحاضرة، وبناء السور ماكان إلا حرزاً وعن خوف، الأبواب تغلق في الليل وسمع الرجال مرهف. .

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (٣)

تركة محمد علي باشا في المدينة



محمد على باشا

الإنسان ماله وما عليه . .

ولعلي أتـرك الذكريات عن الأرض جغرفة، لأكتب عن إنسانها ساكنها ومن حولها، كيف كانـوا يعيشـون الانفصـام مع الحاكم والخصام مع البادية التي حولهم . . ومن هو صانع ذلك ؟!

كم هي حرمة المدينة المنورة عظيمة في نفس المسلم . . عظيمة في صفحات التاريخ، سواء كان التاريخ المسلم أو التاريخ الآخر . . هي دار الهجرة . . هي الدار والإيمان (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها)، فهذه القيمة للمدينة المنورة كيف يتأتى أو يجوز لعربي مسلم صاحب سلطان، أو صانع فتنة، أن يهتك حرمتها؟ حتى لا يصح لي أن أقول ما من بلد أعطى عطاءها، إيواءاً ونصراً . . وعلماً وفقهاً، كأنما هي ومكة المكرمة الحرز الحريز والذخر السرمدي لهذه الأرض جزيرة العرب كلها، بل وللمسلمين كلهم في أي مكان، أقول ما من بلد هتكت حرمته الفتن، كالمدينة المنورة ومن عجب، أن الهاتك لحرمتها وصانع الفتنة فيها وعليها كلهم من بنيها، لم يصلها برتغالي ولا صليبي ولا تتري ولا استعماري، إنما الذي قطع وصلها وكاد يمزق أوصالها والذي عقّ اتصالها ما كان إلا من بنيها!! السلطان في أمية فعل ذلك حين انشق عليه بعض أهلها، والسلطان من بني العباس فعل فيها أكثر من أمية، والقبائل حولها انفعلت وتفاعلت فإذا هي تفعل ما ينكره إيمانها وما يجفوه احترامها.

وملوك الطوائف، وحتى بني عثمان والفاطميين والمماليك كانوا يفخرون بها ويتأخرون عن

نجدتها، لا من عدو أجنبي، وإنما هو العدوان من أهلها على أهلها، لقد سرقت الحجرة أكثر من مرة ونهبت أسواق المدينة أكثر من مرة، كل ذلك فعله عجز الحاكم هاشمياً علوياً وحمازياً، كل ذلك فعله القبلي حولها، لم يتألفوه ولم يألفهم، يتأخر عن غزوها إذا ربّعت الأرض، حتى إذا جاع جاء نهّاباً.

فالقبائل غرب المدينة، قلّ أن تفعل ذلك، أما من كان شمالها فقد فعل بعض ذلك، وأما من كان شرقها فقد فعل كل ذلك، ومن الغرابة بمكان أن السلطان في مكة أو في المدينة كان صاحب فلسفة يزعم أن شراسة القبائل بينها وبين الحاضرة، مانع لطمع الأجنبي، يعني أن السلطان يخيف ملوك الطوائف حتى وصل به الأمر إلى أن يعتقد أن هذا الوضع وضع الفتن، وحرب القبائل هو الذي أخاف الاستعمار أن يصل إليها.. وما درى أن صلاح الدين الكردي الشامي المصري، والعراقي قبل ذلك هو الذي حمى الحرمين من الصليبي، وأن الملك المظفر قطز، الملك مرتين والعبد مرتين هو الذي حماها من التتار، طوعهم لذلك حماية الله للحرمين، شراسة القبائل وحربها لا تخيف الأقوياء من الغزاة، وإنما هي حماية الله قبل بينها حماة المسلمين خافهم المستعمر فلم يجرؤ على أن يصل إلى الحرمين.

لكن هذه الفلسفة السلطانية، كانت من العجز بمكان.

واستشرت الفتن، كل يوم نهّاب، كل يوم سالب، فإذا السور يُبْنَى، يحيط داخل المدينة والمسجد، يحجز النهابين والسالبين، إنهم بنوها هم الذين حين جاروا عليها جاروا على أنفسهم فإذا هم مزق تبدل الأسماء حتى أصبح النسب الجد يترك ليكون النسب الخلف. مقدمةطرحتها لأكتب عن تركة محمد علي.

تركة محمد علي

ولعل بعض أولئك من الناس ينكرون عليّ الرضا والثناء على مانحن فيه الآن مع أنهم لو ذاقوا ما ذقناه، ولو كانوا من جيل الحمد، جيل التجربة نحن، لفرحوا بالرضا ولكان عملهم، تحت راية هذا الكيان الكبير ثناء لا بالكلام وإنما بالوئام تضيء على وجوههم بصمة الكيان الكبير، لتذهب وصمة الفرقة والتنابذ بالألقاب والتنافس بالغارات.

لقد ترك محمد علي خديوي مصر، تركة أثقلت كاهل الحجاز كله.

وكان ثقلها على المدينة المنورة أكثر.. كيف كان ذلك؟ كان ذلك على صورتين:

١ ـ لقد ورثت المدينة عن حكم محمد علي بعض ما لم تستطع إزالته كالمخزن والأردب والوجاق.

٢ ـ الإتاوات والخضارات التي خلفها وراءه للقبيل الذي نصره.

فالمخزن خمسة عشر ذراعاً في خمسة أذرع بالمقاس البلدي وهو بالمقاس المصري ستة أمتار في سبعة أمتار، يعني أن مساحة المخزن اثنان واربعون متراً مربعاً، بينما هو بالمقاس البلدي خمسة وسبعون ذراعاً مربعاً، فالمقاس المصري هو أن المخزن يساوي واحداً من مائة من الفدان، يعني أن مائة مخزن سطحاً واحداً تساوى مساحة الفدان التي هي (ستون متراً في سبعين متراً) وقد بقى هذا المقاس، فإذا الأرض تباع في المخزن.

أما الأردب فاسم مصري أيضاً يختلف في المدينة عنه في مصر، فالأردب المصري ثمانية عشر مداً، أي أن المد ست أوقات، أما الأردب المديني فأربعة وعشرون مداً، وهذا الخلاف بين الأردبين عملية لقسمة الجراية (وهي أرادب من القمح حبسها وقفاً رجال أرادوا الإحسان إلى المدينة) إن الثمانية عشر مدا احتالوا بها بالوفر حيث جعلوا الأردب المصري أربعة وعشرين مداً مدنياً، فالستة أمداد في الفرق، كم تكون النتيجة في أكثر من عشرين ألف أردب؟ وفر كسرقة، ومع هذا فأرداب الجراية لا تصل إلى المدينة أو مكة إلا وقد سرق منها الأمناء عليها يقصبون بالقصبة كيس الحنطة يخرجون القمح ويضعون مكان ما سرقوا رملاً، واكتشف الحاكم ذلك فغيروا الأمين إلى أمين، وأصبح كما تقول العامة (مثل أخيك مثل عنبر تحله) يعني كلهم على ذلك.

أما الوجاق فلا أعرف ترجمته إلى العربية، وفاتني أن أستعين بالأستاذ عزيز ضياء ليترجمه لي ولعله حين يقرأ هذه الذكريات يتلفن إليّ بالترجمة أكتبها بعد، إن الوجاق الذي أعرفه هو موقد النار في هجرة العربي الذي يصب فيه القهوة للضيوف، يقول السيد لخادمه أو لابنه (شب النار في الوجاق) وفي نجد يسمون هذا الموقد «الصلل» فهل صلالة العمانية من ذلك لا أدري . .

إن محمد علي الخديوي أسس في المدينة من لهم حكم الزعماء، فكانت وجاقات أربعة . . السباهية، يعني الخيالة، لحمزة ظافر أولاً ثم سعود دشيشه ثانياً تنضم إليه بيوت من المدينة . . ظافر الدشيشة خوج وغيرهم . . ، والقلعجية، انتهت إلى عباس قمقمجي، يعني حماة القلعة، والنوباتشية حماة الأبواب انتهت إلى عباس برادة، والبيرقدارية يعني أصحاب البيرق (العلم أو البنديرة أو الراية) وانتهت إلى محمد سعيد حواله، فقد كان هؤلاء وبيت البرى والكردي الكوارني وبيت عباس والنحاس هم أكثر تقادماً في المدينة المنورة، فكانت لهم هذه الوظائف، كما أحدث وظيفة (باب عرب) انتهت لدياب ناصر، وهو الذي ينتهي إليه أمر القبائل العربية، إذا ما اختلفوا يحكّمونه.

كل هذا كان في المدينة من تركة محمد علي، وحين بسط العثمانيون سلطانهم على المدينة، فبسط السيد أحمد أسعد نفوذه عليها بل إن نفوذ أحمد أسعد قد انتشر على الحجاز كله،

فالشريف عون كان به وعمر نصيف كان له، فاستأخرت البيوت القديمة فأصبح النفوذ للذين كانوا للسيد أحمد أسعد، بل إن نفوذ أحمد أسعد قد استحوذ على الخديوي إسماعيل، ودعوني أترك ذلك لتفصيل أتوسع فيه، أما فيما يخص الأمن داخل المدينة فإن الباشا سواء كان عثمانياً أو مصرياً فهم لا يتحركون إلا ونفوذ السيد أحمد أسعد أمامهم لأنه كان ذا حظوة عند السلطان عبد الحميد.

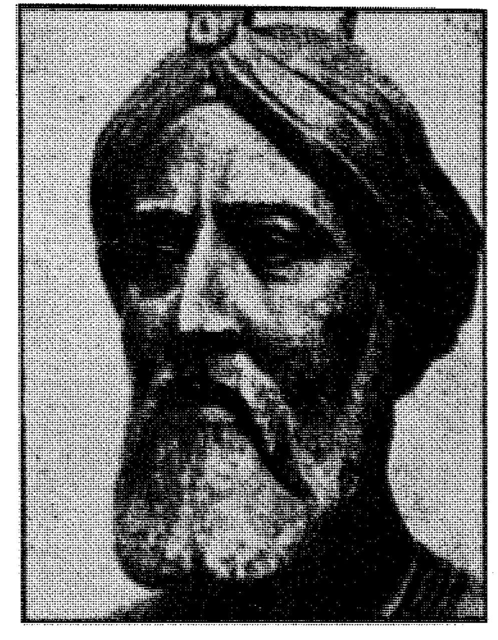
من هنا اتسع الخصام بين بيوت المدينة الجديدة بنفوذ السيد أحمد أسعد والقديم الراسخ لما ورث، حتى أن ترحيل بعض أشياخ المدينة من بيت البرى والداغستاني ومن إليهم، كان من عمل الباشا مسخراً بهذه الخصومة، أمسك بهم فنفاهم إلى الطائف، ومن المصادفات الغريبة أن يكون نفيهم إلى الطائف مواكباً لنفي مدحت باشا الذي مات بالطائف ودفن أمام باب الريع، حتى إذا عنّ لمصطفى كمال أن ينبش قبر مدحت لينقلوا رفاته إلى تركيا وجاء وفد أذن لهم الملك عبد العزيز بذلك، لم يعرف قبر مدحت إلا الصديقان محمد خوجه، وأخوه كمال خوجه دلوا الوفد التركي فنبشوا القبر وحملوا الرفات، تقاليد لا يقرها الإسلام.

أما أهل المدينة فقد وصلوا إلى جدة ورغم أن نصيف كان نصيراً لأحمد أسعد لم تعبأ جدة بهذا الموقف فأغلقوا الحوانيت وأبدوا الحزن، فإذا آباؤنا في المدينة يحمدون لأهل جدة ذلك حتى ترسخ الحب بينهم، وحين مروا بمكة المكرمة لم يعبأ بهم الشريف عون فمروا لا يرون حزناً على أحد ومكثوا في الطائف حتى إذا سقط السلطان عبد الحميد أطلقوا سراحهم فإذا الأعيان من أهل الطائف بيت كمال والقاضي عرب ومن إليهم يفتحون أبوابهم، الغداء عند هؤلاء والعشاء عند هؤلاء والكرامة عند هؤلاء فإذا آباؤنا في المدينة يحمدون لأهل الطائف صنيعهم الجميل.

وانتهى عصر عبد الحميد فانكمش نفوذ أحمد أسعد، وانتهى عصر عون، ومات عمر نصيف فإذا الاتحاديون الذين ثاروا على السلطان عبد الحميد يتغير بهم الكثير في الحجاز. .

الاتحاديون

ثاروا على السلطان عبد الحميد، شعارهم كان مقتبسا من الثورة الفرنسية، وهو (حريات . . عدالات . . مساوات)، ولم يطبق هذا الشعار لأن القومية الطورانية تنافي هذا الشعار، فالعرب أنكروا على الاتحاديين نزعة التتريك، فقد فتحوا في المدينة ثماني عشرة مدرسة، لم تثمر إلا فك الحرف، صنعوها للتتريك، أما المدرسة التي أثمرت، فهي التي أسسها السلطان عبد الحميد في باب المجيدي، ورثناها وكنت أحد تلامذتها، تخرج منها



صلاح الدين الايوبى



الاستاذ عزيز ضياء : معنى الوجاق ؟!

علماء في الرياضة والتاريخ وما إلى ذلك، كما أسست مدرسة سميت دار المعلمين، وكانت في الساحة في بيت اسمه (دار جونة)، كان ملكاً لبيت مظلوم باشا المصري وكان الوكيل عنهم في تأجيره هو أستاذنا السيد أحمد صقر، وهو من أعيان أشراف قنا الجمازيين المخادمة، فهم وأشراف العوالي بنو حسين يتصلون بالجد جماز، حتى إن الشريف (شحاذ بن علي)، زعيم أشراف بني حسن وقائمقام المدينة مدة الأشراف، استنجد بالسيد أحمد صقر، يصنع شجرة النسب لأن الشجرة التي لديهم احترقت يوم هتك فخري باشا العوال، نخلاً وإنساناً.

مدرسة دار المعلمين فيها أعجوبة، لأن السيد أحمد صقر وزين بري كانوا رجالاً، تتلمذوا في المدرسة، وكان السيد محمد صقر طفلاً ابن السيد أحمد تلميذاً في المدرسة نفسها، ومن زملائه الدكتور العالم المصري عبد الحميد بدوي باشا، يوم كان أبوه يعيش في المدينة، لم نعرف ذلك من أهلنا وإنما عرفناه من كلمة الدكتور طه حسين، وهو يقدم عبد الحميد باشا إلى مجمع اللغة، فقد قال طه حسين (لقد حفته بركة المدينة حيث أول ما فك الحرف فيها).

إن الاتحاديين، لم يحرصوا على بقاء الإمبراطورية مزقوها ببقاء المركزية وبالتتريك، إن الثمانية عشرة مدرسة ما نالت التتريك، وإنما كان النوال منها أن المدينة المنورة، قد انمحت منها الأمية، من هنا اتسع المجال لأبنائها، كانوا للاسلكي ولسكة الحديد بين الرياض والأحساء ومشروع الخرج ولوزارة الدفاع والمالية، فما أكثرهم حين عملوا لكل ذلك.


- الباشا . الحاضر الغائب في المدينة
- العدوان في المدينة . . من أهلها على أهلها . .
- مدارس التريك . . محت الأمية في المدينة!


جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز

ولعلي لا أهمل التاريخ، فالذي قاد الانقلاب العثماني زعيم للاتحاديين قبل طلعت باشا وقبل أنور هو محمود شوكت باشا الشركسي العراقي لأنه كان هو وأخوه حكمت سليمان الذي أحدث ثورة في العراق كانوا من موالى داود باشا الذي ثار على السلطان وأسس ملكاً في العراق وصك عملة على أحد وجهيها «يا داود إن جعلناك خليفة في الأرض» وانتصر عليه السلطان حتى إذا أسروه رحلوه إلى المدينة المنورة فبستان الداودية خارج باب الشامي كان باسمه ولا أدري هل الداودية في مكة مثل الداودية بالمدينة أم هو داود آخر.

محمود شوكت استعرق عراقياً عربياً حتى إذا استترك قاد الانقلاب وكان عالماً رياضياً لأنه من سلاح المدفعية، أول ما تعلمنا الرياضة واحتجنا إلى جداول اللغرتمات لم نجد إلا نسخة واحدة عند الأخ محمد نيازي بالتركية مؤلفها محمود شوكت.

الحاكم بلا سلطان

والباشا التركي في المدينة، كان أشبه بالرمز لا يمارس سلطانه ليحفظ الأمن، يسمع بأن إبراهيم ملا من أعيان المدينة قد قتل السيد مالك مدني، من البيت الكبير، وأخوه السيد عبد الله مدني. والأخوة الآخرون والصهر لبيت أسعد والبرزنجي وأزبك والرفاعي، مكّن لهم نفوذاً قوياً. فلماذا لم يقم الباشا العقاب على القاتل؟، لقد عفّ السيد عبد الله مدني والد السيدين عبيد وأمين، أن يلاحق إبراهيم ملا، لا يطلب من الباشا العقاب، ولا يدعو حليفاً من القبائل يأخذ الثأر، عف السيد عبد الله وإخوانه عن ذلك، وأطلق سراح إبراهيم ملا، حتى أن بيت المدني رفضوا قبول الوجاهة وتركوا الأمر لئلا يتسع الشر. وحين مات عبد الله مدني أعلن السيد زين العابدين مدني العفو عن الثأر ليملك إبراهيم ملا الحرية، مع أنه كان محصناً بشجاعته وبحراسة عبيده، ولكن الأمن بالعفو كان فضلاً، قطع دابر الشر، الذي لم يقطعه الباشا، وقتل ولد أبو الجود أحد أبناء الحلواني فأعطوا العاني مدة من

الزمن لا يأخذون الثأر، غير أن ولد أبو الجود هرب إلى خيبر حتى إذا تم العاني ذهب أبوه ليأتي به، وفي ليلة القدوم كان الاحتفال فرحاً في بيت أبي الجود، وكان البكاء في بيت الحلواني، غير أن الحلواني طلب من حليفه صالح الجدي من ولد محمد أن يأخذ الثأر من ولد أبو الجود، فركب الجدي الجبل ضرت من أحد، عرفنا اسمه (شكيم الديب) يعني مشفر الديب، ومر أبو الجود وابنه، هو علي الشداد والابن رديف فإذا صالح الجدي ومن مكمنه يطلق رصاصة يقتل أبا الجود، فإذا الفرح عند أبي الجود حزناً والترح عند الحلواني فرحاً، كل ذلك يجري ولا عمل للباشا، وكان هناك شاب مصري من الفيوم نشأ في المدينة له عضل قوي، وكان شرساً قتل اثنين ومشى بدمهما لم يثأر منه أحد ولم يعاقبه الباشا، وتسلط هذا الفيومي وكان صاحب طاحونة على حسين زيدان والدي، صبر عليه مدة عام وكان الوالد إذا (عزّل) الدكان يذهب إلى المسجد لصلاة المغرب، فإذا الشرير يثير الوالد بكلمة (زيدان. . حوش النبوت من كم الزعبوط)، يعيره بلغة الصعيد، صبر والدي عليه سنة، وفي ذلك اليوم صعد الوالد إلى العوالي ليقبض ثمن ما ابتاعه أصدقاؤه من مطير، وكان مروره على البربورية، فإذا هذا الولد يرفع صوته بالمعايرة فقال له أبي: (دحين أرجعلك) وقبض ثمن البضاعة ومر على شجرة إثل، قطع عوداً منها طوله باع ثقيل، لأنه أخضر فوضعه وراء ظهره وأقبل على هذا المعيّر، ويداه خاليتان، فالعصا وراء ظهره دفع نفسه قليلاً عليه ليتحرش به فنهض المعيّر يسل خنجراً يريد أن يطعن حسين زيدان، فتأخر الوالد قليلاً وكان ذا عضل وقوة وسحب الأثلة يضربه على يده يكسر ذراعه يسقط الخنجر، وكان له ضربة ثانية ألقته صريعاً وجاء الناس (ليش . . ليش) قال: كاد يطعنني بالخنجر فالتقطت العصا مصادفة أدافع عن نفسي، كل هذا يجري ولا شأن للباشا به وما أكثر ما وقع من ذلك.

وحكاية عن إبراهيم ملا يرحمه الله، فقد كان من المطاليب على الرغم من أنه من أسرة أفندية عشراؤه حمزة لبان والسحلول وصالح النانية وعبد المعين كعكي وعيد بنا وحسين عامر، كان من المشاكلة وصادف أن سال العقيق وخرج والدي ومعه ابن عم لنا اسمه سيد كرام يذهبان إلى العقيق كأنما أبناء النيل أحبوا أن يروا صورته في سيل العقيق، وفي وسط حرّة واقم. أقبل إبراهيم ملا وبيده الشون ومعه صديقة الشهاوي وإذا إبراهيم ملا يكرش العصا في الأرض يتحدى وكان أبي معه عصاة (شون مزقرة) أي معصبة بجلد في آخرها، فقال أبي لسيد كرام (أشغل الشهاوي وأنا لإبراهيم)، وكان أبي رجلاً طوالاً قوي العضل والقلب وأخذا يتقاشعان يلعبان بالعصى، وكان الطول مكّن والدي من أن يهزم ملا، أطار العصاة من يده فإذا إبراهيم ملا يقول جدع يا حسين. . يتعانقان. .

ولكن الباشا وبحزم بيت الكماخى أنزل العقاب بخادم الكماخى وهو من التركستان قتل أسرة من بيت الكماخي، اغتالهم، فإذا الأب والأم والأطفال هلكوا حين اغتالهم هذا الخادم، وعلم الشيخ أحمد كماخي، أحد أفاضل المدينة وقضاتها فأصر علي بصري باشا بالتفتيش عن المغتال. . فتشوا عليه داخل المدينة فلم يجدوه.. لأنه ركب رجله فلم يجدوه إلا في رابغ، أمسك به حسين بن مبيريك، وقد كان ابن مبيريك على وئام مع الدولة العثمانية، وجاءوا بالمغتال فإذا جمع من أهل المدينة يتحلقون في حلقة واسعة والقاتل وسطها معصوب العينين، ولا أدري كيف عرف أن الشريف علي بن الحسين وأخاه فيصل كانا واقفين في شرق الحلقة يشاهدان قتل المغتال، فرأيت القاتل وكنت أحد الواقفين يزحف مشرقاً يتدحرج ليصل إلى الشريفين، يطلب منهم الشفاعة فابتعدا عنه وأمسكا به وقطعا رأسه بالسيف، ومعنى ذلك أن الباشا أقام العقاب لا بوازع منه وإنما بإصرار بيت الكماخي. .

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (٤)

المسجد أول جامعة في الإسلام

المسجد - السكة الحديدية - ضم المدينة للشام

والكلام عن المسجد النبوي يشمل على كثير منا ينبغي ذكر بل ومن ما يجب له فالمسجد كان مدرسة جامعة وللصلاة وهو الصلة لأن صلاة الجماعة تتقوى بها الصلات بين الذين يصلون فيه والمسجد في بدء الإسلام كان منار العلم فيه تعقد حلقات الدرس ويتعلم الجاهل ويتخرج العالم ويهتدي بالعلم «الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه».

فالنبوة على حراء «اقرأ» كانت المدرسة الأولى.. والرسالة على الصفا كانت المدرسة الثانية أما المدرسة الثالثة فقد كانت على الصفا أيضاً فهي في دار «الأرقم بن أبي الأرقم» المشرف على الصفا حتى قالوا لو أن أحداً مد يده من الطاق في دار الأرقم لانتزع قلنصوة المنصور وهو على الصفا.

أما المدرسة الرابعة كبرت واتسع فيها العلم فهي الجامعة الأولى في الإسلام أعني المسجد النبوي.

إن المسجدين المسجد الحرام والمسجد النبوي. والمربدين مربد البصرة والكوفة قد طبعت بصمة كل جامعة من هذه الأربع على كل خريج من مدرسة أو جامعة.

فعلى الأزهر بصمة المسجدين والمربدين وعلى الجوامع في تونس والجزائر والمغرب وحتى قرطبة في الأندلس، الإمام الأول، المعلم الأول لهؤلاء هو الإمام في المسجدين والإمام في المربدين وحتى كل الجوامع والجامعات شرق السويس وشرق بحر العرب لم تكن إلا والمسجدان و المربدان كانوا لها وتكون علم عالمها حين كانوا بها.

إن المسجد النبوي يعرف الكثير من القراء سير الأئمة الذين كانوا فيه فلا حاجة لي تدعوني أن أذكر قارئاً بهم غير أن ذكرياتي عن علماء المسجد وأئمة الصلاة فيه أذاكركم بها مذكراً بمرحلتين: مرحلة أن سمعت عن علماء المسجد في العهد العثماني ومرحلة أن رأيت فيما بعد.

فقبل أن أرى أو أن أسمع وبعد العشرينات إلى الثلاثينيات من سنى الهجرة، عرفنا كيف كثر العلماء في المسجد النبوي ومن هم، فمن المغرب كله حمدان بن الونيس، العزيز بن الوزير، عبد الحميد بن باديس، البشير الإبراهيمي، وعمر حمدان المحزري، والطيب العقبي والشيخ الحبيب، والخضر بن مايأبي الحكني الشنقيطي، الألفا هاشم والفلاتي، والمالي والشيخ حميدة، محمد الطيب الأنصاري المعروف بالتمبكتي . ومن الهند عبد الباقي الأنصاري، حسين أحمد خليل أحمد صاحب بذل المجهود في الشرح على أبي داود.

ومن مصر الشيخ العايش، والأخميمي، ومحمود شويل، ومصطفى صقر، ومحمد صقر، وحسن الشاعر ومن «القصيم» صالح الزغيبي، محمد العلي التركي.

ومن الشام عبد القادر الطرابلسي الأول، عبد القادر الطرابلسي الشلبي الثاني وجمال الدين القاسمي في زورة لم تطل أيامها.

ومن أفغانستان حبيب الرحمن الذي أفاد الكثيرين: أما من هم من أهل المدينة فالمفتي الداغستاني وأبو بكر الداغستاني وجعفر البرزنجي وأحمد البرزنجي وابنه زكي البرزنجي وإبراهيم البري وابنه عمر بري ومحمد زاهد وقبلهم مأمون بري وابن أخته عمر الكردي الكوراني حفيد الشيخ إبراهيم الكردي الكوراني الذي انتهى إليه السند العالي والذي أخذ عنه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ثم «حمد كماخي».

كان المسجد النبوي بسط حلاه وتقواه على هؤلاء العلماء كانوا أعلاماً ولا بد أن نأتي بطرف عن بعضهم عرفناها.

حمدان بن الونيس قرأنا عنه ما كتبه أمير البيان أبو غالب شكيب أرسلان في حواشيه على الكتاب «حاضر العالم الإسلامي» ترجمة عجاج نويهض أحد الذين أشبعونا بالترجمة عادل زعيتر، فتحي باشا زغلول.

كان الأمير شكيب قد وصل إلى المدينة المنورة ومعه من مصر عبد العزيز جاويش أحد زعماء الحزب الوطني وعبد القادر المغربي أحد الأعلام مغربياً وشامياً، جاءوا إلى المدينة ليؤسسوا الكلية الإسلامية، . وبدأ البناء بالفعل، ثم الأساس، وارتفع بعض سورها، ولكن العمل توقف حين بدأت نذر الحرب العالمية الأولى، لم نقرأ لعبد العزيز جاويش ولا لعبد القادر المغربي ما كتبوا عن علماء المسجد.

إن الأمير شكيب أرسلان أعجبه حمدان بن الونيس حتى أكاد أزعم أن هذا الحديث الذي كتبه في حاضر العالم الإسلامي لم يشتهر لدينا على الأقل إلا من صنع شكيب حين

تكلم عن ابن الونيس فالحديث هو «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصع . . قالوا أمن قلة يارسول الله ، فقال ﷺ لا ولكن غثاء كغثاء السيل إنما يدرككم الوهن .

قالوا : وما الوهن يارسول الله .

قال عليه الصلاة والسلام : «حب الدنيا وكراهية الآخرة» أو كما قال «حب الحياة وكراهية الموت» .

أعجب الأمير شكيب بابن الونيس وأعجبه الشيخ حسين أحمد شيخ الجامعة الهندية الإسلامية جامعة ديوباند . وحسين أحمد هو ابن المدينة أيضاً حتى أطلقوا عليه حسين أحمد المدني أخوه السيد أحمد «الفيض آبادي» مؤسس دار العلوم الشرعية وأخوه جميل أحمد أول من ابتعث من المدينة المنورة إلى الآستانة في أواسط العشرينات . وهنا ينبغي أن أستدرك على الذين ظنوا أن عبد الرؤف صبان هو أول مبتعث من الحجاز لأن قبله جيمل أحمد وقبله أيضاً حسين طه وأحمد أبو بكر حمد الله ، كما كان قبله محمد المغيربي وعبد القادرعبد الجواد .

عبد الرؤف ابتعث إلى مصر عام ١٣٢٨هـ بعد حج الخديوي عباس فالخديوي عباس كان يقلد السلطان عبد الحيمد يريد أن يجمع حوله رجالاً من هنا وهناك ، كما أخذ من المدينة حسن ناصر بن دياب ناصر وكما التف حوله بعض الذين ظن أنهم يصلحون سنداً له أو دعاة للخلافة التي يطمع فيها ، ولا أدري كيف كان ذلك كأنه لم يحسب حساباً للمندوب السامي كرومر ومن جاء بعده حسين أحمد وكما ذكر عبد الحميد بن باديس شيخ المسجديين الذين نهضت بهم الجزائر ، فعبد الحميد بن باديس الذي نأخذ ما ذكر عن حسين أحمد هاجر إلى المدينة فراراً من الاستعمار الفرنسي حتى إذا اجتمع بالسيد حسين أحمد ، قال له : لماذا جئت هنا وماذا تصنع ؟ قال : أفكر لعل فرصة تسنح لشن الحرب على الفرنسيين . . فقال له حسين أحمد إذا انتصبت للجهاد فكن في أرض الجهاد . . ارجع إلى الجزائر . . وعاد عبد الحميد بن باديس وكان الشيخ الأول لثورة الجزائر . . . فهو لم يكن عربياً عرقاً لأنه صنهاجي بربري ، إذا أسقطنا عن البربر نسبهم الحميري من انسال الحميريين جند ذي القرنين المصعب بن الحارث اليماني .

فهو إن لم يكن عربياً عرقاً فهو المسلم معرقاً والعربي استعراقاً . . الله أكبر . ألم يعرّبه القرآن .

عبد الحميد بن باديس هذا الصنهاجي حين شبع من القرآن دافع عن بني هلال فبعض من هم هناك يذم بني هلال وسليم بأنهم خربوا حين عبثوا بقرطاج . . فقال هذا القرآني

العربي يدافع عن العرب . . لئن قيل إنهم ضربوا فلنقل: إنهم عرّبوا لقد صدق فالفتح الأول لم يعرب الأكثرية، من المغرب وإنما الذي عرب الكثرة الكاثرة فبنو هلال وبنو سليم ولا ننسى من تناسل من إدريس بن إدريس بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

أما جمال القاسم العالم السلفي صاحب التفسير فقد اتصل بعالم المدينة حينذاك أحمد البرزنجي صلة توثقت بينهما وقطع صلته بعبد القادر الشلبي حيث اختلفا في المشرب، ذلك السلفي والثاني ماتوردي حتى أنه قسا عليه في مذكراته.

لقد ترك هؤلاء بصماتهم على طلبة العلم في المسجد، وما دامت الذكريات تتسع لبعض الطرف فلأتوسع، كنا في بستان العمرانية قبل الظهر جماعة من الأصدقاء نقيل هناك وكنا نسمع أغنية محمد عبد الوهاب «علموه كيف يجفو فجفا» فإذا الحارس الذي يخطرنا بمن نخافه أو من نستحي منه ونحن نسمع الأغنية أخبرنا وهو يسرع الشيخ إبراهيم بري.

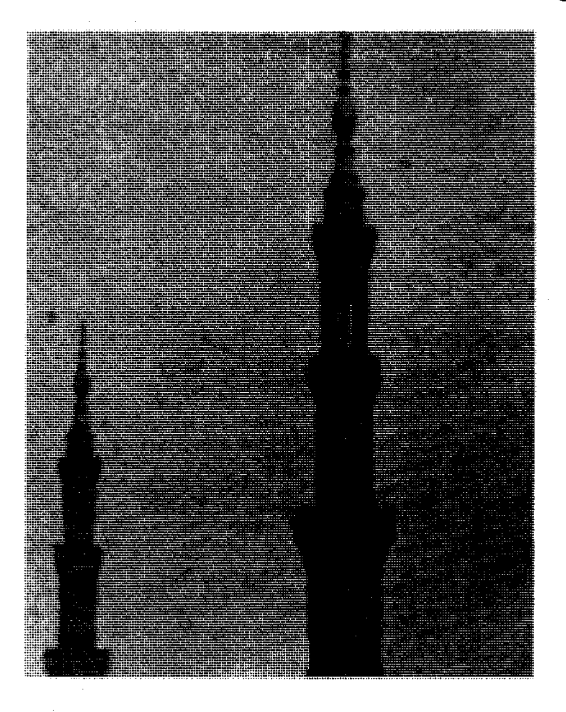
فأسرع أخوه الشيخ عبد العزيز بري يرحمه الله يسكت الأغنية وقمنا نحيي الشيخ إبراهيم بري فلما جلس قال: أعيدوا ما كنتم فيه لقد سمعت شيئاً أعجبني. . فأعدنا الأغنية فقال:

إنه أحمد شوقي . . إنه محمد عبد الوهاب . . وخطرت على بالي سابقة لمعاوية بن أبي سفيان كأنما إبراهيم البري ابن العقيق قد ورث عن عبد الله بن جعفر ابن عمه، قال البري كما علمنا أنهم من ولد محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب. وورث حلي العقيقي يوم كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب حارس الفن، كل مجلسه طرب وزاره معاوية بن أبي سفيان ومعه عمرو بن العاص وفي زعمهما أو عزمهما أن ينكرا على عبد الله بن جعفر هذا الترف. هذا الطرب وحين علم ابن جعفر بحضور معاوية وعمرو بن العاص أسكت الغناء ـ كما فعلنا ـ حتى إذا أخذ معاوية مجلسه قال لعبد الله أعد ما كنت فيه فارتفع صوت لا أدري أهو صوت طويس أو عزة الميلاء من وراء ستر فاهتز معاوية طرباً، فقال له: عمرو هوّن جئت تنكر عليه، فقال معاوية: دعني فإن الكريم طروب.

السكة الحديد

●● ووصل القطار يجري على سكته الحديدية إلى المدينة المنورة فإذا هو بعد يحدث التطور. . كثرة المهاجرين. . تنويع الآكال كثرة المجلوب من الشام كالبرتقال والبطيخ اليافاوي والدقيق «الفرخة» وحنطة الجولان وأنواع الياميش، كأنما المدينة أصبحت سوقاً لخيرات الشام.

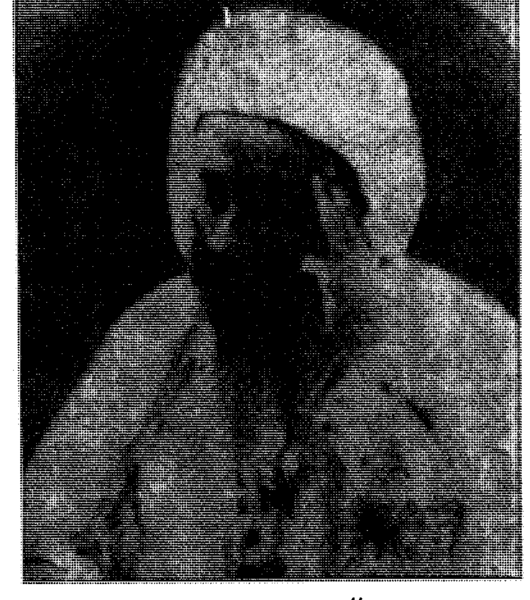
الدقيق «الفرخة» له عرق تصنع منه الفطائر فإذا هو يأخذ من المدينة ميزة وهي صناعة قوس الرق أي الفطائر وأنواع البوريك والمطبق. . كانت المدينة تمتاز بهذا لأن حنطة المعية التي هي من نبات المدينة أو من نبات عالية نجد لها عرق يصنعون منها الرقاق والفطائر حتى قال أهل مكة إن أهل المدينة يصنعون الفطائر.



كان ذلك حيث لم يصل إلى المدينة الدقيق «الفينو» فالامتياز ليس من صنعة الصانع فحسب وإنما هو من مرونة الدقيق من دقيق المعية». وحين كثر الدقيق الأبيض أصبح كل من هب ودب مطبقانيا يعني «أهله سيبوه والجن استلقوه» فأول التطور حرب على المعية كان الدقيق الأبيض من الشام، ثم الدقيق الأبيض الفينو من الأرض التي صنعته.

واحتفلوا بقدوم القطار. . وعز علينا وقد كنت طفلاً أن نعرف من حضر يشارك في هذا الاحتفال من الأقطار العربية والمسلمة. . غير أن صلة صديقنا الشيخ محمود شويل علمنا منه أن من الذين حضروا الاحتفال كانوا علي كامل صاحب اللواء، شقيق مصطفى كامل زعيم الوطنية في مصر ولطفي السيد صاحب الجريدة لسان حال حزب الأمة، والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد الـذي كان مصرياً وخديويا، ومحمود شويل حين عرف ذلك لأنه اتصل به واقتنصه علي يوسف فاختاره مراسلاً للمؤيد. . لماذا كان ذلك؟

لطفي السيد «مصر أمة وحدها» لا شأن له بما يجري في المدينة وعلي كامل «مصر الخلافة



عبدالحميد بن باديس



الدكتور لطفى السيد

العثمانية» لا يحتاج إلى مراسل في المدينة أما علي يوسف فلهوى الخديوي أحب أن يقتني مراسلاً كما هي رغبة الخديوي في جمع بعض الرجال حوله.

إن السكة الحديدية لم يقتصر تطويرها على الدقيق وعلى بضائع الشام وإنما جاء معها تطور أكبر نكتبه بعد.

صلة المدينة بالشام

وكانت المدينة تقليدياً تابعة لشريف مكة لا نفوذ له وإنما هو شيء من التنفس والحرص على وحدة الحجاز. . فعزم الاتحاديون وبتطور السكة الحديدية أن يفصلوا المدينة عن مكة فما انتدبوا تركيا وإنما كان مندوبهم على رضا الركابي، ضابطاً من نوابغ السوريين تولى رئاسة الوزارة بعد في الشام وفي الأردن. . كان من الأذكياء لكنه لم يؤخذ بالقومية فقيمته الشخصية أن يكون عثمانياً.

جاء إلى المدينة وسعى إلى الكبار من أهلها فالقدامى من الأسر لم يلبوا طلبه والمحدثون منهم كانوا له . . ولم يشذ عن الأسر القديمة إلا الشيخ أبو الحسن السمان فهؤلاء وافقوا علي رضا ووقعوا مضبطة فيها طلب فصل المدينة عن مكة وضم المدينة إلى الشام والحجة هي سرعة الاتصال . . القطار والتلغراف. . فالتلغراف وصل إلى المدينة عام ١٣١٨هـ وكان في خفـارة علي ناصر. . وتم فصل المدينة والواقع أن ذلك قد يسر كثيراً من الأعمال بينما

شريف مكة الحسين بن علي يرحمه الله قد غضب فعاتب السمان لأنه ابن لصديقه، كان مرّاً في عتابه وقاسياً في شكيمته ولكن لا حول ولا قوة له فمضى الأمر.

ولابد لي من أن أستطرد بعض الذكريات عن الطرائف والمواقف لعلماء المسجد النبوي، ليكون التمام على ما سبق.

فالسيد حسين أحمد كان في المدينة ولعله لم يزمع الخروج منها يذهب إلى الجامعة المسلمة (ديوبند)، ولكنه لسبب تصورت أني علمت فدوت، بينما الواقع أنه لم يكن ذلك هو الحق، كنت أظن وهو في المدينة، وقد اتسعت صلاته بعلماء المسجد ينصح ابن باديس ليعود إلى الجزائر، كما سبق أن ذكرت ويعجب الأمير شكيب أرسلان به، كنت أظن أن (إحسان الله) قد كتب تقريراً عنه إلى المخابرات البريطانية، فإذا هم يتربصون به، يقع في قبضة أيديهم، ينفي إلى مالطا، وكان هذا الظن خاطئاً، والصحيح أنه جمع أموالاً تبلغ أكثر من مليون روبية، فذهب بها إلى الطائف عوناً للباشا التركي ضد موقف الحسين بن علي، فحكومة الشريف هي التي سلمته للانجليز. ينفى إلى مالطا لأنه وقد كان في المدينة لا تصل إليه يد الانجليز.. ومن هو إحسان الله؟!.

إنه رجل من مسلمي الهند بقى مدة ثمانية عشر عاماً في المدينة المنورة بواباً على باب النساء أحد أبواب المسجد النبوي، بينه وبين الصديقين الأخوين عبد الحق النقشبندي وعبد الحميد عنبر قرابة من ناحية النساء، فكانت هذه القرابة الساترة لحاله، لم يعرف أهل المدينة عنه إلا أنه البواب على باب المسجد، وياللغرابة التي أدهشت رجالاً من أهل المدينة، كانوا في دمشق حين رحلهم فخري باشا من المدينة، منهم زين صافي وزين مدني، وبعض الشباب أسعد طربزوني إبراهيم شاكر وغيرهم حتى إذا احتل فيصل بن الحسين دمشق حين نزح عنها جمال باشا وحين دالت الدولة على حكم الأتراك، وحتى إذا رأوا. المرشال الإنجليزي «اللنبى» داخلاً دمشق ليوطد الأمر لفيصل رأوا البواب على باب النساء إحسان الله ضابطاً كبيراً يدخل مع «اللنبى»، أدهشهم ذلك يقيم في المدينة بواباً لمدة ثمانية عشر عاماً.. بينما هو من رجال المخابرات البريطانية وأحد الضباط الكبار في حاشية المرشال البريطاني!!، أهو ذكاؤه كتم أمره، أم هي الغفلة حتى أن الباشا التركي سواء كان بصري أو فخري لم يعرفا عن إحسان الله أنه رجل مخابرات بريطاني؟! وقبض الانجليز على حسين أحمد ثم أطلق سراحه ليكون أحد شيوخ الهند المسلمة.

وزار مدرستنا في المدينة المنورة فحييته بخطاب وفي رحلتي إلى الهند بصحبتي للشيخ محمود شويل، زرناه في ديوبند وأعد لنا عشاءً لم أذق مثله أرزاً له نكهة وله طول لم نعرفه في

المدينة فسألته من أين هذا الأرز؟ لعله قال لي إنه من (سهر أسبور) وكان من أهل الحديث غير أنـه متعصب لأبي حنيفـة كأنـه من تلامذة الطحاوي أو محمد بن الحسن الشيباني، واختلفنـا معـه قال: أنتم العرب السبب في استعمار الهند: أسقطتم الخلافة فقوي نفوذ الإنجليز في الهند. وأجبته امبراطورية الهند هي السبب في استعمار العرب، فالذي أسقط الدولة العثمانية هو خط برلين بغداد وبعض سلطانها على قناة السويس فحين كان العرب في طريق الهند استعمر الإنجليز العراق وفلسطين وقبلهما مصر. وودعناه شاكرين ولم يأت الخلاف في هذه النقطة إلا ونحن نذكر له الخير.

وما دام الشيء بالشيء يذكر ففي أواخر أيام الأشراف بقى في المدينة شيخه خليل أحمد ليكملِ شرحه لأبي داوود، وسماه (بذل المجهود شرح أبي داوود) أكمله في المدينة وكان ضيفاً صديقاً في دار العلوم الشرعية التي أسسها صديقه تلميذه أخو حسين أحمد، السيد أحمد الفيض أبادي، وكما أضيم السيد حسين أحمد لأنه نصير العثمانيين فقد أضيم خليل أحمد حين أغلق الشيخ عبد القادر شلبي الطرابلسي دار العلوم الشرعية في أواخر عهد الأشراف بحجة أنها مدرسة وهابية، والسبب أن خليل أحمد وحسين أحمد وكل جامعة ديوبند أهل حديث ينصرون مذهب أبي حنيفة، كما قلنا على طريقة الطحاوي، أما الشيخ عبد القادر شلبي وعبد الباقي الأنصاري وهو من لكناو، فقد كانا من قسم الأحناف، الذين لهم آراء ليست من الحب لرسول الله كما زعموا.

أما البشير الإبراهيمي، فقد زامله أستاذنا السيد محمد صقر يدرسان على الشيخ العزيز ابن الـوزير الجزائري أو التونسي، ورجحت الجزائري لأن بيته الكبير في المدينة في زقاق البدور الذي كان اسمه في عهد النبي (المناصع) والذي علمت عائشة أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ـ كما هو نعت الإمام مسروق لها ـ حين علمت بلغو الإفك من عمتهـا وهي ذاهبة للمناصع تقضي الحاجة، إن بيت العزيز بن الوزير وراء المدرسة الإعدادية ثم الراقية ثم المناصرية وعلى طريق بيت الرفاعي كان القيم على البيت وحافظ المكتبة الكبيرة هو أستاذنا (العريف محمد بن سالم) الجزائري العقبي.

البشير الإبراهيمي توثقت صلته بالسيد أحمد البرزنجي ومن مزايا البشير أنه صاحب عيون البصائر التي حجزها أحمد بن بيلا مع أن صاحبها كان من زعماء ثورة الجزائر، ولعل الشاذلي بن جديد قد احترم البشير الإبراهيمي، فوزير خارجيته طالب الإبراهيمي هو ابن الشيخ البشـير، كان همّ البشير أن يلتفت العلماء إلى دراية الحديث فليس لهم حاجة في الرواية لأن كتب السنة قد دونت وطبعت فالرواية شغل يفخر به الرواة، أما الدراية فعنها

ينتشر الفقه ويعرف ما ترمى إليه السنة، وكان ينازع في ذلك السيد الشيخ عبد الحي الكتاني وإبان الثورة وبعدها لجأ البشير الإبراهيمي إلى المملكة فأحاطه الملك فيصل بكل التكريم، فموقف محمد سرور الصبان مكرماً للبشير الإبراهيمي، لم يكن إلا عن طريق تكريم الملك فيصل له، كان حاجاً ضيفاً على محمد سرور الصبان، وكان مفتي مصر السابق محمد حسنين مخلوف ضيفاً كذلك، جمعهما الصيوان في عرفات، وأخذ المستفتون من الحجاج يتوافدون يسألون مفتي الديار المصرية حتى إذا طرح السائل مسألته يسأله الشيخ مخلوف (إيش مذهبك؟) فإذا كان ينتسب إلى مذهب، أفتاه بقول المذهب، واشتد البشير يطلب من محمد سرور أن يغلق الصيوان لا يدخل أحد وقال لمخلوف: لماذا تسأل عن المذهب فأنت تعرف القاعدة الأصولية العامي لا مذهب له، المذهب للمفتي، إن رأى مخرجاً يسر عليه وان رأى مسرفاً عسر عليه. كلمة حق ينتصر به الحق ولا يهزم المذهب وأراد طبع عيون البصائر فأعطاه محمد سرور أجرة الطبع ولكن البشير أنفق المال على من احتاج إلى مال، ثم طبعت عيون البصائر مرة أخرى. . يرحم الله علماءنا.

أما أحمد البرزنجي فقد كان المفتي ولكنه عزل لأن منافسيه وقد ذهب نفوذ أحمد أسعد بصولة الاتحاديين سعوا إلى عزله، حتى إذا تمت الصلة بينه وبين جمال الدين القاسمي، طلب من جمال الدين أن يسعى له يعود للافتاء، ذكر ذلك جمال الدين في مذكراته، بقى أن نعرف هذه النسبة (البرزنجي) فالذين لا يعرفون أصل هذا النسب يحسبونه نسبة إلى (البرزان) أو (الطروبيته) التي ينادي بها الجنود (للكروانة) يعني العشاء أو الغذاء، إن أصل هذه النسبة إلى الأكراد البرزانية في شمال العراق ولعلكم سمعتم اسم زعيمهم مصطفى البرزاني، فهي في العراق برزاني، وفي الشام برازي، ومنهم بيت كبير في الشام كان من بينهم رئيس وزراء وفي المدينة البرزنجي على الطريقة التركية، هاجروا إلى المدينة من العراق، من القسم الكردي بينما هم من الأشراف فهم سادة وكانو بيت علم، آخرهم قاضي المدينة طيب الذكر السيد زكي البرزنجي خال السيد عبيد والسيد أمين مدني، وإلى ما يأتي بعد.

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (٥)

أئمة المسجد النبوي . . مواقف وطرائف

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

●● والمسجد النبوي يلزمنا أن نذكركم بالإمام والمؤذن كما ذكرناكم بالعلماء فالأئمة الذين يصلون بالناس كانوا طبقة لها امتيازها . . فالأئمة والخطباء من الأحناف لا غيرهم وهم (الخاندانة) أي أنهم الطبقة العليا ولم يكن الإمام أو الخطيب بما هو مؤهل به كفقيه وإنما هي - أعنى الإمامة رتب يمتازون بها ومنح يصدر بها فرمان . .

فالإمام الذي يصلي بالناس أول الأمر لا بد أن يكون حنفياً لأن مذهب السلطان العثماني كمذهب الخديوي في مصر - هو مذهب أبي حنيفة . . فإذا صدر الفرمان بأن يكون الأفندي (فلان) إماماً فأبناؤه يرثون الإمامة، ولا يسألون أن يقوموا بالوظيفة فالواحد منهم ولو لم يفك الحرف - إمام بالوراثه حتى إذا وصل إليه الترتيب لأداء الصلاة يتخذ قارئاً ينوب عنه في أداء المهمة . . فهي مراتب افتخار يمتازون بها ويحرصون عليها . . فالصلاة الجامعة يؤديها الإمام الحنفي وبعده يأتي الإمام الشافعي يصلي بالذين لم يدركوا الجماعة الأولى وهو أيضاً صاحب رتبة منح الإمامة بالفرمان . .

إن الفرمان هو المرسوم السلطاني مكتوباً بالخط الديواني الجليل رأينا كثيراً من صوره في إدارة الأوقاف . . وإن تخلف بعض المصلين يأتي إمام على مذهب مالك يصلي في محراب المواجهة . . فعجيب أن يكون إمام دار الهجرة ليس له حظ من هذه الحظوة التي منحت للأحناف والشافعية .

أعـرف من الأئمـة المـالكية أستاذنا السيد أحمد صقر ولم يكن بذلك قد منح الإمامة بالتشريف وإنما هو بأداء التكليف «إمام بلا فرمان أما الإمام المالكي المشرف بالفرمان فهو من بيت عبد الحفيظ» .

ولعلك تسأل عن إمام في عهد الأتراك أو عهد الأشراف تابع لمذهب الإمام أحمد . . ليس هناك أحد . . فالجفوة لمذهب ناصر السنة على هذه الصورة جاءت من تركة السلطان محمود ومحمد علي في حربهم ضد آل سعود وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، مع أنه يوجد من أهل المدينة القدامى بيت النعمان فهم على مذهب أحمد .

●● ويأتي المؤذنون وجلهم فرمانيون غير أن حسين بخاري وعبد الستار شرفهم صوتهم فكان فرماناً على الفُرمان . . وأحسب أنهم كلفوا بأمر محلي لا بفرمان سلطاني .

●● وقل مثل ذلك في الكناسين وهم أيضاً أصحاب رتب يشرفهم أنهم يخدمون المسجد وينظفونه .

●● وظاهرة لابد أن نذكر كم بها فخلال إقامتي الطويلة لمدة واحد وعشرين عاماً أعني المدة التي أدركتها من عهد الأتراك والمدة التي عشتها في عهد الأشراف لا أعرف من ارتقى المنبر على الدوام غير هؤلاء الأربعة : حمزة أركوبي ، جلال إلياس ، أبو الفرج إلياس ، زين بري . لعلهم كانوا يؤدون واجبهم وواجب غيرهم بالإنابة . . إن زين بري ـ كما ذكرنا من قبل كان يأتي بخـطبـة الجمعة إلى أستاذنا السيد محمد صقر يقرأها عليه . . يستمع له . . يتعهده بالصـواب نحوا وصرفاً لا فكرة . لكن هناك إمامين ذاع لهما الصيت وأحب المصلون أن يصلوا وراءهما لإتقان التجويد ولتجويد الإتقان بالصوت الجميل على النغم الموسيقي هما كامل توفيق (جد غالب توفيق الذي كان مديراً للأمن) وأخوه أسعد توفيق (جد صديقنا حاتم توفيق) فكامل توفيق وأسعد توفيق جملهما الله بالوقار والصوت الحسن فلعلهما ـ قبل زكريا أحمد وعلي محمود ـ أتقنا سلم الأنغام فما أسعد الأذن إذ تسمع كامل توفيق وأسعد توفيق ! ! وهما من أسرة تركية شركسية لهما حظ في وقف السلطانية ولهما الحظ الأكبر أن كانا من أعيان المدينة وأحسن أئمتها .

لقد كان لهما هذا الموقف في آخر عام ١٣٤٢هـ يوم أقامت المدرسة الراقية احتفالاً بأول

وآخر الخريجين منها وهم الأربعة المحمدون (محمد سالم الحجيلي المروحي السالمي الحربي الذي نشأ يستروح النسيم من وادي سجسج حول الروحاء ومن شعاب الجبل الأشم ورقان «أو» الأشعر ومحمد الياس توفيق ولا قرابه له بالإمامين السابقين وإنما هو لقب بيت آخر.

من قدامى الأتراك ومحمد نيازي (القازاني) وكان من روسيا البيضاء وفيها كثرة مسلمة حينذاك وكاتب هذه السطور وكاتب هذه السطور أبوه من صعيد مصر ومن أسيوط بالذات وأمه من الفضول من قبائل نجد نشأ في بيت شعر بدوياً آبداً تعلم من الرجال فاحتفل بسير الرجال هؤلاء الأربعة المحمدون هم أول وآخر من تخرج من الراقية وأقيم الحفل في صالون المدرسة الراقية (الناصرية بعد) ولم يكن هناك زخرف مادي وإنما كان هناك الزخرف المعنوي . . كان كامل توفيق وأخوه أسعد يقرآن القرآن فاتحة الحفل بل وكل الحفل. وقد حضر هذا الحفل أمير المدينة حينذاك الشريف علي بن الحسين قبل أن يصبح ملكاً وطبعت الشهادات لكن الأمير سافر، كما لم يرجع الشيخ عبد القادر شلبي عميد المدرسة إلى وكيل الأمير ـ وكان هو الشريف أحمد بن منصور ليصدق على الشهادات وبالتالي تأخر التصديق وضقنا ذرعاً فلجأنا إلى أستاذنا السيد محمد صقر ـ وكان جريئاً على الشلبي فتداولوا الأمر وصدق الشهادات عبد المجيد باشا الحاكم العسكري . . صدقها وهو في قلعة سلع والمدينة محاصرة ليكون ضمها خاتمة التكوين لهذا الكيان الكبير. .

وعن كامل توفيق وأسعد توفيق وسلم الأنغام نذكر هذه الطرافة كان البناني ـ أستاذ من تغنى . . العارف بالأنغام ـ هو الذي يكبر للصلاة.

إذا كان الإمام هو كامل توفيق أو أسعد توفيق . . فالطريقة هي أن البناني يخرج من نغم إلى نغم وهو يكبر ليتحدى كامل أو أسعدوهما يجهران بالقراءة لا يعجزهما أن يسيرا مع تحدي البناني . كان ذلك شيئاً مطرباً ولكن أحسبه يخرج بهم عن أدب الصلاة لأن الإمام والمؤذن مشغولان بتحري النغم . . ولكن هكذا كان . .

إن سلم الموسيقى الذي عرفناه منهم يشير إلى ما ذكره الأصفهاني في الأغاني عن عدد الأصوات صوتان . . ثلاثة أصوات ولا أريد إلا أن أذكر بذلك . . فهناك نغم رصد (إذا جن ليلك فأرصدي) هو أساس السلم الفارسي وتأسس عليه السلم التركي . . إن نغم الرصد ـ كأساس ـ ليس بالصاد وإنما هو هكذا الرست (بالسين) يعني الأساس . . ثم يأتي بعده نغم «دوكا» يعني صوتان (فدو تعني اثنان) ثم يأتي سيكا يعني ثلاثة أصوات . . فالتركيب الفارسي هو «سي» يعني ثلاثة «وكا» يعني صوت . . ويأتي بعده الجاركا هو بالفارسية «جهاركا» «جهار» يعني أربعة ـ ويأتي بعده «البنجكا» يعني خمسة أصوات لأن الأرقام الفارسية هكذا: بك . . دو، سي جهار، بنج . .

وتفرغت من هذه الأسس أنغام أخرى لا أعرفها وإن كان أكثر من سبعين بالمائة من شباب المدينة كانوا يعرفون هذا السلم حينذاك.

وكان من العارفين أيضاً: عبد الستار، وعلي براده، وصديق البناني عمر عبد السلام الذي كان يطرق الحديد طول نهاره فهو حداد ـ وفي مجالسه يتعلم الشباب منه الأنغام . . من هنا قلت إن الغناء في المدينة المنورة قد تأثر بالسلم التركي، فما من بيت من هذه البيوت إلا وفيه آلة الطرب العود، الكمان، أما خارج المدينة وفي الوطن وعند البادية فالربابة وعند أولاد الحارة ـ الشلاوية والمشاكلة، وأهل الوديان حول المدينة ـ فيتقنون المزمار من البوحى وهو صانع الجذب والهستيريا الراقصة حين يقيمون «سيدي علي البدري» « والزير» «والزار» و «المزمار» يعتقدون تصريف الجن بهذه الحفلات بينما هم يمرضون أنفسهم بهذه الأوهام هكذا كان ولكنه زال . .



الخديوى عباس

معلومة . . وطرائف . . وحواشٍ . .

والمعلومة التي لم تفتني فيما سبق هي الإضافة إلى التعريف (بالمستر إحسان الله) عرفنا من هو في المدينة ومن هو في دمشق، بقى أن نعرف كيف هو في جدة، عرفنا بالمشاهدة والتعامل معه، فيما لو أردنا السفر إلى الهند وما إلى ذلك مما هو تحت سلطان بريطانيا العظمى حينذاك، عرفناه وهو في القنصلية البريطانية في جدة، سواء كان وكيلاً أو أكبر من وكيل، كان يعرف كل شيء عن المطوفين والأدلاء، كأنما هو الرقيب عليهم لتكون الرقابة حيث يصلون.

وصل إلى جدة في عهد الأشراف وبقي فيها إلى أوائل هذا العهد، عهد الكيان الكبير. وفي أواخر جمادي الثانية عام ١٣٥٢هـ حصلنا على تأشيرة الدخول إلى امبراطورية الهند، كاتب هذه السطور والأستاذ محمود شويل وكانت التأشيرة سهلة لأننا كنا ضيفين على المضياف الشيخ محمد حسين عمر نصيف تغمده الله برحمته، وكان إحسان الله يعرف محمود شويل من المدينة، تلميذاً للشيخ فالح الظاهري، الذي له مكانة في الحجاز وليبيا، كما يعرف عن محمود شويل صلته بالخديوي عباس، وانكشف لي ذلك حين رست الباخرة (علوي) في عدن، وإذا بمناد يدعونا، وقفنا على ضابط الجوازات، جلس على مكتب أعدّ له . . نظر في جوازات المسافرين إلى الهند وهم بقية الحاجين ولم يكن ذلك كثيراً، وقفنا أمامه

ضابط بوليس. رُبعه أقرب إلى القصر وإلى السمنة، لم أر شعراً شديد الحمرة كشعره، لعله صبغه بالحناء أو أنه مولّد (خلاسي) الأب عدنيا والأم إنجليزية أو غير ذلك، اكفهرّ يستغلظ قال: محمود شويل؟ «من ساعة ما ركبتوا الباخرة عندنا خبر». والشيخ محمود سريع البادرة غضوب، أمسكت بيده ألا يجيب وأجبته أنا، قلت له: يسرنا ذلك، لأن رقابتكم نوع من الحراسة لنا أو الحماية علينا، فحيثما نكون نجد هذه الرقابة، ليست هي التهديد وإنما هي حرصكم، وكاد يبتسم ولكنه قال: سنسمع.. سنسمع، وسمع ثم سمعنا حين امتد بنا العمر، زوال الامبراطورية واستقلال الهند بقسميها الباكستان والهندستان.

وهكذا كان إحسان الله رجلاً حقق وطره وانتشر خطره، ولا يفوتني كمعلومة أن إحسان الله يحيط الذين يحملون الجنسية البريطانية بشيء من الرعاية، ولو كانوا يحملون جنسيات أخرى، ولعلي أذكركم بأن أول قنصل لفرنسا في جدة في العهد العثماني الأخير كان ذلك الضابط الشاب (كاترو) الذي أصبح الجنرال (كاترو) من عناصر المقاومة لاحتلال النازيين من شيعة الجنرال ديجول، ولقد كان قد احتل الشام في الحرب العالمية الثانية حين هزم النازيون، ولكن الجنرال (سبرز) البريطاني والمستر تشرشل، قد كتبوا عليه الجلاء من سوريا حتى أن ديجول أخذ يشتم سبرز، ورد عليه تشرشل: «أحب أن يذكر الجنرال ديجول أن سبرز هو الذي حمله من فرنسا إلى حيث نجا من النازية وتزعم المقاومة».

الطرائف

هي عن بعض أشياخنا الكبار، مع الألفاهاشم ومحمد العلي التركي ومحمد الطيب الأنصاري، كانت عن مشافهة معهم، شرفوني بها، وعن فالح الظاهري وحمدان الونيس، كنت تلميذاً وفي السنة الرابعة راقية وفي الامتحان الخصوصي في شهر شعبان سنة ١٣٤٢هـ، وكان الشيخ عبد القادر شلبي عميد المدرسة يباهي بالتلاميذ أيام الامتحانات فيدعو بعض كبار العلماء أو الأعيان، كمميزين وليمنحوا العلامات لكل تلميذ ولعله كان يمسكهم يجودون على التلاميذ بعلامة إضافية فرحاً بالتلميذ ومجاملة للشيخ يعني «حج وبيع مسابح» ولم يكن ذلك اليوم يوم امتحان لنا نحن تلامذة السنة الرابعة الراقية بل كان لتلامذة السنة الثالثة. وكان رئيس الفصل صديقنا إبراهيم عبد الرحمن فقي الصديقي من أسرة المفتي في مكة، سكن أبوه المدينة وكانت أمه من بيت الطيار الكبار. ومن زملائه السيد يوسف مدني والسيد ماجد مدني وحسن إسماعيل والسيد عبد الهادي برزنجي، وكان الامتحان في مصطلح الحديث وأستاذه السيد محمد صقر والمميزون، تصوروا من هم ؟!

الخضر بن ما يأبى الجكني، المحدث ومن أعيان شنقيط وهو والد صديقنا محمد الأمين

سفير الأردن سابقاً، والشيخ إبراهيم البري والشيخ الحبيب المغربي والشيخ الألفا هاشم المالي الفلاتي، ولعل إبراهيم مفتي لم يجب صواباً فنطق الخضر ينتقد فهو حاد المزاج فإذا الشيخ عبد القادر شلبي يرفع صوته يرد الانتقاد بالجدل فهو ليس على درجة من معرفة المصطلح كما الشيخ الخضر، اتسع الجدل ولم يتدخل الآخرون، فإذا أستاذنا محمد صقر يخرج من الحلبة (فين الزيدان.. فين الزيدان..؟!) (لبيك) قال (ادخل فك العجة).

قلت: ليس هولنا هو امتحان سنة ثالثة قال: (ادخل يا واد.. هو إنت اللي راح تفك العجة) وهمس في أذني على الجواب الصحيح، ودخلت والشيخان يتجادلان، سلمت بصوت جهير فرد السلام الأشياخ وجلست على الكرسي أرفع صوتي أقول: أنا تلميذ في الامتحان لا ترعبوني الخوف يسقطني، وكأنما أعجب كلامي شيخنا الخضر، وطفق يسألني عن الجواب فأجبت، وهدأت العاصفة بين الشيخين، ولم أدر ماذا جرى عني بعد، ولا يفوتني أن أقول إن الشيخ الخضر فيه دعابة فقد كان يشاهد ارتفاع البناء في بيته في زقاق الطيار فوقف مرة وهو يشاهد ارتفاع البناء، فقال لحاشيته (أنا من علامات الساعة من الحفاة العراة يتطاولون في البنيان).. وقفت على درسه ذات مرة في شهر رمضان أسمع، فقد كان يلهج بغنة شنقيطية وكان الحديث عن سجود السهو قبل السلام بعد السلام فارتفع صوته برنين وكأن عباءته قد ضاقت عليه يقول (لله در مالك علم أن السجود قبل السلام عن نقص وبعد السلام عن زيادة فما حصره قبل السلام دائماً ولا بعد السلام دائماً) ومشيت هكذا المغاربة أهل الحفاظ فمازالوا المحافظين على مذهب أهل المدينة وعلى قراءة أهل المدينة، أعني مذهب مالك وقراءة نافع مولى ابن أبي نعيم، الذي دفن في البقيع وقبره بجانب قبر مالك ويخطىء الأدلاء يحسبونه نافع مولى ابن أبي عمر.

أما ما جرى بعد أن خرجت من الامتحان الصوري فقد علمته بعد، كنت في رواق باب الرحمة قبل صلاة المغرب وساعة الأذان فإذا الشيخ الألفا هاشم يقف على رأسي (زيدان قم) وأخذ بيدي أسير بجانبه وإلى الروضة.. (وتعال شوف الناس) يصل الخبر إلى والدي.. الشيخ ألفا هاشم ومعه ولد يصلي في الروضة، أكبروا ذلك وكّبر الأصدقاء، وبعد صلاة المغرب بسط الشيخ المحفظة فأخرج الدواة وقلم البوص وورقة مسطرة، أمسكت بالقلم وأخذ يمليني هكذا.

«يا زيدان يا من بزينة العلم يزدان.. يا زيدانُ إن المفرد العلم زيدانَ له مثنى زيد لقد دانا.. يازيداني أضفتك إلى نفسي لأنك إلى محبوبي من العلم دان».

وعرفت السبب فحين خرجت من الامتحان اختلفوا في إعراب اسم الزيدان فحقق الألفا هاشم إعرابه إعراب المفرد لا إعراب المثنى،

والخـاتمـة في هذه الحلقة عن الألفا هاشم أيضاً هو يلقي درسه في الضحى وفي شهر رمضان، وقفت أسمع وأنا ذاهب إلى المدرسة وإذا هو يفسر قوله تعالى ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾، ألقى التفسير المجمع عليه الآخرة يوم القيامة.. والأولى الحياة الدنيا، ثم أردف ذلك وبلهجته الماليـة الإفريقيـة قال (وقال بعضهم الآخرة «المدينة» خير لك من الأولى «مكة») وانصرفت ألقيها بلهجته الضاد ظاء حتى قلت: إفريقي مغربي يحافظ على مذهب مالك وهو بعد مديني يحب مدينتة.. يرحمه الله

وللطرائف ملحـــق.....

ملحوظـــــة:

في حلقة سابقة تقدم اسم لطفي السيد لقب دكتور.. علماً بأنه ليس بدكتور.. وإنما هو أبو الدكاترة.

العهد العثماني . . ومن إليه من الرجال

- لم ير العرب في العثمانيين استعماراً . .
- السلطان عبد الحميد بنى المسجد النبوي على الطراز البيزنطي
- أعمدة المسجد الأرجوانية جاءوا بها من جبل بالمدينة

وكانت المدينة المنورة أيام حكم الطوائف، أميرها التقليدي من أشراف ذوي حسين، أي من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب، بينما الأمراء التقليديون في مكة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب، لهم سلطان في المكتبين، فأحيانا يصفو الجو بينهم ليكون الأمير في المدينة على علاقة طيبة مع الأمير في مكة، ليس لديهم قوة رادعة وإنما هو التقييم من الملك الطائفي لهاتين الأسرتين . . لم يخضعوا للسلجوقيين وآل بويه . . ولم يكن لهم هذا التقييد أيام العباسيين، وإنما كانوا ذلك أيام الفاطميين في مصر والأيوبيين والمماليك، ولم يكن لحاكم الشام هذا السلطان إلا لمحمود نور الدين زنكي، ولعله عن طريق صلاح الدين، حتى أن الظاهر بيبرس أحد المماليك، يوم وصل إلى المدينة كان الحاكم التقليدي هو (الشريف فليته) فهو ومن بعده ومن قبله يعرفون بآل جماز، ثم عرفوا بالشقادمة، وظاهرة لا بد أن نذكرها هي أن العلويين سادوا في قبائل العرب على صورة من الإمارة على القبيلة أو هي الصورة على أن الشريف شيخ القبيلة، لم يكن في الحجاز وحتى في نجد يوم كان بنو الأخيضر هناك إلا الأكثرية من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب، فليس هناك ولد الحسين كان له سلطان إلا الجمازيين في المدينة المنورة، أما القبائل الأخرى كجهينة وعتيبة وهذيل وبالحارث، فالذين سادوا لديهم هم من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب . .

وكانت قرية (السوراجية) شرق المدينة وقرية (الحفنة) كذلك تابعة للمدينة لقربهما ومن فيها من الأشراف حسينيون، فأشراف قنا المحافظة المصرية جمازيون حسينيون، وانضم إليهم حسينيون من أشراف وادي فاطمة، وحتى أسرة الحفناوي في مصر تنسب إلى آبائهم في قرية الحفنة، ولا أنسى أن قرية في غرب المدينة تقع بجبل الرس من جبال المدينة قرب ذي الحليفة ولعله من تضاريس الجماء أو العير وقد تأكد لي ذلك من خلال بحث الابنة أميرة

المداح في بحثها الموسوم بعنوان «العثمانيون والإمام القاسم بن محمد بن علي في اليمن» هذه القرية خرج منها أئمة اليمن الذين تم لهم سلطان الإمامة في اليمن وهم الأشراف الرسيون . .

أما الذين سادوا في جهينة، فلأنهم مكثوا فيها ورثوا من أملاك جدهم الإمام علي كريم الوجه رضى الله عنه ويعرفون بهذا (ذوي هجار) ومنهم الأسرة المالكة في المغرب . .

وهكذا كان الأمر بين الحاكم التقليدي تشريفاً له بينما السلطان للأيوبيين أو الفاطميين أو المماليك. وحينما تم للسلطان سليم العثماني النصر على الطوائف دخل كل العرب تحت سلطان العثمانيين ولم ير المسلمون والعرب المسلمون والعرب أن في ذلك استعماراً، وإنما كان سلطان مسلم لعله يمتاز بالوحدة التي ضمت الجميع أكثر من ملوك الطوائف الذين كانوا عاجزين عن صد التتار ومقاومة الصليبيين، فالعثمانيون لهم فضل لا ينكر، صمدوا أمام تيمورلنك وحجزوا الصليبيين أن لا يعودوا، كما أنهم أضعفوا انتشار التشيع في قبائل العرب، وإن بقي في اليمن وإن بقي في الحجاز، فقبائل العرب شرق المدينة بقى فيها التشيع كما بقى داخل المدينة وفي العوالي وما إليها كذلك . .

إن إطلاق اللسان باسم القومية على العثمانيين بأنهم استعماريون غض من الجامعة الإسلامية، بل أصبح الآن كأنه الرفض للجامعة الإسلامية، صفقت للقومية العربية، ولكني الآن وبالحال الذي نحن فيه شلت يدي إن صفقت لهذه الإقليمية.

مقدمة لا بد منها، ليس هي كل التاريخ وإنما هي ملامح من استقراء التاريخ، لأجد نفسي أسجل ذكريات عن أربعة عهود عثمانية، عهد عبد المجيد وعهد عبد الحميد وعهد محمد رشاد وعهد الاتحاديين، وإن كان يحسب من عهد رشاد، لا أذكر أثراً في المدينة قبل هذه العهود، لأني أجهله، فمثلاً ليس للسلطان محمود فيما عرفت أثر إلا المكتبة المحمودية، ويمكن التجاوز عن تركة محمد علي لنعدها من آثار السلطان محمود، كالباب المصري مثلاً، وباب الكومة ومدرج العنبرية، كبرزخ يصل داخل المدينة بخارجها، أعني العنبرية . .

أما السلطان عبد المجيد، فله الأثر المحمود والأثر الآخر غير المجحود، فأثره المحمود هو بناء المسجد النبوي، بناء أصبح تحفة، زينة قام على تنظيمه وتنسيقه مهندس عظيم لا أدري أهو سنان باشا ومعه مهندسون وبناؤون امتلكوا الذوق فبنوا المسجد على طراز (أيا صوفيا) فأيا صوفيا هي الكنيسة الكبرى في اسطنبول حولها إلى مسجد مما يعطي محمد الفاتح أنه في عداد الفاتحين، لأن أمية وسيف الدولة والسلاجقة وآل بويه والأيوبيين والمماليك لم يستطيعوا إسقاط روما الشرقية، فالذي أسقطها وجعل بيزنطة اسطنبول عاصمة مسلمة تعمر بالمساجد، ما كان إلا محمد الفاتح، فعيب أن نعد الملك الخامس في ملوك الإسلام مستعمراً

تركياً، فهل أنا الذي وطأني الاستعمار إنجليزياً وفرنسياً وإيطالياً ويهودياً وروسياً حين أصبحت المستقطب له افتح أشداقي أتشدق على الذي أنهى حكم الرومان من أرض الإسلام؟

السلطان عبد المجيد الذي بنى المسجد النبوي لم يبخل على المهندسين بشيء، لا أدري بماذا أصف المهندس الذي حرص وقد نصب الاسطوانة الجديدة تقوم عليها القباب، كيف لم يبعدها عن الاسطوانة القديمة، فكل الاسطوانات القديمة ازيح شكلها بناؤها وبقى وضعها وموضوعها، فمثلاً أبقوا اسطوانة أبي لبابة رضى الله عنه وغيرها، لم يأخذهم العجز أن يسأموا وإنما أخذهم الفن والذوق والتاريخ أن يستاموا. المسجد النبوي قلنا إنه على طراز بيزنطي، كآيا صوفيا، لا أدعى أني أطرح هذه المعرفة من علمي أو فهمي أو ذوقي، وإنما علمنيها أستاذ ومهندس، فالأستاذ هو شيخنا محمد عبد القادر الكيلاني التونسي المصري التركي اليوناني المديني، أخبرني أن المسجد النبوي على طراز رومي بيزنطي، كما آيا صوفيا، فقلت له لئن أضفت لي معلومة فقد أضفت لي مفهومة وهو أن المهندس حين رسم الطراز تجنب أي شبهة تجعل هذا البناء كأنه آيا صوفيا، يعني أنه رسم الفن وصب فنه على الفن..

أما المهندس الذي أكد هذا الخبر فهو المهندس المصري البارع راشد رستم، عرفته فأكد هذا الخبر، ولكن أريد أسأل المدينة شيبا وشباباً هل عرفوا أن الاسطوانات ذات اللون الأرجواني جلبت من بعيد ؟ أم هي حجر المدينة؟ اليقين عندي أن أكثرهم لا يعرف، هذه الأسطوانات الأرجوانية من الحجر الرملي ليست صواناً ولا مرمرا، قاسية نوعاً ما، لينة بكل عطاء الماء، أتدرون من أين قطعوها؟ إنها في داخل (الجماء) لو سرتم إلى آبار علي وملتم إلى اليمين تدخلون في دحال أو شعاب الجبل الجماء فستجدون مقاطع هذا الحجر رأيتها وكبرت، أحترم القوة التي تفعل وأصفق للذوق الذي انفعل، الجماء هي الجبل على حافة العقيق من الغرب طولها من آبار علي إلى الطرف الأول من باحة الأعياص أي سلطانة أي مجمع الأسيال أي مكان الجامعة الإسلامية، هذه الجماء هي التي عناها سعيد بن العاص صاحب القصر الذي ترمل لا بفقد زوجة وإنما هو الأرملة نفسها، كأنه اليتيم لم يبق غيره حوله، رأيتها جداراً أو جدارين أكل منه الزمن، كبناء ولكن الزمن لم يأكله كتاريخ، قال الأمويون له وهم في دمشق : تعال الينا، فقال:

القصر فالنخل فالجماء بينهما أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

فجيرون من أسماء دمشق.

أما الأثر الثاني للسلطان عبد المجيد فليس هو عطاؤه للسيد صافي الجفري بني البيوت الكبيرة في الساحة، وإنما كان حين صك الريال المجيدي، أنهى به التعامل بالريال

الفرنسي، لأن هذا الريال الفرنسي قد جلبته الحملة الفرنسية على مصر والشام، أعني حملة نابليون، فجزيرة العرب هي التي بقى التعامل لديها بالريال الفرنسي لم تتعامل به مصر ولا الشام، بل كان التعامل به في نجد والحجاز واليمن، وهو ليس ريالاً فرنسياً وإنما هو ريال نمساوي فالصورة التي عليه هي صورة الإمبراطورة (ماري تريزه) إمبراطورة النمسا، أم الإمبراطورة (ماري انطوانيت) فهي التي قصلتها الثورة الأفرنسية على المقصلة..

وهكذا تفعل الغوغاء.

تم طبع الريال الحميدي والريال الرشادي، كما شاعت العملة التركية الهللة واسمها يوناني (هالة لوه) كانت أولاً من النحاس ثم صارت من النيكل، والجنيه الذهب العثماني فقد عرفنا أشكالاً من الجنيهات الانجليزي والعثماني والمسكوفي نسبة إلى موسكو والإفرنسي واسمه (البنتو) إن العملة تطلق عليها أسماء المصدر أو الجالب فالجنيه في المغرب أطلقوا عليه اسم (لويزا) يعني لويس وبعض العامة يحسبون أنه تصغير (لوزة) إن الشام لم تتعامل بالريال الفرنسي ولكنها ورثت من حملة إبراهيم باشا على الدولة العثمانية يصل إلى سوريا ولبنان، فإذا هم يطلقون على النقد أو العملة في سوريا يطلقون (مصريات) في لبنان (مصاري) نسبة إلى مصر، وحتى إني كتبت مقالاً افتتاحياً في جريدة البلاد رداً على شيخ مسلم في لبنان بعنوان (لبنان المصاري أم لبنان المصير) أعجب الكبير فينا..

وإذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال عضباناً عليّ لئامها

نأتي للسلطان عبد الحميد تولي الأمر يرث تركة مثقلة بالديون، كما هو تعبير سعد زغلول، ثورة في البلقان الجيش الروسي على أبواب الأستانة، استقلال داود باشا في العراق، الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي الحرب في اليمن، مدحت باشا والدستور، مكث عبد الحميد ثلاثة وثلاثين عاماً، والأيام تلد كل يوم مشكلة. فاضطر إلى أن يكون صديقاً وحليفاً لألمانيا الإمبراطورية القوية فاستطاع بعون (بسمارك) ومطاوعة «دزرائيلي» رئيس الحكومة البريطانية أن يجتمع في برلين يطلبون من جيش الإمبراطورة كاترين الروسي الإنسحاب عن حدود الدولة العثمانية، وكان عبد الحميد قد أحاط نفسه برجال أربعة ظنا منه أنهم يسكتون أوطانهم عن الثورة عليه. وهم أبو الهدى الصيّادي شيخ الطرق الذي إذا أراد أحدكم أن يعرفه فليقرأ ولي الدين يكن في كتابه المعلوم والمجهول، وعزت العابد رئيس البابين يعني الديوان الملكي وهما شاميان أما الاثنان الآخران فهما السيد أحمد أسعد المدني ومحمد ظافر المدني الليبي، اتخذ منهما عوناً لتهدئة الحجاز وليبيا، ولعلي أضع ترجمة لأسرة أحمد أسعد أخذتها من (قرمية الأنصاري) واسمها تحفة المحبين، ترجم الأنصاري لأسر في

المدينة المنورة أضع هذه الترجمة الآن لأعقب عليها بعد بما فعل أحمد أسعد في الحجاز ومصر وبما فعل محمد ظافر في ليبيا وارثاً لما فعل أبوه حمزة ظافر. وإليكم الترجمة للأسرة لنعرف أن أحمد أسعد لم يصل إلى هذا المركز من فراغ . .

بيت السيد أسعد أفندي

«بيت السيد أسعد أفندي» مفتي المدينة المنورة . .

أصلهم أبو بكر أفندي بن أحمد بن عبد الله الأسكداري المجاور بالمدينة المنورة في حدود سنة ١٠٤٠هـ قدمها على قدم التجريد والعبادة فنال بذلك الحسنى وزيادة. سكن في رباط «قره باش» حتى صار شيخاً على الرباط المذكور. وأجرى شرط واقفه المسطور في جميعه الأمور. ثم خرج منه وتزوج الشريفة أم الهدى، أخت السيد إبراهيم المدرس المجاور الرومي. وأولدها السيد أسعد وأخاه السيد إبراهيم مات ولم يعقب في سنة ١١١٥هـ.

وأما السيد أسعد المذكور فمولده كان في حدود سنة ١٠٥٠هـ فنشأ وطلب العلوم من المنطوق والمفهوم. وبرع حتى فاق الأقران. وصار من الأعيان. وتزوج مريم بنت القاضي محمد مكي أفندي، ورزق منها عدة أولاد أمجاد، أكبرهم السيد محمد، والسيد عبد الله، والسيد إبراهيم، والشريفة فاطمة . .

ولما رأى صهره محمد مكي أفندي [فيه] كمال الأهلية نزل له بمنصب الإفتاء وعرض له إلى الدولة العلية، وذلك في سنة ١٠٩٢هـ ثم رفع في سنة ١١٠٢هـ بالخطيب البري. ثم أعيد إليه ثم رفع في سنة ١١١٦هـ بالشيخ حسن المنوفي المصري فتوفي معزولاً في ٢٨ رمضان سنة ١١١٦هـ فأما السيد محمد المزبور فمولده في سنة ١٠٨٨هـ وجد واجتهد في طلب المعالي، فتولى منصب الإفتاء بالمدينة المنورة في سنة ١١١٨هـ إلى أن رفع في سنة ١١٢٥ بالخطيب عبد الكريم الخليفتي ثم سافر إلى الدولة العلية إلى أن استشهد ليلة المعراج ٢٧ رجب سنة ١١٤٣هـ طعنه أحمد كحيلان بسكين عند رأس زقاق الزرندي فتوفى في ٢٨ رجب . . وقبض على قاتله وشنق بباب المصري ـ قاتله الله تعالى . .

وكان ـ رحمه الله [تعالى] ـ ذا أخلاق رضية وكمالات مرضية، يميل إلى الصالحين ويحب الفقراء والمساكين، وأعقب ولداً سماه عبد المحسن، وبنتاً سماها «صالحة» توفيت سنة ١١٨٧هـ . .

فأما عبد المحسن فمولده في حدود سنة ١١٢٨هـ نشأ في حجر والده، وتزوج الشريفة نفيسة ابنة عمه السيد عبد الله . . وولدت له ولداً سماه السيد سعد الدين، مولده في سنة

١١٥٢هـ وقد تزوج الشريفة آمنة بنت السيد عثمان الصعيدي، ولم يولد له، فلعله عقيم. وتوفي في ربيع الآخر سنة ١١٩٤هـ. .

وللسيد عبد المحسن المذكور بنت أيضاً تسمى «سعدية» تزوجها عباس بن الأخ علي الأنصاري، وهي موجودة الآن. .

وله ولد أيضاً يسمى محمد من الشريفة فاطمة بنت مولاي المغربي الفيلالي. مولده سنة ١١٦٦هـ وتوفى في محرم الحرام سنة ١١٩٦هـ عن بنت قاصرة تسمى «صالحة». .

ثم بعد وفاة السيد عبد الله تولى منصب الإفتاء السيد عبد المحسن. . وجاءته الرؤوس من شيخ الإسلام وبقى مفتياً إلى أن امتحن في سنة ١١٨٢هـ بأن قبض عليه شاهين أحمد باشا وأرسله إلى مكة للشريف مساعد. ومثله السيد [سيف] كتخداي القلعة السلطانية سابقاً، وأحمد خضر، وعذيب وذلك في ليلة هلال رمضان بسبب غضب الشريف مساعد عليهم. فلما وصلوا إلى مكة وبخه الشريف بعد حبسه عنده أياماً إلى أن وصل الحاج الشامي فتشفع له عثمان باشا فسمح عنه الشريف ورده إلى المدينة بمنصبه، فوصل إليها في أول المحرم صحبة الحاج الشامي. وبقى بها إلى أن توفى في ٢٨ محرم المذكور رحمه الله تعالى رحمة واسعة. .

وأما أصحابه الثلاثة فأرسلوهم في الحديد إلى جزيرة القنفدة وحبسوا فيها إلى أن سمح عنهم الشريف فرجعوا إلى مكة في رجب الحرام. ماعدا السيد «سيف» فإنه توفى في البحر، ودفن بطرف الساحل. .

وأما السيد عبد الله أسعد فمولده في حدود سنة ١٠٩٠هـ ونشأ نشأة صالحة وجد واجتهد في طلب العلوم حتى بلغ منها مايروم. وسافر إلى الروم في سنة ١١٣٥هـ وكان يدرّس بالمسجد النبوي. . وله نظم ونثر حسن وتولى الإفتاء بعد وفاة أخيه السيد محمد، وامتحن كثيراً من الأشرار ونفى في ٤ محرم ١١٥٤هـ وتزوج الشريفة فاطمة المكية بنت السيد يحيى الأزهري، وولدت له محمداً في سنة ١١٤٤هـ وعبد الله في سنة ١١٥٥هـ ونفيسة، وأم الهدى، وعائشة . .

فأما محمد فنشأ نشأة صالحة . وتولى الإفتاء بعد وفاة ابن عمه السيد عبد المحسن من طرف الشريف، ولم يعرض له إلى الدولة، ولم يأته منهم تقرير فيها، فتوجه الخطيب تاج الدين الياس بنفسه إلى الدولة العلية وطلبها منهم، فوجهت له في محلول السيد عبد المحسن وذلك في سنة ١١٨٦هـ ثم رفعت عنه، ووجهت للخطيب عبد الله الخليفي بموجب أنه

وكيل فراشة السلطان عبد الحميد في سنة ١١٨٨هـ وتزوج السيد محمد جفصة بنت الحاج عبد الله المغربي، وولدت له عدة أولاد وبنات هم اليوم موجودون في قيد الحياة . .

وأما أخوه عبد الله فنشأ نشأة صالحة . وتزوج زبيدة بنت الشيخ أحمد بن عثمان الحجار ـ ومات عنها في سنة ١١٧٥هـ . .

وأما السيد إبراهيم أسعد فمولده في حدود سنة ١١٠٠هـ ونشأ نشأ صالحة. وكان يحب الصالحين والفقراء والمساكين، ويواسيهم بماله وحاله. وتزوج على الشريفة زينب بنت السيد يحيى الأزهرى . . وولدت له بنتاً سماها سعاد. وتزوجت على الخطيب عبد الرحمن الخياري، وهي والدة ولده الخطيب علي الخياري. وبعد وفاتها تزوج الشريفة فاطمة بنت السيد أحمد ميرزا. وكانت عاقراً، . ثم تسرى على جارية حبشية اسمها حبيبة، ولدت له ولدين ماتا مراهقين في عام واحد. وتوفى في سنة ١١٨٠هـ . .

وأما الشريفة فاطمة الأسعدية فتزوجت على السيد عبد الله السقاف باعلوي وتوفيت . .

ملحوظة:

أستاذنا السيد محمد صقر كان واحداً من الأئمة المالكية وليس السيد أحمد صقر الذي كان من الأحناف كما ورد في حلقة سابقة.

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (٧)

في عهد الملك عبد العزيز
عرفت المدينة نعمة الأمن

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

كان لـ . . القوزيته سلطان على السلطان المركزية آفة الامبراطوريات . . يتأتى منها الهمس ليكون بعد ذلك الانحلال

عهد العثمانين
عبد المجيد وعبد الحميد ورجالهما

والمدينة المنورة لقيت عنتاً شديداً صبرت وصابرت فكلما اشتدت اللأواء فيها بقيت أسر صبرت على اللأواء، ومن اللحظة الأولى التي اغتال الجناة الخليفة الراشد، ثالث الخلفاء ذا النورين عثمان بن عفان، ومن اللحظة الثانية التي خرج من المدينة ساعتها الخليفة الراشد

رابع الخلفاء علي بن أبي طالب رضى الله عنه وعن عثمان، من هاتين اللحظتين فرغت المدينة من حماتها، فإذا هي لا تخرج من فتنة إلا إلى فتنة، أهلها في داخلها ثائرون، وأهلها في خارجها يثأرون، والأقرب من حولها، إذا شبعوا اشبعوها، وإن جاعوا عبثوا بها، مئات السنين كان حال المدينة قد أبكى التاريخ فإذا الناس من الأمة المسلمة يتمذهبون، من هو أموي ومن هو عباسي ومن هو طائفي، فلا تجد إلا الذين ارتضوا هؤلاء ولا تجد إلا الذين أبغضوا هؤلاء، كأنما المدينة التي انبعث منها نور النصر وهداية الفتح قد انبعث منها ذلك الشقاق، وعجيب أن يكون فيها المسجد الثاني في الإسلام بعد المسجد الحرام، والأول للمسلمين قبل المسجد الحرام، فالعجب ألا يخشى العابثون من حرمة المسجد، ولا يحترمون ثراها وروضتها وبقيعها والحجرة وما إليها، لكن المسجد النبوي هو العجيب أيضاً فحين خرج علي بن أبي طالب بقى فيها عبد الله بن عمر وأُبي وزيد بن ثابت، كانت حياتهم ولو ماتوا حياة العلم في المسجد، وحين هتكت المدينة في وقعة الحرة، كان المسجد عامراً بسعيد بن المسيب ومن بعده عروة بن أذينة وربيعة الرأي وابن حزم، لا أدري هو أبو بكر أم عمر، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعلي زين العابدين، والقاسم بن محمد ابن أبي بكر، كان المسجد عامراً بهؤلاء، حزانى، لكنهم أضحكوا الفقه وابتسم لهم التاريخ، حين قتل المنصور محمد بن عبد الله «النفس الزكية» داخل المدينة كان المسجد عامراً بمالك بن أنس يصل إليه سفيان بن عيينة وعطاء بن رباح وحتى سفيان الثوري وحتى أبو حنيفة، كأنما المسجد بطهره ينادي الطاهرين وينأى عن الآخرين، مالك بن أنس إمام دار الهجرة من شيوخه جعفر الصادق، ولماذا أنسى أول أشياخه وألصق أشياخه نافع مولى ابن عمر؟ ومالي أنسى الذي عانق قبره قبر ابن أنس، القبر بجانب القبر في بقيع الفرقد ألا وهو نافع مولى ابن أبي نعيم حافظ القرآن، الأول في الحفظة السبعة. ويخلط بعض الأدلاء يقولون لمن يزور القبور هذا قبر نافع مولى ابن عمر. . لا . . ولا، إنه قبر نافع ابن أبي نعيم، كأنما المسجد حظيرة، أو كأنما الروضة الجنة كان بهما المسجد صوناً ونعيماً على علمائه، من هنا قلت إن الإمام في المسجدين والمربدين قد انفصل عن السلطان ليتم على يديهم ماتم من هذه النعمة ملأت كتب التراث فقه الأئمة موطأ مالك كتاب سيبويه صمود الثوري والحسن البصري.

وي . . لا تعجبوا من الإسلام ومساجده فكلهم بهذا الإسلام قد صانهم الإسلام فصانوه وازدانوا به . . وحتى في آخر الأيام وفي أيامنا نحن تتخطف الفتنة الرجال ويرحل الناس إلى الشام ولكن المسجد بقى عامراً يسأل عمن فيه ولا يكترث بمن حوله فلا زال عامراً بالبري والبرزنجي والكماخي وألفا هاشم وحميده والعايش والإخميمي ومحمد صقر، علماء . . المسجد بيتهم بل أن بيوتهم طوقها المسجد.

هذه المقدمة لها ما بعدها . . أوله عن الرخاء والاستقرار نوعاً ما وبلا أمن ما أيام السلطان عبد المجيد وأيام السلطان عبد الحميد ودعوني أرفع رأسي بالكلمة الصريحة لا أجدف فيها لعبد العزيز بن عبد الرحمن ولا أتملق بنيه وإنما هو صدق التاريخ بصريح القول أرفض الذين يقلدون تميماً بسب خالد بن الوليد من أجل مالك بن النويرة، أو حنفياً يكره خالد بن الوليد من أجل مسيلمة إن المدينة المنورة بما ذكرت من قبل لم تستقر أحوالها ولم يتسع مجالها ولم يأمن رجالها إلا حين رد لها الاعتبار عبد العزيز بن عبد الرحمن أمر واضح لو أنكره هاشمي لقلت منشداً:

ولو أني بليت بهاشمي خؤلته بنو عبد المدان
لهان على ماألقى، ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

لقد بلينا بالذين ليسوا في العير ولا في النفير، وإنما هم لو تنافروا مع قبلي يلبس شمله لا تغطى أرساغه لنفرهم ولقال لهم: من أنتم؟ فلن يقولوا إلا «نحن الأهالي» «اثنين أهالي واحد شرقي» إن عبد العزيز بن عبد الرحمن لا أستعجل بذكره الآن فذلك سيأتي وقته، ولكني وشرحاً للمقدمة وحسرة على ماكان بها أقول: إنه من الساعة في ضحى نهار السبت التاسع عشر من جمادي الآخرة أو من هو الأولى، أن خانتني الذاكرة، من ذلك اليوم يوم السبت التاسع من جمادي سنة ١٣٤٤ هجرية، أصبحت المدينة تعيش الأمن والاستقرار وآلاف الحجاج يصلون للمسجد بلا إتاوة ولا خفارة ولا يقتل في أساحة المناخة قتيل، لا يعني به عسكري ولا يقاد قاتله إلى حاكم، ففي يوم واحد رأيت ثلاثة قتلوا وكأنهم لا شيء . . ! ابن سمرة شيخ بني رشيد قتل في المناخة أمام الكباس، وظل ساعات لا يحمله المسلمون إلى قبر، وفي حوش درج بعد ساعة قتل محمدي وبعد العصر قتل رحيلي، فلا عسكر ولا أمين ولا قائمقام. أما اليوم فلا قتل وإن وقع فالقصاص.

السلطان عبد المجيد

ونعمت المدينة برخاء منذ تولي السلطان عبد المجيد يبني المسجد النبوي تكثر الخيرات يهدأ الناس إلا في بعض الحالا ت لعوامل الشحنات التي بقيت، فعصر عبد المجيد يحمد للعثمانين غير أن الأمن لم يستتب لسلطان القوة وإنما هو بشيء من الرخاء، فالشحناء بهذا التنابذ بين سكان المدينة «أهالي مجاورين وتكارنة وبدو»، مع أن الأهالي والمجاورين والتكارنة لم يكونوا إلا أبناء المجاورين، هذا التشاحن مات الآن فعهد السلطان عبد المجيد كان خير العهد العثمانية، لم يتفوق عليه إلا عهد عبد الحميد، وقد كان من رجال عبد المجيد جمل الليل وسنتحدث عنه بعد، والسيد الصافي الجفري وإن بدأ دور أحمد أسعد يتحرك ليصل إلى الذروة في عصر عبد الحميد.

السلطان عبد الحميد

وانتشر الرخاء في المدينة في عهد عبد الحميد، أوصل إليها السكة الحديدية والتلغراف والمدرسة والعطاية، ولم تكن هذه العطاية من ميزانية أي دولة بل هي من أوقاف المسلمين، منعها حكام الأقاليم عن الحجاز يوم اشتعلت القومية بل وامتنع عنها عبد العزيز لا يطالب بها.

إن السلطان عبد الحميد كان هو عنوان الرجل المريض، اللقب الذي أطلقه الأوربيون على الدولة العثمانية ولئن جفونا الاستعمار وحملناه الكثير من الأوزار، فإن السلطان عبد الحميد عليه مسئولية ذلك، لأن المركزية العارمة أثارت عليه البلقان لو أدرك ما تحيكه بريطانيا وفرنسا وما فعلته إيطاليا باحتلال ليبيا بعد أن احتلت بريطانيا وفرنسا الشمال الإفريقي، لو التفت إلى ذلك لأعطى دول البلقان استقلالها فبدل أن تكون مستعمرة تصبح صديقة ولما جرت مذبحة الأرمن، ولما ذر قرن القومية العربية ولما اضطر أن يجامل الخديوي في مصر. إن المركزية آفة الامبراطوريات، يتأتى منها الهمس ليكون بعد ذلك الانحلال.

إن السلطان عبد الحميد ظن أنه في منعة لصداقة ألمانيا وبموقف بسمارك بالذات، حالف المانيا، حتى أخذت امتياز خط برلين بغداد فإذا بريطانيا تتنمر لأن وصول الألمان إلى الخليج عن طريق بغداد معناه الوصول إلى الهند وما إليه، قطعت الطريق على ألمانيا وفتحت الطرق لهولندا، في أندونيسيا، فكان الشرق أتت منه الحرب العالمية الأولى تهزم المانيا وتتمزق الدولة العثمانية، لأن الاتحاديين وكانوا عسكراً تخرجوا من أكاديمية ألمانيا اتكلوا عليها حتى إذا هزمت كانوا منهزمين.

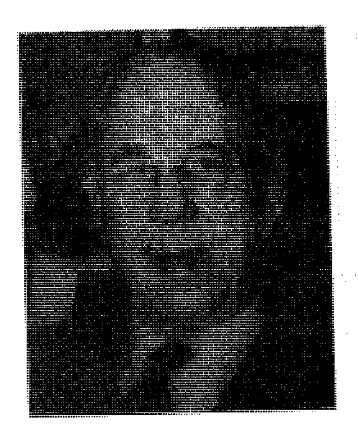
أما الرجال عند عبد الحميد فهم كما قلنا من قبل أبو الهدى الصيادي، وعزت العابد وأحمد أسعد، ومحمد ظافر وسنترجم لكل واحد منهم بما له وما عليه.

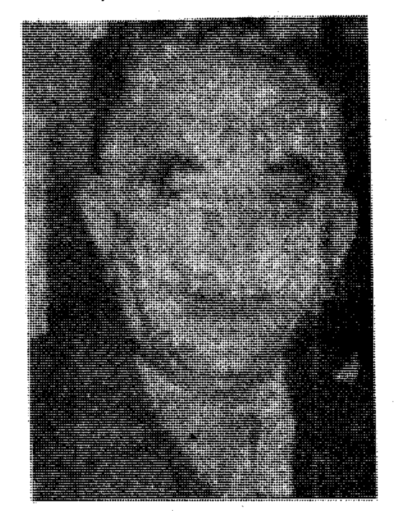
ولا زلت مع عبد الحميد، فالرجال الذين حواليه بعضهم كان معه ولم يكونوا له وإنما كانوا عليه، وبعض الرجال كانوا له ولم يكونوا معه، وما كانوا عليه.

وهكذا يمضي الأباطرة يحسنون الظن بالذين لا يستأهلون ذلك ويسيئون الظن بالذين يستأهلون حسن الظن، فالذين كانوا معه وكانوا عليه هم الطرقيون، أبو الهدى الصيادي ومن إليه والبكتاشية الذين هم أنصار مصطفى صبري شيخ العلماء الأتراك. إن أبا الهدى الصيادي جر على السلطان عبد الحميد أن يصبح الرجال الذين كانوا له وما كانوا عليه بعيدين عنه هو أبعدهم من حيث إنه لم يتقبل نصحهم، أبعد مدحت باشا إلى الطائف وعبد القادر كردي إلى المدينة، فإذا الأكراد والشباب من الترك غاضبون. حتى الأغوات كانوا

يفرضون سلطانهم على كل من يقترب من السلطان. لأنهم يستمدون سلطانهم من «الحرمليك» وكان عبد الحميد يسمع للحرمليك، خصوصاً إذا كان الكلام من السيدة الأولى في «يلدز» القصر الامبراطوري، إن هذه السيدة واسمها «القوزيته» أي الوردة الحمراء، كانت ذات سلطان على السلطان لها حظوة، والحرمليك كلهن حولها.

لقد كان الصدر الأعظم من أذكى الرجال في عصر عبد الحميد وهو «دلي فؤاد» اسمه فؤاد لقبوه بالمجنون لفرط ذكائه ولدقة أحكامه فكلمة «دلي» بالتركية تعني المجنون، إن هذا الصدر أي رئيس الوزراء كان يعالج الغزو الروسي للدولة العثمانية فالإمبراطورة كاترين التي خلفت زوجها بطرس الأكبر على عرش الروس حشدت جيوشها على الأناضول، ضربت حصاراً على القسطنطينية، لقد جلس دلي فؤاد يفكر ينتظر ماينجم عن مؤتمر، برلين بين بسمارك موحد ألمانيا ودزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا وهو يهودي تظاهر بالتمسح، وكان رئيساً لحزب المحافظين، كان دلي فؤاد يفكر ينتظر أن تسحب كاترين جيوشها أو أن أمراً آخر سيحدث وبينما هو كذلك مر كبير الأغوات الحارس الأول للحرمليك، فقال لدلي فؤاد «إيش فيه ياباشا؟» فقال الصدر الأعظم: «خليك في حالك .. ما في شيء» وانتفخت أوداج الأغا كيف يجيبه دلي فؤاد هكذا، وما كاد يلتفت ليذهب إلى الحرمليك حتى فطن دلي فؤاد إلى خطأ كبير كيف ينهر كبير الأغوات، سيذهب إلى الحرمليك يثير عليه ثائرة القوزيته، يغضب السلطان لربما يقيله أو لربما يستقيل.. كيف هذا؟ كيف فعل ذلك وهو ينتظر انسحاب الجيش الروسي فأسرع ينادي كبير الأغوات: تقول إيش فيه ؟ مع إنك أنت شايف


عبدالرحمن عزام


نورى السعيد


الشاعر حافظ ابراهيم

الجيش الروسي على أبواب الأستانة، فأنا أفكر في ذلك، فقال الأغا الكبير «يوه . . يوه ياباشا دحين مولانا بندر الصنجك . . علماء كبراء فضلاء يقرأون مثنوى بعدين روس . . هوف . . هوف . . هوف . . الصنجك يعني البيرق والمثنوي لجلال الدين رومي الذي كان في «قونيا» عاصمة السلاجقة والأم الأولى لبنى عثمان.

وسمع دلي فؤاد كلام الأغا فقال الكلمة المشهورة يرويها الأتراك الأباء للأبناء رفع رأسه للسماء يدعو يقول: يارب ياتديني عقله أستريح أو يأخذ عقلي يجنن» هكذا كان الإمبراطور، ومع كل ذلك أحبته الشعوب المسلمة، وثار عليه من رأوا انحلال الإمبراطورية إذا ظل الحال على هذا الحال، فولي الدين يكن الشاعر الناثر المصري استعراقا التركي إعراقا له كتاب اسمه (المعلوم والمجهول) فمن أراد أن يعرف الكثير عن السلطان عبد الحميد وعن أبي الهدى الصيادي فليقرأ المعلوم والمجهول، وماكنت أعرف هذا الكتاب ولكن أهدانيه الصديق كامل الخلق عبد الوهاب أشي يرحمه الله.

هناك فقرة أحفظها من هذا الكتاب تعني ما يلي: ويصدر أمر السلطان إلى محمد الجركسي ليقود فلان كما الآخرين يمسك به الجركسي يضعه في شوال مثقل بالحديد يرميه في البسفور طعام الحوت. ولا تمضي أيام حتى يصل رسول السلطان إلى بيت هذا الزعيم الهالك يقول لأهله «إذا غاب حاميكم فأمير المؤمنين حاميكم» هنا يقول ولي الدين «يارب» إنهم يخدعون عبادك يسرقون منهم الدعاء للسلطان، إنهم يخدعون المساكين ولكن أنت القاهر فوق عبادك . . المنتقم من الظالمين» من هنا قال حافظ إبراهيم الحكاية الهلكى في البسفور طعام حوت، قال هذا البيت من قصيدة طويلة:

مشبع الحوت من لحوم البرايا	وفجيع الجنود تحت البنود

صدق حافظ لأنه لم يكن لعبد الحميد جيش، أما الذين كان لهم جيش بعد فالاتحاديون، لأنهم كانوا ضباطاً فكونوا جيشاً عظيماً برز منهم قواد كبار، وضباط عرب لم يكملوا التعليم، فالضباط الكبار من العرب ياسين الهاشمي وأخوه طه الهاشمي وسليم الجزائري وعزيز علي المصري أما الذين لم يكملوا كلية أركان الحرب فنور السعيد وجعفر العسكري ولا تستغربوا حين أقول لكم إن أمين الحسيني الزعيم الفلسطيني كان من هؤلاء الضباط «نم زاد» أعني الذي لم يتم الدراسة عرفت هذا من صديقه حسين العلي المقدسي المديني كان صديقاً لأمين الحسيني رأيت هذه الصداقة حين زار أمين الحسيني المدينة لم يفارق حسني العلي إلا ساعات قليلة.

أكتب عن أولهم لأن الكتابة عنه تعنيني ، هو محمد ظافر والد صديقنا نجم الدين ظافر. فهو مديني من بيت كبير في المدينة لهم زعامة أو قيادة «السبهية» يعني الخيالة لأنهم الوجاق الأول من الأربعة الوجاقات ، وكان سعود دشيشة هو رأس الوجاق السباهي بعد ظافر، إن محمد ظافر ليست له ترجمة عندي وأول ما عرفت عنه هو ما علمته عن أبيه حمزة ظافر فلقد وقع في يدي خبر في جريدة ليبية فيه أن أول من أنهض الليبيين وبصرهم بما ينبغي هو حمزة ظافر المدني قدرت أنه والد محمد ظافر الرجل الثاني عند السلطان عبد الحميد، الأول أحمد أسعد، وأردت أن أعرف أكثر عن حمزة ظافر فتلفنت للسيد عبيد مدني بقية الناس أسأله فقـال هذا صحيح مذكور في كتاب عن تاريخ طرابلس الليبية، ولم يسكت السيد عبيد مكتفيا بالإجـابة المتلفنة وإنما أعطاني هذا الكتاب، فعرفت قيمة حمزة ظافر كيف أنهض الليبيين على صورة غير صورة ما أحدثه محمد السنوسي ، ومع هذا فلئن كان محمد ظافر مدنياً فإن محمد السنوسي مكي مستعرق وإن كان مغربياً إعراقاً، وخلف محمد ظافر أباه في ليبيا حتى أن ليبيا أصبحت عثمانية وكأنها قطعة من الأناضول، ابنها بشير السعداوي ينصب قائمقام ينبع ، الصلة متينة مكينة بين الليبيين والعثمانين حتى أن أنور باشا وعمه خليل باشا ومعهما شكيب أرسلان كانوا سنداً لأحمد السنوسي في مقاومة الغزو الإيطالي، وكلهم كانوا رجالاً بلا جيش فانسحبوا.

وللذكرى أيضاً فإن ما أعرفه عن ثلاثة من المصريين كانوا مشتركين في الدفاع عن ليبيا، أولهم عبد الرحمن عزام الذي كان ليبياً أكثر من أي ليبي ومغربياً أكثر من أي مغربي، وحافظ عفيفي ، وسيد كامل، حافظ وسيد انسحبا أما عبد الرحمن عزام، فقد كان في القاهرة ردءاً وعوناً لكل المغاربة ليس أولهم أبو رقيبة وليس آخرهم بشير السعداوي.

وانتهى عصر عبد الحميد وبقى لمحمد ظافر ابنه نجم الدين في المدينة وأحفاد في ليبيا عرفت منهم واحداً كان يعمل في جدة وفي السفارة الإيطالية. والليالي من الزمان حبالى وإلى تكملة أخرى.

في العهد العثماني: لا يسعل الموظف إلا بإذن السلطان.

- أستاذ الرياضيات يدرس التاريخ.. والمعمم يفك اللوغاريتمات.
- مذهب امام دار الهجرة.. عاش الغربة في دار الهجرة

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون.. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

ومن المآخذ التي حسبت على أواخر العثمانين أنهم، قادوا الشعوب العربية برجال لهم زعامة نصبوا كل واحد منهم حاكماً على إقليم فإذا السلطان يقر هذا بل ويحميه من غضب الشعب، في سوريا (اليوسف) صاحب سلطان في دمشق، وفي لبنان (بشير الشهابي) وفي عكاظ نصب على أغلب فلسطين (الجزار) وفي مصر (الخديوي) وفي تونس (الباي) وفي الحجاز (شريف مكة)، ولم يكن ذلك إلا امتيازاً تقليدياً لهذا الزعيم، ولا يعني الحكم الذاتي للإقليم ولا حتى قبول الشكوى من الشعب، يكفي أن هذه الأقاليم عثمانية في المظهر..

وعجيب أن نتهم الاستعمار الانجليزي والفرنسي بأنه هو الذي قسم أرض الشام، «سوريا.. فلسطين.. لبنان» إن هذا التقسيم تم في عهد الدولة العثمانية، وظاهرة أشد

غرابة أن حاكم الإقليم لا يستطيع أن يعين مو ظفاً أو يفعل شيئاً من ذلك إلا بعد أن يستأذن السلطان في مركزية صارمة ولا مركزية ظالمة يتمتع بها الحكام ، ويفعل بها مايريد من مطالبه . . ومن قوة هذه المركزية ما حدث بالنسبة لتعيين أستاذ الرياضة في مدرسة المدينة التي أسسها السلطان عبد الحميد ، وكان يضيف عليها ، كل سنة فصلاً أعلى فاحتاجت المدرسة إلى أستاذ رياضة عالية . . فكتبوا الطلب إلى الديوان السلطاني (المابين) فوصلهم الأستاذ الذي طلبوه معلماً للرياضة العالية ، فإذا هو شيخ معمم بكاتاشي ، لا يعرف من الحساب إلا عدد المجيدات يقبضها راتباً له ، وفي الوقت نفسه طلبوا أستاذاً للتاريخ والأدب فوقعت القرعة أو المصادفة على الأستاذ الرياضي بشير فؤاد ، المعمم يقبض راتب الرياضي ، والرياضي يقبض راتب المعمم ، ووضعوا الحل أعطوا المعمم دروس التاريخ ونهض بشير فؤاد العالم الرياضي بحق يعلم الجبر والمقابلة واللوغريتمات وكان من أنبغ تلا يمذه صديقنا (كامل هاشم) وهو ليس من بيت هاشم الموسويين أهل البيت الكبير في الساحة ، وإنما هو اسم أبيه هاشم . . أدى الامتحان صواباً بكل معنى الكلمة ، وكان بشير فؤاد يعجب بكامل لأنه رياضي أيضاً ، وظهرت النتيجة ، كل التلامذة خمسة من عشرة . . ستة من عشرة ، ولا أكثر ، إلا إجابة كامل عليها شرح (برافو . . برافو . . برافو . أفرين . . أفرين) ووضع العلامة على الجواب الصحيح تسعة من عشرة ، فراجعه تلميذه كامل ، يراطنه بالتركية . . كيف ياأستاذ تعطيني تسعاً من عشر ، لازم أنا عشرة من عشرة . . فضحك بشير فؤاد ، وأجاب تلميذه . . لا . . لا عشرة من عشرة بشير فؤاد ، أنا لما أعطيت تسعة من عشرة يعني أنت بشير فؤاد رقم اثنين) . .

هذه القصة حدثني بها كامل نفسه ، وكلمة (أفرين) حرفتها العامية العربية حيث نقول (عفارم عليك) ومادام الشيء بالشيء يذكر فقد كنا نحن الأربعة المحمدين ، ندرس الرياضة العالية على أستاذنا حسين طه في سطح المدرسة ، نستعين على الفانوس بنور القمر ، نصلي المغرب في المسجد . . خطوات قليلة إلى المدرسة . . نركض على الدرج نجد الأستاذ قد جلس ، كنا نحيا ذلك والمدينة محاصرة ، الدويش في قباء والفرم في العوالي والنشمي في العيون والمدينة محكومة بحكام أربعة كل على حاله . .

وفي إحدى الليالي ونحن نقرأ ، مرت على سماء المدرسة قنابل ثلاث ، واحدة بعد الأخرى أطلقتها قلعة (سلع) على جنوب المدينة فقلنا ، ليس ببعيد أن تسقط قنبلة علينا ، ولكنها ولله الحمد لم تسقط وشهدنا أيضاً ـ ولله الحمد ـ الخلاص من التريك ومن بعثرة الحكام إلى ما نحن فيه الآن . .

وعن حكام الأقاليم يذكر ساطع الحصري ـ أبو خلدون يرحمه الله ـ أنه ، ويعني

«اليوسف» حاكم دمشق والشهابي حاكم لبنان أو هو الأمير والجزار حاكم عكا، قد اجتمعوا في عكا يخططون لثورة ضد السلطان يفصلون فيها الشام عن الأناضول ثم يفصلون الشام قطعة .. قطعة يلبسها الواحد منهم. يقول ساطع الحصري: لقد اجتمع هؤلاء ولكنهم تفرقوا سريعاً لأن قبائل عربية زحفت من نجد على الشام عن طريق بادية الشام، فإذا بهؤلاء الزعماء يرجعون إلى عواصمهم وهم يقولون (الوهابية .. الوهابية)، إن ساطع الحصري يورد هذا الأمر بأن آل سعود وبعقيدة السلف هم كانوا قوميين عربا، وانقذوا الدولة العثمانية من الثورة الشامية وعاش ساطع الحصري حتى كانت الشام المعول الأول الذي هدم الدولة العثمانية، كان ساطع الحصري فرحاً بذلك لأنه قومي ولو عاش إلى الآن لترح من ذلك لأنه ليس إقليمياً ..

الرجال

والرجال الذين نتحدث عنهم في الذكريات، ينبغي أن يكون الحديث شاملاً عن المكان الذي هم فيه والمكان التي لهم والإمكان الذي تسلطوا به، فلهم إحسانهم وعليهم أخطاؤهم ..

إن المدينة المنورة ظل قضاؤها - أي محاكمها الشرعية وعن طريق الوارثة القديمة للإمارة ذوي حسين الجمازيين التي عاشت دهراً طويلاً - ظلت هذه المحاكم وقضاؤها على فقه الإمامية، يعني فقه جعفر بن محمد الملقب (بالصادق) مؤسس المذهب الإمامي، وعندما اضمحل سلطان الأشراف ذوي حسين، بسبب النزاع فيما بينهم حتى هاجر بعضهم إلى مصر فأقطعهم السلطان - وأحسبه «الصالح أيوب» - أرضاً في أقصى الصعيد هي قنا فانتشروا فيها إلى الآن، وبعضهم نزحوا إلى الوارقية والحفنة وبعضهم مكث في العوالي، فحانت الفرصة بهذا العجز وبسلطان القوة التي ملكها (ابن فرحون) فألغى القضاء الشيعي وأصبحت المحاكم على فقه المذاهب الأربعة، حنفياً في الأكثر تبعاً للسلطان وأحياناً شافعياً أكثر ومالكياً أقل وحنبلياً نادراً ...

وعجيب أن يكون مذهب إمام دار الهجرة قد عاش الغربة في دار الهجرة، قلتها وكنت جالساً في بعض الكليات وفي مكة زائراً وجاء أستاذ طويل عريض قد ارخى لحيته وما صغرت عمامته يقول لمأمور المكتبة الباكستاني: خط مسند أبو حنيفة ومسند أحمد، فقلت بحرقة وأين موطأ مالك؟! فقال الشيخ (بعدين .. بعدين) قلت: لقد أنصفت مالك حين سجلت لنا أنه يعيش الغربة في وطنه .. أحسبك ماذكرت أحمد بن حنبل إلا تزجية ولا تزكية من هيبة مشايخنا، فازور واكفهر وقال للمضيف .. من هذا .. من هذا ؟!

«يعنيني»، قلت له: طالب علم من دار الهجرة وعلى مذهب مالك، فانصرف غاضباً، ولكني أدعو له يرحمه الله . .

إن ابن فرحون أرخ عن هذه الحقبة وكتابه موجود ومخطوط، فأرجو الجامعة الإسلامية أن حال مافي أواخره عن طبعه فلينهض رجال يلخصونه تحت عنوان (خلاصة تاريخ ابن فرحون أو ما إليه) خروجاً من الحرج وخروجاً من أن يطبع جزء من الكتاب ولا يطبع الباقي، فالتلخيص جائز، فمن أعاظم الكتب مالخص . .

وصنيع ابن فرحون واللفيف الذي التف حوله في داخل المدينة، أشاع نوعاً من الضغط على بعض أهل المدينة القدامي سواء كانوا من الأشراف أو من غيرهم . .

وسمعنا عن السيد جمال الليل لعله من بقايا عصر عبد المجيد وأكثر عصر عبد الحميد أو الجد الأعلى قبل ذلك. جمال الليل ننطقها في المدينة (جمل الليل) هو من أعيان السادة (آل باعلوي) عظم نسلهم في حضرموت كثرة ومكانة وإمكانة . .

فالسيد في حضرموت له المقام الأول، وانتشر أعيان منهم في ماليزيا وأندونسيا (كالكاف والسقاف وجمل الليل) وانتشر في المدينة وفي مكة، ولهم احترام كبير، فالحبشي والعطاس والسقاف والبيتي والمحضار والبار وباروم وباجنيد والجفري، كل هؤلاء يحفظون نسبهم وهم أشد الأشراف صوناً لشجرة النسب، وهم من ذرية الحسين بن علي، فالحسينيون أشراف المدينة الأولون وآل باعلوي والبطاطخة والمخادمة في قنا وآل بدر الدين في بخاري والكتانيون في المغرب كل هؤلاء حسينيون. وكان لآل باعلوي امتياز، فشيخ السادة في مكة وفي المدينة هو منهم، وعرفت في المدينة أول شيخ لهم السيد علوي سقاف جد السيد عمر السقاف الوزير ثم السيد عبد الله جمل الليل ثم السيد بافقيه، ولا أدري بعد أن خرجت من المدينة من هو الشيخ . .

وما ذكرت جمل الليل إلا لأنه حمل عصاه كأنما هو ورث ابن فرحون اشتد ضغطه على الشيعة، لماذا كان ذلك، لو كان الأمر متعلقاً بغيره لما سألت، إن هذا السيد له البيت الكبير قصراً فخماً في مقعد بني حسين على حافة السور الغربي للمدينة بمحاذاة باب المصري، هو من القصور التي تعد، ولا يكاد يشبهه في المدينة إلا بيت البري على حافة العنبرية وأمام مسجد الغمام وبيت الرفاعي في شرق المدينة على حافة السور كأنما بيت جمل الليل وبيت الرفاعي قلعتان، إني أسأل كيف استطاع جمل الليل الجد الأعلى لهذا البيت أن يملك هذا في مقعد بني حسين، وقد كان هذا المقعد سكناً للذين سمي باسمهم، هل اشتراه من مالكه الأول الحسيني؟ ولعله كان قصر الأمير، هل ملكه بالوراثة؟ لأنه نمى إلى علمي أن جدته

(من بيت سبتي) الذين هم كبيت النحاس والمشيخ من أقدم بيوت الشيعة . . إن هذا البيت يغري كل من رآه أن يقول (ياليت لي بيت زيه) هو أشبه ما يكون ببيت موسى بغدادي في جده الذي أصبح مكاتب جفالي ومن إليه، وليس هو شبيه بقصر شبرا أو القصر المشنشن في مكة يعني القصر المحروق (أيضاً «جفالي أخوان»)

السيد الصافي

ومن رجال عبد المجيد ولم يلحقه أذى في عصر عبد الحميد هو السيد الصافي الجفري، عاش كثيراً في اسطنبول وارتبط بصداقة قوية مع جمال الدين الأفغاني وفي عصر عبد الحميد صار شيخاً في المدينة، أنا شهدته عام ٣٤ هجرية ولما أكمل العاشرة كان يركب عربة يدفعها خادمه لأنه لا يستطيع المشي، بنى بيوته في الساحة، واقتنى أغلى المجوهرات يقولون (ثلاثة عرايس في المدينة يمكن أن يتحلوا بمصاغ جارية من بيت الصافي) أدوات المائدة ما أحسب أنها موجودة عند أحد الآن، لأن الترف ضاع بشيء من السرف لبسه الاستعجال لا الذوق، ابنه زين صافي الأكبر وابنه أحمد كان أحد الطلائع في المدينة . .

جعفر حبشي بن السيد علي، أحمد الصافي، عمر كردي قبلهما، عبد الله مدني، يحيى محروس، حمزة غوث، دياب ناصر، على ناصر أحمد كماخي، حسن داغستاني، كانوا فبانوا يرحمهم الله.

وللسيد الصافي طرفه فيها كبرياء، كانت مع السيد أحمد أسعد وللسيد الصافي شهادة عن علاقته بجمال الدين الأفغاني، وجمال الدين الأفغاني يرحمه الله أدى فريضة الحج مسلماً ناصر عقيدة السلف ناضل عن الإسلام ولكن الطرقيين والمتحذلفين والصبية المغفلين يتسافهون عليه، حتى أصبح الموت لا حرمة له . .

الطرفة مع السيد أحمد أسعد أنه عندما تولى رشاد واستغول الاتحاديون رجع السيد أحمد أسعد إلى المدينة فزاره السيد الصافي وإذا هو يرى على السيد أحمد (صاقو) أي الجاكيت الذي يرتديه من السليمي أغلى الصوف وأغلى الحرير فلما انتهى السيد الصافي من كرامة التزاور دعا السيد أحمد إلى الغداء في بيته الكبير في الساحة واسمعوا ماذا صنع أو اقرأوا . . (أهي التلفزة والأذاعة حملتني أن أقول اسمعوا بدلاً من اقرأوا؟!)

أعد المائدة في المجلس الأعلى ليكثر عدد الدرج، لماذا؟ لأنه فرش الجر السليمي من باب البيت عتبة عتبة إلى المجلس الفوقي بهذا القماش الحرير السليمي الذي كان الحزام فيه - في ذلك الزمان بأكثر من مائة جنيه ذهب أفكم قيمة هذا الجر السليمي الذي فرشه السيد

الصافي حليته على الدرج تحية للسيد أحمد أسعد أو هو يقول له هكذا صنع لي عبد المجيد فماذا صنع لك عبد الحميد.

شغل أكابر:



السيد عثمان حافظ

أمـا عن جمال الـدين فقـد كنا عصر يوم عند الشيخ عبـد القادر طرابلسي وكان المجتمعون ماجد عشقي حسين طه أحمد صقر محمد زيدان عثمان حافظ، وجرى الحديث فإذا الشيخ يسب جمال الدين لأنه كان صديقاً ليوسف النبهاني، فالشلبي والنبهـاني لهما رأيهما في جمال الدين، فقال الشيخ عبد القادر: وهابي جمال الدين ما يحب النبي، فنهض السيد أحمد صقر يقول: لا يامـولانا رأيت بعيني كتاباً من جمال الدين إلى السيد الصافي جاء فيه (لقد أديت فريضة الحج وحبسني حابس الفيل عن المسجـد النبـوي فأرجوك ان تقف قبر رسول الله تقرئه سلامي تقـول « تابعـك خادمـك جمال الدين يقرئك السلام» وأشرقت وجوه واكفهرت وجوه..

اللهم امنعني عن سب الأموات وارحمني بالكف عن أذى الأبناء بسب الآباء..

الملك عبد العزيز لم يصادر ملك أحد من الأشراف

والذكريات ليست إلا جغـرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهـد تاريخيـة، ليس منهـا أن تكـون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريـخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة ومـا أقـوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».







صورة عمرها اكثر من خمسين عاما ..

وليس أحمد أسعد أول الرجال عند السلطان عبد الحميد إذا نظرنا النظرة العامة بالنسبة لشئون الدولة العثمانية وإنما هو أول الرجال بالنسبة لما فعل في الحجاز وفي مصر . . كان طوال حياته التي عاشها ـ أيام السلطان عبد الحميد ـ مكلفاً بما ينبغي للحجاز أو بما يريده السلطان عبد الحميد وفي مكة كان الشريف عون الرفيق عبدلياً من أبي نمى استطاع أحمد أسعد أن يسحب صلته بمصر لأن أسرة أبي نمى العبدلي كانت ذات علاقة قوية بأسرة محمد علي وبكثير من المصريين لأن محمد علي هو الذي نصب محمد بن عون بدلاً عن الشريف غالب . . ولكي يحافظ الشريف عون الرفيق على إمارته لم يجف مصر كل الجفوة وإنما هو تعلق بأحمد أسعد فإذا هو يخطب ابنة السيد أحمد أسعد وأحسب أن اسمها فاطمة زوجاً لشريف عبد العزيز بن عون الرفيق . . كانت هذه المصاهرة التي أعطت للشريف عون الثبات على إمارته فلم يعزل رغم كثرة الشكوى منه إلى السلطان فأيما شكوى وصلت إلى السلطان عبد الحميد يراها أحمد أسعد برغبة السلطان وآخر شكوى وصلت (إلى المابين) كانت مضبطة وقعها أعيان مكة عرفت منهم عن طريق الرواية عميد آل الشيبي لا أدري أهو عبد القادر أو غيره والشيخ عابد مالكي ومن إليهم أخذ المضبطه أحمد أسعد وأرسلها للشريف عون فإذا الشريف يدير الأمر بحكمة فلم يدع أحداً من هؤلاء الذين وقعوا المضبطة بل أمر محمد عبد الواحد الكاتب والد درويش كاتب أن يخبر هؤلاء بأن الشريف علم عنهم فخافوا بطشه وخرجوا إلى الطائف . . . وهنا العجب . . كيف أمنوا في الطائف هل لأنه تركهم أم لأن نفوذه ليس قوياً على الطائف . . على ثقيف . . على بني سفيان . . على النمور سيان ولكن عون أقسم أن يرفعوا الأقلية عن الأكثرية أو المقلين عن الكثيرين . .

تجنبت ذكر الكلمة نصاً سمعتها من الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن تغمده الله برحمته وهو يدفع عن نفسه أن يكون مثل من سبق وجدير بي أن أؤيد ذلك فعبد العزيز بن عبد الرحمن لم يصادر ملك أحد من الأشراف ولم يرزأ أحداً منهم بسوء حتى أبناء عون حينما كشف أمرهم خرجوا بسلام ومعهم مايملكون وآل غالب لم يصادر لهم شبراً من الأرض بل فعل العظيم من فعله دعاهم أن يرجعوا إلى مكة من الأناضول . . أبناء عمهم لم يرجعوهم وأرجعهم عبد العزيز وأعطاهم ما يملكون فإذا هم في العزة يعيشون وفي الوطن لا يغتربون .

أحمد أسعد ثبت عوناً في إمارته طول حياته ومات عون في أواخر عصر عبد الحميد وفي جدة كان مع الأفندي عمر نصيف يساعده ينصره على موسى بغدادي حليف العبادلة فمكث عمر نصيف السيد في جدة يصاهره أحمد هزازي والحاج زنيل وبيت طبيله والمغربي لقد صنع أحمد أسعد لعمر نصيف الشيء الكثير وقد رأيت الأفندي محمد حسين نصيف

وكان له في جدة وفي العالم الإسلامي وعند آل سعود ومشايخنا مقام كريم رأيته الوفي لأسرة أحمد أسعد.

أما في مصر فهي العجيبة والعهدة على الرواة سمعنا ان الخديوي إسماعيل لجأ إلى أحمد أسعد ليصدر فرماناً من السلطان بحصر وراثة الخديوية في إسماعيل وبنيه فلم يتول الأمر في مصر بعد إسماعيل إلا بنوه توفيق وابنه عباس وحين خلع عباس ـ على يد الإنجليز ـ تولى السلطان حسين كامل لأن الانجليز ألغوا الخديوية وأحدثوا السلطنة ثم تولاها الملك فؤاد بن إسماعيل ثم ابنه فاروق «وتلك الأيام نداولها بين الناس» إن ذلك يدل دلالة أكيدة على خطورة ما صنع أحمد أسعد ولا أريد أن أنسى أن الملكة دينا ابنة الشريف عبد الحميد بن عبد العزيز بن عون كانت جدتها بنت أحمد أسعد.

وفي المدينة المنورة ارتفع قدر بعض الأسر الذين كانوا لأحمد أسعد أصهاراً أو أصدقاءاً وللإنصاف لم يضغط أحمد أسعد على الأسر القديمة وإنما هي الأسر الجديدة التي ترسخت لها أقدام في المدينة هي التي ارتفعت بنفوذ أحمد أسعد ولا حاجة لذكر الأسماء حديثها وقديمها.

ودالت الأيام وفي عهد الأشراف فرغت ـ يد السيد أبو السعود بن أحمد أسعد ـ فإذا بابنه هاشم مفتش في البلدية وإذا بالسيد عبد المحسن أسعد وحسن أسعد يعيشون في مصر فتناسلوا هناك لأن القصر في مصر حفظ لأحمد أسعد صنيعه.

ولا أنسى مرة أخرى أن الخديوي إسماعيل عندما تلقى الفرمان وهب السيد أحمد أسعد خمسة عشر ألف فدان من الأرض الجيدة فرفض قبولها أحمد أسعد وقال: لا آخذ أجرا أو رشوة على عمل كنت الوسيط فيه لدى السلطان.

وفي هذا العهد ـ عهد المملكة العربية السعودية أقص خبرين عن أبي السعود أحمد ـ أو هما أخبار ثلاثة ـ

فالخبر الأول كان في حفل زواج ابنة السيد أحمد أسعد على محمد رضا والد السيد أحمد رضا وأرسل الشريف عون من يمثله وموسيقاه على رأسها يوسف قطان ويذهب عمر نصيف يستقبل الضيوف كأنه من أهل البيت فقال أبو السعود لعمر نصيف (خلي الشيخ يوسف قطان يدخل مع الضيوف) فقال عمر نصيف لا .. خليه يحافظ على مقامه فيما هو موكل إليه).

والخبر الثاني وفي هذا العهد الميمون في أوئل الخمسينات الهجرية وصل إلى المدينة يوسف قطان وابنه عباس ورغب أن يشتري أرضاً في المدينة ولعلكم لم تعرفوا أن عبد الله باشا باناجه

ويوسف قطان وبعض العبادله كانوا أصحاب ملك في مصر وبواسطة السادة آل المدني زين العابدين وإخوانه توسطوا عند أسعد إبراهيم أسعد فاشترى حصته من أرض السبيل أمام باب الشامي أمام شيخ النمل أمام سقيفة بني ساعدة وعند كتابة الصك يبيع أبو السعود أسعد حصته من السبيل كان القاضى السيد أحمد البرزنجي فعز عليه ألا يعلم أبو السعود أسعد عن هذا الذي يقسم أرض السبيل قسمين فبصورة وبأخرى أجل كتابة الصك لليوم الثاني وأخبر أبا السعود أسعد عن الصفقة وما كاد القاضى ينص الإفرغ بيع النصف ليوسف قطان حتى أوقف السيد أبو السعود أسعد نصف السبيل مشاعاً فأوقف ما يملك ليعطل القسمة تباع لما يملك ابن أخيه كبرياء وأي كبرياء مع أنه كان في حاجة ماسة إلى قيمة هذا النصف لو باعه وبلغ التعصب المديني يحيى أبو السعود أسعد ولكن الملك عبد العزيز عوض عباس قطان بارض المرادية على عدوة بطحان «أبو جيده» وعلى الشرق من حزم العنبرية.

أما الخبر الثالث ففي ضحى يوم كنت أجلس عند الصديق صلاح الدين عبد الجواد في دكان أبيه في سويقة فإذا أبو السعود أسعد وصل إلى حيث نجلس قادماً من جهة المسجد وإذا أبو أحمد سعود دشيشة قادم من جهة باب المصري إلى المسجد فأمامنا والشارع ضيق تحاذي كتفا الرجلين فلم يقرىء سعود دشيشة السلام على أبو السعود ولم يقف لتحييه حتى إذا مر خطوة التفت أبو السعود أسعد ينظر إلى سعود دشيشة نظرة محترقة حارقة . . إنها خصومة محمد ظافر وأحمد أسعد بعد أن زال كل شيء لهما بوفاة السلطان عبد الحميد فسعود دشيشة كان لمحمد ظافر والأيام دول . .

المدرسة وخريجوها

وقلت أكثر من مرة إن الأمية قد انمحت من المدينة قبل أكثر من مائة عام . . مدرسة إعـدادية . . وثـماني عشرة مدرسة تحضيرية . . وأكثر من خمسة عشر كتّاباً، ومدرسة دار المعلمين كل هذا الكم مضافاً إلى المسجد محا الأمية فإذا أبناء المدينة يحملون عبء الوظائف في اللاسلكي ومشروع الخرج والسكة الحديد ووزارة الدفاع وفي مصالح أخرى . . الأمية حين انمحت أصّلتهم والقسوة حين اشتدت أرستلهم . .

إن الذين تخرجوا من المدرسة الإعدادية كانوا طليعة الرجال في المدينة. لم تحتج وظائف الدولة إلى مجلوب أو متقاعد ولعلي أسرد أسماء الذين تخرجوا من هذه المدرسة من الفوج الأول جميل أحمد، ماجد عشقي، محمود أحمد، صالح كردي، أكلوراني، إسماعيل حفظي، حامد حمد الله . . وبعدهم طالب توفيق، عباس توفيق، عبد الله توفيق وبعدهم حسين طه، أحمد أبو بكر حمد الله، محمد علي طه، محمد مغيربي، عبد القادر عبد الجواد وبعدهم مصطفى

عطار، صالح طوله، محمد خاشقجي، على حمد الله، أحمد زارع سنده، كامل هاشم. . كل هؤلاء عملوا وكانوا الطليعة.

وأحب أن أضع تعريفاً ليس هو الترجمة لواحد من الذين ذكرتهم والذين خرجتهم المدرسة فأصبحوا الرجال أدوا الواجب نحو أنفسهم وما تأخروا عن تحمل ماينبغي لمدينتهم، أحب التعريف لهم بالقدر الذي عرفت به كلهم رأيتهم وعرفت أكثرهم معاشرة أو ومصادفة أو سماعا.

ماجد عشقي

السيد ماجد عشقي ما كان يصلح صاحباً وإنما هو الصالح بكل الصدق صديقاً، ابتعد عن الكثير واقتربت منه قلة تصادقه عقله أقوى من عاطفته، لأن عاطفته حصرها في الحب العظيم فاقتصرت على هذا الحب، تزوج هذه الحبيبة وهي ابنة زين العابدين توفيق أبو السيد ماجد خاله، فهي من نسل عمته، أحبها، سعد بها، لكنها ماتت نفساء في أيام قاهرة يوم احترقت القلعة في باب الشام. . يومين متتاليين قذفت قنابلها على البيوت التي هي قريبة منها (زقاق جعفر، حوش العبيد) كان الحريق لم يتجه إلى سمت الجنوبي، ولم يغرّب ولم يتشامل، ماتت الزوجة فبقى السيد ماجد ثمانية عشر عاماً لم يتزوج ثم تزوج ابنة أستاذنا الشيخ قاسم انـديجاني فهي أم بنيه الآن، وحين تخرج السيد ماجد عين مديراً للمدرسة الرشدية في جدة، ومصادفة غريبة ـ أو هي حبيبة ـ أن يتولى إدارة مدرسة جدة اثنان . . صديقان ومن زقاق جعفر الأول ماجد عشقي في عهد الأتراك والثاني السيد أحمد صقر في عهد الأشراف، وأصبح الاثنان بعد زميلين كأستاذين لنا. .

وحدثت للسيد ماجد طرفه، حانت الإجازة وعزم على الرجوع إلى المدينة، أحب الرجوع سريعاً . . لم يركب الجمل من جدة إلى المدينة فالمراحل طويلة لعلها تبلغ أكثر من ثمانية أيام، فعرف أن السفينة الشراعية مسافرة إلى ينبع، فأراد أن يختصر الزمان . . هي ليلة من جدة إلى ينبـع في السفينـة وأربعة ليال من ينبع إلى المدينة، ذهب إلى السفينة وقد طلع الهلال، رأى الهلال على وجه أحد مودعيه فتفاءل برؤية الوجه الجميل ولكن لم يصل إلى ينبع إلا بعد ثمانية عشر يوماً! لأن (الحاية) أي الريح عاكست السفينة الشراعية.

وجاء يوم وإذا هذا الشاب أصبح رجلاً كبيراً قيمة ومقاماً يحييه السيد ماجد عشقي، يكتم الضحكة في صدره ثم يقصّ عليّ هذ ه القصة، قلت له لقد شاب، وحين رأيته الآن لم يكن الهلال، مرضت بذات الرئة كان يزورني وفي آخر زورة قام ليترك المكان إلى الزائرة (المحترقة) التي أحرقت المرض عني.

لقد كان السيد ماجد ذواقاً، فحين خرجت أزور المدرسة وأنا في دور النقاهة قال: كانت تلك الزائرة هي العافية للعافية، وحين احترقت لم أخبره لأني لم أرد نكء جراحه الأولى التي ما نساها إنما هو يتناساها..

حامد حمد الله

لعله من الفوج الأول من الذين تخرجوا من المدرسة الحميدية. هو من أهل ينبع من بيت حمد الله وزارع أخاه علي حمد الله وأبناء عمه آل زارع، رأيته في ينبع أيام فخري باشا حينما سافرنا إليها، ابن عمه أبو بكر حمد الله كان مدير المدرسة. رأيت حامداً أبيض طوالاً كان في ينبع مديراً للسوقيات وحسين باسلامة رئيساً للبلدية بعد عبد القادر عبده والسيد مصطفى الخطيب القائمقام، السوقيات هي تموين الجيش الشريفي، سواء ما يسمونه عرض الشريف علي في «الفريش» أو عرض الشريف عبد الله في «وادي العيص» أو عرض الشريف فيصل يوم تشامل حتى العقبة وبعد العقبة كان التموين له عن طريق آخر، لكن كيف أصبح مديراً للسوقيات؟

يتسلم كل ما يصل إلى ينبع عن طريق العون الإنجليزي من المال والدقيق والسكر والشاي وما إلى ذلك. كان المدير الأول للسوقيات صادق باشا يحيى المصري الذي أصبح فيما بعد وزيراً للحربية المصرية، وضاق الحسين بن علي به كما ضاق بعزيز علي مصري وكما ضاق بكامل القصاب فقال الحسين يرحمه الله من لي بحجازي، يدير السوقيات فكان حامد حمد الله هو الذي أمسك بها.

والغريب أنه ما ترك ثروة وراءه ولقد تولى بعد ذلك رئاسة ديوان أمارة المدينة قبل عبد الله عمير أو قبل رشيد أفندي، أما أخوه علي حمد الله فكان في الديوان مسئولاً عن البرقيات والشفرة، حامد حمد الله وعلي حمد الله هما عمان لوالد الدكتور حامد حمد الله مدير بنك القاهرة وعلي حمد الله والد حامد حمد الله الذي كان سكرتيراً لوزير المالية للمملكة العربية السعودية حتى عهد معالي الوزير محمد أبا الخيل..

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (١٠)

عهد الاتحاديين . . هل كان صحوة الموت؟!

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

- **في عهد السلطان محمد رشاد . . عرفت المدينة الترف**
- **أمتياز خط برلين ـ بغداد سبب في موت الرجل المريض**

السلطان محمد رشاد والاتحاديون

وفي عهد السلطان محمد رشاد، في أواخرالعشرينات إلى أوائل الثلاثينات . . عاشت المدينة المنورة في رخاء بلغ حد الترف سواء في الحاضرة أو من حولها من القبائل . . توسع فيها البناء، فقد كان أهل المدينة الأوائل يبتعدون عن البناء في شمال المسجد المقارب له أو البعيد عنه، أعنى ما يسمى بباب المجيدي، غلب هذا الاسم على هذه الناحية، لأن أهل المدينة تجنبوا البناء هناك، عن عقدة تروى لهم.

وهو أن وادي مشعط موبوء، كما تجنبوا البناء شرق المدينة لا يقتربون من البقيع ولا يحبون أن يقطعوا النخيل في أرض الصدقة فأول ما اتسع البناء خارج السور كان في غرب السور، الأحوشة في سفح سلع وزقاق الطيار والسيح والعنبرية وأحوشتها، وفي الجنوب التاجوري والتاجورية والجديدة والبربورية ، وأزقة النخليين حتى باب العوالي، لكن الكثرة المهاجرة من التركستانيين والأتراك والمغاربة توسعوا في البناء فكانت الأرض التي اتسعت لهم هي أرض باب المجيدي ، لأن هؤلاء المهاجرين جاءوا بأموال ونمت إليهم بأموال من عملهم في المدينة، فأول بناء قام هو بيوت عثمان باشا من طابقين أرضي (حجرات) وفوقي (غرفات) حول بئر (حاء) ثم بنى البشناق وأبو عزة بيوتهم وبنى كذلك عبد الجليل مدني بناء على شارعين في باب المجيدي أمام بيت الدكتور أمين أفندي الطبيب التركي، وقد انفرد بيت الطبيب باللون الأبيض، وقد آلت ملكيته بالشراء إلى الشيخ عبد الرحمن القصيبي والد الدكتور غازي القصيبي فكلما وصل إلى المدينة يسكن هذا البيت وفي آخر الأيام من إقامتي في المدينة سكنت باب المجيدي وتركت بيتنا في السيح وبيتنا في زقاق الطيار لمستأجرين، وكان ذلك لأكون قريباً من بيت والد الزوجة محمد أبو داعوس ومن القرب لدار الأيتام التي تأخذ مني النهار كله وبعض الليل. حماسة أحمد الله عليها. وكلما وصل المدينة عبد الرحمن القصيبي كنت قريب الصلة به فأول ما عرفته أنا والشيخ محمود شويل يوم كنا في بومباي، فما استطاع مكتب الحاج علي زينل أن يهيء لنا سرعة الرحيل إلى المدينة على الباخرة لأن العودة كانت في وسط شوال عام ١٣٥٢هـ، فلجأنا إلى القصيبي واستطاع أن يعجل لنا السفر، من هنا عرفناه.

أما البناء بعد أن فتح بصري باشا الباب في السور فكانت هذه البيوت، بيت السيد محيى الدين والد السيد أسعد وجد السيد ماجد ثم بيت السيد علي الذهبي، وقد كان هذا البيت ينزل فيه الأمير شكيب أرسلان يوم جاء إلى المدينة هو مع عبد القادر المغربي الدمشقي لأن صلة شكيب أرسلان بالسيد علي الذهبي أتت من صلته في ليبيا، أيام كان الأمير شكيب هو وأنور باشا وخليل باشا مع السيد أحمد شريف السنوسي لمقاومة الغزو الإيطالي، لأن الذهبي ليبي من أعيان ليبيا، وكان هذا البيت أيضاً على مدخل الفيروزية التي هي من أملاك بيت حماد، وعلى المدخل الغربي بنى السيد زين العابدين مدني بيتاً كبيراً لم ينتفع به، كما أن السيد عبد الجليل مدني لم ينتفع ببيت باب المجيدي، كما أن السيد عبد الله مدني قد بنى البيت الكبير في باب المجيدي حول (صيّادة) البستان القديم من عهد الرسول ﷺ لم ينتفع أيضاً به، كان يناؤه كفندق ولكن كان النفع لابني السيد عبد الله مدني، حيث كان السيد عبيد عضو مجلس الشورى وله مقامه وله مكانة من الصداقة لمحمد سرور الصبان

فاستطاع السيد عبيد أن يبيع هذا الفندق بواسطة محمد سرور إلى الملك سعود يرحمه الله، وكان في ذلك له قيمة من الشكر لمن بنى الفندق ولمن باعه ولمن اشتراه، والله يضع البركة حيث يشاء.

وكان باب المجيدي قد اتصل بالتمار حيث بنى السيد علي حبشي بيوته هناك، وكذلك آخرون، أما خارج باب الشامي فهناك بيتان شهيران، كما ذكرنا من قبل بيت الجلوني من أغنياء مصر وقد كان لهم ملك في المدينة، الجلونية في قربان وخيف السيد على حافة وادي قناه، على مدخل العيون، وقد اشترى إبراهيم فراج والد عيد فراج وعلي فراج، هذا الملك من الجلوني وبيت فراج لعله على صورة ثانية من محمد محروس بالنسبة لما ملك من النخيل. ، ومصادفة أن إبراهيم فراج ومحمد محروس من صعيد مصر ومن مديرية قنا، أعرف أن محمد محروس صاحب الملك الكبير في العيون من (أبنود) وقالوا لي إن إبراهيم فراج ومصطفى عبد العال التاجر الذي حمل كتاب الشريف شحاذ بن علي إلى الملك عبد العزيز يرحمه الله، يطلب منه أن يرسل أحد بنيه ليدخل المدينة سلماً، مصطفى عبد العال أيضاً هو من صعيد مصر كمحمد محروس، ككاتب هذه السطور، غير أن أولئك من قنا ومن أبنود، أما كاتب هذه السطور فمن أسيوط ومن قرية المطيعة بالذات. وهناك معايرة لأهل أبنود لأنهم يحترفون التجارة وجمع المال أذكره وأرجو ألا يغضب الابن نذير محروس ومن إليه من أولاد العم حين أذكر هذه المعايرة.

(عاشر يهودي ولا تعاشر أبنودي!!) يعني أنهم أكثر عملا في جمع المال، وقد صح هذا المثل في جمع المال من الذين ذكرناهم، أما كاتب هذه السطور فقد ورث من البداوة بعثرة المال.

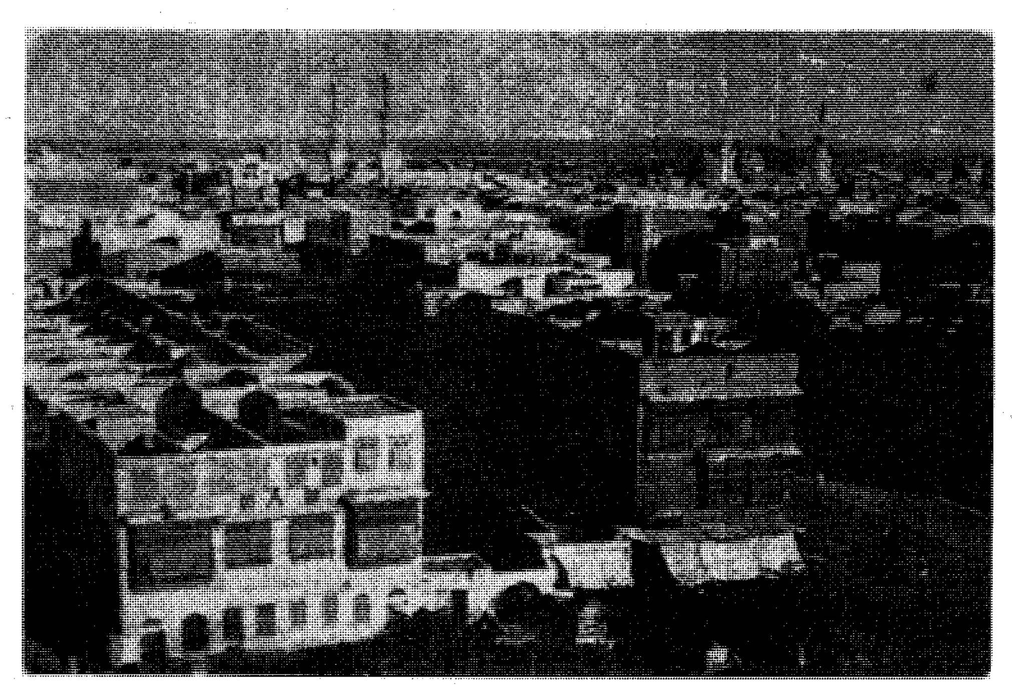
إن هذا العهد الرخي جعل الناس في المدينة يستبشرون بعهد السلطان رشاد كما كانوا مستبشرين بعهد السلطان عبد الحميد.

لقد تولى السلطان رشاد ملك آل عثمان بثورة حزب الاتحاد والترقي تحت شعار ما تلقفوه من الثورة الفرنسية (حريات . . عدالات . . مساوات . . أخوات) إن هذا الشعار لم يكن إلا عن عنعنات وسبيلا إلى السلطان فقط، فلا حرية للبلقان ولا عدالة للأرمن ولا مساواة مع العرب ولا أخوة مع مصر بصور خاصة . .

إن الاتحاديين أعلنوا التعاون مع ألمانيا بصورة جهيرة فأكثرهم ضباط تعلموا في مدارس ألمانيا، كان رئيس الوزراء الصدر الأعظم طلعت باشا فانتشر اسم طلعت في العالم العربي، وكان من الوزراء ومن كبار الا تحاديين أنور باشا وانتشر اسم أنور، كما كان نيازي من كبار

الاتحاديين وانتشر اسمه كذلك، كما انتشر اسم جمال وفخري وكلهم من الاتحاديين، ويعني ذلك من انتشار هذه الأسماء أنهم مكان إعجاب فالعواطف أعجبت ولكن النتيجة لو عرفها أهل العواطف لما كان هناك هذا الانتشار لأسماء الاتحاديين، كل أقطار الدولة العثمانية كانت تطالب باللامركزية، ببعض الحكم الذاتي ولو عقل الاتحاديون ما ينذر به المستقبل من وراء صداقتهم لألمانيا ومخافتهم من روسيا وعداوة الإنجليز والفرنسيين لهم لما أسرفوا بهذه القومية التركية فأعلنوا الطورانية، إن لم يذكروها بلسان فقد نصبوا التريك في المدارس، التعليم في المدرسة التحضيرية إلى غيرها كلها بالتركية، فلم يعد هذا الأمريطاق فاحتضنت فرنسا مؤتمر باريس المشكل من الشباب السوريين ومن إليهم خليل عبد الكريم والزهراني وغيرهم ومن تأسيس حزب العهد.

ياسين الهاشمي فيصل وعبد الله بن الحسين وغيرهم من العرب ولما اتهموا عزيز علي المصري حتى كادوا يشنقونه مع ياسين الهاشمي وعزيز المصري من كبار قواد الدولة العثمانية، لقد بقي عزيز المصري قائد الجيش الثامن، وهو القومي العربي مع الدولة إلى أن سقط جمال باشا في دمشق وإلى أن دخل فيصل بن الحسين دمشق، وفاء عربي وانضباط عسكري يرحمه الله ياسين الهاشمي ولا بد أن أذكر موقفاً كحادثة بسيطة بالنسبة لمكانة ياسين الهاشمي يوم كنت قومياً أحمر قبل أكثر من خمسين عاماً، كنت ألقي درساً في التاريخ في المدرسة الأميرية، يوم كنت أستاذاً فيها، وجاء قاصد يقصدني الأستاذ حسام الدين



مصطفى مأمور اللاسلكي والمنتدب لتدريس اللغة الإنجليزية في المدرسة جاء قال لي: ثورة في العراق قتل ياسين الهاشمي، فما استطعت أن أتماسك جلست على الأرض على ركبتي حسرة وأخيراً خرجت من الفصل أستأذن أذهب إلى البيت، حسام الدين مصطفى عرف الخبر سمعه من اللاسلكي، لأن المدينة حينذاك لم يكن فيها راديو وفي العصر بعد أن استرحت ذهبت إليه فعرفت التفصيل لم يقتل ياسين باشا يعني أنهم لم يسيلوا دمه في العراق وإنما هم قتلوه وحين رحل من بغداد يموت في بيروت.

ما أكثر خسارة العرب لهؤلاء الرجال وما أكثر خسارة العرب بالسيء من الرجال.

والاتحاديون ورثوا عن علاقتهم بألمانيا السبب الذي كان من الأسباب التي أشعلت الحرب العالمية الأولى أو هو السيف الذي أجهز على الرجل المريض كأنما عهد الاتحاديين صحوة الموت لأنه والحق يقال عسكر الدولة العثمانية كونوا جيشاً واقتنوا سلاحاً جديداً ومتطوراً في ذلك الوقت مدداً من ألمانيا، فازداد كيد الإنجليز وازداد نفوذ الفرنسيين

بين أهل الشام (فرنسا الأم الحنون) صداقة ألمانيا وتكوين الجيش والسلاح وخط برلين بغداد هي التي عجلت بالموت للرجل المريض.

إن خط برلين ـ بغداد امتياز أعطى لألمانيا سبب غضب الإنجليز لأن وصول ألمانيا إلى بغداد والخليج يعني وصولهم الهند. وحين سقط العرش العثماني ونهض مصطفى كمال لا يسأل عن أقاليم غير الأناضول، كل عقله وعواطفه مع الأناضول، لم يكن كأنور باشا عاطفياً، فبعد هزيمة الدولة ذهب أنور التركستاني طفرانياً فإذا هو يجيز الروس على السيطرة على تركستان ولا يمكن أن يحتمل أنور هذا السبب وإنما هي القشة قصمت ظهر البعير.

فالاتحاد السوفيتي روسيا الجديدة لا بد أن يحتل تركستان غير أن عمل أنور عجل بذلك.

مصطفى كمال كتب في مذكراته عن خط برلين ـ بغداد ما يعيب الاتحاديين وهو منهم غير أنه لم يكن من الجنرالات الكبار أول العهد، قال أن امتياز خط برلين ـ بغداد كان خطأ كبيراً فقد جاء في نص الامتياز أن هذا الخط لا تنحصر مساحته في ممر القضبان أو إقامة المحطات بل جاء في النص أن لصاحب الامتياز امبراطورية ألمانيا حينذاك الحق في امتلاك ثلاثة كيلو مترات شرق الخط يعني عرض الأرض لمرور هذا الخط ليست بضعة أمتار إنما هي ستة كيلو مترات من شمال الأناضول إلى شط العرب، يقول مصطفى كمال إن هذه الستة كيلو مترات ستصبح سكناً وملكاً لستة ملايين ألماني فماذا نصنع مع هؤلاء الألمان حين يصبحون ستة ملايين ألماني سوف لا يكونون أتراك، إنه يعيب هذا الامتياز من الناحية الوطنية سلب الأرض بينما عابه غيره بأنه السبب في موت الرجل المريض.

الثناء على الماضي عظة . . وذكر سوءاته عبرة
بسبب التتريك . . ثار العرب على العثمانيين

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

وقبل أن نبدأ بسرد الذكريات عن عهد السلطان محمد رشاد والاتحاديين، ينبغي أن نذكر للسلطان عبد الحميد، الحسن من فعله، فيهود (الدونما) الذين لجأوا من الأندلس تحت ضغط محاكم التفتيش كانوا أصحاب صولة في أزمير وفي الأستانة، إن الأسبان فعلوا بالمسلمين العرب وباليهود ما هو أشد شناعة مما فعله النازيون مع اليهود، فألجأ المغرب كله المسلمين ـ كما ألجأ السلطان سليمان ملك المغرب اليهود ـ لكنه أجبرهم على الإسلام فتظاهروا به تحت القهر ولم يكونوا بالمسلمين، . وتاريخ المغرب مدون به مايبرهن على ذلك، كما أن السلطان سليمان القانوني، وقد بلغ من القوة مكاناً لا يجد من ينازعه حتى أن البحر الأبيض المتوسط كان بحيرة عثمانية وحتى توسع في غزو البلقان ويوغسلافيا بل وحاصر فيينا، وقد أوقع امبراطور فرنسا في الأسر ثم أطلقه فيما بعد، فعل ذلك بشفاعة سيدة الحرملك ذات الحظوة لديه وكانت فرنسية، هذا السلطان سليمان القانوني على عظمته

كامبراطور مسلم - أعتلت في عهده الدولة العثمانية وقد لجأ اليهود إليها من الأندلس ولم يلجأ إلى الأناضول عربي أندلسي، من هنا كان أبو البقاء الرندي صاحب القصيدة الباكية على الأندلس كان يعني السلطان سليمان بكل ماجاء في هذه القصيدة، ومطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سرّه زمن ساءته أزمان

ثم يقول - ويعني السلطان سليمان:

ياراتعين وراء البحر في دعة
لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس؟
فقد سرى بحديث القوم ركبان

ثم انثر معاني ماجاء بعد يقول واصفا الطفلة التي هي في حسن الشمس إذا طلعت يقودها العلج مكرهة والعين باكية والقلب حزين، لقد أفرغ أبو البقاء المأساة المحزنة فلا يجد من يعاتب إلا السلطان سليمان يحاصر فيينا عاصمة النمسا ليطلق أسيراً ولا يتحرك لينقذ إسلامه ومساجده من جور محاكم التفتيش ولكن مع ذلك فالسلطان سليمان القانوني من أعاظم الملوك المسلمة..

إن يهود الدونما دوّنو تاريخ العثمانيين وسجلوا منهم أسماء لمعت وكانت ذات سلطان في الأناضول فليعد إلى تاريخ العثمانيين من يريد المعرفة ولا أستحسن ذكر بعض الأسماء التي لا أتأكد من إنهم من يهود الدونما، فهؤلاء اليهود أفسحوا المجال لليهودي رأس الصهيونية صانع البروتوكولات وصانع مؤتمر بال والمبشر لليهود بالوطن القومي وقد وصل إلى السلطان عبد الحميد يفاوضه ويطلب سكناً لليهود في قطعة أرض في فلسطين، فرفض عبد الحميد كل ذلك وخسر هرتزل الجولة الأولى في تحقيق الوطن القومي لليهود، وتعتبر هذه حسنة للسلطان عبد الحميد والحسنة الثانية بناء الخط الحديدي يصل دمشق بالمدينة والحسنة الثالثة أنه كان وهو الرجل المريض - كان مسلماً يرفض المساس بالأرض المسلمة فأكثر من المدارس في المدينة المنورة. وحُفظت مكتبة عارف حكمت ومكتبة السلطان محمود.

وخلع السلطان عبد الحميد، ولعل إمبراطور ألمانيا كان وراء ذلك - ولعل غزو كاترينا الروسية أيضاً من أسباب ذلك ولعل استغوال الإنجليز على طريق الهند كان من أسبابها أنا لا أذكر تاريخاً مفصلاً وإنما أذكّر به لعل الثناء على الماضي عظة، والذكر لسوءة الماضي عبرة،

ومن عجب أن الذي تولى خلع السلطان عبد الحميد هو الضابط الكبير الشركسي المولى العراقي التركي محمود شوكت، لم يرأس الحكومة الاتحادية وإنما رأسها طلعت باشا، ومن رؤوسها أنور باشا وعمه خليل وجاويد وجمال وفخري، لقد كانت حكومة طورانية، فقبل الاتحـاديين كانت الطورانية ناعمة هادئة ولكن الاتحادين جهروا بها ونشروا مدارسهم في الأقاليم العربية تمارس التتريك كأنهم حسبوا العرب يطيقون ترك لغة القرآن للتتريك، فإذا هو - أعني التتريك - السبب في تحرك الأقاليم العربية، تطلب في أول الأمر اللامركزية حتى إذا بزغ الضوء الأخضر أرسله الحلفاء - بريطانيا وفرنسا - وجد العرب أنفسهم للخلاص من التتريك ثائرين حلفاء للحلفاء ولكنهم ركنوا إلى من لم يتبع دينهم صليبي بأسلوب آخر، فإذا العـرب فرق بمعـاهـدة (سـايكس بيكـو) وقسمت الامبراطورية العثمانية بين فرنسا وبريطانيا ولم يعرفها العرب إلا حين أعلنها الشيوعيون بعد أن أسقطوا القيصرية، فأصبح القيصر لينين ومن إليه، ثم وجد العرب أنفسهم أمام وعد (بلفور) اليهود والوطن القومي. ولا يفوتني أن أعرج على موقف حزب الأحرار في بريطانيا الآن يعلن رئيسه إنصاف العرب مع أن وعد بلفور لم يكن إلا من صنع حزب الأحرار يوم كان رئيسه لويت جورج الرئيس لوزارة بريطانيا في الحرب العالمية الأولى فلويت جورج هو الذي منح اليهود وإن سمي بوعد بلفور «وزير الخارجية» ولم يكتف حزب الأحرار بهذا الوعد بل إنه رسخه حينما عين أحد كبار أعضائه - الذي خلف فلويت جورج في رئاسة حزب الأحرار اليهودي - عينوه المندوب السامي الأول في فلسطين، فهو الذي مكن لليهود أن يشنقوا الضباط الإنجليز يعلقونهم في الاشجار ويضربهم بالسياط مناحم بيجن، فلم تغضب بريطانيا من هبرت سومائيل وإنما غضبت من مناحيم بيجن فأصدر القضاء البريطاني حكمه بالإعدام.

ولم يكن بعيداً أن يمسكوا به وقد كانوا دولة الانتداب في فلسطين لكن هذا الحكم كان استهلاكاً محلياً لإرضاء الشعب البريطاني، ومع هذا فإن مناحيم بيجن وهو يرأس حكومة إسرائيل يزور بر يطانيا ويقابل باحترام لأنهم مسحوا القضاء، لقد كان ذلك إذلالا لبريطانيا إذ لم يصدر عفو رسمي وإنما هو السخر ية بالقضاء. « هي الأمور كما شاهدتها دول».

وانتهت الدولة العثمانية وثار مصطفى كمال ولم يسأل عن الطورانية خارج الأناضول وكان كل همه أن تبقى تركيا دولة في الأناضول، انتصر على اليونان وهزم حملة الدردنيل، ولكنه لم ينتصر بطورانية الأناضول أن يهدم منارة في مسجد.

فلا زال شعب الأنـاضول مسلماً، خضـع لبعض التغيير ولم يخضع ليهدم منارة عليها المؤذن أمام قبر أبي أيوب الأنصاري.

مجلس المبعوثان

وأخذنا الاستطراد لأتذكر ما صنعه الاتحاديون من تأسيس البرلمان، كان تحت اسم (مجلس المبعوثان) تسمية تركية لو عربوه لقالوا (مجلس المبعوثين) أو المبتعثين. ولكن لغة التتريك أصرت على ذلك، لقد كان هذا المجلس بالاختيار لا بالانتخاب، ويهمني أن أذكر المبعوثين من الحجاز لأني لم أعرف المبعوثين من الأقاليم الأخرى، إن المبعوثين من الحجاز والذين يمثلونه في هذا المجلس كانوا خمسة الشريف عبد الله بن الحسين وأخوه الشريف فيصل بن الحسين عن مكة وحدها أو عن الطائف معها، هو اختيار كما اختير من جدة قاسم زينل أخو الحاج محمد علي زينل مؤسس الفلاح وأخو الحاج يوسف زينل، أما عن المدينة المنورة فقد صادف الاختيار محله فكان المختاران لهذا المجلس يمثلان المدينة المنورة مأمون بري والسيد عبد القادر هاشم، رجلان من بيتين لهما قدم سابقة في المدينة المنورة وقيمة لم تسبق داخل المدينة بأحمد أسعد ومحمد ظافر، فبيت البري وبيت هاشم لهما عراقة في المدينة وعراقة النسب من هنا قلت كان الاختيار في محله ولا أدري من الذي اختار أهو الانصراف بعد سقوط السلطان عبد الحميد عن رجال أحمد أسعد ومحمد ظافر أم هو العرفان بقيمة هذين الشيخين؟

ولهذين الشيخين فضيلة فقد استصدرا قراراً من المجلس وأعانهما عليه المبعوثون الآخرون فكان الأمر بأن أهل المدينة سواسية لا تمتد يد على أحد ولا يتلسن لسان على أحد، فإذا المستضعفون من أهل العوالي وقباء وقربان والعيون ومن في شرق المدينة ومن في شمالها وغربها، قد أنصفوا ورفع الضيم عنهم، ولكن هذا القرار كان في الإمكان الخروج عنه غير أن الرخاء وكثرة المال واتساع المدينة ونشاط العاملين هو الذي ثبت هذا القرار لأن الرخاء هو الذي كفل ألا يجور أحد على أحد، فحين اتسعت المدينة ونمت المزارع وكثر زرع النخل شغل الناس بما ينفع وانكف بعض الناس عما يضر.

والباشا الذي كان حاكم المدينة حينذاك اسمه بصري باشا كان من خيرة حكام المدينة يمشي في الأسواق لم يحبس نفسه في قصر.. يعرف كل شيء.. وكان من حراس هذا القرار، فلم تكن له حاشية تغريه بأي أمر أو تثنيه عن بعض الأمر، وقد حدثني أستاذنا السيد محمد صقر أن مخبولة اسمها «أم الكشيكش» ومخبولاً آخر تعاركا في المناخة، أراد المخبول بها سوءاً وطاب لكثير من الواقفين أن يشاهدوا هذا العراك وكانوا بذلك خاطئين، فمر بصري باشا ورأى الجمع وسمع الصراخ فوقف ولم يجد رجلاً بعيداً عن الجماعة إلا أستاذنا السيد محمد صقر، فسأله بصري باشا بلكنة تركية - ما هذا؟ وكان السيد لا يعرف التركية فبدلاً من أن يقول هؤلاء مجانين، قال له بالتركية ما يعني «إنك مجنون» أو بلفظ أقبح

وفهم الباشا ما أراده السيد فلم يغضب بل أبعد الواقفين وهرب المجنون حين رأى الباشا، لأن بعض المجانين عقلاء ولأن بعض العقلاء مجانين.

وانتهى بصري باشا عندما بدأت الحرب الكبرى الأولى، فولوا بدلا عنه فخري باشا.. وسنأتي بحديث موسع عن فخري باشا وزيارة أنور باشا ووجود الشريفين علي بن الحسين وفيصل بن الحسين في المدينة حينذاك فالكلام عن ذلك يتسع ويتسع نأتي على أبوبه في حلقات تالية.

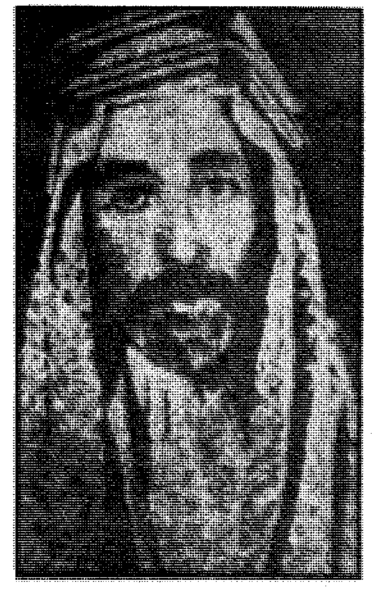
الزرع والضرع

وما كاد يستهل القرن الثالث عشر في سنواته الأولى وبعد سيل سنة سبع بعد الألف والثلاثمائة، ما كاد ذلك يستهل إلا وقد بدأ الرخاء ينتشر وبدأ الفصام يضمحل بين الحاضرة داخل السور أو خارجه، كما انتهى الخصام بين الحاضرة والبادية، لا بدافع قوة الدولة ولا بوازع المصافاة وإنما هو بتأثير الرخاء والتعامل بالحلف، فما من حضري له نخل خارج المدينة في العيون أو في العوالي وقربان وقباء إلا وله حليف من القبيلة ذات الشأن في ذلك الموقع، فبدأ الكثيرون من الحاضرة يعنون بصيانة مايملكون من النخيل أو بزيادة الزرع من النخيل أو بالتوسع في زراعة الحنطة بأنواعها الثلاث (اللقيمي، والحنطة والمعية) وحتى الشعير، بل وأكثر من ذلك صيانة النواة علفاً للضرع والحيوان وتجارة رائجة. بل صيانة الجريد للأسقف والجذوع كذلك صيانة السعف يصنعون خصف وأسرة يصنعون الخصف والزنابيل أي المكاتل، فالزنبيل كلمة طارئة. وأهل المدينة القدامى من النخليين والبادية والحاضرة خارج السور يقولون المكتل بدل الزنبيل أو بدل القفة. ومن الجريد كان القفاصة يصنعون السرر، وهذا يعني أن المدينة - بكل ذلك - كانت تتمتع باكتفاء ذاتي من الأسرة والمكاتل وعلف الحيوان..

إننا اليوم إذا ذبحنا شاة أو شاتين نرمي الجلد، بينما كانوا يملحونه ويدبغونه يعملون منه الجواعد والقرب وما إلى ذلك، ونحن اليوم نرمي الكوارع أي المقادم بينما كانوا يصمطونها.. ينظفونها.. يطبخونها.. يصنعون الثريد من مرقتها ويأكلون لحمها.. حتى الدجاج لا يرمون إلا ريشة، رأس الديك أو الدجاجة نأكل مخها نمتص عظمها.. وأرجلها تنظف وتشوي نأكل لحمها ونمتص عظمها، لا عن بخل ولا عن قلة من المال وإنما هم يقولون صونوا النعمة، ولعلي نسيت أن مصارين الدجاج تنظف ونأكلها ولا تلقى في الزبالة، كما نفعل هذه الأيام..

هذا الصون أعطى الرخاء رخاء، فإذا كل أهل المدينة يلتفتون إلى اقتناء الضرع، فما

القانوني حاصر فيينا من أجل أسير فرنسي
وقعد عن إنقاذ إسلامه من محاكم التفتيش
بعض المجانين عقلاء . . . وبعض العقلاء مجانين



الشريف عبدالله بن الحسين



فيصل بن الحسين



الخديوى عباس



كمال اتاتورك

من بيت إلا وفيه العنز والعنزان يحلبونها غذاء للأطفال أو يمخضونه حلية على مائدة الطعام، سواء كان لبن الزبادي أو اللبن الرائب، فالمدينة المنورة لديها اكتفاء ذاتي بالجبن والسمن والمضير (اليقط) واللحم واللبن بل وبالكثير من الحنطة فقد يستوردون الحنطة من البصرة أو من الهند ومن مصر حنطة الجراية أو من الشام وما كان ذلك بالكثرة التي كنا عليها قبل التوسع الآن في زراعة الحنطة التي منحتنا الاكتفاء الذاتي فلم نعد نستورد الحنطة من كندا أو استراليا أو أمريكا، لقد رأيت الكبير يخرج على باب سدته وبين يديه العنز والعنزان لتأكل علفها من يديه سواء من البرسيم أو الشعير أو النوى المدشوش المخمر، حتى أن التنافس في ذلك بين المالكين لهذا الضرع يتفاخرون يقولون: السيد فلان يده (تمري) أي مريئة تشبع من يده العنز أي من لمستها إضافة من شبعها من العلف، والسيد فلان يده لا (تمري) مع أن العلف واحد، ولا أنسى أن أنواع الماعز ثلاثة المصرية أكثر حليباً وأكثر ولادة يمدحون ضرعها بأنه دورقي، وبعدها العارضية من غنم العارض لا تقل شأناً عن المصرية ثم عنز البادية السوداء أصغر ضرعاً، وأقل حليباً، وقليل منهم من يقتني النعاج وما أكثر حرصهم على أنهم لا يذبحون ذات اللبن كأنهم أخذوا ذلك من حديث رسول الله سيدنا محمد ﷺ يوم رأى صاحبه (ابن التيهان) يحترف ليذبح لهم شاة للغداء فقد كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ضيوفاً على ابن التيهان فقال له الرسول (إياك وذات اللبن) لان ذبح ذات اللبن تقل به الثروة الحيوانية، أما البقر فعلى شقين الثيران للساقية مع الجمال والحمير والبقرة الأنثى عند أهل دكرور، أي التكارنة يحلبون لبنها ويصنعون زبدها ويبيعونه للذين لم يقتنوا الماعز. كل يعمل حتى الدجاج يقتنيه فريق من النخليين يبيعون البيض لمن يشتريه يعني أن البيض كان منه الاكتفاء الذاتي كما هو الآن ولله الحمد. وكثرة زراعة النخيل، ليس هناك كبير يشمخ بنفسه عن فلاحة ما يملك من أرض، ذياب ناصر في العقيلية وسعود شيشه في الدوار، الخواجه في الغرس، الشريف شحات في سواله، والشريف ناصر في البدرية، صالح القاضي في الحسنيه، عبد الله بن مسلم في بستانه جانب من مسجد قباء. الخاشقجي في الربعي والجذع للرفاعي، والعباسية للعبابيس، وحتى الشريف عون كان له بستان في قبا ثم - بالشراء أصبح ملكاً للسيد طه محمد حسين عثمان وهناك بساتين في أبيار علي وفي الجرف يملكها السراني سواء أهل أبيار علي أو أهل الجرف والأنصاري في الناعمة، وزين العابدين مدني في المصرع شمال المدينة، يوسف خشيرم في الخشيرمية جانب المصرع، ابن جوعان وعبد الله بن دخيل وأخوه محماس في الجوعانية، والمفتي الداغستاني في المفتية، والوسيدي في أم البيض، ومعتوق خاشقجي جد بهاء الدين في الشنيبلية، أما محمد محروس فله شأن آخر. أولئك وجدوا آبارا معدة فاستثمروها وعيونا معدة فأثمروها، أما محمد محروس فقد كان له شأن، احتفر عين الزهرة من وسط العقيق في

سلطانه يصنع خرزاً ودبلا يسير فيه ماء العين، فالدبل طويل قد يبلغ أكثر من عشرة كيلو مترات يزرع نخل الزهرة ورمانها كما زاد عملية التنظيف في عين المدافعية وعين باني وهما ينبعـان من شمال شرق المـدينـة في أرض مسروح الحربية أما الزهرة ففي أرض بني سالم الحربية، هذا ليصون مايملك حالف من الأحامدة سعد بن جزا وبعده عساف ومن ولد محمد حالف الحويفي شيخ ولد محمد علي الراس واسمه سعد، ومن مسروح حالف ابن ربيق شيخ بني عمر علي الراسي، وحالف ابن موقد من كبار الأشياخ في عوف، يعني أنه حالف السالمي لئلا يعتدي أحد على الزهرة ونخيل المدافعية وعين باني، فما أحد ملك من عيون الماء مايسمى وجبات أكثر من محمد محروس لقد كلفه ذلك كثيراً وحين قل المال في يده وتلسن نمامون عليه يغرون وكيله في السويس ألا يرسل بضاعة إليه لأنه لا يملك شيئاً فتق له ذكاؤه أن يرسل ابنه يحيى إلى حائل يشتري جمالاً يضمن سداد القيمة رجل من آل الرشيد وحين وصلت الجمال إلى المدينة قادها يحرسه عبيده وبعض حلفائه يصل إلى مصر يبيع الجمال يكسب كثيراً يذهب إلى عميله في السويس لا يدخل عليه إلا بعد لأي لأنه يلبس شملة برقاء وثوباً من الدوت وفي يده جراب من الذهب، وحين دخل على وكيله لم يقابله لأنه أخفى اسمه حين أعلن أنه مندوب من محمد محروس، ثم أعلن اسمه فحياه وطلب محروس من الوكيل قيد الدفتر ليؤدي المال فسدد ما عليه ورجع بكثير ليسدد قيمة الجمال لأهل حائل وبقى الكثير ليتم ما بناه حتى أنه أهدى كماً من رمان الزهرة ـ وكان فاخراً أشبه برمان أسيوط، لأن رمان المدينة ليس كرمان الطائف ـ ولمن أهدى الرمان ؟ ومَنْ حمل الهدية ؟ أهداه لمحمود سليمان باشا. زعيم الصعيد على الإطلاق والد محمد باشا محمود زار المدينة بعد أن حج وأكرم من الحاكم نزل في بيت جمل الليل في قصر بني حسين والذي حمل الهدية حسين زيدان والدي لأنه إذا أعلن نفسه يعرفه محمود سليمان، ولد السليني تلك عزوته وكان والدي ينتمي إلى هذه العزوة لأن قرية المطيعة تابعة لساحل سليم وتقبل ولد السليني الهدية يزور محمد محروس صعيدي يزور الصعيدي. ولكن محمد محروس استعرق في المدينة ومحمود سليمان أعرق في مصر حتى عرض عليه العرش بعد سقوط الخديوي عباس فأبى وذهب لحسين كامل عم عباس وأخو الملك فؤاد ليتولى الأمر بلقب السلطان، وكان صديقاً لمحمود سليمان يوم كان حسين كامل مديراً لأسيوط حثه على ذلك لأن الإنجليز كادوا إذا لم يقبل حسـين كامل السلطان أن يتوجوا إسماعيل أغا خان وكان في مصر وفي فندق الكونتننتال وإسماعيل أغا خان كان يتلمظ على العرش في مصر ليعيد مجد دولة الفاطميين آبائه، أي دولة الباطنية. ومن هنا وفي عهد جمال عبد الناصر استطاع الإسماعيلية أتباع أغا خان أن يدفن في أسوان مركز الباطنية بعد القاهرة لعلهم يعودون إلى مصر. .

ونسيت أن أذكـر الشيخ طاهر سنبل، كان يملك عين الغرابية فعدا محمد الوسيدي حليفناحلف المال لها حلف الدم عدا على عبد طاهر سنبل يصوب إليه رصاصة فاغتاظ طاهر سنبل وباع الغرابية العزيزة عليه واشتراها منه أحد شيوخ الحوازم عبد الله بن هويمل دفع قيمتها سبعة آلاف جنيه ذهبا، ولكن طول الزمن أحوج ابن هويمل المضياف والمعطاء الذي أعطى صديقه مصطفى قباني ألف جنيه أحوجه الزمن أن يبيع الغرابية بألف وثلاثمائة جنيه وثلاثة عشر ألف ريال، اشتراها منه محمد يوسف عبيد أو الخريجي عبد العزيز. . ومحمد. .

وهكذا دالت الأيام ومازال التاريخ سجلاً على قرطاس أو في الذاكرة يروي الذكريات. .

استعد أبي للجهاد
في السويس
فأبقته الثورة بالمدينة
في العاشرة . .
لم أبح بسـر الثورة

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

بقية العثمانيين وفخري باشا

. . وذهب عصر عبد الحميد، ويعني ذلك اضمحلال الولاء للخلافة فلم يكن عهد رشاد يعطي الخلافة الولاء، لأن الاتحاديين كان بيدهم سلطان ولاية، فلئن انشقت عليهم الأقاليم عربية فإنما هم الذين أخذت عنهم الشعوب قيام الثورات ضد الدولة العثمانية، فمصر الخديوية التابعة شكلاً للدولة العثمانية كما هو الولاء من الخديوي عباس، أو كما هو الارتباط بها معنوياً لمحاربة الاستعمار الإنجليزي كما هو مبدأ مصطفى كامل، مصر بعد

خلع عباس الثاني أصبحت سلطنة لا خديوية ثم وبتصريح ثمانية وعشرين فبراير أصبح السلطان ملكاً، وأصبحت مصر دولة لها وزارة خارجية وسفراء، مع أن الإنجليز كانوا هم الشيء لكل الأشياء، ولكن الشعب المصري وأكثرية من الزعماء أشعلوا الثورة على الإنجليز، فإذا مصر بعد سنوات أصبحت دولة ليست محتلة بقسوة الاحتلال ولكنها كانت تستوعب على قناة السويس جنود الاحتلال، أما الشام التي لا أخضع إلى تقسيمها فلسطين لبنان سوريا شرق الأردن، ليست إلا إقليماً واحداً هو الشام من معان جنوباً إلى أضنة والإسكندرونة شمالاً ومن رفح غرباً إلى الجزيرة على الفرات شرقاً، لم يقسمها الاستعمار، فقبل ذلك كانت مقسمة تحت حكام استتركوا فادركوا، فقد كانت الشام المصدر الأول للقومية العربية، فبعد مؤتمر باريس الذي جمع الثائرين كانت الشام على استعداد لأن تقبل أي تأثر عربي، فأقبلت على ثورة الحسين بن علي ولم تدبر بأي علاقة عن سلطان نجد، فصاحب السلطان حينذاك كان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن، حتى أن فيصل بن الحسين الملك في دمشق والذي خسر العرش في دمشق، كان وفي زعمه وعزيمته أن يكون مع الملك عبد العزيز، ولا يلجأ إلى أبيه في مكة، هو قال ذلك في حيفا لجميل مردم وعوني عبد الهادي ونوري السعيد وحيدر رستم، وقد ذكرت ذلك أكثر من مرة وفي أكثر من موضوع، وأول ما ذكرته يوم احتفلنا في مكة بالكشافة العراقية في أول زورة لها، وما يوم حليمة بسر، فلقد سمعت ذلك من جميل مردم في المدينة المنورة.

والحجاز لاأدري، ما الأمر في مكة ما الإعداد في الطائف ما الوضع في جدة، كل ما أدريه عما وقع في المدينة المنورة وعن الموقف في رابغ تحت إمرة أميرها القبلي حسين بن مبيريك، فالشيخ حسين بن مبيريك بقي على ولائه للدولة العثمانية، حتى إني أذكر ملحة قالها سعيد أبو عوف أحد المتصلين اتصالاً وثيقاً بشيخ «الهبة» من عوف المسروحية الحربية، قال: الأتراك حاربها العرب غلط كانوا يرسلون كل شيء من أسطنبول حتى «الكنادر» فبخيت بن بنيان أبو ناصر بن بنيان يرحمهم الله كانوا عيبة، أي مستودع الولاء لحسين بن مبيريك.

من هنا وفي جرول في مكة تم اغتيال حسين بن مبيريك وقد حضر لا يشذ عن الطاعة بعد زوال الأتراك، فإذا أخوه إسماعيل بن مبيريك له دور إيجابي مع الملك عبد العزيز نأتي عليه بعد، إن هذا الدور لرابغ حجز نوري السعيد وجعفر العسكري ومن معهما من ضباط العراق الذين أطلق سراحهم الإنجليز من الأسر وأرسلهم مدداً لفيصل بن الحسين، لم يستطيعوا أن يركبوا الساحل بقربهم من الوصول فحصروا في آبار ابن حصاني، ويخطىء أمين سعيد مؤلف كتاب الثورة العربية، فيقول آبار ابن حسان يجعل الصاد سينا، كما أخطأ في اسم «الخنق» المضيق بين الحرة وأحد فيسميه أخذاً عن الإنجليز «بالخانق».

«علمت بالثورة»

وأما المدينة المنورة فذكرياتي عنها سماعاً ومشاهدة حين بدأت الثورة فقد علمت بوقت قيامها وأنا طفل في العاشرة من عمري، فكيف كان ذلك؟! لم يكن ذلك «فشرة» أفشر بها أو أفترشها تطلعاً لقيمة أو أهدار القيم، عزل بصري باشا وتولى فخري وكانت المدينة المنورة تموج بكثرة السكان، ناعمة هادئة عمل بالنهار وسهرات بالليل وأفراح ما بعدها أفراح، كانت كذلك حتى إنها استبشرت بفخري وكانت أكثر بشراً بمجيء أنور باشا، كل يتحدث يرتب مع فخري مالا أدريه وإن ظهر بعد ما يدريه التاريخ، وكان وفي وجود أنور في المدينة وهو الرجل الثاني من الاتحاديين كان الأمير الشريف على بن الحسين وأخوه الأمير فيصل في المدينة لا يفارقون أنور ولا يفارقون فخري كأنما هما وبصورة غير معلنة رهينتان ليطمئن أنور وفخري بوجودهما عن أي تحرك ضد الأتراك، مع أن أخاهما الشريف عبد الله بن الحسين كان في مصر وفي ذلك الوقت بالذات يفاوض «السر هنري مكمهون» يتبادلان الخطابات والـوعـود لترتيب الثـورة ضد الأتـراك ومن شاء أن يعرف هذه المذكرات فليقتن الكتاب «مقدرات العراق السياسية» تأليف الفاروقي، كان عندي وضاع ولكني قد جلبته من العراق قبل عام مصوراً، ولقد أخطأ الشريفان فلم يسكنا داخل السور يخافان الحجز إذا ما تحركا للسفر فسكنا خارج باب الشامي في بيت مصطفى سليم كأنما هو بنى جديداً لأجلهما لم يسكنه أحد قبلهما، واجهته غاربة وظهره إلى أول حدود التمار لا يبعد عن سقيفة بني ساعدة كثيراً ولا يبتعد عن العطن سكن البادية كثيراً وحيث تم لهما أن يطمئنا الباشا وأن يجندا من أطـاعهما من القبائل من أهل العالية يتزعمهم الشريف شحاذ بن علي وأخوه ناصر، كما أطاعهما بعض بني عمرو أهل وادي الريان وأبو ضباع والفرع وعلى رأسهم حليفنا أحمد بن جميعان، أن المطامع طوعته وإلا فبنوا عمرو وابن ربيق بالذات وهو أكبر شيوخ بني عمرو صاحب ثأر فقد قتله الشريف عبد الله كبيرهم «بزيع بن ربيق» استطاع الشريفان الخروج من طريق الشرق بين الحرة والخنق طريق عشيرة معهم حراس من القبائل التي أطاعت لأن طريق الشرق فيه الأمن لهما أمـا الطريق السلطاني الفريش وادي سجج، دير الروحاء، المسيجيد ووادي الصفراء، آبار ابن حصان أو مستورة، فالجحفة «رابغ» فغير آمن لأمرين لأن قبائل غرب المدينة ما تم بينهم التفاوض ولأنهم خافوا ابن بنيان وحسين بن مبيريك، كما أنهما لم يسلكا طريق الجصة الغاير. . هرشة. . عسفان، لأنهما لا يأمنان ابن بنيان أيضاً.

لقد علمت بكل ذلك وبقيام الثورة بسبب واحد ذلك وقد كنت يومها في الدكان في سوق الحبابة ثاني وكان على يمين الخارج من باب المصري بعد ذلك البناء المسمى «سبيل ستنا فاطمة»، كنت في الدكان وإذا عند باب المصري العلم أو الصنجك أو البيرق يمسك به

السيدان «بافقيه ومحمد هاشم» يناديان بصوت جهير الجهاد يا مسلمين، إلى السويس الجهاد أخرجوا الإنجليز من السويس من مصر، وسمع أهل المدينة ذلك النداء فذهب الكثير إلى بيوتهم يستعدون للجهاد، فلم تكن لحظة إلا وقد عزَّل أي أغلق والدي الدكان وكان حباباً وجرني من يدي إلى البيت بعد العصر، ولم أكن في بيته الكبير عند زوجه الكبرى، بينما كنت عند جدتي لأمي في بيت الشعر وفي حوش خميس، ما تركني أذهب حتى إذا دخل البيت طلب ثياباً وعباءة وأمسك بسيف كان عنده وبندق أم أصبع، فقد كان يهوى السلاح، قالت زوجته: ما تصنع «أشبك مربوش» قال خذي هذا الذهب بيعوا البضاعة التي في الدكان أنا ذاهب الجهاد، بهتنا، بكت أخواتي لأبي ولكن الزوجة لم تعلن تأثرها تركته يفعل ما يريد غير أنها غفلته وهو مشغول لبست ملاءتها في ليل وخرجت من زقاق الطيار إلى حوش خميس إلى بيت أحمد بن جميعان وأخوه ذو العقل الكبير بادي بن جميعان، طرقت الباب فتح لها.. عرفها ابن جميعان «مالك يابخيته إيش أصاب حسين» قالت «جمع سلاحه وترك ماله يريد الذهاب إلى الجهاد» فقال أحمد بن جميعان «اذهبي أنا الآن وراءك. وصلت البيت، ووصل أحمد وراءها، قابله أبي، قال:

«يامهبول وين أنت رايح ما بقى إلا أيام ثلاثة نشبها على الأتراك يشبها الحسين في مكة وأشبها أنا في آبار علي ويشبها شحات في العوالي، إنك لن تعود اجلس مع عيالك، هذا لعب عيال يخرجونكم من المدينة لتهلكوا في سيناء.. حرب الانجليز موهينه» ورضى والدي.

علمنا هذا الخبر ولو كنا خونة ولا خبر والدي غالب باشا الشعلان لأنه عربي يستطيع أن يكلمه بالعربية ليعلم ذلك فخري بعد ويمسك الشريفين علي وفيصل لا يبقى على حياتهما إذا ما انطلق الرصاص.. صنا هذا السر فلا تستغربوا فما كنت الطفل أخون والدي ولا كان والدي الخوان لحليفه.

وهكذا احترقت العوالي وقتل الرجال في آبار علي وانتصب فخري باشا لا يأمن أي قبلي. من هنا أراد أن يفرغ المدينة من ساكنها.

وفطن والدي ماسوف يجري من ترحيل المدينة فأسرع يرحّل زوجتيه وبنتيه وحفيديه إلى الجرف يستأجر ثلاثة جمال من عبد الله الجحودي وهو من أهل الفيوم استعرق في المدينة ركبوا الجمال ومن شمال الجماء وإلى الفرسية واد ما أحلاه بين رحقان والجماء وإلى الفريش وإلى ينبع البحر، فينبع النخل يقضون فصل الصيف والخريف وقبلهما الربيع يشترون نخل عواد فران يقتاتون تمره وأمسك بي أجلس معه ولم تمض أيام حتى لحقنا بالأهل، كيف كان ذلك؟!

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (١٣)

جاعت المدينـة
ومستودعاتها متخمـة!
كانت القصيم أسرع إلى الاغاثة . .
الأمير محمد بن عبد العزيز يدخل المدينة دون أن تسفك قطرة دم

والذكريات ليست إلا جغـرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشـاهـد تاريخيـة، ليس منهـا أن تكـون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثـمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريـخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولهـا وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقـة ومـا أقـوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

فخري باشا وما إليه

وفخري باشا كأنما هو وجمال باشا قد حمل كل منهما مسئولية حماية الأرض العربية والتي لم تخضع لاستعمار، يعني شرق السويس، فجمال باشا في الشام كان مطلق الإرادة من حيث إنه مقيد الإرادة، هو مطلق الإرادة يفعل مايشاء وبمن يشاء، وفخري باشا مثله، بل كان فخري باشا أشد ضيقاً بكل عربي داخل المدينة من جمال باشا كما هو في الشام، لأن جمال باشا قد علق المشانق وفتح السجون للذين علم أنهم ضد الدولة العثمانية التي أنكروا أنها دولتهم لأنها تنكرت لعروبتهم. وتغالت في اللامركزية، لئن قالوا إنها ظروف الحرب أو حالة

الطواريء، فإن هذا القول لو لم تسبقه عملية التتريك، لكان حجة، جمال باشا في الشام لا أدري لأي أمر قبل من فخري باشا أن يرحل أهل المدينة منها إلى الشام، كأكثر المرحلين، لأن بعض أهل المدينة رحلوا إلى شرقها أي إلى نجدها حيث كانت لهم الأصل وحيث كانت لهم المجال الواسع للأمن أولاً، وللتجارة ثانية، وبعض أهل المدينة لم يهجر إلى الشام بل تفطن ورحل إلى مكة، كما رحل غيرهم إلى ينبع البحر، وما أحسب غيرنا رحل إلى ينبع النخل.

إن فخري باشا لم يكن الحصار عليه من (في الفريش) الذي كانوا يسمونه (عرضى الشريف علي بن الحسين)، ولا كان الحصار مضيقاً عليه ضيق الأرض على الأرض من وادي العيص (عرضى الشريف عبد الله بن الحسين)، لقد عجز فخري باشا العجزة الكبرى، حيث أغلق المدينة عليه حيث أفرغها من الكثرة الكاثرة من سكانها، فلا بيع ولا شراء ولا زرع لا ضرع كأنما كان نخلها هو الذي يقوم بنفسه يطلع الطلع وتكبر العراجين ويجد التمر ببعض من يرسلهم فخري، فما كانت العيون حربا عليه، وما كانت العوالي وقربان وقباء إلا في حوزته، لكن أين الرجال؟

بكل هذا حصر نفسه ولو تفطن قليلاً وفتح سوقاً في الوطن تحت سلع محروسا بالقلعتين قلعة باب الشامي وقلعة سلع، لأغرى بني رشيد وعنزة في خيبر ومن هم في شرق المدينة مطير ومن إليها لجلبوا الأرزاق ولما عز السمن والجبن والغنم وحتى الحنطة، أغلق الأبواب وجعل الناس في الحاضرة والبادية كأنهم الأعداء، كل همه أن يملأ المستودعات بالتمر الذي لم يكن شحيحاً وأن يملأ المستودعات بالذخيرة بندقاً ومدفعاً وقنابل وطلقات من الرصاص، لقد جعل نفسه في قبضة الأسر قبل أن تعلن الهزيمة، فلو أنه نظم حرب عصابات بين الحين والآخر على الفريش لفك الحصار بينه وبين غرب المدينة حتى رابغ وينبع، فما كانت هناك قوى لدى الأشراف لا يستطيع التغلب عليها وإنما هو تغلب على نفسه.

في أول الأمر ولم يكن الشريف علي في الفريش، وما وصل الشريف عبد الله إلى وادي العيص قام بحملة كبرى يطارد الشريف فيصل بن الحسين الذي لازم الساحل حتى وصل ينبع النخل، وهاجمه فخري باشا بجيش جرار وسلاح فتاك، فانحصر فيصل بين خيف المبارك في ينبع النخل التي احتلها فخري باشا وبين ينبع البحرالتي ما زالت في يد الدولة، حاكمها (بشير السعداوي الليبي) الذي كان مع الترك والذي أصبح فيما بعد رئيس لجنة السكة الحديد في الشام أيام حكم الفرنسيين، والذي كان في بلاط الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بعد والذي مرة أخرى هو الذي فاوض بريطانيا وفي مصر على استقلال ليبيا. ولنا علاقة به أيام كان في الشام وفي أول أيامه هنا يأتي شرحها في هذا العهد الميمون، عهد

وحدة الجزيرة تحت كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة وتحت سلطان الملك عبد العزيز.

حصر فيصل لا يستطيع مواجهة فخري ولا يقدر أن يقتحم ينبع البحر رغم وجود قطع من الأسطول البريطاني تنتظر وصوله إلى ينبع البحر، ولكن كيف رجع فخري بجيشه وكيف نجا فيصل وكيف احتل فيصل ينبع البحر؟ لقد كان ذلك بعزمة الشريف عبد الكريم ابن بديوي، أحد أعيان الأشراف (ذوي هجار)العياشية لهم إمرة في جهينة، فالشريف عبد الكريم بن بديوي جاء بخيل جهينة من وراء فخري فجعل الجيش التركي محصوراً بين قيادة عبد الكريم بن بديوي وقيادة ابن عمه فيصل بن الحسين، كلاهما من ولد إبراهيم بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب حصر فخري باشا في هذه الحملة فالتفت إلى الوراء يطارد جهينة حتى رجع إلى المدينة وانحصر فيها، وسار فيصل إلى ينبع البحر تفتح أبوابها بعد أن أطلقت عليها مدفعية الأسطول الإنجليزي.

الترحيـــل

واشتـدت عزمة فخري باشا على ترحيل أهل المدينة لم يعلنوا ذلك وإنما هو الإمساك بصورة عمياء وبعسف ما بعده عسف، رحلوا امرأة وبنتيها وتركوا أباهم في المدينة يهرب إلى ينبع، ماسألوا كيف تعيش الأم وبناتها في الشام من يتولى الرعاية، ماتت الأم وضاعت البنت ورجعت إلى المدينة بنت وحدها، سألوها عن أبيها في ينبع وقد وصلت بالباخرة مع أهل المدينة عرفوا أباها سلموها إليه.. أتدرون من هي بالنسبة لي؟! إنها (الناغية المحترقة).

كان لدى فخـري باشا فرصة وقد كان معه ضد الشريف (طلق السكراني) فلو مكنه لجلب بعض قبيلته من ولد محمد يحاربون معه وكان معه حسين بن فليح من بني عمرو لو استعان به لألب بني عمرو ولها ثأر، ولكن فخري تعامى عن كل ذلك على طريقه (العرب خيانات) مع أن لديه ضباطاً كبارا من العرب ليس أولهم غالب باشا شعلان وليس آخرهم سالم أفندي الليبي وحسني علي المقدسي، وفهمي الذي كان من الجندرمة قبل أن يكون في الصيدلية.

وجاعت المدينة، المستودعات ملآنه بالتمر وبالعيش (القنيطة) عيش مجفف وجدناه بعد سنوات وكأنه جفف أمس أكلت البادية في الوطن القطط، وللذكرى فقد أعد مصطفى الصيرفي العقبي والد الشاعر الصيرفي، أعد غداء لثلاثة ضباط منهم حسني العلي مدير شرطة المدينة في هذا العهد ومدير شرطة جدة بعد ومدير دار الأيتام آخر الأمر، وهو والد الأستاذ عزت العلي وصهر السفير سابقاً منصور عارف، أعد مصطفى صيرفي الغداء جفراً،

أي تيسا لا يبلغ وزنه أربعة كيلوات وحفنات من الأرز، فسألوا كم كلفته؟ كلفته خمسين جنيها عثمانيا. . هكذا كان الغلاء وكان الشح وكان ظلم الحاكم.

حيدر باشـــا

وأعلن الاتحاديون خلع الحسين بن علي من إمارة مكة وجاءوا بالبديل عنه إلى المدينة المنورة واسمه حيدر باشا من آل غالب، يعني أنهم رفضوا العبادلة واستعانوا بآل غالب الذين كانوا في الأناضول، والذين يأتي لهم ذكر حين نكتب عن حصافة الملك عبد العزيز (قرب البعيد وما أبعد القريب)، وبنوا لحيدر باشا سبيلاً في المناخة أمام مقر فخري باشا إعلاناً لأمره الشريف حيدر باشا، واستمر الحصار وفرغت المدينة من أهلها غير بعض الذين تقربوا لغالب شعلان أو لعبد الرحمن باشا أو بأسلوب آخر، غير أن فخري باشا نصحه الشيخ الفاهاشم زعيم التكارنة وكانوا في المدينة كثرا، فأبقاهم فخري باشا لم يرحل أحداً منهم وجندهم في الجيش فإذا منهم ضباط كبار، حتى إنهم أصبحوا بعد جلاء فخري باشا إلى الأسر، أصبحوا كما هم عليه ضباطاً وجنوداً هم الحرس للشريف علي، لأنه يثق بهم ولا يثق بجيشه الذي لم يكن إلا من المرتزقة خليط ليس فيهم حجازي أو نجدي، . . شاميون فلسطينيون من عبيد القرارة وعراقيون ومن شماريخ السراة وبعض الجروليين والمعابدة من الذين كانوا يسمون (البياشه) ينسبون إلى بيشه.

وأول حاكم عسكري يحكم المدينة ويقود الجيش هوالزعيم الدمشقي شكري باشا الأيوبي فلم يعجبه الحال فرجع إلى دمشق وتولى جميل باشا الراوي الذي لم يمكث طويلاً فرحل هو وابن عمه إبراهيم باشا الراوي إلى بلدهم العراق. . وانتهى أمر جميل باشا الراوي إلى أن عين سفيراً للعراق في جدة. وبعد جميل باشا الراوي أمسك بقيادة الجيش عبد المجيد باشا الذي يسميه بدونا (الهوند) لا لأنه قصير القامة بل لأنه كان مدفعيا والمدفع يعرف بالهاون فأبدلوا بالهاون الهوند، وهو الذي قاوم حصار المدينة حتى دخلها الأمير محمد ابن عبد العزيز سلماً وسلاماً لم تسفك قطرة دم وكان ذلك يوم السبت التاسع عشر من جمادي الأولى أو جمادي الثانية فقد نسيت عام ١٣٤٤ هجرية، وتقاطر الناس يرجعون إلى المدينة. . فمن أين الأرزاق . . إنها لكثيرة من ثلاث جهات . . أخرجوا التمر المخزون في المستودعات كوموه أمام سوق التمارة بين مسجد الغمامة والبلدية وسوق الحبابة وكأنه الجبل ومن الدقيق والأرز والسكر والشاي من ينبع البحر، ولكن القصيم عالية نجد كانت أسرع إلى الإغاثة فتقاطرت الجمال السود تحمل الحنطة واللقيمي والمعبة والحنطة والسمن والجبن والثمر من السكرية فإذا أقة السمن التي كانت بالجنيهات أصبحت بسبعة ريالات وقطمة الدقيق التي كانت بالجنيهات أصبحت بستة ريالات وأقة اللحم بأربعة قروش. . إن

القصيم أغاث المدينة لم يمنعه عبد العزيز بن عبد الرحمن بل إنا أردنا زراعة البرسيم فلم نجد أوقية من البزر ولكنا جلبناها من القصيم فكل برسيم المدينة إلى الآن أمه من بزرة القصيم سقيت من وادي الرمة، كأنما وادي الرمة ضحك للعقيق وبطحان وقناة، فإذا الخير ينتشر وعاد أهل المدينة بعد أن هلك الكثير منهم في الشام وفي الأناضول من مرض (التيفوس) أما المرض الذي شاع في المدينة فلم يكن حمى التيفوس وإنما كانت الحمى الراجعة يسمونها في المدينة (أبو الركب) تتألم الركب منه ويعجز الإنسان عن المشي ولكن لم يمت منها أحد.

رحلتنا من المدينة

وعدت ألا أكون (الأنا) في هذه الذكريات ولكن طغيان الحال أتخذه معذرة أمام ما أذكر الآن، أهلنا سافروا إلى ينبع وبقيت مع أبي في المدينة هو فعل ذلك لأنه قبل ترحيل العائلة، اشتد الإمساك بالناس رجالاً أو نساء يرحلون خاف الإمساك فاعد له خالي علمى بن رميضان الرميح وكان في جيش عقيل، ناقة مع دليل وراء حوش القشاشي، فانسرب أبي في الليل ومن بيت الخال يتسلق الجدار ينسلت إلى خارج الحوش يركب الذلول ومعه الدليل وإلى (فدك) (الحائط والحويط) ثم إلى خيبر. ضاع رشده لم يدر كيف ترك أهله وهرب إلى خيبر. وفي غيبته وكنا نسكن في زقاق الطيار هاجم بيتنا ابن عمنا أحمد عزوز وكان من رجال السيد أحمد صافي رئيس البلدية حينذاك، فدخل البيت وتستر البنات من ابن عمهم، وأخذ يفتش عن الأرزاق وما يدري أننا احتطنا لاخفاء الأرزاق.. الحنطة ثلاثة أكياس وضعت في صندوق (سيسم) كبير وغطيت (بالبقش) فيها ثياب الأم ولباس البنات من الأنواع الشتى بعضها نظيف وبعضها وسخ، أما التمر ففرشناه في الصالون في مجلس النوم وغطيناه بالجلاليل والسباح، لو ضغط برجله قليلاً لا حس به لكنه ذهب إلى صندوق السيسم يفتحه فقالت له زوجة أبي الكبرى (بخيته بنت ضرار) من أقرب الناس إليه، هي أحمدية وهو أحمدي حين فتح الصندوق قالت له ابنة عمه: (يخص عليك إيش في الصندوق خروق بنت عمك.. لو كان حسين هنا كان دبحك تحت الصندوق.. أخص عليك تفو. عليك) فتقهقر الرجل وقال أنا مأمور وذهب يقول للفريق الذي معه (مالقيت شيء).

ورجع والدي إلى المدينة من خيبر عن طريق هدية محطة السكة الحديد القريبة من خيبر والذي اقترح الأمير شكيب أرسلان على أنور باشا أن يصل خيبر بهدية بالسكة الحديدية.. إن ذلك يحمي ظهر فخري باشا بسيط على الكثير من نجد فلم يصنعوا ذلك.. وقف القطار

في هدية . . يحمل عربات القمح من الشام مدداً لفخري باشا. فانسل والدي وإلى آخر عربة يفتح الباب يكمن في أكياس القمح حتى إذا وصل القطار إلى قرب المحطة في العنبرية فتح والدي الباب وفي يده اليمنى عكة سمن وفي الأخرى عكة أخرى فقفز من القطار وهو يمشي الهوينا ليدخل المحطة . . قفز والدي وفي يديه العكتان يصل سالماً إلى الأرض يدخل إلى بلادنا في القاضية يكمن قليلاً ثم ينسرب عبر أرض فحبت، يدخل من أم الورد على حافة بطحان يصل إلى البيت، لا يدق الباب لأنه مازال في الليل تستر وراء الفتحة بين الباب والحوش وفي الصباح فتحت زوجه الباب ولا تدري عنه شيئاً فقالت له لماذا لم تدق الباب نفتح لك قال سمعت الشيخ بالمسجد وهو يقول يكره للرجل إذا جاء من السفر أن يدخـل بيتـه ليلاً . . ورحّل العائلة واشترينا بستان الشريف حسين بن فارس في العوالي نخترف التمر فزان لأبي نبات الليمون فاقتلع ستة نبات يزرعها في بلادنا . . ولم نمكث طويلاً فقد مرأبي من السوق فإذا حسين بن فليح من شيوخ بني عمرو حلفاؤنا يرفع صوته يقول (يازيدان . . يازيدان حليفك يحارب فخري وتجلس آمنا هنا . . انفذ بجلدك) ومشى والـدي قليلاً ثم رجـع إليه يقول له: إياك أن تعود إلى هذه الكلمة وإلا سأفعل بك ما تعرف . . أنت حليفي ولكني لن أكون أليفك من الآن فقال حسين بن فليح لا تخف لن أقول لأحد ورجع والدي لتوه والى الجرف نستأجر جملاً من عبد الله الجحودي والى الضرسية الوادي الجميل بين الجماء ورحقان والى الفريش والى الأمان حتى ينبع النخل.

وفي سنة ١٣٤١هـ أو ١٣٤٢هـ جاء البواردي أي خوى الشريف شحات يقول: قم ياحسـين كلم الشريف حتى إذا وصل قال له الشريف شحات يرحمه الله: قلعت نبات الليمون سلم قيمتها لحسين بن فارس فقال: أبي: كل الليمون مات في بلاده وفي بلادي ما أسلم ولا قرش: قال الشريف أحبسـوه، ولا أدري من أخـبر غلاب بن ناحل شيخ النواحل الأحامدة من حرب نجد الذي كان يوصل حجاج العراق تحت خفارته إلى المدينة المنورة، ويترك خفارتهم إلى أبناء عمه الأحامدة أهل الفقرة بل أهل رحقان، فقد جاء غلاب ولم يبلغ الكهولة بعد على فرس بلا سرج (كميت) قال لي: وين أبوك يامحمد. قلت حابسه شحات. فقال غلاب ولد صلف بن ناحل عمه خلف بن ناحل بن عمه سعد بن جزي أمير الفقرة: قال (أنا ولد صلف) وامتطى فرسه وجاء بأبي عزيزا أطلقه فعل غلاب وهو يهدد الشريف بقوله: حنا الذي جلينا الأتراك بسيوفنا والله لا شبها عليك، أحبس الذين قتلوكم في العوالي . .

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (١٤)

ذكريات التلميح لا التجريح
حين قال الشريف عبد الله : حتى أنت ياحذيفة . .
كان شوقي نائحة العرب أما شكيب أرسلان فهو نائحة شوقي !

والذكريات ليست إلا جغـرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشـاهـد تاريخيـة، ليس منهـا أن تكـون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريـخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقـة ومـا أقـوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

والـذكـريات التي أكتب فيها التلميح لا التجريح ، وقد يكون فيها التفريح ، للذين كربوا ، أما التجريح فلن يفيد شيئاً عن الذين أكربوا ، لكنها تبيان لما وقع ، وتبين لما نحن فيه ، فالوحدة التي نعيشها والأمن لا يمكن إلا أن نتباين بها ولا نبين عنها لله إنما البين هو هذا التلميح عن الماضي .

أمة واحدة . . دين واحد . . ولغة إن توحد بها لسان الأكثرية عرباً ، فقد توحد تحت راية قرآنها كل من أسلم ، فكيف لا نحن إلى ماضى الـوحـدة فتحـاً مبينـاً ، وفتحـاً أعـظم وإمبراطورية واحدة .

لابد أن نَحِنَّ إلى هذا الماضى من خلال هذا الوجع وهذه الفجيعة التي لا نغالي إذا ما قلنا إن عهد الطوائف بعد سقوط العباسيين خير من عهد الأمة العربية الآن ، بل ومن عهد

الأمـة الإسلامية الآن . . نصبوا ذواتهم فانتصبوا لأمرهم . . ولكنه لم يخضع واحد منهم ليكون المنصب لقوة طاغية عليه . . أو لقوة يحسبها الناصرة له.

إن وحـدة الجزيرة الآن المملكة العربية السعودية، ومجلس التعاون، نبراس يرتفع به الرأس ويطرد الوسواس، اجتمعوا ليجمعوا وأجمعوا ألا يتفرقوا، وتلك حلية أتخفف بها ولا أخاف عليها لأن الرجال إذا ما أخلصوا يستطيعون التخلص من عقابيل «الأنا» إلى العقبى المنتصرة بحول الله وقوته، وكما قلت الإسلام ينتصر دائماً بالحرب عليه . . لأن قوة النصر له هي من قوة الله حافظ الذكر.

والعرب نزعوا السلاح منهم وهم أبناء العم وما كان فخرهم إلا لأنهم أبناء العم، لكنها الصحراء لكنه بيت الشعر . . كلاهما الصحراء وبيت الشعر، أم ولود وسعي ودود فما زالت عروبة الصحراء وحرارة الشمس تحت بيت الشعر هما القوة التي تعيد للعربي تاريخه.

لقـد ذهب الكثير من كل شيء . . في السياسـة والـرئاسة ولكن بقيت لأمة العرب امـبراطوريات ثلاث . . اللغة الشاعرة والأرض الحنون من الخليج إلى المحيط والحضارة الوسيط التي رضعت من كل ضرع حضاري وزرعت في كل أرض حضارته.

إن هذه المقدمة هي «الأنا» لا أعتذر عما كتبت وإنما أقول للذين ما زالوا انفراديين أو الذين يتبرأون من ماضيهم هكذا كنتم الوارثين لعظمة الفتح المبين والفتح العظيم والوارثين للخذلان الذي لم يكن إلا عظمة جردها الطغيان من اللحم الذي يكسوها.

فخري باشـا

ونعود إلى فخري باشا، لماذا حصر نفسه في المدينة والحجاز ليس في يده ونجد إن لم يعلن الحـرب البـطل عبد العزيز بن عبد الرحمن، فقد كانت نجد بكل قبائلها وبكل خيرات قصيمها ويمامتها وأحسائها لاتصل إليهم، فالرجال كانوا ليسوا معه والخيرات ليست ترد إليه على الجمال السود.

يمـرون بالـدهـنـا خفـافـاً عيـابـهـم
ويـرجـعـن من داريـن بجـرّ الحـقـائـب

لو أنه لم يحصر نفسه في المدينة وكان عوناً رديفاً لجميل باشا يمسك بالأردن وفلسطين لاستطاع أحمد فؤاد وأركان حربه الألماني أن يعجز الشريف فيصل وهو في العقبة ولورانس عن تخريب السكة ولحجز الحويطات وبنى عطية وبني صخر والرولا وبلـي عن أن يكونوا حرباً على جمال، فخري حصر نفسه في المدينة وجمال حصر نفسه في دمشق، ولست رجلاً

عسكرياً أتكلم عن التكتيك والاستراتيجية وإنما التاريخ هو الأب للتكتيك والاستراتيجية، لو أن فخري نزح بجيشه الجرار واحتل معان وعمان، لأخرالمرشال «اللنبي» أن يحتل القدس حتى قال الكلمة المثيرة تثيرنا حتى الآن «اليوم انتهت الحروب الصليبية» لأن جمال كان كالسلطان إسماعيل ولأن جمال وفخري وأحمد فؤاد وحتى ياسين الهاشمي لم يكونوا كصلاح الدين.

ولو جلس في معان لحمى القدس ولربما حاز مجد حطين بصورة أقوى بالسلاح الذي معه، من يوم حطين، ولكنه انحصر في المدينة يفرغها من أهلها.



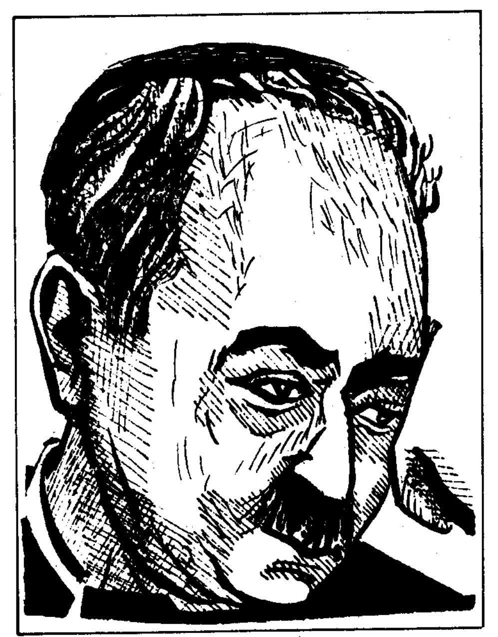
شكيب ارسلان

الأمانـــة

وطلب جمال باشا وهو محصور في دمشق مبلغاً من المال يرسله فخري إليه، وسأل فخري مع من يرسل المبلغ، فالسكة الحديد مقطوعة وأي ضابط تركي مهما تنكر لا يستطيع أن يصل بالمال إلى جمال، فلم يجد أمامه إلا السيد طه محمد حسين عثمان والد أستاذنا السيد حسين وأخينا السيد ياسين طه، ناداه فخري: خذ هذه أربعة آلاف جنيه ذهباً عثمانياً أوصلها إلى جمال باشا، فتمكن السيد طه بهذا التكليف أن يرسل أهله إلى مكة لا يرحلون إلى الشام، ينقذهم من الجوع، وأخذ السيد طه المبلغ أربعة آلاف جنيه تشغله عن النوم يلبس اليقظة كما لبس الأمانة يصل إلى نجد، ففي عنيزة صديقه عبد الكريم الخريجي وتلميذ عبد العزيز الخريجي وابن عبد الكريم محمد الخريجي، يشتري بضاعة بمعونة الخراجة ويركب الفلاة محروساً بالدليل ويصل إلى دمشق، باع البضاعة وكان فيها الغوث للجياع فبضاعة القصيم . . تمر . . وحنطة، فالقصيم سميتها من قبل وهي تصدق هذه التسمية الآن «اوكرانيا جزيرة العرب» أي أم الحنطة بأنواعها أم التمر بأنواعه أم السمن بأنواعه أم اللحم بأنواعه وكان جمال باشا يحزم حقائبه يريد أن يذهب عن دمشق يحتلها فيصل بن الحسين كرمز عربي ومعه لورانس كانوا يسمونه «ملك العرب غير المتوج» كان جمال يربط حقائبه وإذا السيد طه يستأذن عليه فعنده برقية من فخري أنه أرسل له المبلغ . . واستقبل السيد طه وتسلم المبلغ وهو راحل عن دمشق فعجب جمال كيف يصبح العربي

أمينا، فقال كلمته المشهورة «أبيت ياسيد طه إلا أن تثبت أن في العرب أمناء» كأنما هو نسى ثبات ياسين الهاشمي معه وثبات شكيب أرسلان له، لكن هذه الأمانة لم تجعله يسأل عن غيره من العرب، فأسعد شقير كان هو الذي يضع رقاب العرب بين يديه، وياسين الهاشمي أسير القسم العسكري وشكيب أرسلان تلميذ جمال الدين من رجال الجامعة الإسلامية كانت أمانة السيد طه نصراً للخلق وثناء على العربي . .

نادرة


الشاعر احمد شوقي

وأحب فخري تفريغ المدينة أكثر وكان الاتحاديون قد نفوا ما كنا نسمع اسمه «أشرف بيك» وتعرفه العامة بلقب «ولد الكشي» أحب فخري أن يتخلص منه وأن يفرغ المدينة من شبابها فكلفه أن يجمع جيشاً ليس فيه تركي واحد فجمع أشرف بيك الشلاوية والعربجيه، قالوا لي إن منهم الدلوقة وأبو حلمة والحمزاوي وحذيفة النحاس صاحب هذه النادرة، كان في جيش الكشي أشرف، وحذيفة النحاس هو من البيت القديم من بيوت المدينة التي كانوا فيها قبل عهد الأتراك وأيام حكم الجمازيين ذوي حسين، هم أهل حوش خير الله ويوجد اسم النحاس على عائلة حديثة العهد يحترفون هذه الصناعة يسكنون زقاق الطيار ولكن في حوش الرشايدة وهناك نحاس آخر اسمه أحمد والد تلميذنا وصديقنا خالد نحاس الذي كان من ضباط الجيش السعودي، أوضحت ذلك لئلا يلتبس على أحد ما أذكره عن حذيفة النحاس.

وسار أشرف بما جمع من الذين هم رجال العصا والمشكلة، أي الفتوة لا من رجال البندق والمدفع . . سار أشرف إلى العيون شمال المدينة يريد أن يهاجم الشريف عبد الله بن الحسين المخيم في وادي العيص الحاجز للسكة الحديد . . فلم يكد أشرف بيك يصل ومن معه إلى أدنى وادي الحمض حتى لقيه «رجاء بن خليوي» بمن معه من ولد التميمي الذين هم من رؤوس بني سالم وفرعها ميمون . . فاجأهم رجاء وأنا أعرفه كان رجلاً طوالاً محترماً فأسر أشرف وكثيراً من الذين معه ورجع الآخرون إلى وطنهم وكان من الأسرى عمنا حذيفة

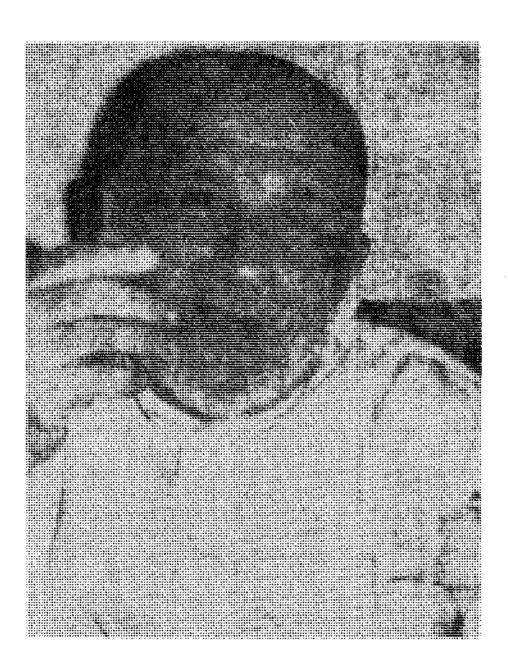
النحـاس، لأننا كنا نقول له ياعم، كان رجلاً يرتزق فعنده عربة يقودها حماران أسودان «فلفل وكمون» هو سماهما لأنه كان رجلاً ظريفاً، يحمل على العربة ما يشتريه بعض الناس لبيوتهم من الأرز والحنطة، وهو يعرف كل بيت وأمين على ما يحمل، ومثل الأسرى أمام الشريف عبد الله بن حسين فإذا هو يرى حذيفة النحاس لأنه يعرفه من العلاقة القديمة فقال الشريف عبد الله «حتى أنت ياحذيفة تحاربنا» وكان حذيفة رجلاً بسيطاً فأجابه جوابا ذا حدين «يا سيدي أنت تعرف المثل.. كل عيش النثراني وأضرب بثيفه» لأنه الثغ يلثغ بالسين يجعل السين ثاء، هذه الإجابة لا يدري أنها شتيمة، فالشريف عبد الله كان حليف الإنجليز هو وصاحب الرسائل بينه وبين السير هنري مكمهون التي احتفظ بها في كتاب «مقدرات العراق السياسية»، وعود كانت لعبة لم تنفذ بل الذي نفذ هو وعد بلفور ومعاهدة «سايكس بيكو» سايكس انجليزي وبيكو فرنسي، وضحك الشريف عبد الله من إجابة حذيفة وأكرمه وأطلق سراحه.

الغفلـــة

وما كانت لدى فخري معلومات كافية عما يجري في المدينة، مع أن عنده غالب باشا شعلان وله صلة قوية بمحمد عبد العال وبغيره الذين تقربوا إليه وأعانوه، ماكانت لدى فخري باشا أجهزة استخبارات، فقد وصل إلى المدينة الشيخ كامل القصاب والسيد محب الدين الخطيب بلباس البدو، دخلوا إلى المدينة وكان الشريف علي والشريف فيصل فيها فانسرقوا بليل إلى العوالي ومنها وصلوا إلى مكة فتولى القصاب مديرية المعارف وتولى محب الدين الخطيب إخراج جريدة القبلة.. ولكنهما ما استطاعا البقاء كما لم يستطع عزيز علي المصري ويوسف ياسين وخير الدين الزركلي البقاء فرجع كل منهم إلى بلده إلا محب الدين الخـطيب خال أستـاذنـا علي الطنطاوي فسكن مصر وأخرج لثقافتنا مجلة الفتح والزهراء وسلسلة الحـديقة وعلي الطنطاوي يعرف الأكثر، يعرف كيف أسس محب الدين المطبعة السلفية وكيف أصبح الصديق الصدوق للملك عبد العزيز والصديق الذي كان للأمير شكيب أرسلان يوم عاد أبو غالب بن ماء السماء إلى القومية العربية، فكل أصدقاء شكيب كانوا أصدقاء محب الدين الخطيب، أمين الحسينى والتاجى الفاروقى وإن تباين نوعا ما مع محمد علي الطاهر ركيزة النشر في جريدة الشورى لشكيب أرسلان ولي رجاء أوجهه لعلي الطنطاوي أن يصور لي قصيدة الأمير شكيب أرسلان في رثاء شوقي والقصيدة الأخرى في رثاء ابن عبد الحداد عبد القادر الشيبي، أرجو الطنطاوي أن يرسلها إلي، فإنهما يستأهلان النشر في هذه الأيام، فلئن كان شوقي نائحة العرب فقد كان شكيب النائحة على شوقي.

الجريدة

وأسس فخري باشا جريدة الحجاز، فقد وجد مطبعة الكلية الإسلامية التي جلبها صناع هذه الكلية التي لم يتم بناؤها شكيب أرسلان وعبد العزيز جاويش وعبد القادر مغربي وبعون ومدد من كامل الخضر، وكانت الجريدة الحجاز يرأس تحريرها السيد حمزة غوث ولكن الفعال فيها بدر الدين النعسان من أهل الشام ولعله لبناني، وكان العمري وعبد القادر الشلبي الطرابلسي ينشران فيها الهجو والحملة على الشريف، أبقت هذه الجريدة على حياة الطرابلسي والعمري يعيشان في المدينة وأعطت لحمزة غوث المكانة والشهرة وكان أهلاً لها، لم يطيقوا بقاءه في الشام حين سافر إليها هو وولده عبد القادر وترك ابنه الصغير أخانا ناصر غوث عند خاله أحمد حواله، وسارت به الأيام وسار به ذكاؤه إلى أن كان من خدام الملك عبد العزيز معاوناً لإمارة المدينة ومفاوضاً في العقير وسفيراً في العراق وإيران، كان رجلاً يعرف موطىء قدمه لم يبق عند مصطفى كمال ولم تدم علاقته بالشريف أحمد السنوسي ولا بابن الرشيد وإنما هي دامت بما ألزم نفسه من الأدب والإخلاص للملك عبد العزيز يرحم الله الجميع.



الشيخ علي الطنطاوي

ومما يذكر أن عبد القادر الشلبي والشيخ العمري لم ينلهم سوء ولم يعاقبوا من الأشراف لموقفهم من جريدة الحجاز.

لا أدري أهو احترام لأنهم علماء أم لأن الضباط من الشاميين كانوا حماة للطرابلسي وأصدقاء العمري من بني عمرو مقبول ومقبل السراني كانوا حماة له.

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (١٥)

لولا صرة من الذهب!

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

المدينة المنورة . . دار الهجرة مسيرة النصر . .
المسجد الثاني في الإسلام

فلئن كانت دار الأرقم ابن أبي الأرقم في المسجد الحرام على الصفا، المدرسة المعلمة الأولى، للسابقين الأولين من الصحاب الذين استبقوا ينالون الخير يتلقون العلم من المعلم الأول، علمه شديد القوى، محمد نبوته (اقرأ) على الجبل حراء، في الغار . . لا في أبهى القصور. ورسالته (ياأيها المدثر قم فأنذر) كانت على الصفا، كما دار الأرقم كانت على الصفا، كأنما الصفا المشعر، هي المدرسة الأولى، تلامذتها . أبو بكر. علي . . . زيد . . حمزة . . عمر . سعد . . خالد بن سعيد . عثمان بن عفان، ولماذا ننسى بلالا وعمار بن ياسر، وغيرهم وكان عددهم الأربعين . . مؤمناً عرف الحق فخرج ينصر الحق، لتكون المدرسة الثالثة بالإعلان عنها والإعلان فيها والإعلام بها، يبث العلم لأنها بيت الحج، لأنها القبلة ولأنها أيضاً القُبلة . قبلة يتجه الساجد إليها . . يولي وجهه شطر المسجد الحرام،

وهي القُبلة إسلاماً وسلاماً تطبعها مكة على جبين كل ساجد يطمئن بها قلب الركع السجود.

وتم النصر للهجرة، وأكمل الله النصر للهجرة، فإذا مسجد المدينة الذي كان مربداً، أصبح هو المراد تشد إليه الرحال، أصبح (غرفة العمليات) ينظم فيه الجيش المسلم يفرض فيه الجهـاد، جهاد النصر في بدر على المشركين، وجهاد النصر على النفس المؤمنة، كأنما الجهاد هو الأصغر في حرب العدو، وهو الأكبر في الانتصار على النفس، فما السيف وما الرمح وما السهم وما الحصان وما جراب التمر، فاعلة ومنفعلة إلا حين تكون النفس المؤمنة سيفاً. . سلاحاً تحارب شيطانها تنصر إيمانها.

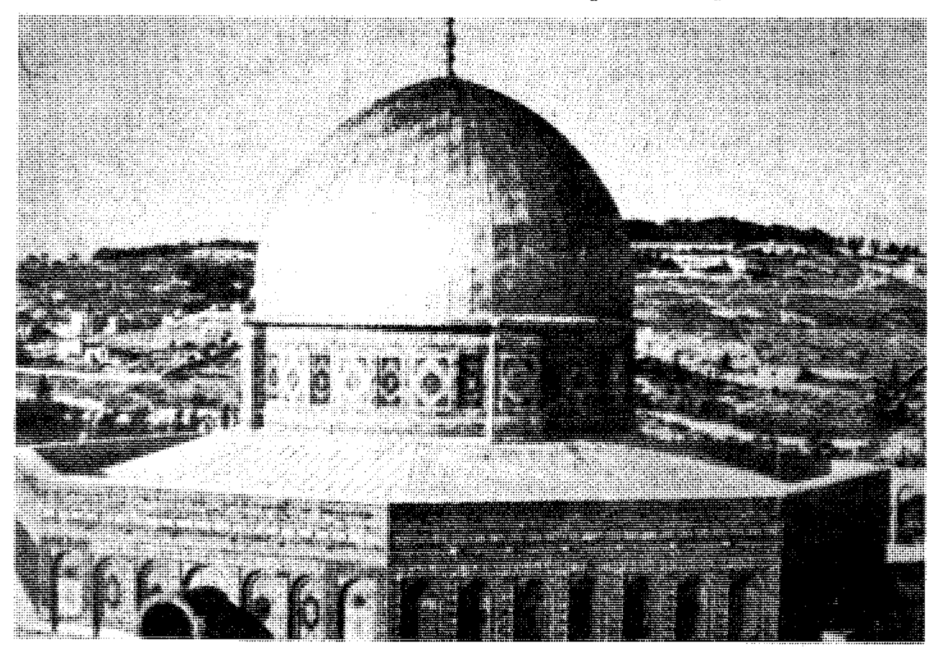
المدينة المنورة، يثرب. . واحة . . أبقعة. . ذات نخلٍ أحل الله فيها رجالاً يحبون من هاجر إليهم، والحب ليس إلا أنه التفسير لقيمة المدينة مأرزاً للإسلام يأرز إليها، يعني يأوى إليهـا، ليخـرج منهـا مرة أخرى بالرايات السود كما خرج أول مرة، فالرجعة إلى المسجد الأقصى ليست إلا مسلمة، والمسجد الأقصى من أول أمره لم يكن بيعة لليهود ولا كنيسة للنصارى وإن حاولوا ذلك، فما كان وما زال إلا إنه المسجد، سنعود إليه مرة ثانية كما كنا فيه كما أعدناه مرة أولى، فالتسمية للقدس لا تعني إلا إنه المسجد، فقد كان القبلة الأولى وسيكون بعد الاستقبال الثاني، للذين يصدقون الجهاد، فالحرب عليه جالبة النصر إليه، لو كان المسجد الأقصى في سكينة لسكنت النفوس ولكنه في الحريق لتحترق النفوس نصارا له وجهاداً.

فالرجال إيمان، والإيمان رجال، هم آتون ولن يكونوا البعيدين. . المدينة المنورة كأنما قد حصر فيها تاريخ الإسلام لأن النصر انتشر منها، فالحيرة فتحها واليرموك نصرها والقادسية انتصارها والفتح العظيم كان بسلاح بنيها. . بنوة الإسلام بنوة القبيلة بنوة القيادة، فإن لم يكن الكل منها، فإن الكل كان بها. . كان لها. . وكانت هي له، رغم مامسها من بنيها حتى قلنا في فترة ما «هدمها بنوها وخربها بانوها» أكثر من ألف سنة وهي تعيش من فتنة إلى فتنة، لكن علماء الصحابة والتابعين وتابعيهم، كانوا هم المعلمين في المسجد الحرام ومسجد دار الهجرة.

فحرمة المسجد والأذان والصلاة والمنبر والمحراب ما منعت الفساق، ولكنها امتنعت ألا أن تكون باقية لقد أهدر اعتبارها ولكن حين سنأتي لتاريخ عبد العزيز بن عبد الرحمن . . سابع الملوك في الإسلام وخامس الملوك في العرب، سنأتي لأجهر بها. . إنه عبد العزيز إنهم بنوه . . هو الذي رد الاعتبار.

حكم الشريف:

وخرج فخري باشا والأكثرون من جنده وضباطه وبقى من هؤلاء الضباط، بقية من العـرب وبعض الترك حسنى العلي المقدسي، خليل هجانه عبد المجيد اليافي الصيدلي، ضياء الـدين بيك الـتركي الصيدلي والطبيب محمد علي الطرابلسي الليبي والضابط سالم أفندي الليبي ومهدي بيك المعروف، وفهمي الذي كان جندرمة ثم أصبح صيدلياً يتعلم من الكبار فهو ذكي، وحسين أصبح صيدلياً نسى الناس أنه كان من الجندرمة، والذي ضرب عزيزاً بالجزمة، لأن البيئة العسكرية غير البيئة الصيدلية، ولأن عبد المجيد اليافي وضياء الدين ومحمد علي الطرابلسي كانوا بيئة أخلاقية.



المسجد الاقصى : الحرب عليه .. جالبة النصر اليه

قبل خروج فخري باشا، ولا أريد أن أنسى، أن بيتاً من ثلاث طبقات في زقاق الطيار أمام حوش السمان وأمام حوش بني رشيد، كان ملكاً لمحمد يوسف عبيد، ابن عم الدكتور رضـا عبيد. أتـدرون بكم باعـه؟ لقـد باعـه بكيس رز !! ومثله بيت على الجـديده والتـاجوري، كما سمعنا اشتراه عمنا محمود مصطفى شيخ الفلتية أيضاً بكيس رز، وأنا نفسي، بعد ذلك بكثير، بعت ثمانية مخازن بثماني مائة ريال كانت في شرق المدينة، يعني ٣١٦ متراً، فلو بقيت لكانت ثروة، ولكن وسيأتي السبب بعد حين ـ نؤتمن فلا نخون، ذهب فخري باشا، ودخلت المدينة في حكم الشريف حسين يرحمه الله، وأكثر الذين رحلوا إلى

الشام أرجعوهم بالبواخر إلى ينبع، وكان ذلك من عمل الإنجليز وبتخطيط لورانس وقبل كل ذلك بجهد ملك الشام حينذاك فيصل بن الحسين، وصل هؤلاء إلى المدينة وقد نجا أكثرهم من حمى التيفوس التي انتشرت في ينبع، فمات من أهلي ثلاثة زوجة أبي الكبرى وأختي الكبرى وعمي الأصغر، ومات الكثيرون، وبعض الأعزاء من أهل المدينة من أصحاب الجاه، فرغ كل ماكان معهم في الشام فأغبثوا من أهل الشام ومن العرب الذين أصبح لهم ملك في الشام، حتى أن ناصر بن علي الشريف أعطى السيد زين العابدين مدني ألف جنيه مكنته من العودة بكرامة، ولم يلتفت الشريف ناصر إلى من كان نصيراً للترك أو من كان قاسياً مع الترك على أهل العوالي، كما أن عبد الله بن هويمل من شيوخ الحوازم في وادي الصفراء أعطى صديقه مصطفى قباني ألف جنيه، ولكن لكل منهما سبب، فالإكبار للمدينة كان من عمل ناصر والإكبار للصداقة كان من عمل ابن هويمل.

وتشكلت في المدينة حكومة، ولكن ليست واحدة وليست متحدة فأول حاكم عسكري كان شكري بيك الأيوبي من أعيان دمشق ومن أبرز الثائرين فيها، لكن لم يعجبه الحال فرجع إلى دمشق، ويتوهم بعض الناس أن الجيش كان من القبائل، هو من القبائل أيام حصار المدينة، وحين تم الأمر لحكومة في المدينة كان الجيش من المرتزقة من كل الأقاليم، لأن الأمر أولاً كانت الرواتب فيه كثيرة فانفض كثيرون ولم يبق من الضباط إلا من كان مع الشريف جميل باشا الراوي الذي تولى رئاسة الحكم العسكري بعد شكري الأيوبي وابن عمه إبراهيم باشا الراوي، وكان معهم عزت بيك شامي وعبد القادر الديري وقاسم الديري، وسيأتي لهما ذكر يوم خرج إلى العيون يصحبهم الأمير محمد بن عبد العزيز طال الله بقاءه، ليدخل المدينة في ضحى يوم السبت التاسع عشر من شهر جمادي الأولى أو الآخرة .. ضاع من ذاكرتي ذلك، وحين وصل الناس إلى بيوتهم لم يجدوا شيئاً مما تركوا وكان كثيراً فلا رياش ولا فراش ولا حنفيات ولا أدوات مطبخ، وكل ذلك ضاع لم يسرقه العسكر وإنما السراق من غير العسكر، كأنما كل من قدم لم يجد شيئاً فتكلف الكثير بينما العمل قليل.

ولكن في أول الأمر كان الذهب يجري في أيدي الناس حتى قالوا إن شخصاً بقى في المدينة ولم يخرج منها فإذا عنده صفيحتان مليئتان بالذهب، وكان كريماً ما بخل على أحد بعون من هو؟ إنه عبد المعين كاتب يرحمه الله، لم يمت إلا وهو في كل صلاة في المسجد النبوي يرحمه الله.

نوع الحكم:

لم يكن يمسك بالقوة ليردع الجناة وليأمن الناس فقد ورثوا من فخري باشا جبلاً من التمر

أخرجوه من المخازن ووضعوه في آخر سوق التمارة والحبابة أمام مسجد الغمام وأمام البلدية، فأهل المدينة ليسوا في حاجة جاءهم الخبز من القصيم والخير من ينبع، أما التمر فكان يشتريه أناس يصنعون منه الخمر والعرق، كان مادة المسكرات، في المدينة أربعة حكام. الديوان يرأسه أول الأمر حامد حمد الله ورشيد أفندي ثم انتهى إلى عبد الله عمير، فلم يحكم وإنما هو يراقب والرقابة لا تفيد، والحاكم الثاني العسكري بعد جميل الراوي كان عبد المجيد وقد كان خيراً من كل أولئك، والحاكم الثالث وكيل الإمارة والشريف أحمد بن منصور كان رجلاً طوالاً حليماً عاقلاً ما مد يده بضر إلى أحد وكان رئيس ديوانه أخونا محمد حسين شويل، فالطيبة فيه كانت عوناً لطيبة أحمد بن منصور، وكان صديقاً لصديقنا صاحب الفضل علينا صالح الإبراهيم القاضي من كبار شيوخ عنيزة، فقد كانت هذه الصداقة أيام حصار المدينة فيها الحماية والرعاية لأهل القصيم وأكثرهم من عنيزة، فكان صالح القاضي عوناً للحصار بأدب وكتمان، له صلة لا يعرفها أحد إلا هو، بإبراهيم النشمي وعبد المحسن الغر ودغيمان الذي كان صديقاً ومعيناً لمحمد بن بليهد يرحمه الله.

ففي أول الأمر كان صالح بن عقل وهو الكبير قد طوع شرق المدينة وما انقطعت صلته بمن كان معه من أمثال دغيمان وغيره، ولدغيمان ذكر في صحيح الآثار تأليف ابن بليهد محمد لا عبد الله، فصداقة صالح القاضي لأحمد بن منصور كصداقة عبد العزيز الخريجي وابن أخته محمد بن خريجي للشريف شحات كان فيهما الحماية لأهل نجد، وقد كاد يفسدها عبد العزيز الحجام يرحمه الله، لا أذمه لأن الوفاء له كزوج لابنة خالي من الرضاعة سليمان الأطرم يمنع الذم، ولكن التاريخ فيه المذمة لكاتب لا يذكره.

كان عبد العزيز الحجام أطلق أكثر من رصاصة من بيته على من يمر أمام البلدية فيقتل، ولكننا لم نعرف ذلك إلا بعد لأن الحجام وأباه كانا من التابعين لضاري بن رشيد الذي ابتعد عن نجد ولجأ إلى المدينة ثم رحل إلى العراق هو وابن أخيه يرحمه الله، واعتز الحجام يكلؤه هو وأبناءه الأمير محمد بن عبد العزيز لأنه أصبح من تابعيه أيام إمرة سموه في المدينة.

لقد كان القتل لا يخلو منه يوم والحاكم لا يتصرف، في ضحى يوم وأمام مكباس المناخة قتل ابن سمره من شيوخ بني رشيد ولم يمسك أحد بالقاتل وبعد ساعتين أو أقل قتل واحد من ولد محمد في حوش درج وذهب القاتل، وبعد العصر من ذلك اليوم قتل أحد الرحلة يجري وراءه ثلاثة يأوى إلى قهوة محمود تحت بيت البرى يهرب من قاتليه يندس في أحد الكراسي يلحق به الثلاثة يقطعونه والناس جالسون ولا يتحركون.

لقد ابتنى والدي بيتاً في بلادنا في القاضية على المجار والبركة وكنا ننام في السطوح لم يبن

للسطوح درجاً بل صنع سلماً نرقى عليه ثم يسحب السلم معه ليرقد معنا حتى لا يرقى علينا أحد، والبندق بجانبه إذا سمع خشخشة يطلق رصاصة حول هذا المخشخش ليهرب، وحكاية عيسى العقيد الأحمدي التي تتبرأ قبيلته منه لأن حذيفة شيخ الأحامدة أقسم يميناً ألا يوجــه إلى الطير في جهة المدينة رصاصة يصيده، عيسى العقيد هذا كان حول أحد يسلب الناس فلم يرسل الحاكم إليه جنوداً يمسكونه وقد حدثت حكايتان، فالحكاية الأولى أن عبد الحفيظ محروس يركب فرساً ينزل إلى المدينة من الزهرة بستانه الكبير فسلبه عيسى العقيد، المشلح والسـاعـة والعقـال والثـوب والفرس وتركه ينزل إلى المدينة لا يستره إلا القميص والسروال ولكن كان في المدينة (فضى الحويفي) ابن عم سعد الحويفي شيخ ولد محمد على للراس، فعلم فضى بذلك وذهب إلى عيسى العقيد لا يحمل إلا سيفاً ورد لعبد الحفيظ محروس كل ما سلب منه وإذا الناس في المناخة ينادون (بيض الله وجه فضى الحويفي).

أما الحكاية الثانية فهي حكاية الريس على يماني، وكان رجلاً ضعيفاً قصيراً لا سلاح معه، قابله العقيد ليسلبه فإذا هو يمسك به يعاونه من معه يذهب العقيد بلا رجعة، وقبل ذلك ولا أريد أن أنسى كان السيد هاشم مدني ابن زين العابدين مدني هو وصديقه محمود ديولي يطلعون إلى المصرع يحمل كل منهما بندقة.. أم خمسا.. أم ركبة يتحدّون عيسى العقيد فلا يقترب منهما.

نـــادرة :

خلت المدينة من أثاثها ورياشها وكان والد زوجتي أم أبنائي سافر هو وزوجته وطفله إلى الشـام، فلم يكن يطيب لهم عيش فرحـل إلى حلب ثم إلى الأنـاضـول وفي مدينة (الديتول) استأجر طاحونه يطحن القمح، وكما يقولون (يايدي فكي حلقي) ورجعوا إلى المدينة بالجوع والعرى وسكنوا بيتاً في باب المجيدي لم يجدوا إلا الخسف وليس مع محمد أبو داعوس صهري قرشاً يأتي بشىء لزوجه التى كانت حاملاً، خرج إلى السوق يريد أن يكون صبياً عند فران فهو من المعلمين، لم يجد شيئاً ولكن كانت جدة أبنائي المريضة الآن في بيتي وقد نيفت على التسعين قد أصابها طلق النفاس ولا شيء في البيت لافحم ولا بصل، بل ولا ماء فرأت وهي في عذاب الطلق في أعلى الجدار أمامها شيئاً يتراقص حسبته دابة فنهضت تتثاقل وأمسكت به فإذا هو جعل جرته وإذا هي تمسك بصرة فيها ذهب عدته فوجدته خمسة وثلاثين جنيها ذهباً، نادت زوجها أعطته المال فتح فرنا، كان في هذه الصرة الغوث. من وضعها؟ لماذا لم يسكنوا إلا في هذا البيت ؟ لماذا تحرك الجبل ؟ لا أقول إلا أنه الله يعين المساكين.

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (١٦)

العربي سيف و جمل و حصـان
وجراب من التمر والحنطـة

الاستعمار وحدنا لنحاربه . . والاستقطاب فرقنا ليحارب بنا
إلى وزارة الزراعة : النواة لو زرعت بلبها . . كانت لأمها

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

حب الرسول وصحبه تقوى . . وبغضاؤهم شقوة

والذكريات من المدينة المنورة كثيرة كبيرة فيها العبرة والعظة . . وعنها القدرة والأسوة . . تضحك لكل تاريخها ولو كان فيه بعض العذاب . . وتبكي من بعض تاريخها لا من العذاب لها وإنما من جرأة الذين فسقوا عن أمر ربهم فأشعلوا الفتن واغتالوا الخلفاء . . إن الذي اغتال عمر لا أضع له شأناً . . هو مجوسي فلا قيمة تؤخذ عليه لأنه لا قيمة له ولكنه اغتال عبقري هذه الأمة ولست في حل من ذكر الأسباب التي اغتالت نفس أبي لؤلؤة بالحقد فتآمر بقتال عمر وسواء كان الهرمزان المجوسي وراءه وجفنة النصراني خلفه فإن ذلك لا يزيد من الأمر في شيء فكل الزيادة وكل الفتنة وكل العصيان إن كسر الباب ذلكم قتل عمر . . فجرأة المجوسي لا تحسب لأنه العدو ولكن جرأة الذين اغتالوا عثمان بن عفان . . ذا النورين هي

التي تحسب . . هي التي تقول لهم كيف هتكتم حرمة المدينة كيف هتكتم حرمة الخليفة؟! كيف لم تستحوا من المصحف بين يديه أنتم مسلمون نعم من هنا تؤخذون من هنا يسود التاريخ. ورواة تاريخنا يصفون هؤلاء القاتلين الذين هتكوا حرمة المدينة قبل أن يغتالوا عثمان يصفونهم بأنهم كوفيون ومصريون وهنا أصرخ فأقول: لم يكونوا الكوفيين ولم يكونوا المصريين أعني لم يكونوا عراقيين من أبناء العراق، ولا مصريين من أبناء مصر وإنما هم عرب من هنا الذين فتحوا العراق ومصر إن المؤرخين حين قالوا ذلك أشعلوا نار الحفيظة على المصريين والعراقيين الذين فعلوا ذلك حتى ألصقت التهمة بمصر وبالعراق فذو الخويصر والأشتر ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وابن الأشعث لم يكونوا إلا من هنا لا من هناك . .

إن اغتيال عثمان كان جريمة وتكبر الجريمة أن تكون في المدينة أمام مسجد رسول الله . . أمام البيوت التي عمرت بالمهاجرين والأنصار ولا أريد أن أسأل كيف يغتال عثمان وفي المدينة ناس هم الناس قبل كل الناس وفوق كل الناس ولكنني أعوذ بالله من الفتنة ومن البغضاء فالحب لصحابة رسول الله فيه الخير كل الخير، إن الحب لهم تقوى والبغضاء شقوة.

وتتابعت الفتن، لا لتصبح المدينة المنورة عاصمة الدنيا المسلمة وإنما أصبحت تحت سيف الذين وضعوها إنما هي أدنى أرض مسلمة أهلها ثائرون والسلطان يقتل الثائرين.

وقال المؤرخون إن وقعة الحرة قادها جيش الشام بإمرة يزيد بن معاوية وهذه لا أقبلها فلم يكن من الذين هتكوا المدينة في وقعة الحرة واحد من أهل الشام وإنما هم بقيادة عقبة بن مسلم المرعي من أهل هذا البلد أستحي أن أسمى القبيلة ولكن قائدها يسميها أتعرفونه إن هؤلاء قد ذهبوا لم تبق منهم باقية بأسمائهم الأولى وإنما البقية الصالحة منهم لها أسماء أخرى.

أريد أن لا نحمل قومنا في الشام ما فعلناه بأنفسنا فالتبرئة للعراق ولمصر وللشام لا أتبرع بها وإنما أتورع من ذكرى ذلك لأمحو البغضاء ولنضع الأمور في نصابها . .

ذكرى

وتولى معاوية بن أبي سفيان الملك بعد الخلافة الثلاثية فجمع الأمة وما تأخر عن الفتح العظيم غير أن الذكرى التي أكتبها هي أن معاوية رضي الله عنه كان قومياً يحب قومه العرب لم ينتصر بقريش وإنما انتصر في الشام بقبائل الشام وفي الحجاز انتصر بقبيل من الحجاز كثير العدد قوي العدة ليس فيهم تميم فتميم سكنت العراق وبقي كثير منها في نجد لم تثر فتنة ولم تخف فتنة ولم تكن عوناً على فتنة هذا في عهد معاوية وفي عهد أمية أما قبل ذلك

فشيء غير ذلك وأقبلت القبائل تؤم قصر معاوية وكان بجانبه صديقه حليفة أبو عبد الله عمرو بن العاص صاحب الأيام البيض في اليرموك واليوم الأغر في مصر، أقبلت القبائل فأشار عمرو إلى معاوية أن ينادي على القبائل بأسمائها وأنسابها، وكان من هؤلاء الأنصار وفيهم قيس بن سعد والبراء بـن مالك، ورفع المنادى صوته يا آل الأوس يا أهل الخزرج فلم يستجيبوا . . ما لبوا النداء وما أقبلوا يسلمون، وقفوا حتى إذا سئلوا لماذا لم تدخلوا قالوا اليوم نحن لسنا الأوس ولا الخزرج اليوم نحن الأنصار . . هكذا سمانا رسول الله . . محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

وجزع معاوية أن سمع من عمر وذلك فنودوا يا آل الأنصار فدخلوا وإذا قيس بن سعد ابن عبادة من أهل الحظوة عند هذا القومي الملك الامبراطور معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهم أجمعـين، إن ثبات الأنصار على هذا اللقب بعشرتهم القومية كقومية بني أمية كانت العروبة لم يكن في عهدهم التسعين عاما حول ولا سلطان إلا للعرب فإن المسلمين من غير العرب تأكلهم الشعوبية فلم يستطيعوا أن ينتصروا بها ولكنهم لجأوا إلى التشيع فإذا هم خصـوم بني أمية وإذا هم الهدامون لا لعرش بني أمية وإنما لكل عرش عربي فعرش بني العباس أنعم به وأكرم كان عرشاً شعوبياً خراسانيا إلى عهد المعتصم وتركيا بعدهم . . كان ذلـك السبب في أن فقـد العـربي السـلاح وكان ذلك السبب في زوال العباسيين وحتى الفـاطميين فاستحـال ملك الإسـلام إلى ملوك الـطوائف وانتهى سلطان العرب عباسياً وفاطمياً ولكن ملوك الطوائف وحتى الأيوبيين والمماليك نصبوا أنفسهم ولم يكونوا منصبين من تتر أو صليب وهذا خير ما فيه انتصبوا لحرب التتار وحرب الصليبيين فكان ذلك خـير ما فعلوا حتى إذا اتسع ملك العثمانيين انحسر موج الصليبيين فلم يعد المرشال اللنبى يقول كلمته وهو داخل بيت المقدس «اليوم انتهت الحروب الصليبية» ولم يقل الجنرال «غورو» وهو في دمشق يقف أمام قبر صلاح الدين قائلاً «اليوم عدنا يا صلاح الدين» لم يقولوا ذلك أيام ملـك الطوائف وإنما قالوا ذلك يوم أن تأتي الدولة العثمانية ولم تبق الجامعة الإسلامية ولم تستطع القلة من العرب أن تواجه هؤلاء بالحرب عليهم وإنما هم خدعوا بالاتجاه إلى انهم حلفاء الأرض فخانوا العهود وأخلفوا الوعود ولا زلنا في تطلع إلى اليوم الموعود، يوم الإسلام الذي ينتصر بسيوف العرب حين يتحدون تحت ظلال كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

لينتصروا على الاستقطاب كما انتصروا على الاستعمار ولا أستحي أن أقول كلمة قلتها من قبل إن الاستعمار كان خيراً من الاستقطاب فالاستعمار وحدنا لنحاربه والا ستقطاب فرقنا ليحارب بنا . .

الزرع والضـــرع

ومرة ثانية نكتب عن الزرع والضرع لأقول: إن كل نبتة خضراء تنبت على أرضنا هي النعمة واليوم أرضنا تخضر بسنابل القمح وأعواد العنب وصنوان النخـــل.

كان بلدنا فيه اكتفاء ذاتي لا يبلغ الكمال في الحنطة ولكنه يبلغ الكمال في ما أنبتت الأرض من الخضروات والفواكه التي تصلح فيها، لا نستورد العنب والرمان والتين أما التمر فإن لم نصدره تجارة فهو يصدر على صورة أخرى حاج يشتري كماً من التمر يرجع به إلى بلده إن العربي إذا رأى النخلة أو الجمل أو الحصان فستعرف أنه هو الذي زرع النخلة وهو الذي صدر الجمال وجعل أهله في الأقاليم الأخرى يقتنون الخيل، فالعربي سيف وجمل وحصان وجراب من التمر ودشيش من الحنطة.

فهل كان الفتح العظيم إلا بما ذكرنا سيفاً وجملاً وحصاناً وجراب تمر. رضى الله عن عمر يوم لم يقسم سواد العراق لم يعط سعد بن أبي وقاص أرضاً ولم يقطع القعقاع بن عمرو اقطاعاً لقد ترك الأرض لأهلها يزرعون ويفلحون مدداً للجيش المجاهد فلو قسم الأرض قسمة خيبر لقعد المجاهدون عن الجهاد . . ترك الأرض لأصحابها يدفعون الخراج مدداً لخزينة الدولة بيت مال المسلمين مدداً بما يزرعون ليأكل المجاهدون إنها عبقرية عمر.

والنخل يكفيه شرفاً أن النبي ﷺ قال: أكرموا عماتكم النخل. . بل وزاد النخل فضلاً حينـما غرس بيده الصنوان ليفي الصحابة بما يعتقد سلمان الفارسي، بستان سلمان ورثه الإسلام لا أدري أهو باق إلى الآن أم قطع الأرض لتباع الأرض. . نبني البيوت كنا نعرف أن اسمه «الفقير» . .

النخلة هذه كانت في المدينة لأنها أرض ذات نخل كما نجران ـ كما هجر كما اليمامة فقد كان رسول الله ﷺ وقد أمر بالهجرة إلى أرض ذات نخل ظناً أنها غير يثرب ولكن الله أمره أن تكون «يثرب» لتسمى طيبة دار الإيمان دار الهجرة المدينة المنورة. ما تسلط عليها ظالم إلا أذابه الله كما يذيب الملح في المـاء.

النخل صنوان وغير صنوان الصنو لأمه صنو الحلوة حلوة والصنو البدني بدني فالصنو لأمه.

أما النوى حين ينبت فكثيراً ما يكون خملاً أو لوناً ولا تعجبوا إذا قلنا أن العنبرة المرغوبة للحجاج لم تكن إلا نبته «نوى» كأنما هي تأصلت بنفسها.

وأعرف أن الشيخ في أم البيض بلاد الوسيدي كانت نبتة فإذا هي شيخة عريضة ثقيلة

اللحم والنخل مرة أخرى أعرفكم عددها كنوع :

الحلوة. البرني . البيض. الشلبي المشوك، الصفاوي، الحلبة. السويدة. الهرموزي . المكتومي . الأفندية . البرحية كلها أصائل ولعلي نسيت بعضها أما البقية فلون غير أن ظاهرة ينبغي أن نعرفها في أول السرطان نذوق الرطب الحلية ثم يأتي بعد ذلك نوع من الرطب الآخر.

الحلوة تأكل خضراء «سربان» وزهواً أحمر ورطباً وتمراً والحلبة بعدها تأكل زهواً ورطباً وثمراً.

أما السو يدة والروثانة فتأكلان رطباً لا زهواً ولا تمراً والبرحية تأكل زهواً ورطباً لا تمراً.

أما البيض والبر نى والمشوك والشلبى فكلها تأكل تمراً فقط كأنها الذخر لا تستهلك بل تخزن.

ونسيت الهـرموزي والمكتومية والأفندية أحسن ما تأكل رطباً وللذكرى فقد بيع صيف الزهرة في أوائل الأربعينات بألف وخمسمائة جنيه ذهب والشنيبلية بلاد بهاء الدين خاشجقي ببيع صيفها سنتها بسبعمائة جنيه ذهب.

وللذكرى مرة أخرى طلع الجراد والدبا وقد خرص التمر وقد أزهى بخمسين ألف أردب فأكله الدب حتى لم يبق من الخمسين ألف أردب إلا ماهو أقل من النصف.

إلى وزارة الزراعة.

غفلت أن أتّبع النصيحة أو هي الخبر عن النواة كنبته أكتبها فلم أصنع شيئاً عن الخبر فمن أكثر من عشرين عاماً أخبرني أستاذي صالح بن عثيمين من أهل بريدة أن النواة لو زرعت بلبها يعني لو زرعت ثمرة لن تكون إلا لأمها أرجو من المزارعين أو من وزارة الزراعة أن تجرب زرع الثمرة من أنواع كثر لعل الخبر صادق

فالصنوان قليلة أما زرعنا ذلك فلعل الصنوان تكثر لتأتي العجيبة.

وكيف زرعت كاليفورنيا النخل حتى البرحية كان ذلك يوم طاف البلاد العربية مستر «قرين» الأمريكي . فأخذ الصنوان من الجزائر والبصرة والقصيم واليمامة والمدينة بواسطة أصدقائه من العرب فزرع الصنوان في كاليفورنيا فإذا هي تصدر التمر وإني لأعجب من البرحية هي نخلة البصرة حجزوها ولكنها زرعت في القصيم فلم تتأقلم، وزرعت في المدينة فقد جلب صنوين من البرحية شويمي بن حجاز يرحمه الله هدية لصهره عبد الله بن مسلم

المحمادي الشيخ والد صديقنا حليت، أثمرت فلم تتأقلم وزرعت في الشرائع فلم تتأقلم وأغرب من ذلك إنها زرعت في جدة عند قائم مقام جدة وعند بعض أهل القصيم فلم تتأقلم.

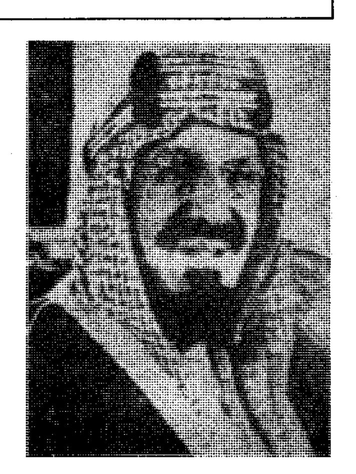
بينما زرعنا «دقلة نور» نخلة الجزائر فتأقلمت فأصبحت كأنها المشوك والتمر يخزن في الأزيار المغربية لا أدري هل يوجد شيء منها الآن أم تكسرت ؟ ويخزن أيضاً في الشنان حشايا وفي الصفائح كما يصنع مجاليد كأنما المجلاد من الخسف «من السعف» أشبه مايكون بقلال هجر.

إن الاكتفاء الذاتي من الحنطة ما أحسن أن تواخي بين سنبلة الحنطة وعرجون النخلة ليكون الاكتفاء بالحنطة والتمر ولا بد من مثل أذكره.

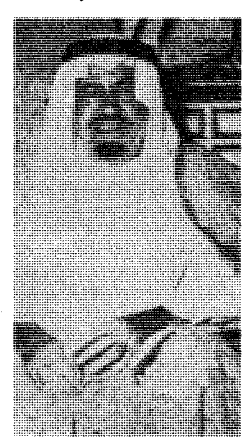
قال أحد أمراء مكة إن المدينة لا تجوع وفيها الأسودان التمر والماء.

ودخلت طيبة في الكيان الكبير
عبد العزيز خامس ملوك العرب
وسابع ملوك المسلمين

والذكريات ليست إلا جغـرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشـاهـد تاريخيـة، ليس منهـا أن تكـون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريـخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولهـا وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقـة ومـا أقـوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».



● الملك عبدالعزيز آل سعود



محمد بن عبدالعزيز

مقدمة الخاتمة

وأحسبني أخطأت حين نشرت الذكريات في صحيفة لأن أرضنا المقدسة حرماً وسياجاً، أعطت لإنسانها الخوف على الماضي لا يمس أكثر مخافة على الحاضر، لأن الماضي عمل الأجداد وطبع شعبنا على تكريم الأجداد، أما الحاضر فمن صنع إنسان اليوم، يفرح بما أوتي وقد أعطى الكثير فهو يخشى من عجوز مثلي أن ينال من ماضيه، وأن أختال بحاضره، فبعض الأفراد لا يعجبهم ماهم فيه، ويجزعهم أن أقول إنهم به أمنوا واطمأنوا وتعلموا وعلموا، لهذا قررت أن أختم الذكريات أتجاوز عن الماضي إحساناً وإساءة ولعلهم في هذا كله يتطاعنون السنة تتلسن على. وألسنة تدافع عني أما البقية من الذكريات فلن أتركها، أنشرها وأنا أجهزها للطبع، فالكتاب في يد القارىء يبصرني بالخطأ أكثر من أن يجردني من كل الصواب.

ومع هذا فإني أنتظر التصويب لما نشر إذا ما وجد خطأ.

إن المدينة المنورة لن أكذب عليها ولن أكذب بها ولا أسمح لكاذب أن يتهمني بالعقوق، فالمدينة المنورة الأرض الغزلة علمتني الحب.. علمتني أن أكون الضعيف أمام الضعيف وأن لا أتعرض لسخط الأقوياء، المدينة التي تعلمني الحب، كيف لا أحبها؟ كيف لا ألثم بالحب ثراها، كل الثراء في وجداني من ثروة المعاني كان مددها حتى إني في أحلام اليقظة وآمال الحسن للختام لا أتمثل إلا المدينة المنورة، ولئن أعطتني مكة المكرمة عطاء كثيراً فإنها أيضاً المثال الحلو في أحلام اليقظة فالعجوز الطفل ثروته الأحلام وثورته أن ينسى حلماً جميلاً، عشته في قباء أو في العاقول أو في المهاريس أو في العقيق أو في الشريبات حول (ماسكة) تلك البئر يشرب منها أهلها ماء يطرد العطش ونشرب نحن الشباب معنى الجمال يحوطه الجلال لا ينقصه الكمال، كل شبر في المدينة المنورة يتغزل لك لتتغزل به، فليالي العقيق أيام عبد الله بن جعفر اجتمعت فيها كل الأشبار وكل الأخبار من ذلك الغزل بذلك الحب، فالكم موجود وماأكثره ولكن الكيف تغير، فلو أن أبناء السيد عبيد مدني والسيد علي حافظ نشطوا ينشرون الشعر الذي في خزائنهم لرأيتم غزل العقيق على كيف جديد قلد العتيق وأجاد الحديث.

والخاتمة التي أردت الختم بها، فكتبت ما سبق هي عن المدينة المنورة وكيف انضمت إلى الكيان الكبير وتم بها التكوين لهذه المملكة العربية السعودية، تكوين الأمن والعلم والاستقرار والعمران، وترك التنابز بالألقاب وإسقاط التنافر بالتلقيب.

سأكتب عن ذلك خاتمة للذكريات تنشر في الجريدة، أما ما سأكتبه بعد ذلك فسيكون في الكتاب..

عبد العزيز بن عبد الرحمن خامس الملوك في العرب.. معاوية.. عبد الملك.. المنصور.. عبد الرحمن الداخل.. عبد العزيز بن عبد الرحمن، وسابع الملوك في المسلمين، إذا زدنا على الخمسة التي ذكرت محمد الفاتح العثماني التركي الذي أزاح دولة روما الشرقية التي لم تستطع أمية أن تزيلها ولا استطاع العباسيون أن يخلصوا منها وعجز عنها ملوك الطوائف وأعطت سيف الدولة أن يكون آخر العرب حرباً على الروم، محمد الفاتح يستأهل أن يكون خامس ملوك المسلمين، وجاء سليم فكان السادس من ملوك المسلمين وأنعم الله على عبد العزيز أن يكون السابع في ملوك المسلمين، الخامس في العرب والسابع في ملوك المسلمين فلا تأخير ولا تقديم وإنما هو ترتيب الزمن.

عبد العزيز قلتها كلمة جهيرة.. أجهر بها الآن إنه لم يكن الثقفى الذي أهدر البيت ولا أبخس الحسين بن علي حقه، فهو القرشي الذي لم يعرض البيت إلى الإهدار، رحمهما الله وحرص عبد العزيز فكان محنكاً وحصيفاً ونظيفاً لم يعرض المدينة إلى الإهدار.. أسألوني كيف كان ذلك؟

فيصل الدويش حاصر المدينة في قباء بعيداً لا يصل رصاصه إلى أي جزء من المدينة، كأنما هو حجز عنها وكأنما قباء حددت له، لأنه لم يصل إلى العوالي، فقد وصلها ابنها شيخ قبيلتها أخو حسنة عبد المحسن الغرم شيخ بني علي، أهل العوالي والذين في القصيم، هو من شماريخ حرب، وهو رأس في مصروح، عبد المحسن الغرم منع الدويش أن يصل إلى العوالي حجزه في قباء، بعيداً عن سور المدينة، أما الغرم عبد المحسن فكان في العوالي وما أشد قربها لسور المدينة، لماذا أذكر ذلك؟ لأنه عمل المحنك عبد العزيز، فعجز الدويش أن يدخلها وما انتوى الغرم أن يدخلها إنه ابنها، هذا العمل هو الذي أعطى لعبد العزيز قبول التحدي لشاه إيران أحمد، أبرق بعض أهل المدينة وهم خائفون أن القبة الخضراء ترمى بالرصاص، فاحتج شاه إيران وتحدى الاحتجاج عبد العزيز لأنه يعلم كل العلم أن أي طلقة من الدويش لا تصل إلى المسجد وأن الغرم لم يطلق طلقة واحدة على المسجد الذي يتناوله وهو على جدار البقيع الذي هو أول العالية وأذن للسفير الإيراني يرافقه صديقنا أحمد لارى محروساً يصل إلى المدينة يستقبله إبراهيم النشمي الذي يحاصر المدينة من شمالها بعيداً عنها حول الزهرة فهو أيضاً لم يطلق رصاصة، لقد قرأت الكتاب الذي أرسله عبد العزيز إلى إبراهيم النشمي يوصيه بحماية السفير الإيراني وإكرامه ودخل السفير الإيراني المدينة بإذن

من البلدية والمالية، وأذن الأمير محمد لمن يريد السفر ولا يطيق البقاء أن يسافر، فسافر أحمد بن منصور إلى وادي فاطمة وعبد الله عمير وأكير ديوانه سافر ولكن كيف سافر عمر كردي حفيد إبراهيم الكردي الكوراني وشاعر الحسين بن علي وشاعر المدينة وقاضيها سافر لأن اجتماعاً عقده الأمير محمد في البلدية حضره أعيان المدينة وجرى حديث من أحدهم عن خبر (لقد كان ذلك أيام نهضة الحسين) فإذا أحد الأعيان من بقايا السيد أحمد أسعد يقول قولوا (نهقة الحسين لا نهضة الحسين) فاغتم عمر كردى وقام يستأذن الأمير محمد بالرحيل وماكان ينويه، فرحل هو وأخوه عبد الحفيظ وأخوه صالح وابنه محمد وابنه سامي، عمر كردي خال صديقنا ضياء الدين رجب وصل إلى العراق ومات هناك كما مات أخوه صالح ولكن عبد العزيز بن عبد الرحمن قد أعاد الشيخ عبد الحفيظ يتولى القضاء في المدينة ويرد للبيت اعتباره.

ولكي تتم الخاتمة فإني أشكر السيد الإدريسي كتب مقالاً صوب فيه أخطائي لعلي أنشره مع الأيام، وأرسل إليّ الابن الصديق وابن الصديق عبد الهادي محروس رسالة يعترض علي بما تحدثت عن أبيه عبد الحفيظ محروس وعن عيسى العقيد أنشرها نصاً ولكني وأنا الصديق لآل محروس لم أرد سوءاً بعبد الحفيظ.

سامحك الله ياأستاذ

● **المسجد النبوي : ما اصابه الرصاص قط**

حول قصة عيسى العقيد وما كان له من أمر والدي عبد الحفيظ محروس يرحمه الله مع المذكور:

فالقصة وما فيها أن عيسى العقيد كان يترصد والدي عند جبل أحد لأنه المالك الوحيد في تلك الأيام لبلاد الزهرة.

لأن بعض الوشاة أخبروا العقيد أن والدي أعطى إخبارية عنه للحكام في المدينة عن الإجراءات التعسفية التي كان يقوم بها المذكور آنذاك ومن أجل ذلك عمل له تلك المكيدة التي جانبك التوفيق إعطاءها بالصورة التي تمت. حيث أشرتم أن العقيد ترك والدي ينزل للمدينة لا يستره إلا القميص والسروال هنا أحب أن أقول للأستاذ إن عيسى العقيد لم يترك والدي حتى إنه ينزل للمدينة بالحالة التي أشرت عنها بل جعله رهينة إلى أن أسمع جدى

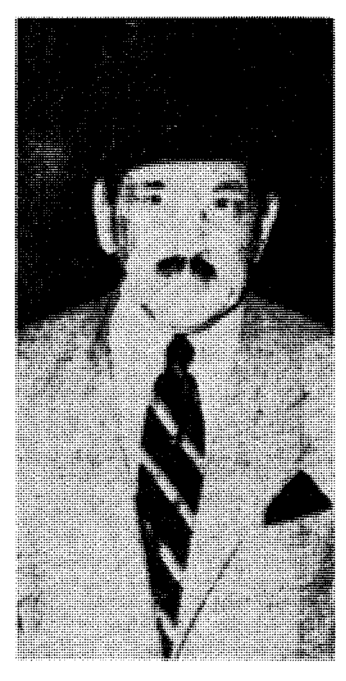
صادق محروس بالأمر واتصل بالحويفي حليفهم من المحاميد وأخبره بالأمر وراح إلى هناك وأعاد والدي مرتدياً كل ملابسه. هذه هي القصة أو الحكاية كما ذكرتم يا أستاذ وأنت تعلم أن والدي مع مايتمتع به من رشاقة وأناقة ورفاهية قليل من الرجال في زمانه حظى مثله أو وصلوا حتى لمكانته في ذلك التاريخ وماله من عزة لدى والده يرحمهم الله جميعاً أحببت التنويه لكم عن ذلك للإعادة إلى الصواب والابتعاد عن الخطأ وحتى لاتنسى أحد أصدقائك ياأستاذ ولا تقبل عليهم التجريح. فأبي لم ينزل للمدينة كما ذكرتم

عبد الهادي محروس

إن عبد الحفيظ لم يكن مالكا للزهرة فهي وقف وإنما كان مالكاً لصيف وأذكرك ياعبد الهادي بواقعة مع جدك صادق محروس، جاءه الخبر أن عين المدافعية لا يصل منها الماء سدها عبد العزيز بن بادي أحد شيوخ بني علي في العوالي لأن المدافعية العين منابعها في المسروحية، ولكن محمد محروس حسب حساباً لذلك فحالف من مسروح ابن ربيق شيخ بني عمر وعلى الرأس وهم من مسروح كما حالف ابن موقد أحد شيوخ عوف في نجد حرصاً منه وحماية بهم ولا أدري هل كان محارب بن موقد في المدينة أما أن صادق محروس يستنجده وبعد ظهر يوم أعد الغذاء صادق محروس فإذا عبد العزيز بن بادي الذي أغلق العين ومحارب بن موقد وأحمد بن جميعان حليفنا ولا شأن له كما يبدو وجرى الجدال فلم يستطع محارب أن يهدد أو يتوعد أو يشرح ولكن أحمد بن جميعان شرح وقال «ماجرت المدافعية إلا بإذن والا بعطاء فكيف تغلق الآن» فقال ابن بادي «ويش خصك ياأحمد خلي بن موقد يتكلم» فقال أحمد بن جميعان: «ياصادق أنت حليف بن ربيق وإلا لأ؟» فقال صادق نعم، قال اسمع ياعبد العزيز أنا ما ني فضولي ينوشني ما ناش ابن ربيق هو عمري وأنا عمري وأنا ومحارب الآن نفتح العين وتعال سدها بعد ذلك» وانتهى الوضع وتصافح الرجال وفتحت العين. . أنت ياعبد الهادي قد لا تعرف هذه القصة وقد لا يعرفها نزير ولكنني عرفتها من أحمد بن جميعان وبعد ذلك عم أبيك أبي محمد عبد السلام محروس والبقية من الذكريات لعلها تستأنف ولعلها تأنف أو لعلها تلحق بالكتاب.

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (١٨)

بدخول عبد العزيز . . لا طبقية ولا امتيازات



● علي باشا ماهر

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

الملك عبد العزيز في المدينة

وودعت المدينة المنورة أميرها صاحب السمو الملكي محمد بن عبد العزيز وداعاً كريماً بعد أن أقام النظام فيها بتأسيس أجهزة الحكم، فأبقى كل شيء على حاله. . ديوان الإمارة يرأسه إسماعيل حفظي . . والشرطة يرأسها مهدي بيك الذي انتقل منها مديراً للأمن العام في مكة. والمحكمة الشرعية قاضيها الأول شيخ الشيوخ إبراهيم عبد القادر البري العالم الذي لا يتعالم والذي لم يعرف الشر إليه طريقاً يعاونه القاضي الخليفي. وهو ليس أستاذنا عبد الله الخليفي الإمام في المسجد المكي فلعلهما من نسب واحد أو لعلهما لقب واحد، فلعلي أجد من يوضح ذلك، والخزينة التي كانت تجمع إدارة الأوقاف وإدارة المسجد، تولاها كما علمت بعد. محمد الإبراهيم القاضي، وبعد هيئة التفتيش والإصلاح برئاسة الشيخ حافظ وهبة وعضوية أستاذي وشيخي والناهض بي محمد العلي التركي وإبراهيم الصنيع

ومحمد السليمان التركي وأحمد سبحي المكي ومحمد صالح نصيف، بعد هذه الهيئة عين أستاذنا السيد حسين طه مديراً للأوقاف حيث فصلت عن إدارة الحرم وعين فيها أولاً السيد عبد الجليل مدني، أما البلدية فعين فيها ذياب ناصر أبو حسن وضمت إليه المالية، وكما قلت من قبل إنه لربما أوصى ابنه الأمير محمد بأن يستعين بذياب ناصر لأن الملك عبد العزيز يعرف ذلك أن السلطان العثماني محمد رشاد أو الصدر الأعظم من الاتحاديين طلعت باشا قد أوفد كاظم باشا أيام بصري باشا في أواخر العشرينات أو أوائل الثلاثينات أوفده ليفاوض السلطان عبد العزيز حينذاك، فاصطحب كاظم باشا معه ذياب ناصر معيناً ومترجماً واستقبلهما السلطان عبد العزيز ولكن لم تنجح المفاوضات مع أن السلطان عبد العزيز لم يحرك ساكناً ضد الدولة العثمانية بعد أن ضم الأحساء.

سافر الأمير محمد وتولى إمرة المدينة بتكليف من الملك عبد العزيز وكيلا للإمارة بينما هو والأمير فيها وهو (إبراهيم السالم السبهان) والكاتب أو المؤرخ يقف عند هذا التعيين فلا يرى ذلك إلا وهو الحصافة والإدراك من عبد العزيز بن عبد الرحمن يولي إبراهيم السالم السبهان حاكماً في المدينة المنورة لعدة أمور لعلي لا أخطىء في فهمها وهي أن هذا الأمير من أعيان شمر وحائل بينه وبين آل الرشيد صلة الرحم لاواصلة النسب إلا أنه شمري مثلهم من أعيان شمر. فهو بهذه الصفة يعرف كثيراً من أهل المدينة لأن المدينة المنورة قريبة من حائل كقربها من عنيزة سكنها الكثير من هؤلاء ومن هؤلاء حتى أن حمود العبيد قد لجأ إليها بعد قتل عبد العزيز المتعب ونزل في ضيافة السيد عمران حبوبي المشهدي وكان رجلاً له ثراء وله قيمة وكان حمود العبيد صديقاً لذياب ناصر، ذياب ناصر كان مجلسه يضم العلية من أهل القصيم وأهل حائل، عساف الحسين عبد الله بن دخيل سيف العوجان جدى لأمي رجاء ابن فضلون، يعرفون بعضهم، وكان مع حمود العبيد الطفل عبد الله المتعب يحوطه برعاية وكان رضيعاً طلبوا له المرضعات فإذا جدى رجاء بن فضلون يأخذه لترضعه أمي ومعي كأنما نحن في سن واحدة، أرضعته أياماً غير أن والدي طلب من والدتي وجدتي وجدي ألا يرضع مع ولده ابن رشاد أو ابن رشيد، عرفت ذلك من والدي بعد أن أصبحت رجلاً ومعلماً للصبيان وخطيب محفل.

كانت المدينة المنورة في هذا العهد الحميد ليست على حال السلطان عبد الحميد أو السلطان رشاد، فقد قتل عبد العزيز الفصام والخصام، في هذه الفترة نسيت يومها وشهرها وصل الملك عبد العزيز إلى المدينة المنورة فما رضى عن وضع طبقى فإبراهيم السالم السبهان كان مجلسه يمتلىء بأصدقائه الذين كان يعرفهم من قبل من أهل المدينة داخل السور ومن ذياب ناصر والسيد عمران، أما أهل عنيزة القاضي والزغيبي والتركي والخريجي والعامر

والسلومي والصهيل فلم يكونوا من رواد مجلسه، كان ذلك هو السبب في انتقال السبهان من المدينة، ولكن كيف تم ذلك؟ سمع أعيان المدينة من داخل السور في طبيعتهم آل المدني وعـارف برى أن الملك عبد العزيز يريد تعيين أمير آخر فكتبوا مضبطة يحسبون المضابط أصبح لها سعر، قدمت للملك عبد العزيز فإذا هو يعلن غضبه يجمعهم ثائراً ثورة راحمة ليفهموا أكثر وليعلموا أكثر وأمامهم أرسل إبراهيم بن معمر يخبر إبراهيم السبهان بأنه لم يعد الأمير، كان ذلك درساً لقتل الطبقية والقضاء على الامتيازات والفصام، وعلمت أن الذي أرسل الإشاعة ودفع إلى المضبطة كان الصديق الأب الناصر لي صالح الإبراهيم القاضـي، وتولى الإمرة الأمير مشاري بن جلوى آل سعود ولذلك قصة بعد.

وصل إلى المدينة الملك عبد العزيز وذكرنا ما سبق وكان يتنسم الهواء يركب قطار السكة الحـديد لأول مرة يصـل به إلى البـوير بأسلوب التمشية والاستكشـاف وأخذ المعلومات وعرضت عليه قضية، قبل وصول الملك عبد العزيز إلى المدينة بأشهر كان في المدينة رجل من أهل مصر ومن صعيدها ومن منفلوط من أسيوط يشتري (تبسي الكنافة) وثمنه ثلاثة ريالات يدفع لبائع الكنافة وهو الشيخ صالح شرف الرجل الكريم الطيب وهو زوج خالة أم ولدي، وهي أم الابن حسن عطا الله الذي كان مديراً للشركة العربية للسيارات وابن عم عبد القادر عطا الله. يشتري التبسي الكنافة ويدفع جنيهاً أو جنيهين صور للناس أنه رجل ثري، ويذهب للحلاق وكان الأخ أبو بكر الذي شغل الحمام في مكة بعد، يحلق له لا يعطيه نصف ريال أو ريالا بل يعطيه جنيهاً ذهباً حتى إنه أخذ من متسول رجله مكسورة خمسة جنيهات بجنيه أو جنيهين، كان ذلك المتسول يضع الجنيهات في الجلبة التي لفت بها رجله المكسـورة أما الأخذ الأكثر فمن رجل هندي كان يبيع الفحم، أغراه أولاً بالعطاء الكثير كما فعل مع الآخرين فقد أخذ من الحلاق سبعين جنيهاً ومن بائع الكنافة ٢٠٠ جنيه ومن الهندي بائع الفحم أكثر من ٩٠٠ جنيه، أسلوبه غريب ينقطع عن بائع الكنافة أياماً يناديه «فينك ياشيخ» فيشير وكأنه أخرس بأن الأولاد لم يرسلوا له فلوساً، وهكذا يفعل مع الحلاق وبائع الفحم، بهذا الأسلوب والاعتذار يعطونه ما أخذ منهم لأن الأولاد سيرسلون له فلوساً مع أنه لا أولاد ولا فلوس لأنه نصاب كشف أمره فرفعوا الأمر يشكونه للملك عبد العزيز فقال يرحمه الله «هم أعطوه ليأخذوا منه أطمعهم فسلبهم . . رحلوه ولا تعملوا فيه شيء» ورحـل الـرجـل وضاعت الفلوس على أصحابها وأخذ الشباب يقولون هذا المثل «طمعنجي بنى له بيت فلسنجي سكن له فيه» ونسيت أن أذكر المدرسة كان مدير المعارف الأول لها في عهد الأشراف عبد القادر الشلبي الطرابلسي أما في عهد بني سعود الأول فقد عين الشيخ أحمد كماخي والأساتذة أحمد صقر، حسين طه، سعيد مدرس، ماجد عشقي،

العريف بن سالم ولم يعين الأستاذ بحق السيد محمد صقر وإنما عين بعد في اليوم الذي عينت فيه أستاذاً، برأي وتصميم محمد علي التركي عضو هيئة التفتيش والإصلاح.

والملك عبد العزيز تغمده الله برحمته وصل إلى المدينة المنورة المرة الثانية بعد انتصاره في السبلة وكان معيته محمد الطويل ومحمد سرور صبان كانا في الرياض فعادا إلى الحجاز، وأريد أن أذكر نادرة كان الملك عبد العزيز يتصدر مجلسه في بيت الخريجي وبجانبه ابنه الأمير الملك فيصل بن عبد العزيز وصل إلى المدينة بعد أبيه يحمل إليه تقريراً عن المفاوضات التي أجراها فإذا صديقنا حسن حسين، بقال حملوا إليه سيارة فيها دخان ألقوا القبض على الدخان من هيئة الأمر بالمعروف فكتب عريضة وقدمها للملك عبد العزيز يطلب السماح للدخان المجمرك فنهره الملك عبد العزيز وقال احبسوه فإذا الفتى يرتعش يقول يخاطب الملك (ياهو أنت جاي ضيف والا جاي تحبسنا) فشمخ عبد العزيز يقول (والله إني ضيف ردوا له حقه) فإذا الناس الجلوس يهتفون داخل صدورهم يعجبون من عبد العزيز، جلس أياماً في المدينة يتفقد الأحوال لأنه يريد أن يعرف كل شيء فهو كما قلت لا ينام ولا ينيم، أسس ملكه ووحد العرب في جزيرته وصنع من القليل الكثير، إنه في التاريخ أعجوبة وإنه في الواقع لا يزال في سمع التاريخ وقراطيس التاريخ.

أما المرة الثالثة التي وصل فيها إلى المدينة فهي حين استقبل الملك فاروق الذي أصبح صديقاً، ولا أقول أصبحت مصر بذلك صديقة بل هي الصديقة من قبل ومن بعد وإن كان علي ماهر هو الذي فتح الباب وقتل الأسباب، فأبو محمد علي ماهر زينة في تاريخ مصر حفظ له ملوك السعودية هذا الموقف فإذا هم له بكل شيء وفاء وعطاء يرحم الله كل من أحب ويهدي الله كل من عق وانشق، فهذا البلد بلد العطاء بلد الحمد بلد الشكر لا يعرف الكنود والجحود لأن إسلامه هو الحب، لأن قبلته هي القبلة.

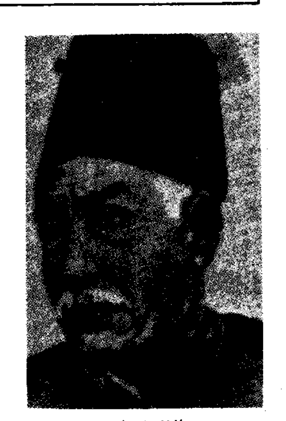
طيبة.. رحلة في الزمان والمكان ١٩

الحاكم . . الأمن . . الحجيج

لا نمنع الحاج من أداء الفريضة . . ولو توقعنا منه بعض الشر

قصيدة نزعت الغل من قلب الكيلاني

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».



حافظ ابراهيم



احمد شوقى

قصيدة أمير البيان
في رثاء أمير الشعراء

قد أعجز الشعراء طول حياته ... واليوم يعجزهم بندب مماته
هيهات يوجد في البرية منهم ... كفو ليرثيه بمثل لغاته
كان الأمير لجيشهم مستنة ... فرسانهم في الظل من راياته
ماعاب أهل العبقرية أنهم ... قد قصروا في الخب عن غاياته
هذا أمير الشعر غير مدافع ... في الشرق أجمع منذ فتق لهاته
لو كان وحي بعد وحي محمد ... لانشق ذاك الوحي عن آياته
رقت لنغمته القلوب، فكيفما ... غنى بها رقصت على نبراته
تغدو المعاني وهي شمس مفازة ... فيقودها قود الغلام لشاته
وإذا أراد الصخرة الصماء من ... أغراضه رقت نظير سحاته
مارام شارد حكمة في نظمه ... إلا أصاب صميمها بحصاته
جلى الإله له الأمور، كأنما ... يلقى عليها الشمس من نظراته
فكسا الطبيعة من نسيج بيانه ... حللا خلت من غير طرز دواته
فترى الطبيعة قبل نظرته لها ... غير الطبيعة وهي في مرآته
والحسن يشرق في العيون بذاته ... وهناً يضيء بذاته وصفاته
من كل بيت في رفيع عماده ... تتقاصر الأقدام عن عتباته
كالدر في لمعاته، والبدر في ... قسماته، والصبح في نسماته
ولقد رويت الشعر عن آحاده ... وضربت بالسباق في حلباته
وقضيت فيه صبوتي وصبابتي ... وقطفت منه خير نواراته
وأثرت في البيداء نُزْل فحوله ... وأطرت في الآفاق شهب بزاته
فرأيت شوقي لم يدع في عصره ... قرناً يهز قناته لقناته
الفرد في أمداحه ونواحه ... والفذ في أمثاله وعظاته
وإذا تعرض للغرام فهل درت ... لغة الغرام نظير شوقياته
مافي الهيام كوجده وحنينه ... أو في النسيب كظبيه ومهاته
وإذا تحدث بالربيع وروضه ... أنساك بالتحبير وشى نباته
يلقي على غمرات كل ملمة ... قولاً يزيل أجاجها بفراته
ويظل يرسلها قصائد شُرَّدا ... غررا تشق الفجر عن ليلاته
كانت قصائده هي الصوت الذي ... سرى عن الإسلام ثقل سباته

بعثت به روح الحياة كأنها ... هي صـــوره إسرافيل في زعقاته
قد كان أدرى الناس بالداء الذي ... قد حط هذا الشرق عن صهواته
داء هو الأخلاق في اضمحلالها ... فلذا ترى الأخلاق رأس وصاته
وفيٌّ عن الشرق القديم نضاله ... من يوم نشأته ليوم وفاته
قد ذاد عنه بقلبه وبلبه ... شأن الأبى يذود عن تركاته
ماض يحذره استلاب تراثه ... منه، وبحفزه لأخذ تراته
أعلى منار الشرق في أوصافه ... وأجاد وصف الغرب في آفاته
أوحى إلى الشرقى بالطرق التي ... يمشى النجاء بها لأجل نجاته
أملي مكافحة الذئاب عوادياً ... بالواد مغتصبين حق رعاته
الجالسين ببره وببحره ... والجائشين بنجده ووطاته
والسالبين لزرعه ولضرعه ... والآكلين لتمره بنواته
أشعاره تحيى، وتحيا أمة ... تجد الحياة الحق في كلماته
ياراحلا ملأ الزمان بدائعا ... من قبل أن نزل القضا بسكاته
أتركت بعدك شاعراً ترضى بأن ... ترعى جياد الفكر في تلعاته
يبكي بك الإسلام خير جنوده ... أبداً ويرثى الشرق رب حماته
وكأن وادي النيل من أحزانه ... يلقى على الشطين من زفراته
ونوادب العربية الفصحى لها ... ندب عليك يذيب في رناته
انظر إلى الأخوان كيف تركتهم ... من كل مضطجع على جمراته
انظر لحال أخ فداك بروحه ... لو كان يحيى الميت عزم فداته
قد كنت طول العمر قرة عينه ... والآن تجرى السخن من عبراته
مضت السنون الأربعون ونحن في ... هذا الإخاء نمز من قهواته
أرعاك عن بعد وترعاني على ... عهد نهز الرطب من عذباته
قد كنت أطمع أن ترى لي راثياً ... يامن غدوت اليوم بين رثاته
كنا نخاف رداك قبل وقوعه ... فلنا الأمان اليوم من دهشاته
تبا لعيش قد يكون مساؤه ... نوحاً وكان سروره بغداته

وكتابة التاريخ قد تكون استقراء يسجل الحدث ولا يستنبط من الحدث أي شيء عن أسبابه أو عن الدوافع التي حملت صانع الحدث على صنعه، وما دمنا في شهر الحج وما دمنا نشعر بالامتنان لما نحن فيه حيث تبذل الدولة كل وسعها فلن يكون التعمير والتعبيد وصيانة الأمن هو أول أولوياتي فاليوم أول القيم التي نتحدث عنها هو قيمة الأمن الذي أقرته الدولة



شكيب ارسلان

التي تحتمل ما لا يحتمل ذلك أنها تعرف ما يحدث من شغب وما يلي ذلك ومع هذا فإنها لم تلجأ إلى منع من تتوقع مشاغبته من الحج . .

فالأمن الـذي صنعت بما أنعم الله عليهـا به يزدان بعـدم المنـع لأي حاج ولو توقعنا منه بعض الشر هذا الواقع يساعد المؤرخ حين يكتب عن ذكريات الماضى أن يضع الأمور في نصابها فقبل أكثر من ستين عاماً لم يكن هناك أمن . .



عبد الرحمن التونسى

نغمض عيوننـا عن الذي خرب الأمن وهو الحاكم ونضع التبعة على قبائلنا غرب المدينة بينما الحاكم من أيام ملوك الطوائف والمماليك بالذات ومحمد علي باشـا ومن هو قد تولى الحكم في الحجاز في ظل المماليك وإلى عهد الدولة العثمانية كل هؤلاء فرضوا على قبائلنا بما يمنحون أن يكونوا على مسئوليات شتى . .

كل قبيلة في غرب المدينة حربية ـ سالمية وفي الأكثر من ميمون أما الحوازم فهم حرب من حرب ومن بني سالم ولكنهم من المراوحة ، فبعض هذه القبائل حجاله ـ حملة حاج وبعضها المقوم والمخرج وصاحب الخفارة وصاحب الامتياز . . توزيع أقره الحاكم وقضت به حاجته إلا أن يذكـروا خارج القـطر بأنهم حماة الحرمين أو أن يعتقدوا ذلك في أنفسهم إذا كانوا داخل الحرمين . . الحاكم هو السبب . . كيف كان ذلك أضرب مثلين :

فالأول عن المحمـل المصري . . والثـاني عن الحـج الإيراني . . فالعجيب أن يحجز المحمل المصري حتى يسلم السعد بن جزاء شيخ الأحامدة الرسم المقرر على المحمل بينما الحجيج من المغرب العربي أو من كل إفر يقيا ومن صعيد مصر يمرون دون أن يحجزوا أو أن يدفعوا امتيازاً فالأمر في هذا الوضع هو من صنع الحاكم في مصر إذ فرض للأحمدي هذه المقررات فالباشا قائد المحمل هو الذي يقف ليؤدي الرسم المقرر دفعه ، وفي «مرآة الحرمين» تأليف إبراهيم باشا رفعت وثيقة لعلي أنشر صورتها إذا وجدتها في هذا اليوم .

وخـلاصته «من سعد بن جزاء إلى إبراهيم باشا رفعت قد سمحنا لكم بالمرور» فهذا

السماح لأنه سلم ما ينبغي دفعه مما هو مقرر بفرمان سلطاني أو بأمر خديوي .

وحين تغير سلطان الحكم في مصر من خديوي إلى آخر ولكي لا يسلموا هذه المقررات عدلوا عن نزول المحمل والمدفعية التي معه والحراس فلا تنزل في «ينبع البحر» كما كان سابقاً وأصبح نزول المحمل في ميناء «الوجه» وأعطى بعض الامتياز وثمن الخفارة إلى «سليمان بن زفادة» ومنحوه لقب باشا . . ينزل في الوجه ويمر في « بيلي» القبيلة وفي «جهينة» القبيلة عن طريق «بواط» يصل إلىء مواطن «لحرب» لولد محمد بالذات تقريب للأحمدي إلى الجبل الأشم الحبيب «رحقان» أو هو «الفقرة» يشرف على الجهينية ولكنهم ما فعلوا ولا أغروا ابن عمهم الميموني السالمي الحربي الحويفي ومن إليه بأن. ينال من المحمل بعض الحظوة فالأمر إذن هو من صنع الحاكم .

وإلا فالمحمل معه مدفعية وجيش يمكن أن يمر بالقوة ولكن الحاكم في مصر وفي غيرها «أستنابول» و «الأستانة» وما إليها ومكة ومن بها ما أرادوا إلا ذلك ، لأن الأحامدة شوكة وجمرة عوناً للحاكم وأمن له أما الحجيج الإيرانيون فإليكم قصتهم :

يجتمعون على حدود جزيرة العرب من الشمال وغالباً في النجف ويمرون على قبائل نجد كلها وفي خفارة «ابن ناحيل» صلف أو أخوه «خلفا» فورث غلاب من صلف بن ناحيل هذا الامتياز، ولم يكن من القوة بحيث يصد . . أي قبيلة في نجد، ليس أولها من كان من «يام» أو من كان من «مضر» أو من كان من ربيعة الفرس . . لا يعترض عليهم قبيل ولا يدفعون مقرراً لأن الحاكم لم يقرر ذلك . .

لكنه هو الذي قرر الخفارة لابن ناحيل ومن العجيب بمكان أن يكون بن ناحيل هو من حرب نجد أحمد ميمونياً سالمياً . . فكيف اقترنت امتيازات المسيحية مع امتيازات ابن ناحيل . . ذلك جاء من الامتياز أعطاه الحاكم للأحامدة .

وفي عام ١٣٤١ أو ١٣٤٢ هجرية حمل غلاب بن ناحيل تحت ظل خفارته ثلاثة عشر ألف حاج إيراني خفرهم من النجف إلى المدينة ثم يتركهم لابن عمه «الصميدي» بعد أن سلموا أجر الدليل فالحجيج الإيرانيون من الشيعة يقدمون بفرمان سلطاني ـ للدليل السيد مصطفى عطار الأجر ثلاثة عشر ألف جنيه فما حال عليها الحول لأن السيد مصطفى أعرفه لأنه صديقي وأعرف عنه أنه متلاف كتب على صك يلزم مديناً له بأكثر من سبعة عشر ألف جنيه . . كلمة «وصلني الدين» إنه يتسامح فلا يرهق وصيه بدين لا يستطيع سداده وأراد الحجيج الإيرانيون أن يسيروا إلى مكة ولكن لابد من أن يدفع للصميدي الامتياز المقرر عن خفارة أو أتاوة .

وكان الأمير علي بن الحسين في أيامها يقيم في المدينة فتوسل إليه كبار الحجاج الإيرانيين أن يتوسط لدى فيصل الأحمدي من شيوخ الأحامدة أن يقبل بما لديهم ومما هو أقل من المقرر وأرسل الشريف علي إلى فيصل الأحمدي ـ وكان شاباً طوالاً له قيمة وفاوضه الشريف علي أن يأخذ ما تيسر ليمر الحجاج دون معارضة فأبى فيصل وقال كلاماً لا أصدقه فالرواة للخبر يزايدون كل ما أستطيع نشره هو أنه قال للشريف لابد أن يسلموا المقرر كاملاً وإلا دونهم خشم «المسيجيد» . . ولم يتنازل عن شيء ودفع الحجاج الايرانيون ما تقرر حتى اضطر بعضهم إلى الاقتراض من الدليل أو من غيره .

وهنا أسأل لماذا لم يعدل الشريف علي عن هذا الطريق كما عدل المحمل كان يمكن أن يدعو أبو ربيعة أو «بنى بنيان» ليمر الحجيج الإيرانيون عن طريق «الجسه» عن طريق «حرشه» و «الفاير» في خفارة «عوف» ثم في خفارة «بشر» و «معبد» و «البلادية» لماذا لم يفعل ذلك . . لأنه لا يريد أن يغير ما قرره الحكام ولأنه لا يريد أن تكون «عوف» ومن إليها وهم في غيبة «من مبيريك» فهو لا يريد أن يجعل هذا الامتياز لغير الأحامدة .

أنا أكتب تاريخاً لا تجريحاً وإذا جزع جيل اليوم فإنه يتعصب لباطل بينما ينبغي له الآن أن يعتز بأنه جيل الجامعات والأمن والعمران ، فليفخر الأحمدي بالطريق المعبد إلى «الفقرة ـ رحقان» عسله هو عسل الشفا ـ رحقان سيكون مصيفاً للمدينة . . حبيب إليَّ هذا الجبل الأشم كحبي «لوردان الأشعر» الجبل الأشم على وادي «سج سج» على وادي «الصفراء» كأخيه «رحقان» .

انظروا إلى اللغة الشاعرة سمت الجبل رحقان لكثرة الرحيق وسمت الجبل ورقان لكثرة الشجر. قالوا لنا وهم من بعض أهله إذا اعتليت ذروة «الأشعر ورقان» ترى البحر إن غربت وترى المدينة إن شرقت .

ذكرى خاصة :

أستاذنا المفكر محمد عبد القادر الكيلاني التونسي المصري التركي اليوناني المديني نسميه «ابن خلدون» لأننا قرأنا عليه مقدمة ابن خلدون وقرأنا عليه الكتابين للأستاذ محمد عبد الله عنان «ديوان التحقيق ديوان التفتيش» عما جرى للعرب في أسبانيا ، والآخر «الجمعيات السرية والحركات الهدامة» كنت أشد تلامذته التصاقاً به وكنت أعرف أنه قومي عربي بصورة شديدة ، وكنت أعرف أنه من أجل ذلك يحب حافظ إبراهيم وعبد الرحمن هزاع ومحمد محمود باشا ومن أجل ذلك أيضاً يكره أمير البيان «أبا غالب بن ماء السماء شكيب أرسلان ومات شوقي فنشرت مجلة الفتح التي يصدرها محب الدين الخطيب قصيدة لشكيب أرسلان رثاء



لشـوقي أخـذت المجلة وذهبت إلى «رباط مظهر» في أول الساحة لكي أصل إلى الشيخ «الكيلاني» وقابلني بترحاب قال:
ما جاء بك؟

لم يكن ذلك عادة لك! . . قلت: قصيدة لمن تكره فيمن تكره ـ لشكيب في شوقي . . أريدك أن تسمعها قال. . لا . . قلت: الشعر في اللغة الشاعرة يكون نعم. . وحين سمع لفظة لغة الشاعر اهتز وقال «هاتها» وقرأت القصيدة فإذا عيناه تدمعان ويقول. . أحسنت إليَّ نزعت من صدري غلاً. . يرحم الله شوقي وحفظ الله لنا شكيب أرسلان. . لهذا أنشر القصيدة تأكيداً للذكرى لأنها مازالت تعجبني.

وقبل أن أنشر القصيدة لي معه ذكرى ما حمدتها له يومها ومازالت لا أحمدها. . خرجنا من صلاة الجمعة فوجدته واقفاً أمام كومة حشيفة وأمام دكان «حسن حشيفي» وقفت معه أسلم عليه وإذا العلامة شيخ الأزهر عضو مجمع اللغة ورئيس تحرير مجلة الأزهر «الخضر حسين» خرج من المسجد ورأى أستاذنا ابن خلدون فوقف قليلاً وليس ببعيد يريد السلام على الكيلاني. . فقلت ـ ألفت نظره ـ انظر . . الخضر حسين وقف لعله يريدك قال:

دعني إنه «دجال من الدجاجلة» استعار كلمة مالك عن أنس بن محمد بن إسحاق وكنت أعرف أن بينه وبين الخضر حسين ـ أكثر من الوطن «تونس» ـ علاقة قرابة لعلي لم أنس، إنه ابن خالته ولكن هكذا كان ومضى الخضر حسين يرحمه الله وما صافحه ابن خلدون وبعد دقائق مر الشيخ «صالح بن الفضيل التونسي» يسرع كأنه يريد اللحاق بالخضر حسين وقد

كان ضيفاً عليه لأن أم أبناء الشيخ صالح لها قرابة بالخضر حسين لعلي إن لم أنس إنها ابنة أخيه ـ فليصحح لي الأستاذ عبد الرحمن التونسي ابن الشيخ صالح هذا إن كان خطأ . . ووقف الشيخ صالح التونسي لحظة كان يريد أن يكلم ابن خلدون فقلت لأستاذنا هذا ابن الفضيل قد وقف. . قال دعه . . يلحق بالأول إياك والفقه وإياك أن تكون من هؤلاء . . قلت . . ذلك: تقدير العزيز العليم وإليكم القصيدة. . طلبتها من أستاذنا علي الطنطاوي لأن مجلة الفتح مجلته وإن كانت لخاله محب الدين الخطيب فلم يصلني شيء ولكني كنت أعرف أنها في مكتبة الأفندي محمد نصيف فطلبت من صديقنا الدكتور رضا عبيد مدير جامعة الملك عبد العزيز هذه القصيدة وقلت إنه يمكن أن يجدها في مجلة الفتح وفي مكتبة الأفندي محمد نصيف وما أسرع ما وصلتني منه تناولتها منه ونحن نسلم على صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز.

وقبل أن أنشر القصيدة لا أريد أن أنسى نادرة فقد قرأ أحد الصحافيين اللبنانيين طلبي للقصيدة فأرسل إليَّ قصيدة شكيب التي كتبها في مدح شوقي وهو حي ولم تكن الثانية هي التي أريد وإنما كانت غيرها، وفي حلقة ثانية أذكر التفصيل واسم المرسل والنص الذي وصلني منه:

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (٣٠)

المدينة المنـــورة
العادات . . التقاليـــد
الختان والســـرارة

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهـد تاريخية، ليس منها أن تكـون مذكـرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحـدثـاً عن شخصي وإنـما هو الحديث عن المدينة المنـورة في عهـد الـدولـة العثمانية العهد الحميدي والعهد الـرشـادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبـالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

ومن حق الذكريات، أو هي ماتدعو إليه أن أكتب عن العادات والتقاليد عن الطفل، فإذا ولد الطفل يحتفلون به وبنجاة الأم وفرحة الأب وزغاريد الأهل، حتى إذا بلغ اليوم السـابـع احتفلوا بتسميته، وإذا بلغ الأربعين يوماً احتفلوا به كتقليد، تأتي (الداية) أي المولدة، وكان أشهر الدايات (خالتي رحمة) أصلها من صعيد مصر، تأتي الداية وتحمل الأم طفلها ومعها بعض أخواتها أو الجدة يذهبن إلى المسجد النبوي . . يتسلمه (الأغا) يدخله إلى الحجرة النبوية، تقليد مضـت عليه سنون، وما أحسبه قد بقي الآن، وتقليد آخر عن الختان، فلقد كان جيلنا ومن قبله لا يختن وهو طفل يرضع كما الآن لأنهم يخشون على الطفل وهو رضيع من ألم مضاعف لا تطيقه الأم وتتعثر في علاجه، لأن الطبيب الجراح غير موجود

والمستشفى مظهر لا مخبر، فالختان يُدْعىٰ إليه الحلاق (العم غوث) أو صاحبنا (الخستة) أو صديقنا إبراهيم الجراح، فالحلاق يرفض أن يختن طفلاً يرضع، لأنه لا يستطيع إذا ما حصلت مضاعفات أن يتردد على البيت، فلهذا يختن الطفل إذا ما بلغ أكثر من أربع سنوات، فإذا ما دعا الأمر لعلاج المضاعفات يمشي على رجليه يذهب إلى الحلاق، والحلاق في بعض تهائمنا ونجودنا يأخذ لقب (دختور) يعني دكتور، ومادام الشيء بالشيء يذكر فقد خرج صديقنا المفضال إبراهيم الجراح إلى قباء ليعالج جروح الإخوان من جيش الدويش، أرسله إلى هناك رجال كانوا النصير للملك عبد العزيز يوم حصار المدينة لأن إبراهيم الجراح لديه كفاءة يعالج الجراح من شظية قنبلة وما إليها.

وحين يختن الطفل لا يكون الأمر سراً بين الأهل والحلاق، وإنما هو الاحتفال يدعى إليه الأقارب والأصدقاء على الغداء.. الطعام (رز بحمص) يطبخه الطباخ المشهور بإتقان الرز بالحمص الملقب (بشرشورة) هو لا يغضب من شرشورة.. المكان الذي يوجد فيه حفارة القبور وغاسل الموتى للرجال والقفص للنساء والنعش، لا يغضب من ذلك وإنما يجن جنونه إذا سمع من يقول (بتنجانه حمراء) دعاه أبي ليطبخ وكانت المشكلة التي ينبغي حلها اختيار المكان لهذا الطباخ حتى لا يراه أحد من «العفاريت» يعني الشباب، يناديه (بتنجانه حمرا) فيترك الطبيخ يجري ويهرب، لهذا لم يطبخ الرز بالحمص حين احتفلوا بختانى في حوش وإنما اختار له والدي الديوان داخل البيت فغضبت الزوجة على الحجر النظيفة.. والديوان النظيف.. يكون الطبيخ (إن شاء الله عمرو محمد ما انختن.. يعني لازم تسوي الطهارة في بيتي.. ما كان سويته في حوش خميس في بيت جدته من الشعر) أقنعها الوالد فصعد النساء إلى المجالس فوق، وكان الزمن صيفاً والمجالس تهجر في الصيف.. النهار في الأسفل والليل على السطوح، ولكنه يوم مضى، وسأل أحد العفاريت مين الطباخ ياحسين؟ فقال: أبو حمرة، فأجاب العفريت ليه: ماجبت شرشورة هو يطبخ أحسن، فأجابه والدي أرجوك تسكت أحسن أبو حمرة طباخ طيب، وعندما جلسوا إلى الطعام في بيت حمدان ضرار خال أخواتي وبيت عسر جارنا حين ذاك وصهرنا بعد ذلك، أعطى والدي الأجر لشرشورة وصرفه فإذا شاب مندس وراء باب سلطه أحد العفاريت حين رأى شرشوره قال (بتنجانه حمره) فصعق يصرخ وكاد يرمي العدة وأخذ يجري فما كان من أبي إلا أن أمسك بالشاب (يمصع) أذنيه فقال (يواد احنا في فرح تبغي تنكد علينا)..

ما أحلى هذا القليل ما أجمله حين أصبح ذكرى..

والسرارة «الصرورة» هي الحج الأول في عمر الطفل فحين لم يبلغ الحلم ولا يجب عليه الحج يحرصون على أن يحج مع الركب، فإذا قدم قابلوه بحصان مسرج مزركش يركب

الـطفـل وأمامه تدق الطاسة طبول وزمور . . مقررة لبيت الطاسجي ، يزف برجال من الأصدقاء يمشون وراء الحصان والطاسة يصل إلى باب السلام يدخل من باب المصري لا من باب بصري ومن المجيدي لان الأحتفال يحلو إذا مر بالسوق العامر، لأن شارع العينية لم يفتـح حينـذاك، بل فتح أيام فخري باشا. . انتهى بستان العينية وأصبح طريقاً إلى المسجد ليدخل إليه الصرورة بعد أن فتح . .

ولفظة الطاسجي نسبة إلى الطاسة . . آلة مع الطبل ، فركبت النسبة على الطريقة التركية (طاسجي) حتى أن لقب (البرزنجي) الذي لقب به البيت الكبير في المدينة من أهل العلم والقضـاء، فنسبـة البرزنجي يظن من لا يعرف هذه النسبة كيف ركبت، بأنها نسبة إلى (الـبرزان) بوق الجيش والجندرمة، مع أنها غير ذلك، فالنسبة باللغة الفصحى هي إلى البرزاني، زعماء الأكراد في العراق، هي في الشام (البرازي) وهو لقب أو نسبة لبيت كبير في الشـام منهم محسن البرازي رئيس الوزراء، وفي المدينة بقى على النسبة بالتركيب التركي (برزنجي) ولعلي نسيت أن الصرورة وهو راكب الحصان يرش بالملح (عين الحسود فيها عود) حتى إذا وصل إلى البيت يرش بالحلاوة الحمصية ويكون الغداء احتفالاً أرزاً بحمص. .

إن شرشـوره مشهور يجيد الرز بالحمص، كما اشتهر في مكة عبد الكريم الأجرب له علاقة ببيت الفطاني، ولا أفخر بأني ذواق أحفل بالمطبخ ولكن هكذا كنت ومازلت، لأن المطبخ معلم حضاري ولا أظن أن بلداً كبلدنا هذا اتسع لكل الأنواع، فلئن قالوا مطبخ الصين أوسع فلنقل إن مطبخ بلدنا قد اتسع، لأنه قد حوى المطبخ الهندي والصيني والتركي والمغربي والإفريقي والمصري والشامي والجاوي والبخاري والكابلي. .

ومن التقاليد التي لم تعد (الرجبية) ففي يوم ١٢ رجب ولا أدري لماذا كان ذلك اليوم تمتلىء فيه المدينة بالزائرين من القبائل ومن مدن الحجاز والظاهرة العجيبة أنه في عام ١٣٤٢ من الهجرة وصل إلى المدينة أهل مكة بثلاثة عشر ركباً كل هؤلاء يصعدون إلى المصرع حيث معركة أحد حيث قبر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب تصبح الباحة من غرب الحرة إلى شرق المفتية غاصة بالناس يسهرون الليلة فإذا تلك الساحة كأنها عرفات لأن الأتاريك قد وصلت تضاء لترسل النور إلى كل ركب ينشد المنشد معهم قصائده، لقد ذهب ذلك لأنه تقليد محدث، وهناك تقليد آخر هو الاحتفال بليلة المعراج ليلة المشبك (الحلوى) حتى إذا هل شعبان ففي ليلة النصف منه يخرج أبناء الحارة شباباً ورجالاً يدورون على البيوت يغنون (سيدي شاهين ياشاربيت خرقة مرقة ياأهل البيت . . لولا خواجة ما جينا ولا انطاحت كوافينا يحل الكيس ويعطينا . . إما مشبك والا فشار وإلا عروسة من الروشان) فمن النافذة أو من وراء الباب يعطي إليهم الفشار وتمر الحلية وحتى المشبك وإذا لم يعطهم أهل بيت

يشتمون (كبريته ياكبريته ست البيت عفريته) وألفاظ أخرى لا أستطيع كتابتها أما إن أعطوه فيقولون (ليمونه ياليمونه ست البيت مزيونه) . .

وتدور الهوشة وتسيل دماء لأن كل بشكة تعارك بشكة أخرى ولد الساحة لا يدخل المناخة ولد العنبرية لا يدخل زقاق الطيار، أمر ماكان حسناً، ولا أدري من أتى بهذه الألفاظ ومن ابتدع هذه البدعة، فالألفاظ تدل على أنها من وضع هندي فلفظة خواجه تدل على ذلك.

أما الركب فقد عاصرت ركبين، ركب حمزة لبان وركب محمد سعيد حوالة . . ورجال وشبان يعتزمون الحج تحت اسم بيرق الحوالة أو اللبان . . نوق وبغال وحصن وحمير، جمع كبير يقف الجميع وهم راكبون أمام مسجد الغمامة وينشد المنشد حسين بخاري أو البناني أو غيرهما نشيداً حتى إذا أكمله ساروا في طريقهم إلى مكة يتجنبون الطريق الطويل طريق السلطاني يسيرون عن طريق الجصة وحرشة والغاير، يستحسنون قصر الطريق، لأن طريق الجصة أقرب من طريق السلطاني.

وطلبت في الذكريات قصيدة شكيب أرسلان في رثاء شوقي وهي التائية التي نشرت في ذكريات سابقة، طلبتها من الأستاذ على الطنطاوي، حتى إذا نشرتها وذكرت أن قصيدة أخرى أرسلت إلى من لبنان تلفن إلى أستاذنا علي الطنطاوي أمد الله بعمره ونفعنا بعلمه، عاتباً يحسبني أني اتهمته بعدم الاستجابة مع أني ذكرت لبعض الإخوان أن أستاذنا الطنطاوي لو أنها لديه لأرسلها لأن مكتبته الواسعة ما جاء بها إلى هنا واعتذرت إليه أنفي سوء الظن، فالأستاذ الطنطاوي صديق قد انتفعت به يوم كانت مجلة الفتح والزهراء ومسلسلات الحديقة . . ولقد وصلني هذا الخطاب أنشر نصه كما أنشر القصيدة التي أرسلها وهي مدح لارثاء، وقد ذكر المرسل الأستاذ زهير الشاويش أن شيخ الشيوخ من الآباء المسيحيين عبد الله البستاني حيث أثنى على شكيب أرسلان بأنه خير تلامذته، وهكذا كان الآباء اليسوعيون واليازيجيون والمعلوفون عرباً لا طائفيين لم يكن هواهم إلا خدمة العروبة وخدمة اللغة، كانوا طلائع النهضة فلماذا نعيش اليوم في فضيحة النكبة . .

شبلي ملاط يقول وهو مسيحي يوم شوقي.

من للزمان بمثل فضل محمد ... وعدالة كعدالة الخطاب

رفع الرسول عماد أمة يعرب ... وأعزها بالآل والأصحاب

فهل نجد مثله اليوم، والشاعر القروي رشيد سليم الخوري يرسل قصيدة من البرازيل منها:

«تخر مانعات الجبال مهابة
لبيت على رمل الحجاز تشيد
كي أصله قبل النبي محمد
فكيف وقد أزكى النبي محمد
شيب الثريا قبل إنذار شيبه
ويوشك خد الشمس أن يتجعد»

فهل هنا مثله الآن؟

وإليكم الخطاب والقصيدة، أنشرهما شاكراً لا ناكراً فما أشد ما ابتلى العرب بالإنكار «كل حزب بما لديهم فرحون» . .

الأديب الكبير الأستاذ محمد حسين زيدان حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

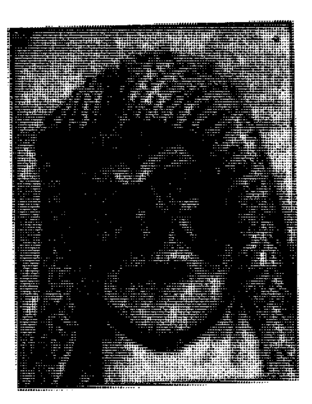
فإن من نافلة القول أن أقول بأننا ممن استفاد مما كتبت وكان لنا من تجاربكم النفع، فوق المتعة والسعادة، زادك الله قدرة وعطاءً . .

أطلعت على طلبكم من مقال أستاذنا ووالدنا الشيخ علي الطنطاوي للقصيدة التي رثى فيها الأمير شكيب أمير البيان، أمير الشعراء أحمدة شوقي . . فأحببت أن أبعث لكم بها مباشرة رغبة بالسرعة، وهي مصورة من ديوان الأمير شكيب المطبوع في المنار بمصر ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م . .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

أخوكم
زهير الشاويش


الشاعر رشيد سليم الخوري


الشيخ علي طنطاوي


احمد شوقي

ناد القريحة ما استطعت نداءها ... إن الحقوق لتقتضيك أداءها
مهما ينل منها الجمود فإن من ... إعجاز أحمد ما يفجر ماءها
مهما تراكمت الغيوم بأفقها ... فاليوم عندك ما يعيد جلاءها
لا تعتذر عنها بكر نوائب ... سدت عليها نهجها وسواءها
فأهم ما همت السحاب إذا مرت ... هوج العواصف درها وسخاءها
والحك يستوري الزناد وإنما ... تربى الصوارم بالصقال مضاءها
والرمح يكسب بالثقاف متانة ... والخيل يظهر عدوها خيلاءها
حاشا القرائح أن تضـــن بودقها ... ما دام شوقي كافلا أنواءها
الشاعر الفذ الذي كلماته ... ضمن النبوغ على الزمان بقاءها
أنست فصاحته أوائل وائل ... وغدت هوازن مع ثقيف فداءها
في كل كائنة يزف قصيدة ... توتي جميع الكائنات بهاءها
غدت المعاني كلها ملكاً له ... فأصاب منها كل بكر شاءها
وكسا اللسان اليعربي مطارفاً ... هيهات ينتظر الزمان فناءها
ستخلد الأوطان من تكريمه ... ذكرى تطبق أرضها وسماءها
من كل موضوع أصاب شواكلا ... بلغت بمقتلها الصدور شفاءها
يبكي «شكسبير» على أمثالها ... وبيبت «غوتة» حاسداً علياءها
ولو أن آلات الفصاحة عندهم ... أدركن شوقي خففت غلواءها
صناجة الشرق الذي نبراته ... تجلو المشارق عندها غماءها
في كل حرف من حروف يراعه ... وتر يثير سرورها وبكاءها
ما حل بالإسلام بأس ملمة ... إلا ورجع شعره أصداءها
يبدي فظاعتها ويوسع هولها ... وصفاً ويذكر داءها ودواءها
كانت قصائده لبعث بلاده ... صوراً أراد من البلى إحياءها(١)
وأرى الليالي لا تعزز أمة ... إن لم يكن سواسها شعراءها
كم أثبت التاريخ في صفحاته ... أمما غدا انشادها انشاءها
ضلت لعمري في الحياة قبيلة ... لم تصطحب أفعالها أسماءها
والعرب لاتبدأ بجمع جموعها ... إلا سمعت نشيدها وحداءها

---

(١) كررت هذا المعنى في رثائه رحمه الله :

بعـثـت به روح الحـيـاة كأنها ... هي صور إسرافـيـل في زعـقـانـه

أكرم بأحمد شاعراً وافي لنا في روح أحمد (٢) حاملاً سيماءها
أتلو قصائده فتملأ مهجتي فرحاً يزيل همومها وعناءها
وأظل مفتخراً بها فكأن لي دون الأنام ثناءها وسناءها
نخلت له نفسي مودة وامق وفي عهاد (٣) عهودها إنماءها
نعزو إلى لخم متانة أصلها وتمز من ماء السماء صفاءها(٤)
لا ترتجي منها النمائم ثلمة كلا ولا توهي الهنات بناءها
ناشدت شعري أن يفي بمودتي وأراه يعجز أن يجيء كفاءها
قد صار عهدي بالقريض كأنه دمن تقاضتها الرياح عفاءها
أدعو فلا يأتي الذي أرضى به والشعر أن تجد النفوس رضاءها
والشعر مارسم الضمائر نائلا منه الكنائن نافجاً أحناءها
والشعر ما ترك المعاني مثلاً فتكاد تلمس بالأكف هباءها
والشعر حيث يقال من ذا قالها ما الشعر حيث يقال من ذا قاءها
وهناك نفس مرة ما تأتلي تملي عليَّ من العلا أهواءها
إن لم تجدني في العجاجة أولا نكرت على ثلاثها وثنائها
وفرت ياشوقي السباق على الورى برياسة بات السباق وراءها
تتقطع الأعناق عن غاياتها حتى الأماني لا تحوم حذاءها
تالله أعطيت الرياسة حقها وعقدت حبوتها(٥) ونلت حباءها
وبذذت أهل العبقرية كلهم وبززت (٦) جنة عبقر أشياءها
لما رأيتك قد نزحت قليبها ألقيت عني دلوها ورشاءها
فاسعد بعرش إمارة الشعر التي ألقت إليك لواءها وولاءها
وتهن وابق لأمة عربية لا زلت قرة عينها وضياءها

---

(٢) أحمد بن الحسين المتنبي.
(٣) العهاد أول مطر الوسمي.
(٤) إشارة إلى القبيلة التي تنتمي إليها وهي لخم وآل ماء السماء ومن الماء رشفة.
(٥) ما يحتبى به المرء من عمامةٍ أو ثوب.
(٦) بذة بالذال غلبة وبزة بالزاي سلبه.
(٧) كانت وفاة الأستاذ عبد الله البستاني شيخنا منذ بضع سنوات وقبل وفاته بيومين سأله الأديب الشيخ خليل تقي الدين بعض أسئلة منها قوله له: أي تلاميذك أحب إليك ؟ فأجابه: أحب تلاميذي إلي الأمير شكيب أرسلان ثم ذكر أشياء لا حاجة إلى نقلها هنا وإنما نقل قوله: وهو لم ينسني مع طول الغربة وأرسل تلك القصيدة التي أرسلها بمناسبة عيد الخمسين سنة لخدمتي اللغة العربية...

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (٣١)

التطبيب . . والتصويب

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».



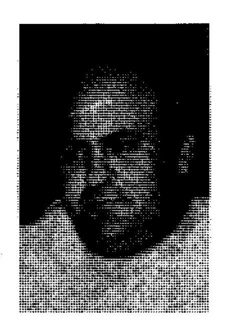
سمو الأمير خالد الفيصل



السيد ياسين طه



الاستاذ فهد العريفي



عبدالقادر الادريسي

التطبيب للمرضى من أبناء المدينة، يحترفه رجال تلقوا هذا التطبيب من آبائهم أو من معلميهم، فلم تكن في المدينة صيدلية إلا في المستشفى الوحيد، وقليل ما يوجد فيها من الدواء فهي رسم أو اسم لاشيء ينفع إلا (الكينة) شراباً، لأن الملاريا لكثرة البعوض الذي يحمل ميكروبها، لم يفلت منها أحد، وحتى التطعيم ضد الجدري لا يكاد يوجد، أما الحصبة فعلاج تمارسه الأم أو الجدة.. الثوب مصبوغ أحمر.. والغسل بالماء البارد، لاتحسبوا أن هناك ثلجاً، وإنما هو من الزير أو الشراب يبرد ماؤها حين يلفحها السموم، لأن فيها مساماً ينضح بعض ما فيها من الماء حتى إذا لفحها السموم يصبح ماؤها بارداً كأنه الثلج على خفيف. والرمد بأنواعه يصاب به الأطفال يعالجه المتطبب القبلي أو الجدات بما يوجد عند العطار، فالعطار يطبب بعض المرضى وفي دكانه علاج الرمد (توتيا زرقاء.. توتيا بيضاء.. جنزاره.. حجر جهنم) فهل يعرف أبناؤنا كيف يعالجون من أرمد بوصفة طبيب العيون بهذه الأسماء؟!

إن العلم الذي يملأ الصيدليات اليوم، قد أخذ هذه العطارة يهذبها، يخفف الألم حين استعمالها، فالتوتيا البيضاء أو الزرقاء، هي قطرة الزنك، فقبل تقطيرها كانت الجدة أو الأم تمسك التوتيا بين أصبعيها، فتفتح عين الطفل تذر أو تكبس التوتيا في عين الطفل، فإذا التقطير الآن بنسب مقررة جعل هذه المادة أخف من كونها لم تقطر، والجنزارة أصبحت الآن سلفات النحاس مقطرة ومخففة بعد أن كانت (كبوس) يحرق عين الطفل، وحجر جهنم لعلاج التراخومة كانوا يمسكون به كأنه مرود ويحكون العين حكا فتدمي ولا يكف الطفل عن الصراخ، أصبح الآن مقطراً بنسبة مئوية تقلل من الألم بهذا الحك، واسمه الآن (نترات الفضة)، وهذا يعنى أن هذه الثلاثة من المعادن الزنك والنحاس والفضة، كانت علاجاً كمادة جافة وأصبحت الآن بالتقطير، ولعل أن في الطب ماهو جديد غير ذلك لم أعرفه..

فالجدري إذ ينتشر في المدينة أو في جسم الطفل يحجز الطفل وتحرص الأمهات على العين باستعمال هذا الكبوس ولكي لا يتعرض الطفل إلى تقلب الجو في الغرفة يمنعون الهواء فكيف يثبتون حرارة الغرفة على نسق ثابت.. لا تعجبوا إذا ماقلت إنهم يتجنبون الحطب لأنه أشد حرارة ويتجنبون الفحم لأنه متقلب الحرارة جمراً تشتد به الحرارة وفحماً ينتشر منه غاز خانق، إذا بما يثبتون جو الغرفة على حال ثابت، إنهم وجدوا ذلك في (جلة البقر) يضعونها في الكانون يشعلونها فهي بذلك تجعل جو الغرفة ثابت الحرارة، يجنبون الطفل المضاعفات من تقلب الجو..

واليوم والحمد لله انتهى الجدري، أما أمس فكم شوّه الجدري الوجه يصيب العين بالعور وحتى العمي، ولعل طه حسين كان ضحية الجدري كما غيره، والحصبة في عام واحد

وفي السيح والعنبرية وفي أسبوع واحد أهلكت الحصبة أربعين طفلاً وطفلة، حتى أن ابنتي البكر ماتت بالحصبة من بين هؤلاء الأربعين وجار لنا مات طفلاه وصديق لنا ماتت طفلته لأن المطبب القبلي والعطار لا يعرفان علاجاً للحصبة والعنقز (جديري الماء)، أما الحميات فلا يعرفون إلا أنها حمى واحدة لا نعرف الفرق بين أي حمى وأخرى، ورزقنا العلم الآن الوفرة من الأطباء ومعامل التحليل فعرفنا أن الحميات كثيرة.. الملاريا، التيفوئيد، التيفوس، الراجعة. وغيرها، والزكام علاجه البخور بالسكر يستنشقه المريض، والسعال الديكي يعالج بلبن الحمارة، أما اليوم فقد جاءت مركبات الكبريت سيبيازول داجنان وكل أنواع اليزول ومستحضرات المايسين فإذا التيفوئيد والسعال الديكي إلى نهاية..

لقد عشنا في ظلال الجهل ونحيا اليوم في نور العلم..

وذات الرئة علاجها الكي بالنار لو كشفتم جسدي لوجدتم فيه أكثر من ثلاثين كية فقد أصبت بها مرتين كان المطبب الأول هو الشيخ (جز الظاهري) بستة كيات نجوت من المرض لأن الحمية وحرص الجدة وبيت الشعر كل ذلك كان عوناً لحذق هذا المطبب، فجز الظاهري رجل مبارك. وهناك ملحة نطرى بها الآن، كان صديقنا على حمد الله أصابه مرض في معدته فإذا جز الظاهري يكويه خمس كيات شكلت دائرة أربع كيات محيط الدائرة والكية الخامسة مركز الدائرة والعجيب إن بين الكية من محيط الدائرة والكية المركز مقاس واحد، وذهب صديقنا إلى مصر وهو رجل يعرض نفسه على الدكتور إسماعيل وحين كشف على بطنه انبهر وقال: ما هذا لم أعجب بالكي ولكن العجيب أن تشكل هذه الكيات دائرة منتظمة ومقاس كل كية إلى المركز هو مقاس كل الكيات، وقال للصديق.. هل كان معه مقياس حدد المسافة، ضبط الدائرة فقال الصديق: لا أمسك بالمسمار ووضع الكية هذا الوضع مع الكيات الأخرى، وحادثة أخرى كان صديقنا السيد ياسين طه يصاب بآلام مبرحة من المغص قال له الأطباء في مكة إنه من الكليتين وقال له الدكتور صادق طبيب التكية المصرية في مكة: اشرب زمزم تذوب الحصوة في الكلية أو تخرج، وأصبح السيد لا يشرب إلا زمزم ورغم خروج بعض الحصى بالبول وما زال المغص ينتابه وزار مصر وذهب إلى الدكتور أنور المفتي الطبيب البارع ونظر الدكتور المفتي إلى الآشعة فقال: هل أجريت عملية في الكبد إن في الكبد خراج قد تكلس هل استعملت دواء بنصح الطبيب..

عرف الداء فوصف الدواء فقال السيد: لا ماقالوا لي عن الكبد شيئاً، فقال الدكتور بماذا تكلس الخراج، فقال السيد: لم أستعمل دواء وإنما هي زمزم كنت أشربها نصحني بها الدكتور صادق، وكنت أعرف الدكتور صادق يوم كان طالباً يحج ويصل إلى المدينة مع بعثة الجامعة تحت رئاسة الدكتور أحمد أمين حتى إذا تخرج أصبح طبيب التكية وهاهو السيد

ياسين أمامنا لم يصب بمغص لأنها زمزم طعام طعم وشفاء سقم.

فالله جل جلاله حين أنعم على جدة العدنانيين هاجر وابنها جد العدنانيين عليه السلام بزمزم وضع سبحانه البركة في زمزم (ماء زمزم لما شرب له) ماء زمزم عاش عليه سيدي أبو ذر أربعين يوماً حتى برزت عكن بطنه كان ذلك من بركة الإيمان بالله يأتي أبو ذر ليسلم يعيش أربعين يوماً طعامه زمزم. .

دعونا نعش الإيمان بالله وليِّ النعم متعونا بالعلم ولا تمنعونا من بركة زمزم أنعم الله بها. وفي أثر: تراب أرضنا بريق بعضنا شفاء. والعسل فيه شفاء للناس، وقد عرفتم الآن أن السيد الأول قاتل الميكروبات والسعال الديكي والتيفوئيد وحتى السل هو من التراب أعني ما اشتق من مركبات المايسين. . والشيء بالشيء يذكر لم نكن نعرف الكلورمايسين ولكن خادم الملك عبد العزيز عبد الله بن سليمان قد جلب الكلورمايسين فأخذ محمد سرور صبان كماً منه أودعه عند يحيى باناجة بن سفيان باناجة يصف الطبيب فيأخذون الدواء من يحيى، وأخذ السيد حسن شربتلي كماً من الكلورمايسين بعضه في جدة يوزع مجاناً وبعضه في مكة عند صهره عبد الوهاب مؤمنة، وكان من الصعب أن يعطي عبد الوهاب الدواء إلا إذا أبرز طالبه وصفة الطبيب، وأصاب ابنة صديقنا فتحي خوجه السعال الديكي فاستعصى عليه أخـذ الكلورمايسين من مؤمنة فشكى لي ذلك وكلمت الشيخ عبد الوهاب ليعطيه، وأنا ضامن أنه لا يبيعه ثم امتلأت الصيدليات بكل دواء. .

وهكذا كانت بعض المواقف صعبة فالأمر فيها كما يقول صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل «إن حكينا بكينا وإن سكتنا قهر». .

وكنت أترك البركة أعوم فيها أكثر من ساعات فإذا عيني اليسرى أو على السواد شحمة بيضاء، قال العطار وهو الشيخ الوقور محمد الأصلني زميلنا في دار الأيتام، قال إنها لفحة هواء خذ هذه وأعطي والدي كماً من صمغة الريح لا أعرف اسمها الآن في الصيدليات يتبخر ببعضها وهو قد غطى رأسه بساتر يستنشق صمغة الريح وضع قدر الحمّصة على مرزاب العين خارج العين، ولا تعجبوا إذا ما ذكرت لكم أن الشحمة قد ذابت وأن العين لم تمس بسـوء، أدعو الباحثين في جامعاتنا ومستشفياتنا أن يعرفوا صمغة الريح، ومرض صديقنا محمد سالم الحجيلي تكتلنا لزيارته كانت حرارته مرتفعة وجاء الدكتور سعيد مصطفى وهو طبيب بارع ومعه زميلنا الدكتور محمد خاشقجي يعودان محمد سالم كشفا عليه فرأيت جزعهـما فلم يصفا علاجاً وخرجا ودمعت عيني أخاف على صديقي الموت فقد كان أول الأصدقاء وأوفى الأصدقاء، وخرجنا وخرجت من البيت صبحاً أمر على صديقي هل هو حي

أم مات فإذا هو يستقبلني ضاحكاً حين صافحته وقبلته لم أجد جسده حاراً، قلت لمحمد سالم كيف؟ قال بلهجـة البداوة بدوي قبلي حربي سالمي مروحي حجيلي، قال: بعد أن خرجتم ليلاً هبط علينـا جماله من قبيلتنا فنظروا إليّ وأمسكوا بيدي، وقال: إنها الملعونة الحمى هاتوا النار المحوار، وأمسكوا بي هم وعمي أحمد الحجيلي فكويت كويتين وسط الرأس فما شعرت بحرارة النار حتى شعرت ببرودة الجسم . .

● عرفت الكي مريضاً . . ومعالجاً بالكواء
● بغير جراحة . ماء زمزم عالجت داء الكبد
● كنا نشتري الأسمنت من عند العطار؟

إنها لعجيبة وإنها لغريبة، وهنا تذكرت أن في وسط رأسي كيين لهذه الحمى كويت بهما وأنا جدع كواني أبي فقد كان يتطبب، كم من الناس كواهم عن الفتاق وكم من الناس كواهم أبي عن اليرقان فإذا هم ١٠٠٪ يتعافون، وأنا نفسي قد كويت ستة عشر إنساناً مصاباً بالـيرقان، أجسادهم صفراء فحين كويتهم تم الشفاء فيهم شباب ومنهم شيخ قد جاوز السبعين، الكية في النقرة على الرسغ في نهاية الإبهام، ولكن الآن كلما زارني مصاب أقول له لن أكوي فالمستشفيات كثيرة والأطباء حذاق . .

وعجيبة تضحكون إذ تعرفونها وهي أن الأسمنت التي بنيت بها كل البيوت الآن من مصانعنا كان لايوجد إلا عند العطار يباع بالوقية نشتري أكثر من وقية لتلحم الأزيار أو البرك من أي شق فيها. كنا نعيش العدم ولكنها حياة ما أحلاها فلئن كان فيها كرب الألم فلم يكن فيها كرب القلق، لم يكن فيها خسارة المشاعر ومرض الشعور، ولعلي لا أنسى أن زوجة لصديق أصابها ورم في ثديها جاء لعلاجها الدكتور سعيد مصطفى المصري أخوه يوسف بيك مصطفى قائد الجيش المرابط في مصر صديق عبد الرحمن عزام باشا، كشف وجس ولكنـه استنبط لابد من تخفيف الحرارة فأين الثلج. . لا ثلج فطلب منشفة وماءً ساخناً فغمسها في الماء الساخن وعرضها للسموم لحظة وعرض الثدي للسموم ولفه بالمنشفة فإذا المنشفـة باردة خفت الحرارة وخف الورم، وحين مرض رجل من المدينة بإسهال لا يكاد ينكف وكشف عليه الدكتور سعيد مصطفى ولعله قرأ تذكرة داود أو ابن البيطار أو ابن سناء فإذا هو يطلب الحناء ناعمة ينقعها في الماء حتى إذا احمر الماء من الحناء قال للمريض اذهب إلى الحمام واستعمل حقنة شرجية بمنقوع الحناء فلم يمض يوم شفى الرجل من الإسهال كأنما منقوع الحناء قد دبغ الشرج أو تدابغ مع الأمعاء وشفى الرجل . .

التصويب

وأكثر من مرة، وقبل إملاء الذكريات كنت أتطلع إلى تصويب، فلست أبرىء نفسي من الخطأ ولا أرزأها بالنسيان، وإن بدا يمشي إلي رويداً، رويداً، أفرح بالتصويب فما أحلى الخطأ يتحفني بالصواب، وكنت في جريدة المدينة فإذا الابن الصديق علي حسون، يسألني ألم تقرأ ما كتبه الأستاذ فهد العريفي في جريدة الرياض معقباً عليك فيما كتبته بما كتبته في الذكريات؟ قلت: لم أقرأ ولم أستقرأ، العجز عن القراءة أشر منه التعجيز عن الاستقراء، فما أكثر ما كتب وما نشر وما أقل من يقرأ، وطلبت منه أن يعطيني صورة من جريدة الرياض لأنشر التصويب تكملة للذكريات وتوضيحاً لها.

فما أكتبه إما أن يكون عن رؤية، بل وأكثره عن سماع كل ما أفعل هو تسجيل الرؤية والسماع أحيطه بالرأي إذا ما وجدت أن الرأي يوضح ويشرح فلا أكثر ولا أقل، كم أنا مدين لقارىء يحفل بما كتبت مقتنعاً به أو ناقداً له. . أو حتى رافضاً، لهذا كنت قد طالبت الأستاذ محمد الحافظ أن يرسل إلى مالديه من تصويب أو نقد لأنشره، ولهذا مرة أخرى أنشر ما كتبه الأخ فهد العريفي تصويباً عن معرفة فهو (أدرى بشعابها) إذا ماكان الموضوع عن تلك الشعاب التي هو منها، وإليكم هذا النص كتبه فهد العريفي، (فالأهل أهلي والديار دياري) كما هو لخير الدين الزركلي. .

على هامش ذكريات الزيدان

فهد العريفي

يكتب الأستاذ الفاضل محمد حسين زيدان في (عكاظ) بين وقت وآخرذكرياته عن مدينة الرسول الأعظم قبل وبعد توحيد شبه الجزيرة على يد البطل عبد العزيز. وهي ذكريات يجد القارىء في ثناياها الفائدة والطرفة مع الكثير من المواقف البطولية والإنسانية. والكثير من عبر التاريخ. والتاريخ أمانة يجب ألا يدونه إلا الأمناء الأخيار أصحاب العقول الواعية والضمائر النقية. . والذين يدركون خطورة: (تصليحه) أو (تمليحه) !! بل التجني عليه من أجل (رضا) ذاك (وجبر خاطر) أولئك. . !!

وقد عشت وما أزال أعيش معها وقتاً ممتعاً وأشعر بالفائدة في كل حين من قراءتها. .

وقد وجدت في إحدى الحلقات ما يحتاج إلى التصويب ومن ذلك: أولاً: عندما جاء ذكر (الحجّام) وهو من أهل المدينة وله صلة بآل الرشيد في ذلك الزمن. . قال الأستاذ الزيدان: (إن ضاري الرشيد وابن أخيه قد هربا إلى العراق. . الخ). .

وللحقيقة والتاريخ أقول بأن ضاري الفهيد الرشيد وهو من أحفاد عبيد العلي الرشيد لم يهرب إلى العراق. بل ذهب من المدينة ومعه حوالي (١٢) ذلولا عليها بعض أصحابه إلى مكة.. واستقبلهم الشريف علي.. ثم ذهب إلى العراق وعاد منه وبقى في العراق ابن أخيه واسمه (محمد العبد المحسن الرشيد) ثم أخذ يتردد على الرياض..

أما هو فقد ظل تحت رعاية وتقدير الملك عبد العزيز حتى توفى إلى رحمة الله.. وعندما اشتد عليه المرض بعثه الملك عبد العزيز إلى الهند للعلاج وقد التقى في الهند بالأستاذ (وديع البستاني) وقام ضاري بإملاء (نبذة تاريخية) عن إمارة حائل بطلب من الأستاذ وديع أثناء ذلك سنة (١٣٣١) هجرية وقد أطلعت على مخطوطها عند أستاذنا الشيخ حمد الجاسر قبل أن يقوم الشيخ بطبعها ونشرها من دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر وهي دار أستاذنا وحبيبنا الشيخ حمد سنة ١٣٨٦هـ..

وقد طبع الكتاب باسم (نبذة تاريخية عن نجد).. ويقال بأن ضاري قد توفي في الهند سنة ١٢٣١هـ (١٩١٣م) في نفس سفرته التي أملى بها (النبذة) على البستاني..

وكان ضاري (ولا يوجد في الأسرة الرشيدية من يتسمى بهذا الاسم سواه.. والاسم غير شائع في منطقة الجبلين إلا لشخص واحد وهو الشيخ ضاري بن طوالة زعيم قبيلة (الأسلم) من شمر من المحبين والمعجبين بشخصية موحد الجزيرة..

ثانياً: ثم أشار الأستاذ الزيدان إلى قضاة المدينة وقال إن معاون قاضي المدينة بعد دخول الملك عبد العزيز هو (الخليفي) وقال بأنه غير الشيخ عبد الله الخليفي أستاذه وطلب توضيح ذلك ممن يعرفه..

وأقول للأستاذ: إن الخليفي هو أيضاً اسمه عبد الله بن سليمان الخليفي من أبناء حائل وقد تولى القضاء في آخر عهد الرشيد.. وكذلك تولى القضاء بعد أن طلب الشيخ حمود بن حسين الإعفاء عن رئاسة القضاء بحائل وعادته الشيخ عبد الله بن زاحم نائب رئيس محاكم المدينة حالياً..

والشيخ الخليفي يرحمه الله كان زيادة على حصيلته الشرعية وثقافته الدينية ذا ثقافة عالية، له بعض مؤلفات، ومنظومات في الفرائض وغيرها. وله خبرة جيدة في علم الفلك. وكان لديه في مدينة حائل مرصد بدائي بحركة الشمس أقامه بنفسه.. وهو عبارة عن ثقوب محددة دقيقة يرصد من خلالها حركة الشمس وطلوعها يومياً.

ويروي أنه في ذات ليلة في منتصف الشهر كان يسير مع جماعته في حفل زفاف فرفع رأسه

إلى السماء وقال على مسمع من الناس:
الليلة القمر يلبس كامل زينته!

ثم همس في أذن الشيخ إبراهيم السبهان قائلاً:
- الليلة سيخسف القمر وسيقول الناس بأن الشيخ (نظر) القمر وحسده!! وبالفعل فقد خسف فأشاعوها!!

ثالثاً أما قول الأستاذ الزيدان بأن إقامة حمود العبيد الرشيد بالمدينة بعد مقتل عبد العزيز المتعب الرشيد.. فالواقع غير ذلك. والصحيح أن إقامته في المدينة كانت بعد قتل أبنائه (سلطان وسعود وفيصل) لأبناء عمهم وأبناء أختهم موضى الحمود الرشيد وهم متعب العبد العزيز الرشيد الذي كان أميراً لمنطقة حائل وأخويه مشعل ومحمد ومعهم طلال النايف الرشيد.. وعرف عنه الوفاء وكره الشر وهو شاعر شعبي وحكيم.. يروي عنه عندما كان بالمدينة أنه سمع طبلاً وزمراً وموسيقى وضوضاء عسكر..

فسأل: فقالوا فخري باشا يستعد للذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة وهذه أصوات الجنود وموسيقاهم..

فضحك!
فقالوا: ما الذي يضحكك؟؟
فقال: (تحية خونة)!!
فقالوا: ومن هي خونة؟
قال لهم: الدنيا!!

وبعد ساعات قليلة جاء خبر مقتل فخري باشا..

والتصويب يحتاج إلى تصويب، فالباشا فخري لم يقتل وإنما لحقته الهزيمة حيث لم ينتفع بما لديه من الجيش والعتاد وحيث حقت الهزيمة على الدولة العثمانية، ولعله أراد (بالخونة) الهزيمة التي لحقت بفخري باشا وبالدولة العثمانية، ولست متأكداً من بقاء حمود العبيد في المدينة المنورة إلى عهد فخري باشا.

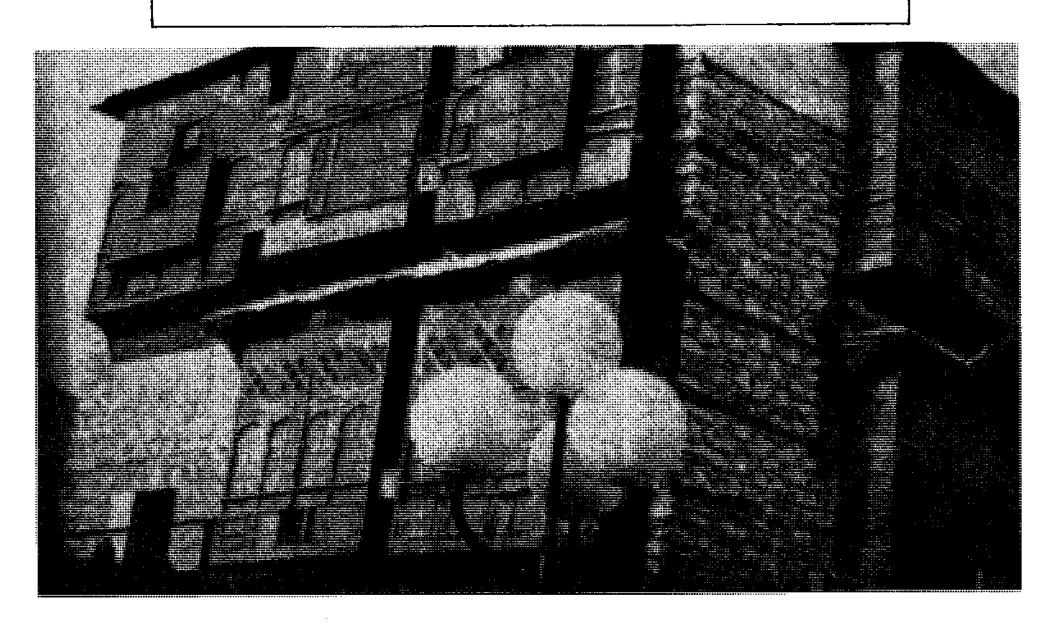
وتصويب آخر كتبه الأستاذ الجليل من أهل الثبت والأثبات عبد القادر الإدريسي عن آل الكتاني نسبتهم كما سمعت إلى أنهم من ذرية الحسين بن علي كرم الله وجهه، بينما هو الأدرى بشعابه، كتب في جريدة عكاظ إنهم من ذرية الحسن بن علي جدهم إدريس بن إدريس بن عبد الله المحض ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط، كتبت ذلك لا عن نص قرأته وإنما عن خبر سمعته. ذكروا أن الشيخ عبد الحي الكتاني صاحب الرواية سيد من

ولد الحسين، فالخطأ في السماع وما أحسن تصويب عبد القادر الإدريسي، أما بيت برادة فهو أيضاً من السماع وقد انشطر في المدينة إلى أسرتين برادة والمسعودي، نسبوهم إلى تونس فكتبت ذلك وجاء التصويب موضحاً لخطأ السماع، ومع هذا فنحن في المدينة نرى الليبيين والتونسيين والجزائريين والمراكشيين كلهم مغاربة ولعل انتشار بيت برادة في كل المغرب وفي مصر وفي غيرها قد ضلل السماع، فشكراً للصديق الإدريسي . .

إن الخطأ في الذكريات أحسبه الاجترار، أجتر من القارىء التصويب تكميلاً وكمالاً . .

المدينة لا تجوع . . وبها الأسودان

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».



إذا قلت حنطة يثرب
جاء الرديف من القصيم
دمعت عيني حين رأيت الهرمية دامرة وسوالة مثلها
إلى وزارة الزراعة: خصى النواة.. يجعل النخلة أنثى

السواني:

وحين ذكرت المكائن، وما صنعت فلابد أن أذكر «السواني»، ولست صاحب الكلمة عنها، وإنما صاحبها هو الفلاح من صميم الفلاحين موسى أبو عيفة، من نخاولة العوالي وأشياخ قبيلة، فقد كنا كما تعودنا نذهب إلى أي بستان، أو كما نسميه «البلاد» في أيام الصحابة كانوا يسمون البستان حائطاً و في أيامنا نسمي البستان «بلاد» فلقد تعودنا أن نخرج ونحن (بشكه) أي جماعة نقبل على بستان ما، نتجنب العيون نكثر المقيل في العوالي، الدوار العقيلية الفقير، الفقير هو الحائط الذي غرس فيه رسول الله ﷺ هو وأصحابه الصنوان التي فرضت على سيدي سلمان الفارسي ليعتق من مالكه الذي اشترط هذا العدد من الصنوان، وفي قربان.. سوالة والبدرية والجلونية والناعمة والربعي، وفي قباء البقع الحسنية العباسية.. الصيفا ولا أنسى الجزع.

موسى أبو عيفة، زارنا ونحن بشكة نقيل في النشير بستان أو بلاد فيما أذكر ملك بيت حموده، أشتراه منهم صالح العبد العزيز الميمان بمبلغ خمسة وأربعين جنيهاً فقط، و هذا ثمن قليل، ولكنها قسوة الأيام كما اشترى صهرنا خضر عسر والد الدكتور حمزه عسر، الصفيا بسبعين جنيهاً، ثمن بخس لكنها الضرورة لها أحكام.

كنا نقيل في النشير.. مصطفى عطار عبد العزيز بدي، أسعد طربزوني منتظر طربزوني عثمان حافظ، وماكاد يجلس موسى أبو عيفه حتى وصل إلى مجلسنا مدعواً من أصدقائه نحن.. من هو؟ إنه محمد الميغربي فتيح، كان من طلائع الشباب في المدينة، ومن كبائر الشيوخ في مكة، وسأل محمد الميغربي موسى أبو عيفه، قال له: الناس يشكرونك لأنك أعدت للعنب مجده فلقد مات كما ماتت العوالي أيام فخري باشا وأنت أحييت العنب، أسألك: لماذا لم تركب ماكينة على البئر وبقيت على السواني؟ فقال موسى: ياأخ محمد الماكينة تنزح البئر، وحين تكسر أو يخرب فيها شيء متى تصلح.. متى يطلع شريف أفندي يصلحها، ثم بناتي وأبنائي يصبحون عاطلين، ولد واحد يشغل الماكينة أما السواني إذا طاح جمل أو حمار أنزل السوق وبعد ساعة اشد عليها القرب لا يموت شجري ولا تفرغ بئري

ويشتغل الأولاد يفتلون الزمام والرشا يدبغون، القروب ينفون النجيل علفاً للسانية، حتى أن بعض أولادي باسم الفزعة للجيران ينظفون أحواض الجار من النجيل، أكسبه علفاً باسم هذا الجميل، أسقي الزرع بماء السانية، على قدر معلوم، واستطاب الميغربي كلمته وقال: الآن عرفت، وقلت هامساً في نفسي: ليت المكائن لم تصل، موسى أبو عيفه رجل عامي، لكنه فلاح قديم. وارث.

أما الأرض التي بخس ثمنها، فقد ذكرت من قبل أني بعت ثمانية مخازن، أعني ثلاثمائة وستاً وثلاثين متراً بثمانمئة ريال، احسبوها تجدون أن المتر الذي يباع في أيام سبقت قبل عام بالألف من الريالات بعته ولما يبلغ ثمنه ريالين ونصف، وهكذا بيعت الصفيا والنشير بثمن قليل. إنها الأيام دول.. من سره زمن ساءته أزمان.

والمدينة المنورة أصبحت دار الهجرة، لأن أول الأمر كونها أرض ذات نخل، فحين أمر رسول الله، خاتم الر سل، محمد ﷺ بالهجرة، اتضحت له الصورة للأرض التي يهاجر إليها، أرض ذات نخل، وكان في التصور، أهي نجران، أم هجر أم اليمامة، أم يثرب؟ فإذا أمر الله بها هيأه الله حين أسلم الأنصار، أن تكون الهجرة إلى المدينة المنورة، ذهب عنها التثريب وبقى لها التقريب، دار هجرة هي الدار والإيمان، هي مأرز الإيمان: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى حجرها» ولئن كانت الحية أفعى، فإن الحية في يد النبوة عصا موسى تلقف ما صنع السحرة، فالحية هنا ليست معابة، وإنما جاءت بها دقة الوصف.

والمدينة المنورة انتصرت فيها الهجرة لأن بها الأسودين، التمر والماء، والسؤددين، الأوس والخزرج، والسواد الكثير: حولها قبائل العرب، كل العرب، كما أن فيها السيئين، اليهود والنفاق، لأن السيء يهودي أو منافق، بكل السلبيات التي مارسها، شد عصب الأنصار، وأشعل الحماسة وثبت الأخوة، فإذا السيء يهلك، وإذا السؤدد ينتصر، وإذا سواد القبائل يدخلون في دين الله أفواجاً.

الأسودان، التمر والماء، القوت الأبقى في المدينة المنورة، حتى قالوا ولعله قول بعض الظالمين لها: إنها المدينة لا تجوع وفيها الأسودان.

كلها حيطان، أي بساتين تزرع، يعيش إنسانها فيها يشبه الاكتفاء الذاتي، فهي لم تستورد التمر والفاكهة، رماناً وعنباً وتيناً، من خارجها، إلى الوقت الذي كنا فيه قبل وصول سكة الحديد من الشام إليها، الحنطة كافية بأنواعها الثلاثة «اللقيم» للشوربة والجريش، و

«الحنـطة» للخمـير، و «المعيا» للفطير، ولعل الحنطة تصاب بآفة أو تصاب بالطير، هذا العصفور «الحرصي» كما يسميه أهل المدينة، هذا الطير لو غفل الحارس لأكل الحنطة أكلاً ذريعاً. فإذا ما قلت الحنطة جاء الرديف المغيث من عالية نجد «القصيم» من وادي القرى «العلا وتيماء» من خيبر، من فدك «الحائط والحويط» وحتى من الحناكية وما إليها.

أمـا الخضروات فمـوسمية، لهذا يتعـامل أهل المدينة مع البامياء والملوخية والطماطم والباذنجان الأسود بالتجفيف، يشترون كميات من كل الخضر حتى النعناع، يجدونه جاهزاً ليعيشوا فاكهين به، كما أنهم يخزنون الثوم والبصل والجبن والسمن، اكتفاء ذاتيا يوم لم تكن فيها مواصلات، يوم لم يكن هذا السعار في الاستيراد.

حين كنـا كذلك، كان الرجال يحرثون الأرض، يسقون الزرع، أما اليوم، فيأخذني السكوت، لأن الواقع مشاهد ولا يحتاج إلى تشهيده. بماذا يسقون الزرع؟ إن السقيا من الآبـار، سواءكانت القديمة التي عرفنا منها: «البُعَّة، غُرس، سُواله، بيرحَاءُ، بُضَاعَه، رُوما، أَريسْ، عُرْوة» وغيرها، ثم حفرت آبار بما يقتضيه التوسع، هذه الآبار في العوالي وقـربان وقباء والصدقة والعقيق. أما شمال المدينة، تهامتها، العيون: فعين جارية (عين باني، الغرابية، المدافعية، أم البيض، الشنيبلية، الزَّهرة، المفتية) فالمراوي للعيون التي في سفح أحد على حافة وادي قناة، شرق العقيق، فمنابعها من شرق المدينة، أما التي غرب العقيق فمنابعها من مجمع الأسيال، وما تيامن منه، حفرها الرجال، بنوا خرزها ودبلها، فما أقوى ما صنعوا!

قوة العضل تزينت بقوة الروح، بالعزيمة، بالصبر، بما أنعم الله عليهم.

ونأتي إلى النخلة، ما أكثرها في العيون، وما أكثرها حلوة جميلة في العوالي وقباء وقربان، دمعت عيني حين رأيت الهرمية دامرة وسوالة مثلها، أتعرفون سوالة، من كان صاحبها من الصحابة؟ إنه سيدي عبد الرحمن بن عوف، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وآلت ملكيتها إلى الشريف علي من أشراف العوالي، وارث الإمارة ولو تقليدياً عن أجداده الجمازيين، وآلت إلى ابنه شحات، كما آلت البدرية إلى ابنه ناصر.

في إحـدى سنوات الأربعينات الهجرية كان «خرص التمر» لجباية الزكاة خمسين ألف أردب، الأردب أربع وعشرون مدا، المدست أوقيات، فإذا حولنا هذا الكم من الأوقيات إلى الكيلو يبلغ مليوناً ونصف مليون كيلو تمر، أي ما يعادل ألفاً وخمسمائة طن، يشبع أهل المدينة إذا ما أكلوا، إذا ما خزنوا، إذا ما باعوا، فالحجاج يشترون التمر تبركاً، وعجيب أمر النخلة، فالحلية تؤكل زهواً ورطباً وتمراً، أما الحلوة فتؤكل بلحاً «سربان» وزهوا ورطباً وتمراً،

والروثانة» أحسن ما تؤكل رطباً، تخزن تمراً، ومثلها «السويدا» و«الهرمزي» وما أشبه. ولكن الخزين طول العام يكون من الحلوة والبرنى البيض والشلبي والمشوك والصفاري لبكاية والشيخة، أما الكعيك فأكثره من الجبل الأشم رحقان، أو من وادي صفراء، كما القلاد.

ولا يفوتني أن أذكر مكالمة تليفونية من المدينة، فقد تلفن إلي أحد أبناء وادي الصفراء، ذكرني بما نسيت، فقد قرأ ماكتبت عن زرع «النواة» بلبها، أعني تزرع تمرة، فإنها تكون كأمها على العكس من النواة المجردة من لحمتها، قال هذا الفتى: «نحن في وادي الصفراء نزرع النواة مجردة فإذا نمت وثبتت في الأرض، نحفر، نخصيها، أي نقطع النواة ما دامت العروق قد ثبتت في الأرض، فقطع النواة حين أنبتت نسميه: خصوها، فإنها حين ذاك تكون نخلة أنثى لا ذكراً» وكنت أعرف ذلك، ولكني نسيته، فهل تجرب حقول وزارة الزراعة ذلك، على كلتا الصورتين.

وأتدرون بعد ماذا وقع للخمسين ألف أردب؟ فحين تعرجنت النخيل بتمرها، ولما يجد بعد، جاءت الآفة، الجراد والدبا (وهو الجراد الذي لما يطر بعد) كان آفة عجزنا عن مقاومتها، فإذا الحصيلة أقل من عشرين ألف أردب، يعني أن الجراد والدبا أكل أكثر الثروة، ولكن المدد جاء من شمال المدينة وشرقها، تعويضاً عما نقص.

والضرع، الأبقار عند التكارنة أو بعض من في المدينة، وهي قليلة، ضرعها للبيع، لبنا وزبدة، شيء موجود ولكنه ليس بالكثير، لكن الضرع الكثير هو في الماعز، ثلاثة أنواع: (العنز المصرية) وأختها التي تشبهها (العنز العارضية) ووجه الشبه كما قال آباؤنا أن ثدى المصرية والعارضية أسطواني فيه طول، يطلقون عليه) «ثديها دورقي» كالدورق، أما «العنز البدوية» فضرعها يكاد يلتصق ببطنها، وثديها دقيق صغير، ولا يخلو بيت، وخصوصاً من هم خارج السور، من وجود ماعز، يعلفها سيد البيت، وتحلبها ست البيت، ومن الضرع ما يأتينا من شمال المدينة الشرقي من حرة فدك، أي من بني رشيد، فلديهم الضرع الكثير، يأتون بالجبن والسمن والمضير، فما كان الجبن في المدينة إلا من بني رشيد، كل بيت، كل تاجر يخزن الجبن، يمر عليه الحول في أزيار مغربية ضخمة، في نصف السنة يأخذون «القطفة» منزير الجبن، كأنها السمن، يغيرون الماء، يملحونه، ونظل نأكل الجبن طول العام من الوارد الجديد أو الخزين، ما أحلى تلك الأيام على مرارتها، وما أشد مرارتها اليوم على حلاوتها.

شرق المدينة وشمالها هو المدد في كل شيء، أما غربها فالمدد منه بالوقود حطباً وفحماً، يعني اكتتفاء ذاتياً حتى في الوقود، لا وابور ولا بوتوجاز ولا فرن كهربائي، وإنما هو الوجاق والكانون والتنور والفرن.

واللحم لا يأكلون في المدينة إلا الضأن في الأكثر والجزور كذلك، أما ذات اللبن الأنثى، فيمتنعون عنها، العلة في ذلك أن يكثر الضأن، ولكن في المدين علة أخرى سلطها عليهم الواعظ، فهم يقولون لحم النعجة والعنز والبقرة مضر، لأنها ربما تكون في بطنها حمل، وهم يكرهون لذلك أكل ذات اللبن. قليل منهم يأكلون البقر لأن العجول لا تذبح، وإنما هي الثيران يكبر سنها، أو يصيبها مرض فيتداركونها بالذبح، فلا يأكلها إلا الأقلون، ويتعللون بأن لحم البقر بارد يضر، وقد لحقني ذلك الآن، فالأم والجدة ضد لحم العجول، والأبناء والبنات يحبون لحم العجول.

ومرة أخرى نأتي إلى الماء، كان السقى بالسانية «السواني» جمال، ثيران، حمير، نسنى عليها، يمتلىء العزوب من البئر، يصب في البركة، يطلق في القنطرة، يضيع الماء أكثر وأكثر، وجاءت المكائن، جلبها السيد محمود أحمد، فإذا أهل الزرع يركبون المكائن على الآبار، غير أن هناك عقدة أو حائلاً، فالمكائن يعمل محركها بالكاز، وهو كثيراً ما يشح لأنه مستورد من ماركة «سوكوني فاكوم، شل» أو أنه غالي الثمن، فماذا يصنع الفلاح في الماكينة وهذا حالها، فتقت الحيلة للسيد محمود أحمد أن يستعين بشريف أفندي مدير كهرباء الحرم، فإذا هو يستبدل المحركات بالكاز يصنع أفراناً يشتعل فيها الفحم، فغاز الفحم عوضاً عن الكاز، عمل بارع يسر أن تعمل المكائن، ولكن المكائن كان فيها شيء من الخسران لأنها أرهقت الآبار، فهم يسحبون الماء، فاتهم الرشد وليس هناك ترشيد، يتدفق الماء، ينساب في القناطر، تمتلىء الأحواض حتى أن بعض الزرع يصيبه ضعف، يقولون: «البرسيم خمج، البقدونس مات» لأن الماء الكثير يتلف الزرع، وحين ينزح الماء من البئر يقل فيها فيعمل الفلاح أو المالك على تعميق الحفر للبئر، لأنه يزيد الماء. ، وما يدري أن عمق البئر المنخفض يسرق الماء من بئر الجار، فبئر الجار ما زالت عالية، وبئر صاحبنا أصبحت السفلى، وينحدر الماء إلى أسفل، ويعمد الجار الذي شح ماء بئره إلى تعميق الحفر، وما دروا أن الماء وقد أصبح عمق البئر كبيراً، في صحن البئر قد سحب الماء إلى سافلة المدينة (العيون)، فالمكائن جنت على الآبار، ثم الغيبة لسيل وادي العقيق فهو الذي يشبع الآبار بالماء أما وادي قناة وبطحان فلا يزودان الآبار بالماء، لأنهما يسيلان على أرض صلبة صخرية أو جصة، بينما العقيق يسيل إبتداء من العنابس إلى نهاية الأعياص (سلطانة)، وإلى روما وأم شجرة والجرف على أرض رملية تمتص تربتها الماء، تزود الآبار، نعرف هذا من آبارنا في البيوت، لأن كل بيت في المدينة فيه بئر. ماء العين الزرقاء للشرب وتارة لبعض الغسيل، وإذا ماكانت البئر فيها ملوحة، يستعصى ماؤها على الصابون، فالبيوت فيها ترشيد الصرف للماء، فالآبار للغسيل، سواء غسيل الحجر جالب البرودة من ألفح السموم، أو لأي شيء

يغسل، لأن ماء العين الزرقاء هو للشرب فقط، وعظيم كيف وزع ماء العين الزرقاء، ينساب الماء من بئر أريس (بئر الخاتم) خاتم رسول الله ﷺ سقط من يد ذي النورين فابتلعته البئر، وكان رسول الله ﷺ حبب إليه أن يجلس إلى أريس، إذا ما وصل قباء، وفي إحدى جلساته وقد دخل ذو النورين عثمان بن عفان إلى مجلس النبي وفيه أبو بكر وعمر مع رسول الله، فاحترم رسول الله صاحبه وصهره عثمان، يجيب على سؤال غير ناطق لأنه احتشم عندما أقبل عثمان فقال وهو نبي الرحمة ﷺ «ألا أستحي من رجل تستحي منه ملائكة الرحمن» ولكن قومي العرب حين يتنافرون لا يبالون بقيمة أمثال عثمان، أمثال علي، أمثال القتلى من رجال ضمخت صحف التاريخ بسيرهم العطرة، وي كأن الأغتيال لهؤلاء هو الذي أبقى سيرهم على صفحات التاريخ، فالإساءة في القتل والاغتيال كان من خلفياتها الإحسان بهذا التخليد في صفحات القراطيس.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره
تنوعت الأسباب والموت واحد

إن العين الزرقاء، غوث المدينة بالماء العذب، لم يبق ماؤها في بئر أريس كما بقى ماء بئر روما، فالجبارون من الرجال صنعوا وبنوا المجرى على صورتين: دبل وعليه خرزات ينساح فيه الماء الحلو، يبني على دبل تحته يحفظ الماء ليضم إليه بعض الماء من كل الآبار في البيوت، كأن الدبل التحتى عين أخرى يسيل في دبلها الماء يسقى خيف الأغوات، يطل عليه سلع كأنه الطريق إلى روما وأم شجرة والأعياص والجرف.

انظروا كيف يصان الماء، وتصنع الدبول، يصل الماء إلى عين باب الشامي، وإلى عين باب السلام، وإلى عين حارة الأغوات، انظروا كيف صنع الرجال الجبارون!

وعلى حافة بقيع الخيل، على الأواني من حزم الصمد، نقا العنبرية، عين الرجال وبجانبها عين النساء، الرجال سقاة بالقرب والنساء سقاة بالصفائح، السقاة من الرجال أكثرهم من الموالى، والسقاة من النساء كلهن من التكارنة، الرجال زملاء إذا مرض السقاء قام زميله بسقى البيوت التي كان زميله يسقيها، كالحمال زملاء فإذا مرض سقاء أو حمّال تكفل زميله بكل شيء، كأنهم شكلوا نقابة تعاونية تحكمها الأخلاق والعاطفة والعون، ذلك يوم كان الناس ناساً، وأريد أن تضحكوا بعد الكرب الذي كربتكم به، ذهبت إلى عين الرجال أغسل ثيابي، يتيم الأم هكذا يصنع، ورأيت جمعية السقاة في دكة على درجة العين، جلس شيخ السقاة في الصدر، وكان من موالى القرارة ولعله من موالي بيت البتاوى، البيت الكبير في مكة، جلس الشيخ والسقاة النقباء حوله وجرت المحاكمة، ومن هو الذي يحاكم؟

هو «سعيد أبو عشرين» من عبيد الأغوات ومن المطاليق، يحسب له حساب في أي عراك، لكنه أطاع قانون السقاة وجلس وسط هيئة المحاكمة فسمعت شيخهم يقول: « ياسئيد، كتر الشد يقطىء الهبال، كتر الغربلة يقطىء المناخل، ياجماءة، أحكم عليه بأشر إصى» وانبطح سعيد أبو عشرين وجاء الجلاد يضربه عصا طرقاً خفيفاً على عجيزته ويقفز إلى الجانب الثاني ليضربه كذلك أربعه عصوات، وإذا أجد المشاهدين يرمي حزمة برسيم، ينتهي الجلد، لأن حزمة البرسيم شافعة، انظروا كيف كانت الخضرة تشفع للمجلود، وقام سعيد يضحك، خضع للجزاء لأن قانون السقاة محترم لدى الناس ولو كانوا عبيداً، لأنهم كانوا ناساً.

والتربة في المدينة ثلاثة أنواع، فالأرض التي يطؤها السيل أو الأرض التي على سفح الحرة كالعوالي وقباء وقربان أرض حلوة، تربة غسلها الماء من السبخ، وتربة رملية كما سلطانة والجرف، والعيون كذلك تربة حلوة لأن السيول الثلاثة غسلت الملح، أما ما قارب المدينة في شمالها الشرقي فجصة، وأما أرض محبت والقاضية، فتربة سبخة، لهذا حين اتسع البناء في المدينة، بنى الصعايدة بيوتهم في أرض محبت وفي القاضية، ولنا بستان فيها، على حافتها، لأن القاضية وأرض محبت حصرت من وادي العقيق فلا يصلها ومن وادي بطحان فلا يصلها، فما غسلت تربتها، وإنما هي اغتسلت بالناس فيها، وأول بناء فيها كانت البيت (حمام سكر) بناه اتباع شيخ الطريق محمد الدندراوي.

النشأة . . من الكتّاب إلى المكتبة

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».


عمر السقاف


خيرالدين الزركلي

النشأة . . الكتاب . . المدرسة . .
المعلم . . التلامذة

ونشأت في المدينة المنورة، ولدت في حوش خميس في أحضان سلع وفي بيت من الشعر، نشأت بدوياً آبداً أستوحش من الناس، وأحظى بعطف الأناس، وكان رد الفعل أسقط هذه العقدة، فإذا بي المؤنس والمؤانس أعيش مع الناس بالناس ولكل الناس، فالطفل أبو الرجل، لكن العقد حين يفضحها الشاب يرفضها هوناً . . بعد هون، حتى إذا اكتمل رجلاً بقى الخير منها وضاع الشر بها، مكثت في بيت الشعر حتى بلغت الثامنة من عمري، كنت أعيش في حضن الجدة، فالأم ماتت. . لم أشعر بفقدها وأنا طفل وإنما كان الشعور بفقدها حنيناً إلى الحنان أنيناً من الوحشة ذلك شأن الشاب يدرج إلى الرجولة يتلفت ليجد الأنيسة . . حبيبة إن وجد وزوجاً وقد وجد! ومالي ولهذا الوجد يتغشاني كأنما الشيخوخة قد أعادتني إلى طفل، حتى أصبحت أرى كل أنثى أما أختا بنتا، أكره أن أرى دمعة على عين أنثى، ولقد مسحت الدموع عن كثير بعاطفة الأبوة وإشفاق العفة. . ورحمة الأخلاق.

وهذه الجدة واسمها (ميثاء) هي من عالية نجد ومن مدينة (الرس)، لم تسكن بيت مدر، فابنها علي بن رميضان الرميح من زوجها الأول في سعة من العيش يسكن في الحوش بيت مدر وابنها محمد بن رجاء بن فضلون له بيت من المدر في الحوش، وأمي كان لها بيت من المدر. . فلماذا أبت ألا أن تسكن بيت شعر؟

حين كانت في الرس لم تكن كذلك، ولكن بيت الشعر كان صالوناً لا يخلو من زائريه، حتى إن قائد فرقة عقيل سيف العوجان يسأل عنها يقرؤها السلام كلما مرّ على البيت، بل وسهرة الليل عندها، يمتلىء مجلسها بأختي سيف العوجان (منيرة وشماء) وبزوجتي حليفنا بادي بن جميعان العمري وهما (وردة وموضى) وغيرهن. كلهن من القصيم، ويأتي محمد بن مطر الموزني يجلس بعيداً يقرأ على بنات العمومة، كانت جدتي إحدى عماته، يقرأ في كتاب لم يبق في ذهني مما سمعت وأنا ابن الرابعة من عمري إلا هذا النص، وقد قرأ ما خلاصته (قدم وفد من مزينة على رسول الله ﷺ يبشرونه بنصر، فقال عليه السلام (كما نحيت بينكم) يعني كما هذا الزعيم فيكم واسمه نحيت، كان معكم) فعلق بذهني هذا الاسم ولا زال يطلق على ابن نحيت من ولد حجاب في عاليه نجد، لم أجد ذلك في كتاب، بدافع المصادفة لا بوازع البحث، فالذين أعرفهم من مزينة من أعيان الصحابة ومن أبطال الجهاد والفتح هم عتبة بن غزوان أحد أعيان القادسية حليف سعد بن أبي وقاص أحد السابقين في الإسلام بل أحد الذين حصروا في الشعب وهو الذي يقول (حتى أكلنا النوى وورق

السدر)، وهو مرة ثانية الذي بصّر البصرة، مربدها الجامعة الثالثة في الإسلام، رغم أنف النـاكـرين وسحقاً لمعتدين، فهل أجد كاتب حرف إلا وهو المدين للمسجدين جامعتين المسجد الحرام ومسجد النبي إلا وهو المدين للمربدين مربد البصرة ومربد الكوفة، وهل هناك قاعدة فتح فتحت الشرق كله إلا وهي الكوفة، عتبة بن غزوان بصرّ البصرة بأمر ابن الخطاب عبقري هذه الأمة أبي حفص الأعير عمر، قال له بصّر البصرة على الأدنى من حدود العـرب، فهي على شط العرب، تحتضن كاظمة، والآخر من مزينة صاحب فتح الفتوح سيدي النعمان بن مقرن.

كان هو أحـد الإخـوة التسعة، شرف بهم العرب كلهم ألا تشرف بهم مزينة، فاتح نهاوند، قتل شهيداً حولها، يرقى المنبر عمر ينعاه. كان ذلك يوم كان العرب ناساً . . يوم كان الإسلام انساً يوم كان الزاد تمراً . . والعدة جَملاً وحصاناً وسيفاً ورمحاً وسهماً فما بالنا اليوم والعدّة يسمونها (التكنولوجيا)، هؤلاء من مزينة، أما نحيت وابن نحيت فما عرفته إلى الآن، فكل ما أعرفه أنه حامل راية حرب القبيلة كلها إذا غاب ابن عسب كان هو حاملها، وهناك حكاية عن ابن نحيت، كنت عند مدير العلاقات في المطار وهو قبلي من جهينة انتظر النداء لركوب الطائرة في رحلة للرياض حجر اليمامة المشمخرة، فدخل رجل هامة بصيراً ومعه رفيقه من مصر فقال الرجل الهامة لمدير العلاقات (سنعني أنا غريب) واستكنهت اللهجة، فأنـا أعرب لهجات قومي، خلته حربياً أو عتيبياً، قلت له (من الرجل)، قال: حربي، قلت: سالمي أم مروحي، قال: أنا ابن نحيت، أقسم أني بكيت، كيف يظن ابن نحيت أنه غريب على أرضه، إنها وراثة الماضي قطع دابرها الحاضر، وقلت له: لا لست الغريب هذه أرضك من اللحظة الأولى التي رفع فيها إبراهيم قواعد البيت، وقلت للمدير: هذا ابن عمك سنّعه، فاستجاب المدير باحترام أملاه الموقف، هكذا تأثير النشأة البدوية.

وأدخلوني الكتاب، كان أمام باب الكومة الذي ينحدر الناس منه إذا ما جاءوا من الحزم يمتد من ضرس سلع، الكتاب وقف السيد علوي السقاف كان شيخ السادة يومها وهو جد الشيخ عمر سقاف الوزير، وكان شيخ الكتاب (محمد الموشي) ينسب إلى موشى قرية في صعيد مصر ولعلها في أسيوط، الكتاب وكتان والشيخ لا يحوط بالتلاميذ وإنما العريف هو الحريف، ورحلنا إلى ينبع النخل مع الذين رحلهم فخري باشا وفي ينبع البحر دخلت كتاب الشيخ بصيل وهو أيضاً من صعيد مصر ولعله من قنا، وما أسرع من ضم هذا الكتاب بشيخه والطلبة إلى المدرسة التي فتحت في ينبع مديرها الأستاذ أحمد أبو بكر حمد الله زميل أستاذنا السيد حسين طه كانا في بعثة إلى المدرسة السلطانية في دمشق حين تخرجا من المدرسة الإعـدادية في المـدينة كل منهما كان رياضياً ممتازاً، ومن أساتذتي في هذه المدرسة الشيخ

القاضي والفقيه عبد الغني شرف من أهل المدينة الأخيار . .

كنت أضيق بالكتاب وانفرج الضيق عني بالمدرسة زملائي فيها إبراهيم زارع، حمزة فرهود، زكي عمر وغيرهم وكل منهم تحمل من عطائه ما تجمّل به يرحمهم الله.

وعدنا إلى المدينة . . ودخلت الكتاب اسمه كتاب القشاشى، الشيخ فيه السيد حسن صقر ابن عم أستاذنا محمد صقر وأستاذ أحمد صقر، وهم من أشراف قنا حسينيون جمازيون، رحل جدهم من المدينة يوم كان الجمازيون أمراءهم واستوطنوا مديرية قنا وينتمون إلى هذا اللقب (المخادمة)، كما كان القسم الثاني منهم ينتمي إلى هذا اللقب (البطاطخة) ومنهم زعيم هؤلاء جميعاً ياسين باشا أحمد ومنهم السيد طه محمد حسين عثمان والد صديقنا السيد ياسين طه.

وضقت بالكتاب، فدخلت إلى المدرسة العبدلية وكان مديرها أستاذي المتسرمد عليه السيد أحمد صقر كان طليعة وخطيباً وشاعراً فيه دعابة، ولكن عجز المال على بقاء المدرسة العبدلية، لأنه في أول الأمر أسست في المدينة مدارس أربع . . العلوية مديرها الأستاذ ياسين كردي أخوه الشيخ عمر كردي الشاعر والقاضي وهما وأخوهما صالح كردي رئيس ديوان الإمارة أخوال تلميذي وأستاذي ضياء الدين رجب، علمته ألف باء وعلمني ألف لام ميم، جد هذا البيت المتقادم في المدينة المنورة هو إبراهيم الكردي الكوراني، الذي انتهت إليه الرحلة كصاحب السند العالي، جاء بعده بهذه الصفة فالح الظاهري، الذي عرفته الأمصار المسلمة حتى شيخ الأزهر الأحمدي الظواهري حين حج وشد الرحال إلى المسجد النبوي أخذ يسألنا عن أبناء فالح الظاهري، قلنا له هما أبو بكر وعلي سكنا مكة، ولا أدري هل كان سؤاله عن عالم أم عن قرب النسب؟ فالشيخ فالح الظاهري تتلمذ عليه الشيخ محمود شويل ولا أعرف غيره من الذين تتلمذوا عليه وقد توفاه الله في المدينة المنورة سنة ١٣٢٨ هجرية كما ورد ذلك في كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي.

المدارس الأربعة جمعت في مدرسة واحدة لشح الإنفاق عليها وكان جمعها تحت اسم المدرسة الراقية والمدرسة التحضيرية كلهما في المدرسة الإعدادية التي سميت الناصرية وهي في باب المجيدي بين المسجد وباب المجيدي على أول ما كان يسمى بالمناصع وراءها بيت الشيخ العزيز بن الوزير وبيت السيد حمزة رفاعي، وقد عين مديراً لها مدير الفيصلية أستاذنا السيد حسين طه وقد حالف هذا التعيين التوفيق لأن السيد حسين ليس له علاقات جانبية مع أحد قطع رجل الزائرين الذين لا ينفعوه، المدرسة العلوية مديرها ياسين كردي العبدلية مديرها أحمد صقر والفيصلية السيد حسين طه والزيدية مديرها الشيخ عبد الحي خضير،

وقـد أصبح السيد أحمد صقر أستاذاً في المدرسة مع ابن عمه السيد حسين طه ومن بقية الأساتذة محمد صقر أستاذي الحقيقي في المدرسة والمسجد وبسط رعايته عليّ وأيضاً السيد ماجد عشقي محمد سعيد مدرسي الذي كان أستاذاً لأحمد صقر ولعبد الحميد بدوي باشا في دار المعلمين أيام العثمانيين، ثم الشيخ محمد الكتامي والعريف بن سالم والمراقب هاشم كماخي، وكان الشيخ عبد القادر شلبي الطرابلسي هو المعتمد على هذه المدرسة رأساً على هؤلاء، وحين بدأ الأمير محمد بن عبد العزيز تشكيل الجهاز الإداري في المدينة المنورة، لم يعين عبد القادر الشلبي في مكانه بل الذي تولى الأمر لفترة قصيرة هو القاضي الفاضل الشيخ أحمد كماخي، ولكن كامل القصاب وقد كان مديراً للمعارف أول الأمر في هذا العهد الزاهر عين عبد القادر شلبي معتمداً للمعارف في المدينة وتتلمذت في هذه المدرسة وتخرجت منها في نهاية عام ١٣٤٢ ولم نجد من يختم الشهادة، لا أدري لماذا لم نذهب لعبد الله عمير رئيس الديوان الخاص أو أحمد بن منصور وكيل الإمارة، فذهبنا إلى عبد المجيد باشا والي قلعة سلع يختم لنا الشهادة وكان الذين تخرجوا من هذه المدرسة الراقية الأربعة المحمدون محمـد سالم الحجيلي، محمد إياس توفيق، محمد نيازي، محمد حسين زيدان، لم يتخرج قبلهم أحد ولا بعدهم أحد. . !

ومكثت (خالي شغل) ولكن والدي يرحمه الله أبى إلا أن اتزود من العلم فكانت دراستي في المسجد النبوي على يد أستاذنا محمد صقر، ألفته في النحو قطر الندى شذور الذهب الفية ابن مالك شرح ابن عقيل مغني اللبيب، فقد كان الشيخ يعشق ابن هشام الذي قالوا إنه انحى من سيبوية وفي الفقه على مذهب بن مالك، الرسالة لأبي زيد القيروان ومختصر خليل والحواشي.

ولتضحكوا قليلاً. . قرأنا قربة الفساء هل يجوز للمصلي إذا حمل قربة الفساء أن يؤدي صلاته؟ كيف تمتلىء القربة بالفساء لماذا لم تمتلىء بغيره بالبول مثلاً، وجاء ذكر الفحم فاهل المدينة يخزنونه في الحناية فإذا فيه قول في الحواشي يعلمنا أن نرش على الفحم ملحاً ليمنع الجن من أكل الفحم، لأنه طعامه كالروث، فقال أحدنا من الظرفاء (أي والله صحيح غصبنهم الجاوي يأكلوا الرز سماط ما يحطوا الملح عشان أمهم جنية).

أبي والدي ألا أن أتعلم قال لي: اسمع يا واد أنا أحب الفلوس أشغلك تجبيلي ريال مجيدي لكن لا أريد ذلك، تعلم) وتكلم بلهجته الصعيدية (اسمع ياواد بقى ابن السقى الـولـد الـلي ملوش طين أصبح مفتى الديار المصرية) يعني الشيخ محمد بخيت وهو من بلدياته، وأنت يا أبو طين متتعلمش).

ودعاني الشيخ عبد القادر شلبي لخدمته ولأمارس التعليم مساعداً له في مدرسة خاصة فتحها، كنت أنام في المكتبة وفي المدرسة الجوهرية فكان هو ناظرها وكانت المكتبة عامرة بكتب التراث فقرأت فقرأت لا أنام حتى أقرأ، ثم استعرت من رشيد أفندي الغزي أحد مهندسي السكة الحديد والد الأستاذ هاشم رشيدي رئيس النادي الأدبي في المدينة، أعارني ثمانين جزءاً مجلداً من مجلة المقتطف، كان يصدرها يعقوب صروف ويكتب فيها شبلى شميل وكتاب كبار من أهل التراث، قرأتها كلها فإذا هي وما إليه.. أنا اليوم..

والبقية تأتي..

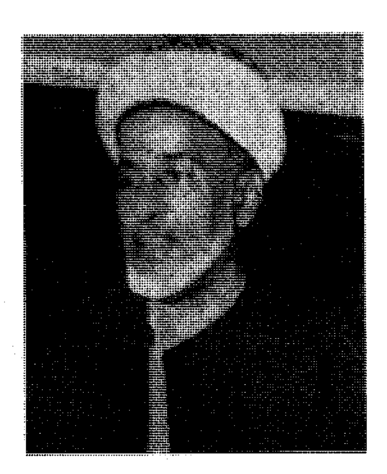
طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (٢٤)

العلم . . فهم وكتاب ومكتبة

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».



محمد الحركان



محمد الامين الشنقيطي

عينت أستاذاً . . بأمر هيئة التفتيش والإصلاح
هجاني «سهان» . . بقصيدة . . فرد عليه أصدقائي باثنتين
براعتي في المناقشة . . جلبت لي الزوجة الثانية

وفتحت المدرسة فإذا هي في مكانها الأول وإذا هي بأساتذتها الأولين، وحين عين كامل القصاب الشيخ عبد القادر شلبي معتمداً للمعارف، حيث عاد إلى مكانه من قبل، وتبع ذلك ما جعلنا ننتقل بالمدرسة الخاصة وفيها تلامذة طليعة، إلى المدرسة الأميرية السعودية، ماكان ينبغي أن تكون داخل المدرسة الحكومية مدرسة خاصة، ولكن الشيخ عبد القادر أراد ذلك فإذا مدرستنا الخاصة في القاعة التي في صدر المدرسة، وكنت أنا المشغول بها، وبينما أنا ألقي درس الجغرافيا على التلامذة، جاء الحاج جميل بواب المدرسة، بل كان أبو المدرسة يناديني «كلم فوق، فيه هيئة جات . . طلبوك» وكنت مكشوف الرأس مبتذلاً «تلميذ مع أصحابي» فكل تلامذتي حينذاك أصدقائي، وصعدت إلى الصالون، فلولا استقامتي لطردوني . . عاري الرأس لابس الثوب «زفير» قماش رخيص الثمن . . سلمت . . وقفت، كانت هيئة التفتيش والإصلاح، أمر بتشكيلها الملك عبد العزيز، الزمن ١٣٤٦هـ. «نسيت اليوم والشهر» لكن قرار تعييني أستاذاً فيه التوضيح للوقت. هيئة التفتيش والإصلاح تألفت من هؤلاء الرجال الشيخ حافظ وهبة وكان يتمتع بثقة الملك عبد العزيز . . الشيخ محمد العلي التركي، إبراهيم الصنيع، محمد السليمان التركي ومحمد صالح نصيف، أحمد سبحي، كان المملكة قد مثلت في هؤلاء جميعاً، غير أن الأكثرية كانت من جدة، فالصنيع والتركي النجديان ومحمد صالح نصيف كلهم من جدة ومن أعيانها، فالنظرة باسم التفريق جنحت إلى أن محمد السليمان التركي لم يكن من أعيان جدة ولا أدري كيف يكون ابن هذا البيت في عنيزة، إذا ما استعرق في جدة ألا يكون من أعيانها.

دعونا من العنعنة التي تمارس الفصام.

وقفت وتكلم الشيخ محمد العلي التركي وكان حفياً بي «هذا الزيدان من تلامذة الشيخ عبد القادر لماذا لم يتعين أستاذاً إلى الآن . . عينوه أستاذاً . . ضموا المدرسة الخاصة إلى المدرسة الأميرية» فكل أعضاء الهيئة سامعون ورحب والتفت الشيخ حافظ وهبة . . يقول لي: قف على الخريطة وكانت صماء أين خليج كذا اين مضيق كذا؟ فأديت الإجابة لأني حفيل بالجغرافيا، حتى إذا استدرت أواجه الهيئة قال الشيخ حافظ، لقد أصبحت أستاذاً في هذه المدرسة، وثقوا أن حكومتكم لاتعين في أي عمل أجنبياً مادام فيكم الكفء، . وقال محمد علي التركي: أين محمد سالم، يعني صديقي الوفي محمد سالم الحجيلي، وجاء محمد

سالم فقال الشيخ حافظ اجمعوا التلامذة، وتكلم حافظ: إن هذين المحمدين كانوا التلامذة، أصبحوا الأساتذة لكم، من يومها أصبحت أستاذاً، ولكن الشيخ عبد القادر شلبي وبالعنجهية التي تلبسه نسى أني خادمه الأمين على بيته وأهله وعلى المكتبة، فقال «شو هلولدنه التي أنت فيها» بلهجته الطرابلسية اللبنانية . . «غير ثيابتك إلبس كويس» فلم أجفل ولم أخجل فقلت: يا مولانا كل شيء يلبس حتى الغالي والثمين ولكن الأصغرين لا يلبسان فقال محمد علي التركي: هما منحة من الله، رفعت يدي إلى السماء أدعو الله أن يمن بهما علي . .

وأصبحت أستاذاً أعلم الجغرافيا والتاريخ والمحفوظات، معداً على صورة أخرى وحسب ترتيب الجدول أن أنوب عن الأستاذ الغائب في إلقاء الدروس التي يدرسها، وكانت ملحة ظريفة، أصيب أستاذنا معلم القرآن والتجويد الشيخ محمد الكتامي، فدخلت درسه وكان التلامذة من الأذكياء وأصبح لهم شأن، حمد وكيع نابغة الرياضة، ياسين طه، كاظم برادة، محمد مدني، وسألوني عن حاشية في كتاب التجويد، جاء فيها: أ. هـ. عيني على البخاري، نسب النص في المتن إلى مصدره فقال التلامذة «أيش معنى ذلك؟» قلت: أ. هـ اختصار لكلمة انتهى، عيني لقب الإمام العيني أخته زوجة ابن حجر صاحب فتح الباري البخاري يعني «الإمام، فالإمام العيني شرح البخاري وكان معاصراً لصهره ابن حجر، فقالوا: الأستاذ قال لنا معناه «آه ياعيني على البخاري» . قلت أستاذنا حافظ القرآن بكل القراءات ولم يعن بغير القرآن وتجويده، فقال «إيش عرفك» قلت: من الكتاب. . من القراءة. . أسألوني عن أي شيء تجدوا الجواب، قالوا: عجيب كل سؤال تجيب عليه قلت نعم إذا حضرني الجواب أجبت وإن جهلت الجواب أراجع المكتبة أجد الجواب، فالعلم فهم و العلم كتاب والعلم مكتبة لا تسألوا شخصاً وإنما اسألوا المكتبة، وضمت المدرسة الخاصة إلى المدرسة العامة.

وحكاية أخرى ظريفة، صدر أمر مديرية المعارف في مكة بإضافة أستاذ وكان صديقي محمد سالم الأستاذ في المدرسة والسكرتير الخاص للشيخ عبد القادر شلبي البدوي الحجيلي المروحي السالمي الحربي كان خطاطاً، جميل الخط كما كان الأستاذ عبد القادر شلبي يملك قوة هي أنه ذو خط جميل وقال محمد سالم للشيخ عبد القادر «ليه مانعين الزيدان في هذه الوظيفة» . فقال الشيخ عبد القادر يرحمه الله: عين زيدان رسول يعني مراسلة يعني آخذ دفتر الغائبين أسأل ولي الأمر عن غياب تلميذه، هكذا وضعني الشيخ وغضب محمد سالم وقال زيدان «لايقبل ذلك» فقال الشيخ: شو هو أحسن من ابن الكماخي» فقال محمد سالم زيدان أستاذ متعلم أما غيره فمازال أمياً.

من هنا كان محمد العلي التركي إحساناً قتل الإساءة، ولعلي وقد كربت وقبل وصول هيئة التفتيش والإصـلاح رأيت رؤيا صدقت، رأيت أني أدخل المسجد من باب جبريل أجد الحجرة تغسل كما العادة حينذاك، مسنى عطش قوي وكان هناك سبيلان، يعني دوارق في حوض المكلف بالسبيل رجل أبيض طلبت أن أشرب فمنعني ومشيت خطوات إلى سبيل آخر - القيم عليه رجل أسمر ناولني الدورق - شربت وشربت حتى أرتويت، ثم جدت رؤيا ثانية رديفة إلى هذه الرؤيا، فماذا هناك وتحت البلدية من جهة الشرق حول دكان محمد سعيد عبيد والد الدكتور رضا عبيد وقهوة خليل قصاص المكي، مجلس فيه السيد أحمد صقر والأفندي زين بري، وجاء أستاذنا السيد حسين طه فجلس على كرسي وثير وقال «أهو هذا الكرسي اللي كان يجلس عليه بعض الأوادم» وإذا الأفندي زين بري وهو الصديق لأستاذنا السيد أحمد صقر صداقة العلية للعلية العلوي للعلوي - يقول رداً على السيد حسين طه: تعني السيد أحمـد صقـر؟ فقلت: لا ياأفنـدي . . لا تداخل بين ابن العم وابن عمه، فالسيدان أحمد صقر وحسين طه أبناء عم. وصحوت ولم يمض يوم حتى شربت الوظيفة من الرجل الأسمر محمد العلي التركي التي لم أشربها من الرجل الأبيض عبد القادر شلبي، وعينت الهيئة السيد حسين طه مديراً للأوقاف، وكانت الهيئة قد عينت السيد عبد الجليل مدني وهو من أعيان المدينة مديراً للحرم بدل اسمها الأول مدير الخزينة، فالسيد عبد الجليل كان يعرف مديرية الخزينة، تشمل الأوقاف كما كان ذلك في عهد غالب بيك التركي فجلس في كرسي مدير الأوقاف وفي الخزينـة التي على الطرف من المسجد النبوي في شماله الشرقي بين كومة حشيفة والطريق إلى باب الرحمة، وجاءت الهيئة فقالت للسيد عبد الجليل أنت مدير الحرم ومدير الأوقاف حسين طه فهم قد فصلوا إدارة الحرم عن إدارة الأوقاف، وأصبح السيد أحمد صقر مدير المدرسة حين خلت من حسين طه، أو نسيت أن الشيخ محمد العلي التركي سأل عن أستاذنا السيد محمد صقر، قال اين محمد صقر أستاذ الجيل نحواً وفقهاً وعقيدة؟

قالوا له لم يعين فقال محمد علي التركي عينوه أستاذاً أعيده إلى بيته. وهكذا كان تعيين السيد محمد صقر نعمة على المدرسة وعوناً له.

وتبدأ قصتي مع الشيخ محمد العلي التركي وكيف وقعت، كان ذلك عندما كنت تلميذاً في المرحلة النهائية عام ١٣٤٢هـ في عهد الأشراف، وكان الوقت بعد العصر قبيل المغرب، وكنت جالساً أستند إلى أسطوانة في رواق باب الرحمة أنتظر الصديق الوفي «درويش سلامة» أذاكره في الجغرافية لأنه منح أن يرقى إلى السنة الرابعة بعد الامتحان الخصوصي، هو - يرحمه الله - طلب من مدير المعارف عبد القادر شلبي أن أذاكره وكان في يدي كتاب جغرافيا تأليف

«شيمزد» الفرنسي ترجمة توفيق البردعي، ومر الشيخ محمد العلي وكأنه قد سمع عني من خلال القصيدة التي هجاني بها الصديق هاشم سمان - لم ينظمها وإنما نظمها له غيره من الذين كانت بيننا وبينهم معارك نحوية، كان مطلع القصيدة . .

أيـازيـدان عيـنـاك أزعـجـتـنـي
من الأقـذار والـنـظر الـشـايـمـي

أشهـرتني هذه القصيدة حتى أن الشيخ محمد سعيد أبو ناصف - مدير البريد - أيام الأشراف في المدينة ومدير البريد في هذا العهد في مدينة الطائف فرض ثمناً لهذه القصيدة مجيدي لمن يأتيه بها، وبينما أنا في دار الضيافة قرب كهرباء المسجد النبوي وكانت القصيدة في جيبي قلت:

«خذ هذه القصيدة وبلاش ريال» فضحك وأخذها، وهب أصدقائي دكتور حمزة شلبي والأستاذ الشيخ الأمين بن الخضر بن مايأبي الجكني محمد الأمين الشنقيطي الذي أصبح سفيراً لحكومة الأردن في جدة والذي أضحى يعود إلى مدينته يعيش فيها، فكل منهما رد الهجاء بهجاء مقذع لا يجمل لي أن أروي بيتاً منها، وكان السيد عثمان حافظ ثالث هؤلاء فاكتفى بما فعله الشلبي والشنقيطي فلم ينظم شيئاً مع أنه كان يمارس النظم ويعرف أوزان الخليل.

كانت هذه الشهرة هي التي لفتت نظر الشيخ محمد العلي إلي، وقف يسألني فقمت أجيبه قال ما هذا الكتاب الذي في يدك، قلت كتاب جغرافيا قال وفيه عن الكرة الأرضية، قلت نعم، قال ليست الأرض كرة قلت هي كوكب من الكواكب وكلها كروية والأرض مثلها، واتسع الجدل، وكان من الواقفين رجل اسمه ياسين هو ابن عم الشيخ العائش الأستاذ الـوحيد لعبـد الله القـين، وكان جدالاً بسيطاً فيه من تواضع الشيخ ومن طاعة التلميذ وانصرف الشيخ فقد حان آذان المغرب، وكان محمد علي التركي، في تلك الأيام يلبس الغالي - مشلح أبو شهر مقصب وثوب بفته وشال كشميري، وذهب ياسين يبشر أبي بما جرى . . من هنا عرفني الشيخ محمد العلي حتى إن الأمر امتد بيني وبينه أستشيره هل أذهب إلى البعثة مع السيد أحمد العربي والسيد محمد شطا والسيد ولي الدين أسعد، كتبت إليه أستشيره فقال: عندك ما يكفي أنهض بعملك وتزوج سريعاً». ورضيت نصحه . . تزوجت من بنات العزوة «مريم بنت أحسن أبو الدهب، وكان فراق بيني وبينها، وولدت لي بنتاً حضنتها زوجي أم البنين فاطمة محمد داعوس» ولكنها ماتت من وباء الحصبة التي هلك منها أطفال كثيرون، ومن المصادفة العجيبة أن هذا الرجل ياسين الحامل جاء إلى أبي يقول له: «جارنا أبو داعوس عنده بنت تصلح زوجة لمحمد ولدك زوج محمد قوام» غريبة هذه المصادفة، لكن

إعجابه بي يوم كان الجدل بيني وبين محمد العلي جلب لي الزوجة الثانية وهي أم أولادي الآن، وحين ذكرها لي أبي ذكرت السيد ماجد عشقي مدير المدرسة فقد قال لي «شوف بنت أبو داعوس كل يوم، تأتي إلى المدرسة تصحب أخاه عبد الرحمن طفلاً، تدخله إلى المدرسة ثم تذهب إلى مدرسة خوجة هان. إنها تصلح لك زوجة. فكان ترشيح ماجد عشقي وترشيح ياسين هو موضع الرضا مني أو هو موضع ما قدره الله.

ومضت أيام عزل الشيخ عبد الله بن حسن، والد وزير التعليم العالي، الشيخ عبد القادر شلبي من مديرية المعارف، بدقة التوقيت فلولا الهوينا من أمر الملك عبد العزيز لعزله الشيخ عبد الله بن بليهد لأنه تعالى بالإجابة أو الاستجابة لما كلف به عبد الله بن بليهد، فما أحبت الحصافة أن تعزله لذلك، حتى حان الوقت وباسم الخلاف على العقيدة السلفية والحشوية تم للشيخ عبد الله بن حسن أن يعزل الشلبي، أمر الشيخ عبد الله أن تدرس عقيدة السلف الواسطية والثلاثة الأصول، بدلاً عن السنوسية والجوهرة للباقلاني والرسالة لمحمد عبده، وكلف الشيخ عبد الله أستاذنا محمد الأنصاري بأن يدرس عقيدة السلف.

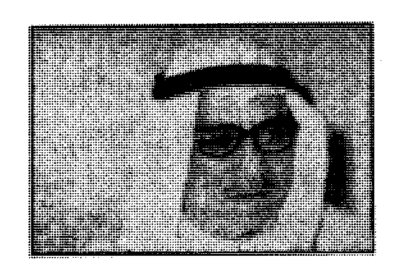
وحضر الشيخ محمد الانصاري ليعرف الجدول واجتمع المدير والأساتذة وكنت بينهم فإذا هم يحرجون الشيخ الأنصاري، يتركون له كل الفصول، وهي أكثر من ثمانية وأكثر من عشرين ساعة ليقوم بالتدريس مع أن ذلك يكلفه الكثير، ولم يعط مكافأة لذلك فهل يترك دروسه في المدرسة «دار العلوم الشرعية» والمسجد وله مرتب فيها، وما خطر له أن يكلف أحد تلميذيه الخاصين الشيخ محمد الحركان والأستاذ ضياء الدين رجب لعله لو عرضهما لقال الأساتذة هؤلاء تلامذة لا نقبل.

وتحرج الشيخ، فنهضت: «أقول شيلوا عني الجغرافيا والمحفوظات وأبقوا التاريخ ساعتين الشيخ هو يدرس الـواسطية وأنا أدرس الثلاثة الأصول. جزع بعض الأساتذة ولكني لا أبالي، وتم ذلك فإذا الشيخ الطيب الأنصاري يستخلصني بعد أن كان يجفوني والأسباب بعد.

كل الصناعة أصبحت «مضاعة» بهذا الاستيراد!

ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة **والذكريات** كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

أهل المدينة اكتفوا ذاتياً بحرفهم اليدوية
في أول أيام الكيان الكبير
أعيد فتح دار العلوم الشرعية



محمد عمر توفيق



طلعت حرب

• وأرجو أن لا يضيق القارىء إذ أطيل عليه الكلام عن المدارس ولعلي أشرح الذكرى عن المدرستين دار العلوم الشرعية التي ما كنت فيها ولا بها ولكني لها رغم انتسابي إلى الذين أعاقوها حين أغلقوها أما دار الأيتام فقد كنت فيها بها ولها.

دار العلوم الشرعية فتحها القيم على أمرها والناهض بها السيد أحمد الفيظباوي الدوباندي. أول ما فتحت في آخر أيام الأشراف في أوائل الأربعينات الهجرية. ما انتسب لها حين ذاك إلا قلة فإنها لم تعد إلا ناشئة ما أعرفها بعد الذين عرفوها حين أعيد فتحها لم تكد تفتح أبوابها حتى أغلقت والذي أغلقها معتمد المعارف حين ذاك الشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلسي لأنها في نظره وبحكم الخلاف المذهبي أمر بأغلاقها لأنها «وهابية» فالشلبي حنفي المذهب وعلماء «ريوبند» المدرسة الكبرى في الهند أحناف كذلك وإن كانوا أهل حديث غير أنهم ابتعدوا عن الحشوية كأنهم الوسط بين أهل الحديث السلفيين وبين الأحناف الآخرين الذين أفرطوا في كثير من الأمر فخليل أحمد وحسين أحمد «وكفاية الله» وحتى « أبي الكلام أجاد» لم يكونوا من أهل الإفراط ولا من أهل التفريط هم أقرب ما يكونون إلى السلفية وحين أغلقت دار العلوم الشرعية كربت ومازلت تلميذاً لأني أستكبرت ألا يحترم شيخ الشيوخ خليل أحمد صاحب بذل المجهود الشرح على أبي داود» جاء إلى المدينة يتبرك بالمسجد النبوي ليكمل بذل المجهود نزل إلى عراق المحدثين ينمون مؤلفاتهم في المسجد النبوي فمحمد بن اسماعيل البخاري كتب كثيراً من أحاديث الصحيح في المسجد النبوي وإمام دار الهجرة مالك بن أنس وهو ابن المدينة كتب موطأه في المسجد النبوي لا أدري كيف لم نستح من صاحب بذل المجهود ولكنه الصبر على إغلاق المدرسة فقد أكمل خليل أحمد مؤلفه، ومن أول يوم من أيام هذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية أعيد فتح دار العلوم الشرعية فلئن كنت أتتلمذ على يد من أغلقها فإني أصبحت أستاذاً لا أجفوها فقد أقامت حفلاً في عام ٤٨ هـ دعى إليه الأستاذ عبد الوهاب آشي وكان في المدينة في بيته بيت الصداقة له بيت الأستاذ ضياء الدين رجب لأن الآشي كما قلت بيت في مكة وبيت عمر الكردي القاضي والشاعر والعريق من أهل المدينة كما أن بيت الكردي وبيت ابن أخته ضياء الدين رجب هو بيت الآشي فهناك ظاهرة محمودة فبيت الحلواني في المدينة هو وبيت شطا من مكة وبيت شطا هو بيت الحلواني كما أن بيت السيد على حبشي هو بيت حامد عبد المنان وعبد الحميد قدس ومن إليهما علاقة الأسرة بالأسرة ورباط العلية بالعلية ولقد كنت عند عبد الوهاب آشي فقد التزمت به لا أكاد أفارقه فإذا هو يتلقى الدعوة من دار العلوم الشرعية لحضور الاحتفال قلت له «ما وصلتني دعوة» وهذا مبعث مسرة لي لأني سأذهب طفيلياً أثبت لدار العلوم الشرعية أني لها ولم أكن عليها وذهبت وتلكم الخطباء وقمت طفيلياً

أرتجل الكلمة تحية للمدرسة. وتأخرت عن وظيفتي في المدرسة الأميرية، حيث كنت أستاذاً فإذا بأستاذي السيد أحمد صقر يجبهني كمدير للمدرسة لماذا تأخرت قلت في حفل دار العلوم الشرعية. قال لماذا لم تستأذن؟ وقسا يلومني فقلت له اسمع مع احترامي لك فإن مدرسة فيها مائة تلميذ وتلميذ أحتفل بها أكثر من مدرسة فيها مائة تلميذ يكفي أن جعنا كثيراً أنت تأتي متأخراً كل يوم لهذا جدولت دروسك بعد الظهر وتتأخر وآتي قبلك فإذا هو يهدأ ويقول عجيب «ياواد .. هو إنت كده» قلت نعم. « وماأزال كده» وامتلأت دار العلوم الشرعية بطلابها وتخرج منها وأحسنت إلى رجال من العلماء محمد الطيب الأنصاري والشيخ الأمين أستاذ محمد عمر توفيق ومحمد عبد القادر الكيلاني صديقي وأستاذي الأيام قاسية فلو لم يجد الطرابلسي والكيلاني هذه الرعاية لأتعبتهم وسيلة العيش.

دار الأيتام.

وسافرت إلى الهند وطالت الرحلة فانتهى شهر الإجازة فحل مكاني من وكلت الأستاذ عبد الكريم شريف يرحمه الله غبت في الهند ستة أشهر وستأتي ذكرياتها بعد.. وحين رجعت لم أجد وظيفتي غير أني لم أبق يوماً أو يومين حتى أصبحت أستاذاً في دار الأيتام فكانت انطلاقة شهرت بها من خلال الدفاع عن دار الأيتام والخصام من أجلها والتثبيت لوجودها ساهمت في ذلك فكانت مبعث خير حافزاً للطموح فالرجال تصهرهم الخصومة حين ينتصرون في معركة ولم تكن تلك إلا معركة الخير مع الشر، معركة المدرسة مع الذين يحاربون المدارس كنت الشيء في دار الأيتام بل كنت بعض مشيئتها أسسها الحاج عبد الغني دادا من مسلمي الهند من الميمن وكم للميمن ومن مسلمي الهند إخوانهم من يد للحرمين فتح وعون لمدرسة الفلاح في مكة، والصولتية في مكة وعين زبيدة فتبرعات مسلمي الهند هؤلاء أنقذت وأعانت وفي المدينة دار العلوم الشرعية ودار الايتام والعين الزرقاء والإحسان على الفقراء كل ذلك من عطاء مسلمي الهند.

كان هناك رجال من أهل المدينة حرباً على دار الأيتام وكنت الحرب عليهم كانوا يقولون «إيش دار الأيتام مافيها إلا بدو تكارنة» وأثور على كلمة «بدو» وأنتصف لكلمة تكارنة ينطلق لساني في كل مجلس وأخطب في كل حفل وقد زار دار الأيتام الوزير خادم الملك عبد العزيز عبد الله بن سليمان ومعه طلعت حرب مؤسس بنك مصر الصديق للملك عبد العزيز برغم جفوة القصر في مصر وحين جلس الوزير وضيفه ارتجلت الكلمة أقول، يقولون دار الأيتام ليس فيها إلا البدو والتكارنة، إن البدوى هو ابنها هو والجندي هو الفلاح، هو المساهم في كثير من الاكتفاء الذاتي سمنا وجبناً وتمراً وبطيخاً ولا خير فينا إذا لم ننهض بهذا البدوي وتكلم طلعت حرب يقول لابن سليمان «يا معالي الوزير أهو البدوي اللي تجيبه من الجبل

تعلمه في المدرسة يرتفع فيه بناء أمتك» وأمد ابن سليمان دار الأيتام بشراء بيت أبو عزة التي تسكنه الدار ليكون ملكاً للدار وأقمنا الحفل السنوي وقد شرف بهؤلاء الثلاثة الحاضرين الشيخ عبد الله بن بليهيد ووكيل إمارة المدينة الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم والدكتور محمد حسين هيكل الكاتب المصري الكبير والوزير الكبير وألقيت الخطاب أحارب كلمة البدو فإذا عبد الله بن بليهيد لا يصفق وإنما قال أحسنت وحين فرغت من إلقاء الخطاب أقبل علي الشيخ أبو الحسن سلمان يقول «هو كده ياواد خليك جدع» لأنه كان يعرف معنى البدو أبناء عمه من أهل العوالي حضرا مع البدو وبدوا مع الحضر جيد سلمان ومن إليه وسافر مدير الأيتام حسني العلي الضابط المقدسي صديق أمين الحسيني فقد رأيت الحسيني لا يغيب يوماً حين جاء إلى المدينة عن زميله في الدراسة حسني على كان ضابطاً في جيش فخري، ومديراً لشرطة المدينة ومديراً لشرطة جدة معزولاً عنها لموقف لم يرض عنه ولي الأمر لم يكن خوفاً ولا جريمة وإنما كان تصرفاً مع سفير أجنبي سافر حسني بك إلى مكة فكنت نائبه وقد أودع عند المراقب عثمان قاري خمسة مجلدات لجمع التبرعات ختمها بتوقيعه على كل ورقة وكانت دار الأيتام مدينة باثنى عشر ألف ريال لمؤسسها عبد الغني دادا وحين أقمت حفلاً لبعثة الجامعة والأزهر وكان يرأس بعثة الجامعة الدكتور أحمد أمين ويرأس بعثة الأزهر الشيخ علي محفوظ كان هذا الحفل أشبه بالدعاية لدار الأيتام فانهالت التبرعات وانتهت المجلدات الخمسة فتعاملت مع مجلدات أخرى بتوكيله فجمعت لدار الأيتام مبلغ ثمانية وعشرين ألف ريال أقسم بفالق الحب والنوى شديد العقاب إني لم أسرق ريالاً واحداً مع إني كنت في حاجة فقد كان راتبي خمسة وثلاثين ريالاً وأقسم مرة ثانية إن بيتي لم يدخله رغيف من دار الأيتام أدفع قيمة الحذاء والحقيبة وكل ما يشترى من مصنوعات الدار لقد بعت بعض ما أملك لسد الحاجة وما كان لي أن أسد حاجتي بمال اليتيم وجاء حسني بك فإذا هو لا يصدق ماجمعت وسأل الرقيب فإذا هو يصدقة القول الأستاذ زيدان جمع هذا المال لم يأخذ منه شيئاً ولكن خادم عبد الغني دادا فهمي الحلاق الهندي ابن المدينة قال لحسني بك خذ مفتاح الصندوق من زيدان فقال حسني اسكت في الصندوق ٢٨ ألف ريال مفتاح الصندوق سيبقى مع زيدان ودخلت وقد سمعت ذكره لاسمى. أقول خذ مفتاح الصندوق ما يعرف الحرامي إلا الحرامي قال فهمي «أنا حرامي» قلت لا أدري وإنما أنا لست حرامي.

وكان أحتفالي ببعثة الجامعة والأزهر قد جر على بعض الظنون فإذا سؤال من جلالة الملك عبد العزيز يستوضح الأمر فأجبت بكل الوضوح عن معنى الاحتفال بهؤلاء فإذا أمر جلالته تغمده الله برحمته ليضم دار الأيتام في المدينة إلى دار الأيتام في مكة تحت سلطان مهدي بك ورشحني حسن موسى صديق الوالد سكرتيراً لبيت مشايخ الجاوة في مكة فقبلت وسكنت

مكـة ولم أدر بعدها عن دار الأيتام شيئاً من أمرها أديت واجبي وما ظلمت من أحد وما ظلمت أحداً.

الحـــرف

والحرف في المدينة المنورة أعطت الاكتفاء الذاتي النجار والقطان والخياط والحلاق والخراز والكندرجي والطباخ وما إلى ذلك فالنجار في المدينة المنورة قام بالعبء الكبير وهو حمل عبء الاتساع في التعمير النوافذ الرواشين السقوف القباقيب الصناديق كل ذلك يصنعه النجار لا نستورد من خارج البلد فما أحلى الرواشين وما أبهى النوافذ وما أقوى الأبواب عرفنا من شيوخ التجارة السحلول والثانية. . حتى صناديق العيد على زينتها وقوتها يصنعها التجار صالح الثانية لو تصورنا عدد البيوت التي بنيت في المدينة خارج السور وداخل السور وفي باب المجيدي والصـدقة والتمار وخيف الأغوات وأرض محبة وأرض القاضية كم أعطاها النجار من كل حاجتها من بناء وهنا مفارقة فقد كنت على علاقة عرفت بها الكثيرين من أهل عنيزة سواء التجار في سوق الشروق أو عقيل ومن إليها.

وما كنا نعرف أن صالح الثانية إلا من المطاليق صلته بالمطاليق السحلول عبد المعين كعكي، حمزة لبان، أبو دربالة، وغيرهم ما نعرف إنه من عنيزة أو إنه أخو سليمان النانية مدير خفر السواحل في أول عهد هذا الكيان الكبير، كنا نظنه مصرياً لأنه كان طويل القامة أبيض اللون ولكني عرفت ذلك في سيارة وأنا مسافر إلى الخرج وقد رافقني في السيارة بأمر رئيسي وصديقي سليمان الحمد خاله سليمان الثانية فإذا هذا الشاب يذكر اسمه ولقبه الثانية قلت من أبوك أنت ولد سليمان قال أنا ولد صالح شيخ النجارة في المدينة من هنا عرفت أن هذا النجار من المطاليق كان بعيداً عن أهل القصيم قريباً من المطاليق.

والخياط يخيط الأثـواب والجبب والشايات والأكوات وما إليها لا تخاط في الخارج، أما الطباخ «فوال» ما أحسن ما يصنع مطبقاتي ما أطيب ما صنع والأنواع الأخرى. لم أذق طعم الكبدة المقلية خارج المدينة لأنها لم تكن من صاج العم رمضان، كبدة ضاني وكبدة جملي نحن في المدينة لا نأكل لحم البقر ولكننا نأكل لحم الجزور لأن البقر لا يذبح إلا إذا تفانى يأكله الكثير من بادية الوطن إذا لم يجدوا الجزور، لحم الجزور الكلكل ما أطيبه مع اللفت وما أطيبه مفروماً يطبخ كباباً وفي جدة وجدت عند الجزار مقوداً كأنه الحدار استطيبت لحمه فأخذت كما ولكي أستره عن البيت لأنهم لا يأكلون كما نأكله نحن عملته مفروماً ولأكثر من يوم أكلوه كباباً حتى انتهى صارحتهم بأنه لحم جمل فقالت الأمهات يوه يامحمد قد كده أنت غشاش، قلت ولكنه كان لذيذاً شبعتم منه فضحكن.»

المـطبق يصنعـه الطباخ المطبقاني «زردم» «والصنافيري» وحين يصل أهل مكة يصبح المطبقاني صاحب الموسم لأنه لذيذ أما اليوم فصناع المطبق كثروا والصاج على الغاز يسلق الفطيرة بينما كان بالأمس على رقة الفحم وهكذا كما قالوا «أهله سيبوه والجن استلقوه» كل الصنـاعـة أصبحت مضـاعة بهذا الاستيراد زنابيل السعف أصبحت أكياس ورق كانت مكاءت الحلوة والسرر من الجريد مستوردة ضاع الجريد وضاع النوى وضاعت الحذاقة فما أحلى الفاقة إذا كانت من صنع يديك والحلوة الأناقة إذا كانت من كيس جيبك ومن الحرف المستملحة صناعة الفخار. أزيار كبار وأزيار صغار ودوارق، وشراب وبرابيخ للمراحيض.

كما أن الحجر وهو مادة البناء ينحت وينقش وقد عاصرنا نقاش الحجر ابن العم إبراهيم حسون.

كل هذه الصناعات انتهت حتى دبغ الجلود وغزل الشعر.

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (٣٦)

في عام الرمادة الثاني . . كان عبد العزيز «عمريا» . .

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».



د . احمد امين



جلالة المغفور له الملك عبد العزيز

عام رمادة ثان، في تحديد الوقت. . وفي المدينة المنورة. . وفي حدود ما عرفت، فالأول كان في عهد . . أصلب الرجال وأقساهم في الجاهلية عمر بن الخطاب وأحن الرجال من الذين طهرهم الإسلام من جبروت السلطان وصهرهم الإيمان ليكونوا رحمةً لرعاياهم ليكونوا صناع المعروف، احتراماً للمسئولية . . لا يريدون بذلك إلا أن يكونوا على الطريق، ليمروا على الصراط لقاء ما أحسنوا من أعمال. . وأحببت أن أسمي العام في وسط الخمسينات عام رمادة، وليس ذلك حصراً لأعوام الرمادة، فإنها كثيرة ولكن بيت الشعر وأهل النجوع كانوا القهر للقهر، فما أكثر العذاب صب على بيت الشعر بأمراض وجوع وتشتيت.

ولكن بيت الشعر بقى على الدهر الودود الولود، والمدد فهو بأنساله الفاتحين وهو بأنساله من موجات المهاجرين، قد ملأ الأرض العربية بالآباء والأمهات والبنين.

فاللغة الشاعرة نشرت فأصبحت لغة الملايين، كأنما هي قد أعطاها إسلامها أن تكون له راسخة القدم، وأن يكون بها راسخ الوجود، الإسلام قرآن . . والقرآن بلسان عربي مبين.

في عام الرمادة الثاني أدهرت قبائل العرب في شمال المدينة وشرقها فكلهم أصحاب رعى لديهم النعم والغنم يعيشون لها وبها، فالغيث حياتهم، أما من هم غرب المدينة فلا يضارون الضرر البالغ إذا أنحبس الغيث، لأنهم أهل أعمال. . جمالة حطابه فحامة أهل فلاحة، فرحقان «الفقرة» لا تجوع لأن الجبل غني بشجره ونخله ونحله . . كما وادي الصفراء كان غنياً بعيونه وأعيانه.

وامتلأت المدينة بالنازحين إليها من ولد محمد ومن بني رشيد ومن مطير ومن إليهم. . وصلوا إليها كما وصل أجدادهم يوم عام الرمادة الأول. . وانتشر الجدري فانقطعت اليد العاطفة من الحاضرة نحو البادية، لكنه الملك عبد العزيز كان عمرياً حين أسس مبرة، في البستان الدامر الداؤدية خارج الباب الشامي وبجانب العطن مأوى الكثير من البادية، كانت المبرة برا، وكانت العهدة لإدارتها في يد مدير مالية المدينة حينذاك الصديق ابن المدينة كما هو ابن عنيزة ناصر العبد الله العقيل، أغاثت المبرة الجياع لأن التكية المصرية لا يجد بدوي الطريق إليها فأرغفة العيش مقررات لأناس من الحاضرة، وشربة الرز توزع على بعض فقراء الحاضرة.

دخلت في ضحى يوم على مكتب أستاذنا مدير المدرسة الأميرية زائراً لأني لم أكن فيها بل كنت في دار الأيتام فإذا هو لا يجلس على مكتبه بل كان جالساً يطل على النافذة على الشرشورة بجانب بيت القيم عليها الشيخ حمزة رجب والد تلميذنا وأستاذنا ضياء الدين

رجب. سلمت على الأستاذ رأيت الدموع في عينه، قلت «إيش بك؟ لماذا تبكي» قال قربت الساعة لقد رأيت جنازة يحملها ثلاث من النسوة ورجل واحد، لم يجد الميت من يحمل نعشه من الرجال فجادت النساء يحملن النعش، قبل دقائق مرت إلى البقيع، إنها جنازة بدوي والنسـوة بدويات والرجل أيضاً بدوي، قلت ولماذا لم تصنع شيئاً، عطل الدروس كلف الأسـاتـذة أن ينزلوا ليحملوا نعش ميت عر بي مسلم، بل ابن هذه الأرض، قال ليتني فعلت، ثم إني رأيت جنازة بدوي يحمل نعشها رجال ثلاثة، وكان لدار الأيتام دور فكم من يتيم وجدته أنا والأستاذ حسن إسماعيل تحت جدار لا أم ولا أب ولا أحد حملناه إلى دار الأيتام.. ممزق الثوب جلده عليه أوضار من الوسخ، كان مجدوراً شفى أخذناه وإلى الحمام حسن يصب الماء وأنا أغسل الطفل، كان من ولد محمد حسين عرفناه، طلب الأكل كان جائعاً، وكان الأكل فتة عدس قدمنا له صحناً وقفت عليه أنا والأستاذ حسن وهو يأكل حتى إذا أكل لقيمات رفعنا الصحن عنه خفنا عليه من التخمة لأن معدته خاوية، كاد يبكي حين رفعنا الصحن، قلنا له بعد ساعة نعطيك إياه لتأكل.

وهكـذا عشنـا عام الرمادة الثاني، وليت الألسنة تركتنا نعمل بل كان بعض الظالمين لأنفسهم حرباً على دار الأيتام وأنزل الله الغيث ورجع المعافون إلى مضاربهم وبقى اليتيم في رعـاية دار الأيتـام. ومـا أشـد سعادتنا أن رأينا رجالاً منهم في مكان مشرف لهم ولنا ولوطنهم.. منهم من أصبح مدير لاسلكي.. منهم من أصبح موظفاً في إدارة الزراعة.

ودعوني أرفه قليلاً عنكم ببعض الطرف.. جادت بها قريحة الأيتام من هؤلاء البدو، لقد كان الزائرون للأيتام من علية القادمين إلى المدينة فقد زارت الدار سيدتان كل منهما من أسرة كريمة وفي مكانة مرموقة، أقبلت الأولى لاتستر وجهها سرت خلفها حتى إذا وصلت إلى الفصل سرت أمامها فلا أعرف كيف أصف سعادة الأيتام برؤية الأم الحنون، سألت عن بعض ما يعرف الأطفال.. تسابقوا للإجابة.. أدارت وجهها لكي لأرى دمعة في عينيها وكانت راحمة مالي لا أذكر اسمها من حقها أن يعرف أهلنا تلك السيدة إنها السيدة مظفرة خالة أبناء فيصل بن عبد العزيز والثانية كانت مثلها حذت حذوها.. رأيت الدمع في عينها مالي لاأذكر اسمها إنها ـ ولعلي لم أنس اسمها ـ السيدة فاطمة بنت عبد الله علي رضا زينل أخت محمد وعلي عبد الله علي رضا زينل، كانت زيارة السيدتين وتبرعهما أمراً جديداً اعتزت به دار الأيتام. وبينما كنت في المكتب ولم يكن على درس دخل علينا رجل من مصر قال أنا صلاح الشواربي أحببت أن أزور أبناء عمي البدو، رحبت به ولم ألتفت إلى هذه العمومة.. مسلم وعربي ابن عم لكل مسلم وعربي وأستأذنته أعد الفصول لزيارته فقد عرفت منه أنه من بيت الشواربي شيوخ القليوبية في شمال مصر وعضو في مجلس الشيوخ،

دخلت الفصل الأول أخبر الأيتام باسم الزائر، فإذا رئيس الفصل محمد أحمد الأحمدي يقول ولد عمي الشواربي منا ياأستاذ، وجاء الضيف فأخبرته بمعرفة الطفل له فانشرح صدره، فقال: لعلي أستأذن الأمير أزور الفقرة. وأردت التثبت تناولت الجبرتي تاريخ مصر فإذا الشواربي في الفصول الأولى يذكره الجبرتي باسم أبو الشوارب شيخ قليوب، وفي الفصول التالية يطلق عليه الشواربي، ولعله سكن مصر في عهد محمد علي.

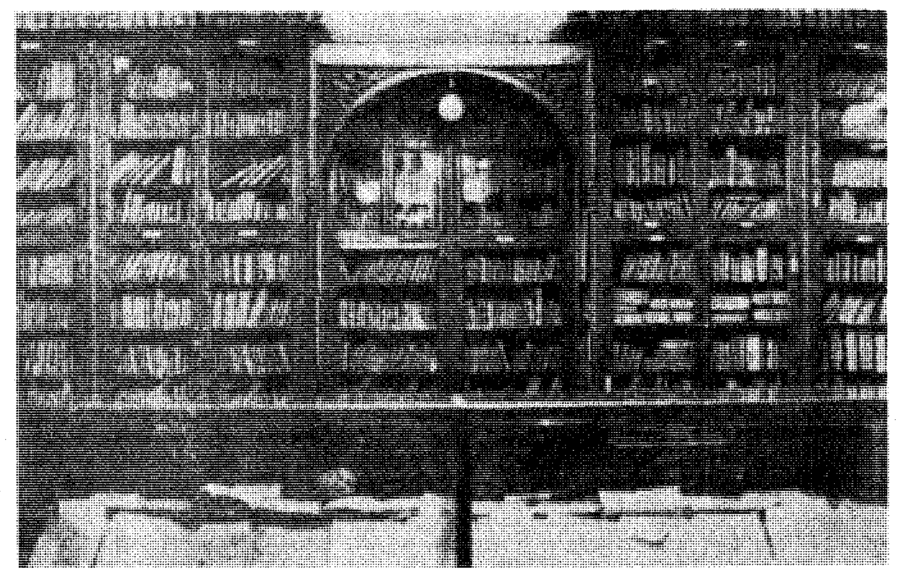
وزار المدينة الشيخ عباس قطان وأقبل يزور دار الأيتام وكان معه أحد أعيان المدينة الذين شبعنا من تعيرهم فهو أحد القائلين. إيش دار الأيتام مافيها إلا بدو، وكنا نجيب، احمدوا الله ألا يكون من بينكم أيتام، ودخلت مع الشيخ عباس ورفيقه إلى أحد الفصول لم أكن قد بيت في نفسي غرضاً أكيد به بل كان سؤالي عفوياً، انهضت عبد الله سهلي الرحلي قلت: سمعنا ما تحفظ عن نسب خاتم الرسل سيدنا محمد لأني أعرف عباس قطان وكل المكيين كيف يحترمون وجودهم في المدينة، وأجاب الطفل يحفظ نسب رسول الله، وهنا احترفت الغرض قلت له: من عدنان؟ قال هو جد رسول الله هو جدي فمسح رأسه عباس قطان فقلت عدنان جدك ياولد. يعني أنت ابن هذه الأرض. قال الحمد لله، ورأيت الهزيمة في نفس المنكر، لم أضحك ويعلم الله أني استحييت من نفسي كيف أفعل مع الرجل العين طرفة العين.

وأقامت بعثة الجامعة برئاسة الدكتور أحمد أمين حفل عشاء في مسكنهم بالمدرسة الأميرية، كان الأيتام ١٣٦ يتيماً . . الدكتور عبد الوهاب عزام يباشر تقديم الطعام للأيتام الدكتور عبد الحميد العبادي يفعل ذلك الدكتور عبد السلام العبادي مثلهما، وأعظم من ذلك ما فعلته بنتان من بعثة الجامعة هما كريمتا أمين لطفي لبسن السواد على طريقة المصريين حزناً على أبيهما لأنه مات بالاكتئاب حين لم ينصفه بل سلط القهر عليه أحمد نجيب الهلالي الذي حاربه من أجل ذلك صديق أمين لطفي محمود فهمي النقراشي، كانت هاتان الكريمتان تقدمان الأكل للأيتام، أما أحمد أمين فقد وقف لأقف معه قلت له وأنا أرى الأيتام كيف حال الأستاذ الزيات بعد وفاة ابنه رجاء فقال أحمد أمين: لقد أصبح الزيات يتيماً بدون ابنه ودمعت عينه فتعلمت لحظته. لأحفظ الآيات من القرآن الكريم تلاه وهو ينظر للأيتام «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً» حفظت وأمتثلت، لا أجفو ابناً أساء إلي أبوه فكل الأبناء من آباء أساءوا إلي أصبحوا الأحباب والأصدقاء.

أكرمني الله بالقرآن الكريم وكان ذلك مما تعلمته من الدكتور أحمد أمين.

وألقيت أنا . . «كلمة الشعب»

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».



الإساءة إحسان . . عانقه الحال . . وسار بها المآل

وما كنت أحب، أن أكتب الأنا، ولكن الذكريات وقد اقتربت من النهاية فمن الإحسان بها ينبغي أن يكون احساناً عليها أو فيها. كنت شاباً أحمل لقب الأستاذ تجاوزاً عن معنى اللقب الأكاديمي فما كنت إلا معلم صبيان، فالتلامذة أطلقوا على هذا اللقب، أما أشياخنا فهم يتحببون إليّ ينادون: تعال ياواد، فما زلت الصغير بينهم وإن كنت الكبير معهم، والكبير في زمالة المعلم مع المعلم، كتب عليّ أن أكون مؤدياً أحسن الأداء حين كنت قارئاً في درس المسجد يؤدبني أستاذي السيد محمد صقر إذا ما لحنت صرفاً أو نحواً فاستقام الأداء جهيراً ولا بأس بالصوت فهو غير حسير وغير محصور، كأنما المران على الإلقاء خطيباً في الحفلات المدرسية أو في تكريم رجال زاروا المدينة المنورة، وألقيت الكلمة أرتجلها أمام بعثة الجامعة والأزهر، وألقيت الكلمة في تكريم الدكتور محمد حسين هيكل في حفل أقمناه في بستان العمرانية، كما ألقيت خطاباً في حفل تكريم طلعت باشا حرب، أقمناه في العمرانية أيضاً، وكذلك في تكريم الدكتور محمد خاشقجي، مرة حين احتفلنا به وأخرى حين احتفلنا به بقية الناس السيد عبيد مدني، فمازلت فرحاً باختياره لي، ففي ليلة الحفل كان سفره إلى مكة عضواً في وفد المدينة في استقبال جلالة الملك عبد العزيز يصل إلى مكة من الرياض كما جرت العادة، كلفني السيد أن أنوب عنه في إلقاء كلمة تكريماً للدكتور وفي إدارة الحفل، فالسيد عبيد يرحمه الله كان محاطاً بصحاب بيني وبينهم جفوة اصطنعوها، أما هو فكان أكبر من أن ينقاد إلى ماهم عليه.

فالخطابة وضعتني في موضع التقدير من رجال شيبا وشباناً، أعجبهم أخوهم. . . أعجبهم شاب منهم، فلئن كنت عند بعض الكهول المجاور فإني عند كل الناهبين والكثرة من المدنيين ابن المدينة حال انتهى إلى زوال عشناه كربنا به أول الأمر، وإذا هو اليوم ما كان إلا المعز، لأن الاغتراب عن المدينة متعني بحب الذين مارسوا الجفاء ليكونوا بعد أهل الصفاء، ومن الجفاء تريد يبخل عليك بأن يرتفع لك شأن، وشيخ عجز أن يكون وحزن ألا يكون له ابن (كماك) يعني مثلك، والقصة هي، فقد قدم إلى المدينة رئيس بلدية العاصمة المقدسة مكة المكرمة الشيخ عباس قطان، ونزل في بيت السيد أحمد أسعد المستعرض جنوباً إلى العينبة وشمالاً إلى سقيفة الأمير مدخل الساحة من المناخة، كما زقاق الطول، ولم أكن أدري عنه وتأخرت في البيت عن الخروج بعد المغرب فإذا الأصدقاء وهم أهل صدق لا أهل تسلية. . عبد العزيز بري وحلمي دقاق يصلاني إلى البيت في النورية على العدوة اليمنى من سيل (ابو جيدة) سيل بطحان وعلى مدخل البرابيخ، نادوا عليّ (تعال قوام عباس قطان يبغاك) ونزلت أتقمش ألبس مشلح أبو شهر قيمتة ستة جنيهات ذهباً،

وذهبت بعد العشاء إلى الشيخ عباس قطان، قال: طالب توفيق وحسن موسى وعبد العزيز بري قالوا لي أحسن من يلقي خطاب الملك عبد العزيز (الزيدان) وأرسلت البرنامج إلى مطبعة عثمان حافظ، ولا أدري من أخبر بعض أعيان المدينة الكبار بما جاء في البرنامج، وصلوا إليه اعترضوا عليك، . وطلبوا أن يلقي خطاب الملك الشيخ حسين جباد، وافقتهم، لكن أشار عبد العزيز بري وهو من أعيان المدينة العريقين فيها وطالب توفيق وحسن موسى أن يلقي الخطاب عميد المعارف السيد أحمد صقر فهو موظف كبير وأستاذ الألقاء والأداء في المدارس، أما الزيدان فلازم يلقى كلمة شاكراً الملك عبد العزيز باسم أهل المدينة، هيه قوم واكتب الخطاب، قلت: صباحاً آتيك بالخطاب، فقال الشيخ عباس: اصبر يا أخ طيب أنت ما قريت الخطاب هو لا يفتح إلا في الحفلة، قلت ما عليك سأكتب الخطاب وأرجو أن يعجبك، وكان اختيار السيد أحمد صقر زاد الطين بله واختياري أتكلم باسم الشعب زاد الطين بله أكثر، وذهبت إلى الدورية في بيت السيد مصطفى عطار على مدخل الحمام من أملاك الترجمان يرحم الله الجميع

وفي الصباح اشتريت نصف شريكة (سحيره) بهللتين وبهللتين طعمية (مقلية)، وأفطرت في دار الأيتام وشربت الشاي وكتبت الخطاب وذهبت للشيخ عباس قطان، قرأت الخطاب ولعله قد نشر في جريدة المدينة، قرأته عليه فأعجبه، قال: طيب إنت ماشفت الكتاب كيف كتبت هذا فقلت له: ـ الملك عبد العزيز ـ تغمده الله برحمته ـ ألقى الكلمة في جدة والكلمة في عشيرة أمام المودعين ونشرت الكلمتان في جريدة أم القرى فتأكد لدي أن خطاب جلالته هو مثل كلمته في جدة وكلمته في عشيره، فقال الشيخ عباس.. براوه.. براوه.. ليش اعترضوا عليك؟ قلت له: لأني مجاور ماني أهالي، كما السيد حسين صقر كما حسين جباد، لكنه حال أرجو أن يزول، وطويت الخطاب أضعه في جيبي فإذا الذين اعترضوا على قراءة خطاب الملك يصلون سلمت عليهم فردوا السلام لأنهم من الأخيار يردون التحية بأحسن منها.

وعلمت بعد أنهم قالوا: مارضينا يقرى خطاب الملك فاخترته يقرأ خطاب الشعب، فقال الشيخ عباس أنا الآن أمثل إمارة المدينة، أستقبل وكيل أميرها الجديد الأمير عبد الله السعد السديري، وقد تسلمت هذه العهده من وكيل الإمارة السابق الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم، فلا تعارضوا ما أمرت به، وأعد الحفل في محطة السكة الحديد ليسمع أهل المدينة خطاب الملك وخطاب الشعب وانهالت على أوراق فيها سباب وتهديد من شباب أكلت معهم (عيش وملح) ولكني لم أسأل وتم الحفل، قارىء القرآن صادق مرشد، مجاور، الذي ألقى خطاب الملك الأستاذ السيد أحمد صقر.. مجاور وكاتبها كذكريات تقرؤنها الآن مجاور.

وسلطوا على أغيلمة صغاراً، كلما مشيت في طريق يرفعون أصواتهم كأنهم لا يعنوني يقـولون (اذا غاب حمارك اركب صعيدى) (الله يادنيا رديتي الصعيدي بعد الكباية لبس العبـاية) وأضحك فالكلاب تنبح والقافلة تسير، وكان زعيم هؤلاء الأطفال تلميذي في المدرسة اسمه أحمد بخاري قست عليه الدنيا بعد رخائها فإذا هو شرس لو جلد مائة جلدة لما سالت منه دمعة، عطفت عليه ترصدته في فسحة الغداء، ناديته يا أحمد ليش ماتغديت، قال: ماعنـدي شيء، أخذته من يده استعصـى قليلاً لكن ضربة القسوة أشد عليه من ضربة العصا فدمعت عيناه . . سار معي قلت للحاج سعيد القهوجي في قاعة الطعام . . (ياسعيد كل يوم يتغذى أحمد براد شاهي وشريكه وجبنه على حسابي) ورضى أحمد، وانتهى السباب فقد أصبح أحمد زعيم عصابة تدافع عني.

والسؤال لماذا أحمد بخاري أصبح هكذا فقيراً شرساً يضيق بالحياة، إنه من أهل مكة كان أبوه يملك ثلاثة أرباع مليون جنيه مسكوفي - نسبة إلى موسكو - فأمسى وأصبح وإذا مبلغ سبعمائة وخمسين ألف جنيه لاتساوي ريالاً واحداً، لأن القيصر قد سقط، فالأب مات قهراً بأزمة قلبية وبقى الطفل والأم حتى الماء كان أحمد يأخذ السطل ينزل إلى أسفل المصافي يأتي بالماء لأمه. وكبر أحمد وإذا هو صديق ساعدته فتعين مدير مال في وزارة المالية ثم اختلف مع إبراهيم إسلام وعينه إبراهيم شاكر يرحمه الله موظفاً في الشركة وذهبت الأيام وذهب أحمد بخاري ولا أدري عنه. . قلت له إبراهيم إسلام له فضل عليك هو عينك موظفاً، فقال كلمة: لا أرضاها من أجل هذا الفضل أنا أشتمه ليه هو اليد العليا وأنا اليد السفلى أشعر بالإهانة إن شكرته وأشعر بالعزة إن كفرته.

بقى أن نسأل من علم الأعيان ببرنامج الحفل الذي كان أمانة في المطبعة كان المتهم قد عرفته ولكني نسيت الإساءة التي فضت بهذا الاحسان الذي ورد فما من إساءة وجهت إليّ إلا وجلبت إلي إحساناً لهذا أشكر الذين أساءوا لأنهم أحسنوا وأشكر الذين أحسنوا لأنهم لم يسيئوا.

ولا أنسى شيخين كل منهما ناداني بعد إلقاء الخطاب حين أعجبتهم كلمتي وأنا أصعد المنبر.

(أيهـا الناس سمعتم كلمة الملك فاسمعوا كلمة الشعب ولا يتحركن منكم أحد) ولم يتحرك منهم أحد، الشيخان هم أبو بكر اغستاني القاضـي العالم ابن البيت المعرق والشيخ أبو الحسن سمان من أهل العراقة أيضاً. أبو كر داغستاني أمسكني من أذني يقول: أحسنت ياواد والشيخ السمان: براوه عليك يواد، وفرحـ لكلمة ياواد لقباً أعتز به إذا انطلق به لسان أمثال هؤلاء والمعايرة للصعيدي هي كالمعايرة للكردي في العراق وكما يسمى الحمار في عمان يسمونه المصري وأشكال من هذه المعايرة انتهت الآن حين قتل الخصام ومات الفصام.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

أربعة «امتياز» في أسبوع واحد
المدرسة .. المعلمون بلا رواتب .. النجاح ..

وهذا العنوان الذي وضعته، يعني ما أكتبه ولا أعني بالترتيب، وإنما هو ما أشرحه بعد.
مدرسة واحدة ذات قسمين، الراقية والتحضيرية وبينهما فصل اسمه التأهيل، يعني المؤهل يصل به الطالب إلى الراقية، فالتحضيري ثلاث سنوات، والراقية أربع سنوات، والمنهج يعني اسم الدرس لا تعين المادة، فالحساب من معرفة الأرقام إلى الأصول حتى النسبة والتناسب والر بح البسيط والربح المركب، ودرس ليلي يتبرع به مدير المدرسة، الرياضي البارع والتقي الورع السيد حسين طه، نكمل الحساب رياضة عليه الجبر وما إليه اللوغاريتمات وماإليها والنحو كذلك والجغرافيا والتاريخ أيضاً، والمنهج ليس مكتوباً ملزماً للمعلم وإنما هو التزام المعلم به وبما يفيد.

المدرسة أسسها السلطان عبد الحميد فأخرجت أجيالاً وتخرجت أجيال على أيديهم، وكما قلنا من قبل فالمدارس التي أسسها الاتحاديون رديفاً لإعدادية السلطان وترادفها الكتاتيب، قد محت الأمية، من أجيال قبلنا وأجيال بعدنا، فإذا ابناء المدينة هم الركيزة لما تتطلبه الوظائف.

والمعلمون هم عبد القادر الشلبي العميد، كان في المدينة يكتب في جريدة الحجاز حرباً على ثورة العرب ولكن المنتصرين لم يعاقبوه. بل عينوه عميداً للمعارف، ولعل كامل الخوجة، وكان صاحب جاه.. تاجراً كبيراً، أصله شامي من دمشق ابن عم صادق الخوجة وعادل الخوجة صاحب الشركة الخماسية، فقد كان بيت الخوجة في المدينة وجدة والشام وبيروت ودمشق من أكبر التجار حتى قالوا أيام الحرب العالمية الأولى «اللبنانيون يأكلون الكرسنّة ولا يجدون الذرة والشعير وخيل صادق الخوجة علفها شعير» لعل كامل الخوجة كان الوسيط أو الشفيع ليكون عبد القادر شلبي سالماً من العقاب كما سلم الألفا هاشم والشيخ العمري أو لعل احترام العلماء جنبهم الشقاء، ومدير المدرسة الراقية والتحضيرية هو السيد حسين طه يعاونه ابن عمه السيد أحمد صقر أما بقية المعلمين فالسيد محمد صقر والسيد ماجد عشقي والعريف محمد بن سالم والأستاذ سعيد المدرس والشيخ محمد الكتامي والمراقب أبو بكر جاد، لنا صلة الكتامي (لنا صلة رحم به) ثم هاشم كماخي.

هؤلاء المعلمون كانوا الآباء والتلامذة كانوا الأبناء، مضت عليهم أشهر بلغت ثمانية وعشرين شهراً لا يقبضون رواتب ولكنهم لم ينقطعوا عن تعليمنا، مع أن الشريف شحات، ابن المدينة وأميرها التقليدي والقائمقام فيها موظف أثنيت عليه حين صرف خمسة عشر ألف جنيه ذهباً ليحقق رغبة الملك عبد العزيز في تطويل الحصار ليدخل ابنه الأمير الكريم محمد ابن عبد العزيز يوم السبت التاسع عشر من جمادي الأولى سنة ١٣٤٤هـ في سلام لم تسفك دماء ولم يضم أحد، هذا الشريف شحات هو يملك المال لم يلتفت لحظة ليصرف راتب شهر قد يبلغ خمسين جنيهاً لمعلمي أبناء المدينة ومثله عبد الله عمير ولديه مال صرف أكثره في إعاشة الجيش، لم يفكر يصدر أمراً بصرف راتب المعلم أو يتبرع هو به، والمحاسبجي مدير المالية عراقي اسمه زكي بيك، أصبح ذا مكانة لأن كبار الضباط باشوات عراقيون يحمونه وكأنه الأب لهم، هذا المحاسبجي كان يستطيع وهو يصرف رواتب الموظفين لديه أو رواتب الضباط، أن يصرف للمعلمين بعض رواتبهم، ورئيس كتابه الذي أحترمه طالب توفيق كان يستطيع أن يكلم المحاسبجي ليصرف رواتب، ولكن كلهم انصرفوا عن الصرف، كأن الأمر لا يهمهم وصبر المعلمون ثمانية وعشرين شهراً لا يقبضون راتباً.

العميد له عون من كبار الخوجة ومن العامة الذين يعشقون حديثه عن الحب للرسول ﷺ. وحسين طه في غنى لأن أباه السيد طه ثرى من كبار التجار، فلا حاجة يضام بها، والسيد أحمد صقر له مقررات في التكية المصرية، دقيق . . وخبز. . وغير ذلك، تقرر له ذلك حين ورثه من أبيه السيد مصطفى صقر أحد كبار العلماء في الأزهر هاجر إلى المدينة فقد كان نديداً لسليم البشري وحسون النواوي ومن إليه، والسيد محمد صقر يعان من التكية المصرية وقد سخر الله له الفران محمد عباد يبعث الخبز ارغفه كافية من الحنطة الصافية حتى قالوا بيت السيد طه يخلطون الحنطة بالشعير والذرة ومحمد صقر يأكل الرغيف صافياً لا يخلط بشيء.

والعريف بن سالم له دخل من الكُتَاب، وعنده دخيلة من بعض ما ترك أستاذه العلامة العزيز بن الوزير، لقد نسيت أهو تونسي أم جزائري أم مغربي، فالعريف بن سالم جزائري عقبى حتى مصطفى الصيرفي والد الشاعر حسن الصيرفي ابن عمه له عقبى يسكن في البيت الكبير في زقاق البدور خلف المدرسة بجانب بيت الرفاعي هو بيت العزيز بن الوزير أستاذ شيخنا السيد محمد صقر. ومن أساتذته البشير الإبراهيمي والطيب العقبى من الذين نهضوا بثورة الجزائر ثورة المليون شهيد، لم يصرفهم عن الجهاد مصال الحاج الذي يزعم أن الجزائر أرض كفر لا تجوز فيها الصلاة، كما هم لم يخضعوا لعبد الحي الكتاني الذي زعم أن ثوار الجزائر ماهم إلا المحاربون من أجل الأرض كما قزمان.

وسعيد مدرس لديه ما يكفيه من احترام الناس له ومن بقية باقية، عطاء الرخاء يوم كان أحد الذين علموا عبد الحميد بدوي باشا في دار المعلمين في الساحة كان اسمها «دار جونة» مالكها مظلوم باشا المصري الوكيل عليها تلميذها السيد أحمد صقر، ومن المفارقة أن يكون أحمد صقر تلميذ هذه المدرسة وابنه محمد تلميذاً فيها. والشيخ محمد الكتامي حافظ القرآن عالم القراءات يأتيه رزقه من حيث لا يدري إنما هو احترام القرآن من الذين يحترمون القرآن. . أما السيد ماجد عشقي فأبوه شاعر المدينة ورئيس بلديتها وأحد أعيانها النديد لعبد الجليل براده وإبراهيم مسكوبي، هذا السيد ماجد لم يقبض راتباً ثمانية وعشرين شهراً، رأيت ثوبه من الدود وعليه رقعة على المرفق، كان معلماً بحق ومربياً بحق كيف عاش؟ لقد عاش حين اقتنى الكتاب «تذكرة داوود الأنطاكي» تعلم تقطير الناتحة والحبة السودة والورد وما إلى ذلك من الأعشاب والزهور وماإليها التي يقطرها يبيع ذلك للعطارين، ولم يكن قد تزوج زوجته الثانية أم بنيه الأفاضل الآن، لأنه مكث ثمانية عشر عاماً لايريد الزواج حزناً على زوجته الحبيبة إليه عمة زين العابدين توفيق المعروف لديكم الآن المقيم في جدة وجدّه زين العابدين توفيق عمه زميلنا أخونا محمد أياسي توفيق، صهره ابننا الدكتور أمين كردي

زوج الحفيدة الغالية امها ابنتي الكبرى، ماتت هذه الزوجة نفساء من كرب الحريق الذي شب في القلعة، ماتت هذه الزوجة حرم السيد ماجد.

وحريق القلعة شب في ظهر قائظ، وقد كنت مع أبي نصطاف في التمار، مع حليفنا أحمد ابن جميعان العمري المسروحي الحربي، وعجيب أن الحريق ما شب في البنادق ولا في طلقات الرصاص وإنما سعيره كان في حريق القنابل والديناميت وما أكثر ذلك في القلعة من مخلفات فخري باشا، و يقذف الحريق القنابل تمنعها الريح أن تشرق فلم تصل شظية إلى الحماطة أو الساحة حماية المسجد من الله، ولم تصل شظاياها إلى الجنوب فلا يمس سوق الحبابة ولا مسجد الغمامة، فقد اتجهت الشظايا إلى الجنوب الغربي فلا تصل إلا قبل حوش كرباش، سلم كتاب القبة وبيت جمل الليل والداغستاني والياس والكردي ومسجد الإمام علي لم تصل شظية إلى كل هذا، وإنما اتصل الحريق والتدمير ينال بيت السيد علوي السقاف وحوش سرقان وبيت ذياب ناصر حوش كرباش وحوش العبيد كان بيت المفتي الداغستاني البارز على حافة المناخة وأمام السبيل قد حجز الشظايا، وماكاد يؤذن العصر حتى خمد الحريق ولكنه في اليوم التالي اشتعل الحريق على الصورة نفسها، فالسبيل أمام القلعة فيه مقر الحاكم العسكري والشرطة لم تصله شظية.


السلطان عبدالحميد

ومن أشعل الحريق؟.. قالوا: إنه عدم الوقاية.. ولكن التهمة قد رزىء بها الضباط عبد المحسن الطيب وأخوه عبد العزيز وهما تونسيان، يتحدث عبد المحسن حين نلقاه فاخراً بأنه كان ضابط بحرية كما يفخر بأن عبد العزيز الثعالبي من أخواله، وعبد العزيز الثعالبي هو زعيم تونس طريد الاستعمار إذا ذكره أستاذنا محمد عبد القادر الكيلاني قال «بيه.. بيه.. عزيز تونس» لجأ إلى مصر فاحتضنته مصر لأن مصر تحافظ على القيم ولا تسأل عمن أهدر القيم، فقد كان الثعالبي في مصر ملء السمع والبصر، لأن عبد الرحمن عزام كان المحتضن والنصير لكل عربي مغربي.. فهل يكتب التاريخ للذين نسيهم المؤرخون؟

وسجن عبد المحسن الطيب هو وأخوه ولم يثبت عليهما شيء. إن القلعة كانت مصدر التموين للسلاح فالحاكم يوزع البنادق والطلقات حيث لم يكن الذهب فاشترت

القبائل هذا السلاح وأكثر الذين اشتروه قبائل نجد، كأنما هو عدة ينتصر بها جيش عبد العزيز بن عبد الرحمن.

كما أن بعض الضباط الحراس يقتاتون من بيع البنادق والطلقات.

التلميذ والنجاح

ودخلت المدرسة أفرح بها، لأنها أخرجتني من الكتاب وفي أول يوم دخل الفصل أستاذنا مدير المدرسة السيد حسين طه، سألني ما اسمك ؟ قلت محمد حسين زيدان قال أنت ولد العم حسين قلت نعم، من ساعتها تعهدني يرعاني كأنما رعاية صهره وابن عمه السيد محمد صقر قد وصلت إليه فقد سبق السيد محمد صقر بالرعاية والحفاظ قبل السيد حسين، أهي رعـاية النجابة لي أم رعاية القربة للعزوة فكلنا من صعيد مصر؟ فالسيد محمد صقر من أشراف قنا فرع المخادمة والسيد حسين طه من أشراف قنا فرع البطاطخة كلهم حسينيون جمازيون جدهم الأعلى الذي هاجر إلى مصر وأقطعهم السلطان مديرية قنا فهم الأكثرون فيها الآن لا تشاركهم إلا قبيلة الحميات وهم من جهينه كان أحد الجمازين الحسينيين أمراء المدينة في زمن طال، فهم وأشراف العوالي الشريف شحات ومن إليه أبناء عم. . كلهم من جماز وأمـا كاتب هذه السـطور فمن قرية أهلها عرب صليبة كان اسمها القطيعة سماها الشيخ، محمد بخيت مفتي الديار المصرية الأحمدي نسبة إلى الأحمدة، لانسبة للسيد أحمد البدوي، سماها المطيعة كانت قطيعة من الإقطاع فأصبحت المطيعة حين طوعها رفع الظلم عنها بعد الاحتلال الإنجليزي.

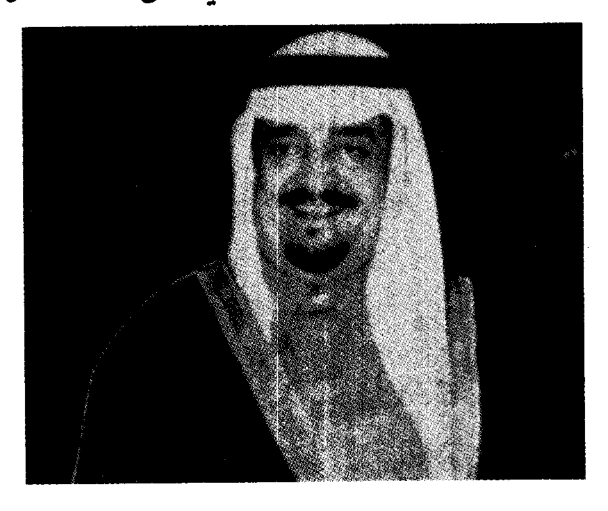
ولذلك قصة بعد. .

لقد كنت تلميذاً ناجحاً رغم حمى يثرب التي هي حمى «الغب» أو الملاريا كانت ترهقني أغيب عن مدر ستي أياماً ولكني أي درس لم يفتني لأن أصدقائي المحمدين محمد السالم الحجيلي ومحمد إياس توفيق ومحمد نيازي أجد عندهم الدرس والمذاكرة فإذا أنا إلى نجاح. ولكن هذه الحمى أخرتني عن امتحان فأصبحت راسباً لا أرقى إلى الفصل الثاني من السنة الأولى غير أن أستاذ السيد محمد صقر أبى أن أكون راسباً فكلم المدير صهره السيد حسين طه أن أرقى إلى الفصل الثاني بصفة المستجد، فأدخلني الفصل كأنها المقابلة الشخصية فإذا أنا أرقى ولا أرسب، ومرت أيام غاب أستاذ الفصل وناب عنه أستاذنا أحمد صقر وقرأ تلميذ تعـريف النهر. «ماء عذب يجري ليصب في بحر أو بحيرة أو يفيض في الرمال» وألقى الأستاذ السؤال على ابن عمنا حسن عبد الحافظ يرحمه الله : ماهو الماء العذب؟ فقال حسن : هو الموية اللي تجري كده. . كده» وأمال يديه يعرف الاعوجاج، وسكت التلامذة وعددهم

عشرون، أما أنا فرفعت يدي أقول العذب يعني الحلو، فأمسك الأستاذ الدفتر المعد للجائزة تلطيفاً تحسيناً امتيازاً، فكتب أمام اسمي امتياز أعلى جائزة. وفي اليوم الثاني جاء أستاذ السيد محمد صقر وسأل التلامذة وقد انضم إلى فصلنا السيد أحمد العربي والسيد عثمان حافظ وهما في أعلى درجات وأكبر سناً مني، سأل الأستاذ عن الكرسي أهو عربي أم أعجمي؟ فأجابوا إنه أعجمي، ورفعت أصبعي أعترض أقول إنه عربي قرآني «وسع كرسيه السموات والأرض» وكتب الأستاذ الامتياز، وفي يوم آخر من الأسبوع نفسه وفي درس السيد أحمد صقر قرأ من وفاء الوفاء للمسهودي وإذا فيه «لقد كسفت الشمس في يوم السادس عشر من الشهر». . فاعترضت أقول للأستاذ هذا غلط خطأ فقال دون تدبر منه وهو العالم: السمهودي يغلط؟ قلت الناسخ أو المطبعة هما المخطئان الشمس لا تكسف بقدر الله إلا والقمر في المحاق في آخر الشهر وضحك الأستاذ وكتب الامتياز. . وفي يوم الأربعاء سأل الأستاذ محمد صقر عن الكلمة «تفاوت» أهي اسم أم فعل كلهم قالوا فعل غرتهم التاء من حروف «أنيت» فرفعت اصبعي أقول هي اسم والعلامة حرف الجر والتنوين «من تفاوت» وكتب الأستاذ الامتياز. ويوم الخميس اصطف التلامذة توزع عليهم الجوائز فإذا الزيدان أربعة امتيازات وصفقوا وخرجت شاكراً أبتعد عن زفة الأصدقاء.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

خادم الحرمين . . حرمة واحتراماً وحماية وتعميراً
آل سعود . . دعة لتوحيد الكلمة في ظل كلمة التوحيد



وما كانت الذكريات تلزمني، بأن أكتبها مقيداً بالترتيب الزمني، بل يحسن أن تواكب الذكرى التذكير بها والإعلان لها، لأن مواكبة الخبر تدعو إلى الشرح توضيحاً وإجلالاً ليعرف القارىء المعنى لهذا اللقب «خادم الحرمين الشريفين» فهو لقب لبس الملك فهد به تواضع الكبرياء «ومن تواضع لله رفعه فخدمة الحرمين تعني الأمن بهما ولهما، ولم يكن ذلك إلا عن الإيمان، فقد جعل الله الإيمان به سبحانه وتعالى رباً خالقاً وإلهاً معبوداً لا شريك له هو الأول ثم عمارة المسجد وسقاية الحاج، فالمشركون كانوا يفخرون بعمارة المسجد وسقاية الحاج، فبصرهم الله ليؤمنوا به، إن الإيمان هو الأول، لأن المسجد بيت الإيمان لا بيت الأوثان.

«خادم الحرمين الشريفين» لقب يزهو به التشريف بعظمة التكليف، فكأن هذا اللقب يحمل الإجلال للملك والتبجيل له، ولم يكن ذلك إلا من عمله، فعمل الرجال لصالح الأعمال هو الثناء عليهم، فمن عرف قيمة الأمن للمسجدين وسياجهما، لابد وأن يعترف بكل التبجيل للملك فهد.

إن آل سعود من أول أمرهم.. كانوا دعاة لتوحيد الكلمة في ظل كلمة التوحيد، خاصموا عنها واختصموا من أجلها، فتبدلت أحوالهم حتى أتم الله النعمة على الإمام السلطان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن، قال لي مرة الأمير فيصل بن سعد بن عبد الرحمن «اسمع واعرف أن كلمة التوحيد وعقيدة السلف لا نتركها نحن فما منا بقية إلا وهي التي تنصر كلمة التوحيد» كلهم كذلك وخادم الحرمين الشريفين ابن عبد العزيز ماهو إلا ذلك.

وتداول أقيال وعواهل وأمراء وباشوات وسلاطين فإذا كلهم يرفعون رؤوسهم بلقب «حامي الحرمين» بعضهم لاننكر عليهم الحماية وبعضهم لم يتمكن من حماية الحرمين حتى من سلوكهم.. وحين تمت الوحدة لهذا الكيان المملكة العربية السعودية، كان معنى الخدمة للحرمين الشريفين الحماية لهما والحماية بهما.

إن مكة.. بكة.. صلاح، بلد آمن.. هو أول بيت وضع للناس ببكة مباركاً.. آمن قوم بملة إبراهيم ورجع قوم منهم إلى عبادة الكواكب، التي حاربها أبو الأنبياء إبراهيم ومن بعده ابنه إسماعيل عليهما السلام.

ومن التذكير أن نذكر أن حماية الله لهذا البيت في العهد السحيق والعهد اللحيق.. قبل الإسلام وبعد الإسلام وبالإسلام.. تبجح الوثنيون فباءوا بالفشل.. وجاء «تبع» واحد من أكابر العواهل والأقيال والأزواء في باليمن، قحطانياً سولت له نفسه أن ينال من البيت فإذا الله رب البيت يحميه يرجع تُبّع إلى رشده يكسو الكعبة، فما استطاع أحد من البشر أن يرده ولكن رب البيت هو الذي نصر البيت.

وسار «نبوخذ» الكلداني العابري السامي، يصل إلى فلسطين يسبى اليهود ويمشي منحدراً إلى وادي القرى لا يتخطى (تيماء) من حَبسه في تيماء؟ لماذا لم يصل إلى مكة ؟ بل لماذا لم يصل إلى يثرب؟ حبسه حابس الفيل، حتى أن قرأنا خبراً عن النبي (دانيال) من أنبياء بني إسرائيل نجا من السبى ووصل إلى مكة لأن الله أوحى إليه أن يحمل معداً بن عدنان يرقى به أعلى جبل لئلا يصل إليه نبوخذ «بختنصر» لأن معدا جد رسول الله محمد ابن عبد الله، فحمله دانيال يخشى عليه، لكن الله هو الذي يحفظه حمى البيت ودانيال ومعدا وبنيه إلى أن أتم الله النعمة على العرب على بني الإنسان كلهم بهذا الإسلام دين الحق.

والعجيبة ألا يصل الكلداني البابلي إلى يثرب كأنه حماية المستقبل ليثرب، لتصبح مأزر الإيمان.. الدار والإيمان.. دار الهجرة يتم النعمة عليها بهجرة النبي إليها وهجرة أصحابه وإيمان أنصاره، فإذا هي مشرق النور. اقتبسته من حراء والصفا، ليكون إشعاعه مكياً مدنياً.. المسجد النبوي كان مربداً، مستودع تمر فإذا هو وديعة المؤمنين.. المؤمنون فيه ثمراته «من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذيب الملح في الماء».

هذا من أراد السوء فكيف يكون الجزاء لمن صنع الإحسان؟ فالبشرى للملك فهد صانع الإحسان أن يكون من المحسنين الذين عملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

ويعجز القلم عن معنى الخدمة للحرمين الشريفين ولكن عمل فهد بن عبد العزيز تمتع بالكمال فإذا هو قاهر التعجيز، فأسأل الله أن يديم علينا نعمة الأمن في ظل كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

جريدة المدينة

«بسبب مقالٍ كتبته كدت أنفى من المدينة»

ولم أكن أعلم عن طلب الأخوين علي حافظ وعثمان حافظ السماح لهما بإصدار جريدة المدينة مع أني لا أكاد أفترق عن السيد عثمان، وقد تم لهما قضاء الحاجة بالكتمان، وصدر الأمرالكريم من الإمام السلطان الملك عبد العزيز، وأعان السيدين أنهما يملكان المطبعة جلبها السيد عثمان، ويكاد يكد ويجد ليتعلم عن المطبعة والطبع ما تيسر له من المعرفة وقد أعانهما في ذلك الشيخ محمود شويل الصديق الصدوق للسيد عثمان حافظ، أقرضهما بعض المال مما ملك أو هو كل ماملك، وقدره تسعون جنيهاً ذهباً وضعها أمانة عند صديقه الأفندي محمد نصيف حتى إذا أراد العون للسيد عثمان سحب المبلغ من الأمين.

وتأسست المطبعة وتم لها أن تكون في العينية، وعدت من مكة بعد أداء حجتي الثانية، أيامها كنت معلم الصبيان في دار الأيتام، ووصلت عصر يوم إلى المدينة أدخل إلى بيتنا في

النورية وكان ملكاً لنا، ولم أكد آخذ شيئاً من الراحة حتى طرق الباب هؤلاء الثلاثة بقية الناس السيد عبيد بدر والاثنان من الناس علي حافظ وأخوه عثمان، رحبت بهم وعجبت كيف عرفوا خبري، ولعلهم ترصدوا قدومي من باب العنبرية إما من أحمد جاد أو حسن دقاق، كأنهم أرادوا إلا يفتلني أحد في ذروة أو غارب فأعتذر عن العمل معهم، وتكلموا ولعل السيد عبيد هو الذي بدأ، أخبرني عن أمر الإصدار وفي نصه الموافقة على أن يكون السيد أمين مدني والد السيد إياد وأخو السيد عبيد الذي كدّ وجدّ حتى امتد له أثر في التاريخ، على أن يكون رئيس التحرير، كأنما السيد عثمان قد تنازل عن ذلك ليكون محاطاً بتأييد السيد عبيد وأخيه وليتأتى التعصب لجريدة المدينة نصراً لها من أصدقاء السيد عبيد كما هو التعصب من جماعتنا التي هي لا تقل حماسة ولا قيمة عن جماعة السيد عبيد، فالسيد علي حافظ له صداقة السيد عبيد والسيد عثمان حافظ له صداقة مصطفى عطار وعبد العزيز بري وأسعد طربزوني وعبد القادر غوث وصلاح الدين عبد الجواد وكاتب هذه السطور. وفي الأمر أيضاً الموافقة على أن يكون الأستاذ عبد الحميد عنبر والأستاذ ضياء الدين رجب ومعلم الصبيان محمد زيدان هيئة التحرير، وطلبوا مني الموافقة فلم أرفض، لأن طموحي لا يرفضني وكنت إذا ما فرغت من المدرسة الملازم للسيد عثمان والملتزم بالعهدة التي شرفت بها من خلال التكليف بأداء ما يجب له، وكنت الأكثر كتابة فيها، وجاءت القشة قصمت ظهر البعير، فقد نشر السيد عثمان خبراً يندد بتصرف الطبيب فؤاد محروس السوري الذي خلف عادل محيش الطبيب السوري حين انتقل إلى جدة، فالخبر فيه أن أستاذنا القاضي الكبير وابن البيت الكبير أبو بكر الداغستاني الخطيب المفوه، دخل المستشفى يراجع الدكتور وكان الدكتور يكشف على مريضة فتأخر الإذن للشيخ فجزع وأخبر السيد عثمان فنشر الخبر، فكتبت مقالاً تحت هذا العنوان «النظام عند الطبيب وأجر الطبيب فيهما حصانة وصيانة» وجاءت فقرة في المقال وكنت أعني فيها الدكتور سعيد مصطفى المصري أخو الضابط يوسف بيك مصطفى قائد الجيش المرابط والصديق لعبد الرحمن باشا عزام، فقد كان الدكتور سعيد يعالج الفقراء ويحفل بالأغنياء، عمل لاغبار عليه لكن بعض الفقراء قد لا يجدونه إذا ما أحتاجوا إليه لأنه في زيارة من يعنى بهم. هذه الفقرة قلت: إن الطبيب الذي لا يأخذ أجراً يأخذ ماهو أغلى منه وفي الهدايا، والمآدب أكبر دليل، وجاء السيد مصطفى عطار يقرأ المقال وهو معد للطبع بنصه وفصه فحذف هذه الفقرة وفي الهدايا والمآدب أكبر دليل وبقيت الكلمة (يأخذ ماهو أغلى منه» فثار أصدقاء الدكتور عادل محيش يحسبون أني عنيته واتهمو ني بأني أنال من كرامة الأعراض إلى ماهو أفظع، وكتبوا لعادل محيش بجدة فأرسل لهم ستة آلاف ريال ولا أريد أن أسمي المتحمس لهذه الإثارة وكلفوا

الرجل الطيب الأفندي محمد داغستاني محامياً يرفع ضدي شكوى يتهمني بأني أسب أهل المدينة، لأنفي منها كما جرى للشيخ محمود شويل في عهد وكيل أمير المدينة عبد العزيز بن إبراهيم يرحمه الله أما ماجرى علي ففي عهد وكيل إمارة المدينة الذي أشكر حمايته الأمير عبد الله السعد السديري خال أمير المدينة الآن، يرحم الله عبد الله السعد السديري، سمع الأمير ذلك وكان آخرطلبه أن أذهب أقبل رأس الشيخ أبو الحسن سمان والسيد حمزة غوث ليكون العفو منهما عفواً من الجميع، وما أستجبت على إجلالي للشيخ السمان واحترامي للسيد حمزة، لأن ذلك اعتراف لما شغبوا علي به، وكتبوا مضبطة هددوا برفعها إلى الملك عبد العزيز، ولم أرتجف، وخرجت بعد عصر إلى قهوة عبيد الله خارج باب العنبرية على السمط حزم حرة واقن ورجعت مسرعاً لأدرك صلاة المغرب ولأحضر الدرس فإذا الناس خارجون من صلاة المغرب ومن باب الرحمة يتقدمهم رجل صاحب هامة وقامة اسمه صالح الابراهيم، أحد الرجال الأفذاذ الذين إذا نهضوا لأمر أتموه، وما يوم حليمة بسر، هو من شيوخ عنيزة وأصبح من شيوخ المدينة، وكان من ورائه ثلاثة اثنان منهم تناولوا العشاء عندي (لبه وجبنة ورطب) وقد شاركوا في المضبطة حتى قال لهم الشيخ محمد الفاضل ابن ما يأبا الجكني، أنتما تتآمران عليه وبالأمس تناولنا العشاء سوياً في بيته، لا أسميهما فعلى كل فهما أصدقاء، سلمت على صالح القاضي فقال (أهلاً زيدان باشا، قلت: ماني باشا، قال: هؤلاء من أهل المدينة كتبوا عنك مضبطة كما كانوا يكتبون عن الباشوات فأنت باشا الآن، ثم أردف هل يعفون عن كرامة الأعراض بقبلة رأس، والله إن مامزقوها لأركب للرياض ليعرف عبد العزيز عبث المضابط» وجاءني أستاذنا السيد أحمد صقر يقول: يالله ياواد أكتب اعتذار فالأمير عبد الله كلفني أن أخبرك بذلك، فكتبت اعتذاراً بأني لم أرد ذلك فالمدينة طاهرة وأهلها طاهرون، وانتهت الزوبعة ولم أجد من السيد علي أو السيد عثمان موقفاً يحمي محرراً في الجريدة ولو بإيضاح الموضوع وانقطعت عن الجريدة أو هي انقطعت عني ولكن لازلنا أصدقاء حتى أن بعض من كتب المضبطة يزورني في مكة فاخراً بي يطريني في كلامه صديقاً حبيباً إلا واحداً مازال الجحود الكنود واسألوا عنه نذير محروس رأى صورتي عنده فقال: ليش مبقى هذه عندك، فقال صديقي أستاذي فأنا أحتفظ به. وعلى كل فأهل السماح ماتوا ملاح والحمد لله لا تلبسني كراهية ولا حقد، وهم أهلي كل مؤهل لمن هو لهم وبهم.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

رحلتي إلى الهند
جذور إسلامية أصيلة في الهند
أعرضت عن محمد أسد لهذه الأسباب

ولم تتملكني شهوة السفر، ولم أكن قد فكرت في الرحلة إلى الهند، التي كانت آنذاك من مصادر العون لهذا البلد، فالهند المسلمة كانت عوناً مادياً للمدارس وعين زبيدة والعين الزرقاء كما كانت هي المتسودع تصدر أرزاقها رزقاً لهذا البلد، فالمسلم الهندي والمسلم الأندونيسي لاننسى عطاءهما لهذا البلد في عهود مضت يوم قل عطاء العرب للعرب، بل يوم ضن العرب لا يؤدون أوقاف هذا البلد لأهل هذا البلد، ولكني عزمت على الرحلة أستجيب لإصرار الأستاذ محمود شويل، تأخذني الثقة به بل والاعتزاز لأن بيننا وبينه صلة رحم زادت قوتها بصلة العزوة فكلانا من صعيد مصر، أنا من المطيعة تابعة لمركز أبو تيج وطن آبائه قبل أن يهاجر أبوه إلى المدينة.

رحلة بحرية شاقة

وركبنا السيارة ونحن ثلاثة، الشيخ أحمد الدهلوي مؤسس دار الحديث بالمدينة المنورة ومحمود شويل ومعلم الصبيان محمد حسين زيدان وتوسطت السيارة العقيق نظرت إلى الجماء إلى عير إلى بئر عروة فدمعت عين ذلك تأثير التربة الغزلة، وصلنا جدة ونزلنا ضيوفاً على البيت المضياف بيت الأفندي الشيخ محمد نصيف، فأكرمنا عشرة أيام ننتظر الباخرة علوى، وركبناها تسير بنا رخاء في البحر الأحمر حتى خليج عدن، وماكدنا نخرج من هذا الخليج الحبيب حتى وقعنا في دوار المحيط، فقد كان الزمن صيفاً في شهر أغسطس وهذا المحيط أمواجه كالجبال في الصيف تتأرجح بها الباخرة فإذا كل من ركبها يبلغون الألف قد ناموا وهم أيقاظ من دوار البحر، إلا الشيخ محمود شويل لا أدري كيف لم يصب بالدوار، كان يوم اثنين وهو صائم اشعل «الدافور» ونحن على السطح لا في الغرف، يسلق دجاجة يفطر عليها، وضع القدر وكان الدوار لم يتأثر به «الدافور»!، وأقبل هندوكي من عمال الباخرة يكلم الشيخ يشير إلى السماء ليرى الشمس وقد كسفت في آخر الشهر جمادي الأولى أو هو جمادي الثانية سنة ١٣٥٢هـ. ونظر الشيخ إلىء السماء فانتصب واقفاً يصلي صلاة الكسوف بالبقرة وآل عمران، ولم يؤثر فيه الدوار يتمايل حيناً ورجلاه ثابتتان، ومن الغرابة أن هذا الهندوكي وقف معه كأنما هو يصلي، فالهندوكي يعبد الظواهر الطبيعية ليس أولها البقرة وليس آخرها القرد والنهر، فالحياة بكل ما فيها يؤلهها الهناديك حتى أننا رأينا في لكنو آلاف القرود يعبثون داخل البيوت حتى أن الإنسان يخاف على طفله لاتخطفه قردة وحتى أن شيخنا تقي الدين الهلالي وقد مر في الشارع «حضرة قنج» فرأى أوراقه تتطاير في الهواء بعثرها قرد داخل البيت، فهذه القرود تشارك الإنسان في طعامه وتعبث في أيامه.

الفرار من المجذوم متى؟

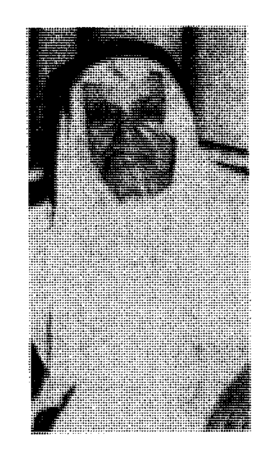
ووصلنا إلى كراتشي ومنها إلى قصور في السند نزلنا ضيوفاً على أحد كبراء الهند المسلمة عبد القادر القصور، ومنها إلى ملتان بنيت في دهناء مجدبة، وفي الفجر ننزل من السطح ننام فيه كأننا نتذكر النوم على السطح في المدينة المنورة وكان أقرب مسجد لنا نمر به ولا ندخله لأن من بناه حنفي بريلي وحوله أهل الحديث لا يصلون فيه، فالمؤذن والإمام والمأموم شخص واحد، ذلك نكبة الخلاف المذهبي نجتازه نصلي في مسجد أهل الحديث، فلو صلينا في ذلك المسجد لطردنا من مولتان.

وإلى مدينة صغيرة لعل اسمها «لكوكي» ننزل ضيفاً على العالم السلفي من أهل الحديث أسمه محمد علي عرفناه في المدينة المنورة وقد تزوج من أهلها الكبار ورجع إلى قريته، وجرى

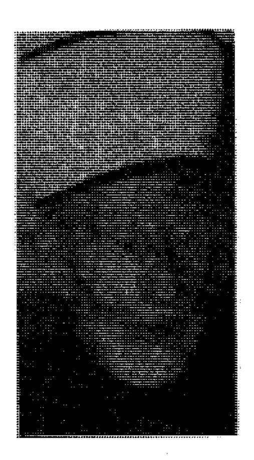
حديث عن العدوى «لاعدوى ولا طيرة ولا صفر» «فر من المجذوم فرارك من الأسد» فقال الشيخ محمود شويل: لا عدوى فلن أفر من المجذوم، التبعة عليه في هذه الرواية، فقلت: فر من المجذوم أمر هو المطاع أما الأكل مع المجذوم فعمل وأمر النبي مقدم على العمل فالاتباع لأمره والقدوة لمن أراد بعمله إلا الأكل مع المجذوم فقال الشيخ محمود غاضباً «ايش عرفك» وتكلم الشيخ غاضباً «ايش عرفك» وتكلم الشيخ الوقور يقول لمحمود شويل: إنه في هذه أعرف منك، ففي الأصول أمر النبي أولى بالاتباع من عمله، فعمله خاص وأمره عام، وهدأ الشيخ محمود يقول: لالوم علي ولا عليك، لهذا حرصت على رفقتك.

أنا . . ومحمد أسد الله

ومن هذه القرية وإلى لاهور العاصمة التي كانت، والتي عصمها إسلامها، ونزلنا في بيت المسلم ضيوفاً على المسجد، حينذاك ملكت حريتي في بيت العبودية لله، وفي ضحى نهار أقبل رجل أعرفه وانصرفت عن تعارفه كان هو محمد أسد الله المستعرب النمساوي، الذي أسلم احتفى به الشيخ محمود شويل وكان في يدي كتاب شغلت نفسي بالقراءة لئلا أشغلها أحتفل بها، فقد انصرفت عنه وكأني لست مع الاثنين، ولذلك سبب، يومها لم أخرج من المدينة وكنت جالساً بعد عصر في دكان الخياط عبد الكريم الجاوي وأقبل أسد الله فاحتفيت به وبقى واقفاً يتكلم ليقول: كيف رضى رشيد رضا والبقية من السلفيين أن يصلوا وراء الشيعي محمد حسين كاشف الغطا، قلت: كما صلى الأباضى إبراهيم اطيفش وسليمان باشا الباروني، كما صلى الحشوى وما أكثرهم كلهم كانوا المسلمين أسقطوا الخلاف فأتلفوا وراء أمام واحد فقد أحبوا أن يكونوا لوحدة الإسلام وحدة المسلمين، نذيراً إلى قومك الأوربيين الذي ما صنعوا وعد بلفور وما مزقوا تركة العثمانين بمعاهدة سايكس بيكو وماأكثر ما ظلموا، هذا النذير من أول كلمة قالها كاشف الغطاء في ليلة المعراج في المسجد الأقصى قال الكلمة التي عشقتها ومازلت أرددها يسمعها المؤتمرون من مذاهب شتى، قال «إن كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة هما دعامتا الإسلام» صلى بهم، فهذا الإمام الشيعي قارب حين كان الحوار يجري بينه وبين الشيخ أحمد شاكر، ابن الشيخ محمد شاكر أخو الشيخ محمود شاكر، كان حوار التقارب والتقريب، وليس فيه حرارة الابتعاد أو شعوبية الاعتقاد، قلت له أعني أسد الله. إنهم في المؤتمر الإسلامي يحاربون عن الكلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» قد أسقطوا الخلاف عما يعتقدون في الرجال، فلم يكن في المؤتمر، الذي رأسه أمين الحسيني، حينذاك شيعي أباضى سلفى حشوى، كلهم «لا إله إلا الله محمد رسول الله». فانفتل كاسفاً، وأخذت على نفسي ألا أكون معه، وهنا أترحم بكل التقدير على الشيخ المفتي محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف جده إمام السلفيين شيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب لأنه قد


□ حسين سراج


□ محمد نصيف


□ امين الحسيني

أبعده بعد أن عر ف ما يستأهل الإبعاد.

الحلوه حلوه حتى في الهند

في لاهور، انشرح صدري بعد غم من الغربة، ومن لاهور إلى دلهي نزلنا عند مضيفنا السلفى من أهل الحديث الشيخ محمد صاحب المجلة «أخبار محمد» ودعى الشيخ محمود شويل ليصلي الجمعة بأهل الحديث، فأكبروه، وفي دلهي ضاق صدري من الفرقة التي رأيتها بين مسجد ومسجد والتي أسمعها.. أهل حديث.. حنفى دوبندي.. حنفى بريلي.. شيعي.. قادياني.. هندوكي.. مسلم.. مهراجاً.. نواب، حاكم الإقليم الهندوكي مهراجاً وحاكم الإقليم المسلم نواب.

ومن دلهي إلى سهرنبور، وفي المحطة حيث نركب القطار وقف الشيخ محمود يشتري الحلوى، فالشيخ كان يحب الحلوى، فبعد عودتنا جرى بينه وبين الشيخ صالح بن الفضيل التونسي حوار مكتوب عن الحلوى، تؤكل قبل الغداء أم بعد الغداء، حتى أصبحت الحلوى مادة من مواد الفقه!

قصة محمود شويل مع السيخ

وتقدمت أركب العربة وقد وقف على الباب أحد السيخ، طردني عن العربة فأوجعني ورأى ذلك الشيخ محمود وكان رجلاً طوالاً يحمل غدارة في عكازه فسلها تلمع في يده وصرخ «باتان» يعني أنا خرساني أفغاني فإذا كل من في العربة من السيخ الذين أحتكروها ينسلون منها واحداً بعد واحد خوفاً من هذا الباتان، وأصبحت العربة فارغة ليس فيها إلا محمود شويل ورفيقه.

والي لكنو الإسلام فيها قوي على الأخص في لكنو القديمة ونزلنا ضيفين على شيخنا تقي الدين الهلالي المغربي لأنه كان صهراً لمحمود شويل فزوجه خالها محمود شويل، أما أبوها فإسماعيل الخطيب أحمدي من عزوتنا سالف أهل المطيعة، وكان تقي الدين أستاذنا معلماً في ندوة العلماء.

من لكنو إلى كلكتا

ولعل له مشيخة على الشيخ أبي الحسن الندوي، ولم تمض أيام ثلاثة، حتى أعدت ندوة العلماء حفلاً تستقبل فيه رئيس المؤتمر الإسلامي الرئيس أمين الحسيني ووكيله محمد علي باشا علوبة، من أعيان الأحرار الدستوريين بل ومن أعيان أسيوط، كان يمثل مصر لا يسأل عن موقف القصر كما عبد الرحمن باشا عزام، فقد كان القصر ضد المؤتمر وكان رئيس الوزراء حينـذاك أحد عظماء مصر إسماعيل باشا صدقي، وتكلم الحسيني وتكلم علوبة وأقبلت أسلم عليهما.

ومن لكنو إلى كلكتا وفي كلكتا ذقت أطيب الآكال، وكنا نعرف السوق التجارية صبرنا على طعام واحد، شباتي ودال» ثلاثة أشهر لا أكل إلا سد الرمق، لقد تمنى بنو إسرائيل العدس وماإليه وعلى خلاف ماتمنوا، تمنيت المن والسلوى، والدليل على السوق التجاري كان ابن الشيخ محمود شويل عبد الأحد، ضاق به العيش مع أبيه في المدينة فرحل إلى الهند وقد أصبحت الهندلديه وكأنه قاموس معالمها، أخذني إلى السوق التجاري «سوبر ماركت» فوجـدت الأجبان والزبد والعيش الخمير من كل نوع والفواكه والزيتون والبصل وكل ما اشتهيت واشتريت ونعمت بغداء وعشاء حافل، لامن حيث الكثرة ولكن من حيث الرغبة. .

قصة إسلام الهندوك

وفي كلكتا، ذهبنا إلى المسجد الكبير زائرين لذلك المديني أبو بكر أبو النور، أحد المؤذنين في المسجد النبوي له صوت رخيم هامة وقامة جلسنا ولم نكد حتى أقبل المنبوذون من الهنادك واحداً بعد الآخر يعلنون إسلامهم على يد أبي النور، فهو لم يكن فقيهاً ولا محدثاً وإنما هو مؤذن وأصبح إماماً، وكان يلقنهم الشهادتين وأركان الإسلام وأركان الإيمان حتى إنه لم يفرق بين القدر، أحد أركان الإيمان وبين القدر بسكون الدال، أي «المقدار» يقول وأن تؤمن بالقدر خيره وشره، لا يفتح الدال وإنما يسكنها، أسلم أكثر من عشرة ورأيت الشيخ وقد دمعت عيناه ترك حدة المزاج والغضب وتلطف بأبي النور يعلمه الفرق بين القَدَر والقدْر.

وفي اليوم الثاني زرنا أبو الكلام أزاد الرجل الثاني بعد غاندي في رئاسة المؤتمر «الكونجرس» وكأنه النديد والزميل لجواهر لال نهرو، وأخذ يتكلم بالفصحى بلغة مكية وجرس مديني، ولعله رأى تعجبنا من لهجته فقال: لقد ولدت في الحجاز ونشأت بين المدينة ومكة في الزقاق وراء مطبعة الحكومة، من أقاربي بيت صادق، وشرح مالم أحفظ حينذاك، لهذا أنشر ترجمة له تلقيتها من أهله ههنا، إنهن الأمهات والخالات والعمات والبنات، نساء يقربن الأباعد، أنشر ترجمته مختصرة أزيد عليها أن أقرباءه هنا بيت صادق والفارسي والفاسي والمكي ومحمد قدس واللواء يوسف فاضل، وقبل أن أنشر الترجمة أذكر أن الدكتورة نجمة زارتني في بيتي بصحبة الصديق حسين عبد الله سراج طلبت مساعدتي حين أقدمها إلى صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز، فكتبت تقريراً علمت أنه نفع يعينها، كما علمت أن سمو الأمير سلمان قد استجاب لعون الإخوة المسلمين في الهند، لقاء ما أحسنوا وقد شرحت ذلك في التقرير، وقبل الترجمة أذكر ملحة، في طريقنا إلى كلكتا نزلنا على أحد النواب ضيوفاً واسمه مزمل الله خان، احتفل بنا وقبل أن ندخل عليه رأينا الفجل في البستان فطلبناه نأكله وكأننا من ذوات الضرع، ودخلنا عليه استقبلنا وقال بلهجة أهل المدينة الأوائل الذين يسكنون داخل السور قال: بكرة إيش تبغوا تفطروا؟ فول مدمس.. مطبق.. معصوب.. شكشوكة، والغذاء مختوم بامية والآندي والامشور ؟ وعجبت كل العجب كيف اتقن اللهجة وكيف عنده هذا المطبخ وسألته هل عشت في المدينة المنورة قال: لقد عشت المدينة هنا كان عندي «سيدي سعد الدين براده» علمني الكلام وكل الأكال، . يرحم الله سعد الدين براده هو ابن عبد الجليل براده عين من أعيان المدينة قدما وسبقا وعلماً وجاهاً، فقد كانت هؤلاء الثلاثة عبد الجليل برادة وإبراهيم اسكوبي وأنور عشقي، أعياناً أصحاب بيان لم يعتسفوا ولم يُعتسفوا يرحمهم الله.

وإليكم ترجمة أبو الكلام ازاد..

بسم الله الرحمن الرحيم

والده هو الحاج المولوي خير الدين، الأفغاني الأصل، وكان يقيم في بلدة كشمير من بلاد الهند. حج هذا الشيخ عام ١٢٨٠هـ وزار المدينة المنورة والقدس ثم رجع لبلاده. وفي العام التالي ١٢٨١هـ قدم للحج مرة أخرى بنية الزواج والاقامة عند بيت الله الحرام.

- تزوج فتاة من المدينة تدعى «زينب» كانت مع أخيها «محمد هاشم» من المجاورين لقبر رسول الله ﷺ وكانت حالتهم المادية بسيطة وتعيش مع أخيها وزوجته وولديه. محمد سعيد ومحمد شعيع.

ثم أقنعهم بالذهاب معه إلى مكة ليعيشوا معاً قرب المسجد الحرام، حيث نزلوا في محلة الشامية في قاعة الشفا.

ـ استمرت بهم الحال لفترة من الوقت: المولوي يسافر للهند لتخليص أعماله ويأتي ببعض البضائع في الموسم ليعرضها محمد هاشم الذي كان ملازماً لبيت الله الحرام. وأول ما بدأ بهم الأمر بمجامر السح «الكتل في أعلى السبح» ثم فتح الله عليهم وأصبح لهم دكان لتجارة البز والحرير.

ـ في عام ١٢٩٥هـ توفرت لهم نقدية وفكروا في شراء مسكن فاشتروا أرضاً في محلة جياد خلف مطبعة الحكومة العثمانية في الشارع الموصل إلى مسيل سيل المصافى والموصل إلى قلعة جياد.

ـ في شهر ربيع الأول ١٣٠٢هـ طلب المولوى من الحكومة العثمانية التجنس فتم له ذلك وأصبح من التابعين للحكومة والدولة العثمانية.

ـ رزق المولوي في هذه الفترة بثلاث بنات في حين أنجب محمد هاشم ابنه الثالث محمد مكي. وكان الاتفاق أن يتزوج كل واحد من أولاد محمد هاشم إحدى بنات عمتهم الثلاثة.

ـ في سنة ١٣٠٤ رزق المولوي بمولود ذكر سماه «أبو الكلام أزاد» ـ له اسم آخر غير لقب أبو الكلام ـ وهو الذي ترأس المعارف في الحكومة الهندية. وتوفي سنة ١٣٧٤هـ في بومباي وقد غادر مكة وعمره حوالي سنة ونصف إلى الهند ثم تلقى تعليمه في الأزهر.

ـ في سنة ١٣٠٥هـ غادر المولوي الحجاز بعد خلاف مع صهره وأخذ معه عائلته وبناته ولذلك لحق به «محمد سعيد بن محمد هاشم» ليتزوج أخت أبو الكلام. وهذا هو جد الدكتوره نجمة أكبر هبة الله المسئولة الآن في إحدى الوزارات الهندية. أي أن أبو الكلام ـ يرحمه الله ـ هو خال والدها.

وللرحلة بقية عن رانقون وبومباي وعن الرحلة الثانية وعن الدكتور ذاكر حسين وجامعة على قر.

ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة
والذكريات كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

فقدت وظيفة «معلم صبيان» .. ولكن!
في الصين يأكلون الحشرات .. وفي الهند يؤلهونها!

الهند .. بقية الأولى

وطالت الرحلة، وقد كنت مأخوذاً مسيراً بالعواطف أكثر من مسيرة العقل، كأني حلقة في فلاة، أو ليست الهند قارة فيها عجائب بعضها يرتفع بك إلى فوق، وبعضها لا تلام إذا ما نظرت إليها، وكأنها التحت، فالفوق تاريخ البشر من عهد آدم إلى عهد إنسان اليوم، في عربة القطار تجد الإنسان ممثلاً فيما يلبس.. فيما يأكل.. فيما يشرب.. فيما يعتقد.

وطلع الفجر، ونحن في عربة من «بنارس» إلى كلكتا، فإذا بنا ونحن نصلي، رأيت إنساناً عرياناً لا يغطي سوأته إلا طين النهر، كأنما هو يمثل الإنسان الآبد، التحف بطين الغابة قبل أن يستأنس الفيل، وحين يستوحش من الأسد.. ، وآخر شدّ القيثارة ليغني وفتح حقيبة

يخرج منها زجاجة يصب منها قطرات يمتصها طفله، أما هو فأترع الكأس من ذلك الشراب المحرم. والثالث فتح النافذة يلقي التحية للنهر، نهر الجانج. . وهكذا في الهند. . غاندي . . وأبو الكلام، أزاد. . وجواهر لال نهرو. . وزاكر حسين . . ومحمد علي جناح، وأمثالهم من كبار الرجال كما فيها الآبد والمنبوذ. . كما فيها الأغنياء، وما أكثر الفقراء وتذكرت وأنا أملي، ما كتب في عكاظ عن ؟الملوخية الصيني) إن الكاتب لم يعلم أن الصين لا تعرف الملوخية ولو عرفتها لطبختها على مرقة الصراصير، لأن الصين ومذهبها إلى (كنفشيوس) تأكل مادب ودرج، لا تؤله الحيوان، بل تأكل كل الحيوانات وحتى الحشرات، بل يكرمون الضيف بمخ القرد، يقدمونه حياً يمسك به الضيف يفشخ رأسه بالمطرقة يلعق المخ بالملعقة، فلا نستبعد أن يطبخ الملوخية على مرقة الصراصير، بينما الهند البوذية تؤله الحيوان ليس أول الحيوان البقرة، وليس آخر الحيوان الخنفساء، فلو رأوك تقتل عقرباً لقاتلوك، بل لربما قتلوك. . هنا خطورة المعتقدات، يقتلني من أجل عقرب أو لست إنساناً حياً. . فأين احترام الحياة في هذه المذابح بين الإنسان والإنسان وفي هذه العبادة لسائر الحيوان.

وفي «بنارس» قبل أن نرحل، كنا ضيوفاً على الأستاذ الهندي المستعرب، فقد كان ينطق بالعربية كأفصح ما يكون، لديه مناسج. . لقبه الحريري، لأنه ينسج الحرير يطرزه بأسلاك الفضة والذهب، تلبسه الغواني باسم الساري، فما لبسته غانية إلا وتغنى بها شاعر.

وحدثنا عن (عزيز تونس) عبد العزيز الثعالبي الذي حضنته مصر وعذبه الاستعمار، قال: زارنا الثعالبي هنا وكان بصحبة الشيخ محمد، صاحب أخبار محمدي من أهل الحديث، وذهبنا نحن الثلاثة حتى إذا وقف الثعالبي ينظر إلى أثر قديم نحتت عليه، وهو من الخشب، صور تمثل علاقة الذكر بالأنثى على صور شتى فقال الثعالبي لضيفه، وأنا أسمع: ما هذا قال الشيخ محمد: (إنهم يعلمون المرأة كيف تزني بزوجها).

عزت عليه اللغة العربية فلم يعبر عن ذلك بما هو من شعائر البوذية، ولم يقل إنهم يصورون علاقة الذكر بالأنثى. . ، ووصلنا إلى كلكتا ومنها إلى «رانجون».

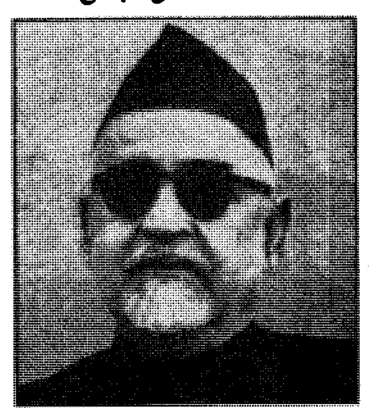
رانجـون

وفي اليوم السابع عشر من شهر شعبان سنة ١٣٥٢هـ ركبنا الباخرة والى رانجون، ولماذا حفظت هذا التاريخ ولم أحفظ غيره؟! ذلك لأني أردت أن نعود من كلكتا أي من الهند كلها، نصوم رمضان في بلدنا، فلقد كنت شديد الرغبة، غير أن رفيقي محمود شويل أصر على عزمه نذهب إلى رانجون، نصوم رمضان هناك. ووصلنا ترسو الباخرة وإذا مضيفنا

الحاج داود آتياً يستقبلنا لأن الشيخ قد كتب إليه من قبل، ففي تلك الأيام الخالية، أي قبل ٥٦ عاماً كان البريد سريعاً في امبراطورية الهند، هل هو التنظيم من الحاكم؟ أم هو الانتظام من المحكومين؟



محمد على جناح



ذاكر حسين



نهرو

ونـزلنـا ضيفـين في «بنقلة» أي فيلا أو هي شاليه، نسكنها لوحدنا، وطباخنا فيها، كل شيء كامل، وأكمل ما في ذلك بشاشة المضيف، فنحن من شعب «لاقيني ولا تغـديني». وانتهى «الدال» و «الشباتي» ولكنا غرقنا في القـرنبيط «الـزهرة» فلأول مرة رأيت القرنبيط، فما كنا نعـرفـه في المـدينـة، كأنما الكرنب أغنانا عنه، غير أن الكرنب في المدينة أوراق، ليس هو اللفاف أو والملفوف كما هو الآن. وقلت لرفيقي: «نحن على نهر الايروادي وعـلى ساحـل المحيط، فلنـطلب السمـك.. كل يوم دجـاج، فصعب أن نصـبر على طعـام واحـد». وجاء السمـك ليرجع العدس، فقد اشتهينا الرز بالعدس، وجـالب الشهوة هو السمك، ودخلت المطبخ لأصلح الـرز والعدس، فطباخنا لا يعرف طبخه، ومن حسن المصادفة أن كانت السماء غائمة فأمطرت هتونا، وبينما نحن نأكـل الرز والعدس والسمك تذكرنا المهاريس، فأكثر من مهراس تقع في وسط جبل أحد، نخرج إليها، نأكـل الـرز والعدس نطبخه بماء المطر وقد امتلأت به المهـاريس، يحيطنـا أحد بظل ظليل والماء في المهراس نظيف نظيف. شبم لأنه ذوب البرد. ولا يفوتني أن أضع معلومـة عن المهـاريس فالكثـيرون من أهـل الأمصار العرب لا يعرفون المهراس والقتيل الذي قتل بجانبه، فإذا ما قرأوا هذين البيتين لمولى بني العباس سديف شاعر ثورتهم القاتل لبني أمية بسيف الكلمة قبل سيف الزند، فقد أنشد أمام السفاح، وما أكثر ما أنشد يحرض على بني أمية قال:

اذكـروا مصـرع الحسـين وزيـداً
وقتـيـلاً بجانـب المـهـراس

والإمـام الـذي بحـرّان أمسـى
رهـن قبـرٍ فـي غربـةٍ وتـنـاسـي

فالحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما، وزيد هو ابن علي زين العابدين إمام الزيدية صلبه هشام بن عبد الملك، والقتيل بجانب المهراس هو عم بني العباس شهيد أحد، حمزة بن عبد المطلب، وكثير لا يعرفون المهراس وهذا القتيل. أما الإمام بحران فهو الإمام إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس صاحب البيعة، فلو عاش لكان قبل السفاح، فهو أخوه وأخو المنصور.

وهلَّ رمضان فجزعت أن أصوم في غير بلدي، وها أنا قد جاوزت الثمانين لم أصم شهر رمضان في غير مدينتي إلا مرات ثلاثاً. في رانجون، في الخرج، في مصر:

وأخذ الشيخ محمود يصلي التراويح، يختم القرآن في ست ليال، فلو هذا الرجل حبس لسانه لصان إنسانه!

وهل العيد، وفي اليوم الثالث من شهر شوال، وقد أدينا صلاة الفجر في المسجد حتى إذا سلم يتوسد الأرض عملاً بسنة يرتاح لها ابن حزم رحمه الله، ولما جلس أقبل هندي يقول: «أنا كنت وراءكم من دلهي، أصل بلداً أجدكم خرجتم، والآن وصلت فوجدتكم» فقال الشيخ: «أهلاً وسهلاً». وتكلم هذا الهندي من أهل الحديث طالب علم يقول: «حين صليت بنا في دلهي قرأت ـ ولا الضالين ـ فأخطأت هي ـ ولا الظالين ـ خفف الضاد وما ثقلت الظاء فكأنها حرف جديد، فإذا الشيخ محمود يغضب، يرفع رجله يضربه في صدره، يقول «ترتكب هذه الحماقة من أجل هذه الحماقة، تريد أن تعلمني لغتي؟» وحزنت لاهانة طالب علم، أسرعت أسترضيه ولكن محمود شويل هو هكذا.

وفي اليوم السادس من شوال رحلنا إلى كلكتا وإلى بومباي وإلى جدة، ومن الذكريات في رانجون أنا أكلنا برتقالاً استرالياً وعلى المائدة نفسها عنب أسبانيا، فاكهة الشتاء في جنوب خط الاستواء وفاكهة الصيف في شمال خط الاستواء.

وأغرب من ذلك أننا نقرأ جريدة البلاد السعودية ونحن في رانجون في اليوم الذي يقرؤها أهل المدينة، لأنها تطبع بعد أن يسافر البريد، فلا ترسل إلا بعد أسبوع، بينما هي تصل إلى الشرق الأقصى في اليوم نفسه.

وفي رانجون، وليست من الهند إنما هي من بورما أستعمرها الإنجليز فاتسعت الهجرة لتجار الهند مسلمين وغير مسلمين ويظهر أن الطائرات كوسيلة للسفر مازالت حديثة في بورما، فأرادوا الإعلان عنها والترغيب في ركوبها يدعون سكان رانجون إلى المطار يركبون الـطائـرة بأجـرة قد لا تبلغ عشر روبيات تدور الـطائرة بهم حول المدينة في بضع دقائق يشاهدون معالمها وتفضل مضيفنا نركب السيارة وهو يسوقها حتى وصلنا المطار وجموع من البورمانيين الشباب هم الكثرة والتفتنا لنرى شاباً في ميعة الصبا يلبس بنطلوناً أبيض وقميصاً أخضر من الحرير نقشت عليه نقط سوداء زادت القميص جمالاً فهكذا التنافر. . البياض والخضرة والسواد تكاملت لتكون الجمال. . فقد اختلطت هذه الألوان تبرز بلون واحد كان يحمل آلة التصوير ونزل الركاب من الطائرة فإذا فتاة تلبس ثوباً أخضر كأنه من قماش. . فستان الفتاة وقميص الفتى بل اللون واحد والجمال واحد. . أخذ صورتها لعله أخوها وكأنه توأمها أغلب الظن، إنها مسلمة وإنها هندية فليس عليها سحنة المغول البورمانيين ولا على جبهتها النقطة الحمراء شعار الهندوكية

ورجعنا إلى بيتنا نصلي المغرب نتناول العشاء نصلي العشاء يصلي الشيخ محمود راتبه حتى إذا أوتر اضجع على سريره يتحدث وأسمع نضحك ليسمع وكان كل الكلام عن الجميلة والجمال، وغرقنا في الضحك، نضحك على أنفسنا من بؤس الحرمان أصبح في لحظة وجوداً فلما انقضت اللحظة أصبح الوجود عدماً ولقد خفت من كثرة الضحك أن نصاب بالهستيريا قلت للشيخ كفى أخشى أن نجن دعنا في جنة الذكرى لئلا نصاب بجنون الحرمان.

البورمانيون بوذيون تمثال بوذا من الذهب والقبة من الذهب ولكن الإنسان قد ذهبت به ضلالة الوثنية.

● بومبـــاي:

ورجعنا عبر كلكتا نركب القطار ليلة ونهاراً ونحن في سجن العربة وصلنا إلى بومباي ونزلنا في بيت شرف الدين أخوال الدكتور عبد الله نصيف هم من أهل الحديث وفي اليوم الثاني ذهبوا بنا نشاهد «السيرك» اسمه «سيرك هوفمان» جرمانيا ازدحم المكان. . الأسود والنمور. . والثعابين. . وحوش استؤنست لعبة الإنسان بالحيوان لم يستهولني لعبة الإنسان بالأسد وإنـما الـذي أستهول ثلاثة من كلاب البحر كل واحد وقف في مكان قذفوا بينهم الكرة يلتقطها كلب. . يقذفها إلى فوق يلتقطها كلب. . يقذفها فوق يلتقطها ثالث لم تسقط إلى الأرض عجبت من هذا المنظر ولكن ما أسرع أن تركته لأني رأيت بنتاً فارسية من الفارسيين

الذين لجأوا إلى الهند يوم مزق الإسلام ملك كسرى ومازالوا على مذهبهم المانوي لم يبهرني جمالها ولا الساري المذهب تلبسه وإنما الشبه وكأنها المحترقة المؤتلفة بنت العقيق جسدت هذه البنت صورة تلك البنت فمالي ومال كلاب البحر فأخذت أنظر إلى تلك الريم.

ريم رمتني بسهمي لحظها وفرت
درع اصطباري فأشواقي لها وُفرَت

وكتمت أنفاسي حين عدت إلى البيت أختم الصدر على نفيسي فلا أبوح خشية أن أنوح.

وأردنا السفر ولم نجد مكاناً في الباخرة، لأن شوال شهر حج وإن لم يكن من الأشهر الحرم ولم نجد الحاج محمد علي زينل مؤسس الفلاح فلجأنا إلى الشيخ عبد الرحمن القصيبي والد الدكتور غازي القصيبي فأستقبلنا هاشا باشا يتلفن إلى الشركة يبعث رسولاً يأتنا بتذكرة الركوب . . واتصلت به فكلما وصل المدينة أزوره يتفضل بزيارتي أتحدث إليه يحدثني وكان ينزل في باب المجيدي حيث كنت أسكن أخيراً فقد اشترى البيت الأبيض أمام البيت الكبير للسيد عبد الجليل مدني فهذا البيت الأبيض كان ملكاً للطبيب التركي أمين أفندي باعه الورثة لعبد الرحمن القصيبي.

جـــدة

وصلت جدة ونزلت من الباخرة أفرح باثنين بهذا الأفريقي الأسود لم أره في الهند كأنه علامة من علامات بلدي كما فرحت بحمار النهق لأنه من العلامات أما رائحة السمك فقد شبعنا منه في رانجون ولا تتنكروا للحمار فقد كان ياما كان مركب الكثيرين منا حيث لا سيارات ولا بسكليتات ولئن وجد البوسكليت آلة ركوب فآباؤنا في المدينة يمنعوننا منه لأنه «حصان إبليس». ومادروا أنا سنركب صنع الأبالسة. . أبالسة العلم والصناعة وكان ياماكان.

● المدينة

وصلت المدينة فرحاً لم أجد وظيفة معلم الصبيان في المدرسة لأن الإجازة طالت وكانت تلك نعمة لأني وجدتني معلم صبيان في دار الأيتام. ويجب ألا أنسى أني رجعت أحمل ثروة ـ ٣٥٠٠ روبية ـ كما كان يحملها محمود شويل. وكان يحمل قطعة قماش كشميري من النوع الممتاز لم يلبسه وإنما أهداه لصديقنا السيد عثمان حافظ، أما أنا فرجعت بساري وردي أهديته لمن تستأهله.

طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (٣٢)

ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة
والذكريات كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

كذبة إسرائيل الكبرى:
الحرب الحضـارية ضد العرب!

والرحلة الثانية تمت في السبعينات، لم تكن برغبة مني وإنما كانت استجابة لدعوة وجهتها إلى وزارة الخارجية في حكومة الهند أبان رئاسة الدكتور ذاكر حسين لجمهورية الهند.

وركبت الطائرة، عن طريق البحرين ثم ركبتها إلى بومباي، وكأن الناس في بومباي غير الناس في الخمسينات، فما أسرع عوادي التغيير كأنما الإنسان لا يصانع بيئته ولا جيله لأنه مسخر لهذا التغيير المتلاحق حدثاً بعد حدث. . كماليات لا تكاد تدخل البيت حتى تصبح ضروريات، ضاعت القناعة وضاعت السكينة، فأصبح الإنسان في دوامة تدور به ليدور فيها.

واستقبلني المضيف مندوب وزارة الخارجية. . والي دلهي، أنزلوني في الفندق الفخم

الذي استجد حسب مقتضيات الدولة الحديثة التي كانت امبراطورية جوهرة التاج البريطاني فأصبحت وليست هي الامبراطورية . . انشطر الشعب شطرين . . الهند والباكستان ، كأنما الأرض نكبها بنوها فبكت بنيها ، لا ليضحكوا وإنما ليكثر البكاء لعله يكون حافزاً إلى وحدة الأرض وإن اختلفت الطوائف . لكنها الهند بكل مافيها وبكل من فيها مازالت الأمة لشعب حمدنا له مواقفه إحساناً يوم كنا في حاجة للإحسان ، وتأييداً لسياسة العرب بجواهر لال نهرو وكرشنامنون ، أيام الغزو الثلاثي ، حتى أن الهند عابت حفيد السهر وردي يوم كان نقيضاً لموقف كرشنامنون ، إنه وارث الصوفية عن جده السهر وردي الذي قتله صلاح الدين ، فهل كان الحفيد يثأر من مصر يأخذ بثأر جده .

وفي اليوم الثاني صحبني مندوب الخارجية لمقابلة الدكتور ذاكر حسين رئيس الجمهورية ، في تلك «السراية» القصر الكبير المكان للمندوب السامي الامبراطور داخل الهند وممثل الامبراطورية التي كان عرشها في لندن ، وقابلني الدكتور ذاكر حسين ولم أكن حديث معرفة به ، بل عرفته في زيارتي الأولى للهند حين التقيت به في (الجامعة الملية) تأسست في أرض المسلمون فيها قلة وإن تكاثروا والهندوك فيها كثرة وإن تنافروا ، كان الدكتور ذاكر حسين الزعيم يسانده الدكتور عبد العليم يستند إلى رجال كبار من المسلمين ، فإذا الجامعة الملية في يومها الأول الخصمان جواهر لال نهرو ومحمد علي جناح ، أعني زعيم الهنادك وزعيم الباكستان ، وكانت لحظة أكبرت الهند كلها ذاكر حسين ، حمدنا له ذلك ، لأن غربة الإسلام تظاهرت لتكون هي الحقيقة على أرض الهند ، ولكن هذه الحقيقة أعلنت نفسها للجامعات (على قر) (ندوة العلماء) (بالجامعة العثمانية في حيدر أباد) ولا تنسوا المسجد ولا تنسوا تاج محل فلئن كان قبرا لا يقر الإسلام هذا البناء على قبر ، وإنما جاء بتقرير الحضارة أصبح من عجائب الدنيا لا تحصر في سبع ، وإنما هي وبالإسلام قد كانت أكثر من سبع وبالعرب الأولين كانت الأساس لكل خامسة لكل سابعة .

وجلست لدى الدكتور ذاكر حسين أستعد لتلقي الحديث ولإدارة الحوار مع الحديث ، وبعد التحية ولقاء البشاشة ، قال المفكر العظيم ذاكر حسين (نحن في الهند نحاول ألا يكون بيننا على هذه الأرض حاكم أو محكوم) قلت إن ذلك لن يتحقق بالافلاطونيات ولا بالطوبى ولا بما هو أكمل ، فالإنسان لن يكون متقدماً راكضاً إلى الإمام إلا بالمتناقضات إلا بسلطان حاكم وطاعة محكوم ، وإسمح لي إن الهند بهذه الطوائف وبكل هذه اللغات بعيد أن تكون كما تريد ، وقد كان يرحمه الله يصدر حكمه وكأنه يشير إلى واقع العرب وإلى واقع المسلمين ، وابتسم يقول (سأسعى جهدي أستمد من الله النجاح) ، وانتهت الزيارة وكأني لم أكن في هذا القصر الذي حين مررت عليه في الرحلة الأولى كنت وقد تقمصتني الرهبة أو امتلكني

الرعب، أما وقد دخلته اليوم فلا رهبة ولا رعب لأن ساكنه هو الدكتور ذاكر حسين، لا اللورد وما أكثر اللوردات. . حين كانوا، ولعلهم اليوم لم يبلغوا الكثرة تلك.

وزرت أكرا لأرى تاج محل، لن أكتب عنه الآن فلقد كتبت في جريدة الشرق الأوسط عنه أضمها للذكريات غير أني أقول هل المجد للامبراطور العاشق وللحبيبة ممتاز محل، أم هو مجد الفنان المهندس والمتفنون العمال . . عجيب أن يذكر الامبراطور ولا يذكر المهندس مع أن قيمة الحضارة صنعها المهندس، وهكذا لا نعرف المهندسين الذين شادوا آثار مصر. . حدائق بابل أو الذين نحتوا الجبل في الحجر في البتراء، كأنما هؤلاء المهندسون قد سبق بهم العقوق وكان سنمار. . جزى أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما جوزى سنمار. وحتى مسجد السلطان أحمد، بقي اسم السلطان وذاب اسم المهندس.

وإلي عليكره الجامع المسلم ومن حسن المصادفة أن يكون مديرها حينذاك الدكتور عبد العليم زميل ذاكر حسين في الجامعة الملية، هو القران بين الاثنين ذاكر رئيس الجمهورية وعبد العليم رئيس الجامعة علي قره، وأثاروني يروون فكرة عن الدكتور عبد العليم فقد قال (ليس بين الهند والعرب علاقة قبل الإسلام، وقلت لهم: إن أراد اعتناق الدين فذلك صحيح، أما إن نفي العلاقة بين الإنسان والإنسان تاجراً ومستورداً ومصدراً ومكبراً فذلك غير صحيح جزيرة العرب والهند جارتان ان فصلهما المحيط فإنهما يتواصلان ويتصلان عن طريق المضيق عن طريق البلوجستان وفارس وخرسان. بل وعن طريق السفن الشراعية، إن العرب عرفوا الهند وعرفتهم قارة الهند. . تجارة التوابل عن طريق العرب ثم إن العرب سموا أعظم بناتهن «هند» فكم هن اللاتي كانت أسماؤهن هند، والسيف المهند. . الهندواني. . الهندية القضب، من شعر عنترة، والصليب المعقوف كان من تراث الهند والأحقاف وما إليها. . وصل إلى الجرمانيين عن طريق العر ب، فليس هو شعار هتلر وإنما وجدناه دفيناً في جزيرة العرب، أي إنه قبل الصليب الذي يؤلهه نصارى اليوم.

ومن عليكره إلى مدارس وميسور وحيدر أباد وقد تجولت رأيت معالم شتى وناساً هادئين، وعلى الغداء أتوا بالعنب قالوا: إنه من أعواد عنب الطائف جلبناه زرعناه وهذا ثمرها وذقت العنب ولكنه تأقلم وما أشد تأقلم النبات بل ما أسرعه، العنب في الهند أحلاه عنب بشاور بناتي بلا بذر كأنه العنب الشريوفي في الطائف وفي المدينة المنورة فعندنا عنبان الحجازي حبته كبيرة والشريوفي أشد بياضاً حبته صغيرة، وعدت إلى بلدي.

وكان الأمر بين الهند وباكستان صعباً على حافة الحرب وجرى الحديث عن ذلك فقلت وقد كتبت بهذا تقريراً إلى من هو أولى به ليعرف ما جرى في هذه الرحلة الذي استأذنته لكي أسافر إليها، قلت للموظفين الكبار في وزارة الخارجية: أنا صديق الهند من فجر التاريخ إلى عصرنا الحاضر فلن ننسى للهند أنها لم تعترف بدولة إسرائيل، أنا صديق الهند نعم لا أحب لأخي الباكستاني أن يشن حرباً على الصديق ولكن حين أرى الصديق يرفع يده على أخي فلن أكون إلا مع أخي أرد عنه يد الصديق.

ولئن شكرنا للهند موقفها لم تعترف بإسرائيل حينذاك يقودها جواهر لآل نهرو، فإني قد كتبت موضوعاً لينشر في جريدة البلاد السعودية وقد نشر بعد لأي والتواء، لأنه مقال أعجب رئيس التحرير، يريده له، كما هي السالفات من ذلك، حزمت أمري أصر على نشره، خلاصته أن الأكثرية التي صدرت عنها قرارات هيئة الأمم المتحدة بالاعتراف بدولة اسمها فلسطين الأرض المباركة كانوا من الدول الحديثة التي تدور في فلك جورج مارشال، أما الهند واليونان وأسبانيا والصين فدول شعوبها حضارية قديمة العهد والصلة بحضارة العرب فأبت إلا أن تحترم حضارة العرب من حيث احترامها لحضارتها فرفضت التصويت مع القرار تعترف باليهود يشكلون دولة في فلسطين لأنهم يعرفون لم يصنعوا حضارة، فكذبة كبرى أن يقال إن إسرائيل تشن حرباً حضارية على حضارة العرب، هذه الدول الحضارية رفضت إهانة العرب، ونشر المقال فإذا محمد التابعي أحد رؤساء التحرير في صحافة مصر يقول لمحمد سرور الصبان وأمام رشدي ملانياز، لقد قرأت هذا المقال وعجبت كيف يسبقنا كاتبكم السعودي بهذه الفكرة قسمت هيئة الأمم إلى أمم حديثة وأمم قديمة حضارية، وبخل علي بها محمد سرور الصبان، لقد فرحت بهذا الثناء من التابعي، وشكرت رشدي ملا ولما أكفر بعد بمحمد سرور الصبان، فقد بخل علي بعد بسؤال جمال عبد الناصر عني يوم ألقيت الخطاب أمام الملك سعود وأمامه أقامه السعوديون المقيمون في القاهرة بأمر من الملك سعود عن طريق محمد سرور الصبان، وسأفصل ذلك في ذكريات بعد عن مكة عن الصحافة عن الخرج عن مصر عما هو بعد.

ذاكر حسين مرة أخرى

وقدم الدكتور ذاكر حسين زائراً ترحب به الدولة ترحيباً يليق به من اللياقة نحو الهند، ووصل الدكتور ذاكر إلى جدة فأقام له مسلمو الهند السعوديون في طليعتهم الشيخ عبد الرحمن مبهر ومن إليه حفلاً تكريمياً دعيت إليه لألقي كلمة الترحيب، أقاموا الحفل في فندق قصر الكندرة، وألقيت الخطاب أذكر قيم الدكتور وقيمته وماصنع للهند، حتى إذا إنتهى

الحفل أقبل علي يأخذ بيدي يقول لي (كيف استطعت أن تقول هذا الهراء؟ قلت: هو الهراء لو كان عني أو لغيرك ولكنه الثمين والحق حين كان بك ولك)، وابتسم قال ذلك بأسلوب التواضع زينة الكبار والكبرياء.

السيد حسين أحمد والاستعمار.

وحزمت أمري بإصرار، يستجيب لي رفيق الرحلة الشيخ محمود شويل، لنزور الجامعة المسلمة (ديوبند) لأني حرصت على توطيد الصلة بعالمها الشيخ فيها كما هو أحد الأشياخ في المسجد النبوي.. ألا وهو السيد حسين أحمد المدني، فلم يلقب بالديوبندي وإنما التشريف باللقب إن كان المدني، عرفته في المدينة ساعة أن زارنا في المدرسة قبل سفري إلى الهند، كانت معرفة المواجهة والمشافهة ولكني عرفت الكثير عنه من أستاذنا السيد أحمد صقر، وليس ذلك عن حسن العلاقة بينهما، وإنما كان ذلك بما يحدثني به عن علاقة الأمير شكيب أرسلان بعلماء المسجد النبوي، فقد كان أبو غالب أمير البيان يسمع الأشياخ في حلقات الدرس فأعجبه اثنان السيد حسين أحمد وشيخ الشيوخ حمدان بن الونيس، ولعله لم يدرك عبد الحميد بن باديس، كان الأمير يثني على السيد حسين أحمد ويثني قامته الطويلة أمام حمدان ابن الونيس، ذكره في حواشيه على حاضر العالم الإسلامي الكتاب ترجمه من اللغة الإنجليزية الكاتب الكبير عجاج نوهيط، ولئن كان درزي النسب والسبب فقد كان هو والأمير شكيب يمسكان بالحسب الملم، والسبب اليعربي، ومن العجيب أن يكون النسب سبباً أو أن يكون النسب حسباً. فقد ذكر الأمير شكيب سماعه لهذا الحديث كجمرة احترق بها أو كشعاع من نور يهديه الطريق، سجل هذا الحديث (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم، كما تتداعى الأكلة على القصعة، فقالوا - يعنى الصحابة -: أمن قلة يارسول الله، فقال - وهو صاحب جوامع الكلم - لا ولكن غثاء كغثاء السيل، إنما يدركم الوهن، قالوا: وما الوهن، قال: حب الدنيا وكراهية الآخرة، أو هو قال: حب الحياة وكراهية الموت) ومن عجب ألا أسمع عن رفيقي الأمير شكيب أرسلان، أي خبر أو أي كلمة وهما من أحلاس المسجد، عبد العزيز جاويش وعبد القادر المغربي، فهل كان الأمير يحب الاطلاع أكثر منهما؟ أم هناك رواة عنهما لم أحظ بالسماع منهم؟

ووصلنا إلى ديوبند، فاستقبلنا السيد الشيخ المحدث حسين أحمد، وبرغم أنه من أهل الحديث فقد كان حنفي المذهب ولعله وإن تحنف كان يميل إلى الطحاوي ومحمد بن الحسن الشيباني، أكثر من ميله لأبي يوسف، وإن لم يبتعد عن أبي يوسف، رحم الله الجميع.

وأعد لنا عشاء وكان أرزاً وما أكثر ماأكلت من الأرز من يد الطهاة البارعين، ولكن

صدقوني إني لم أذق مثل أرز ديوبند، البياض ناصع أشد بياضاً من الأرز المزة، حبته طول الشعيرة حباته متناسقة له طعم لم يكن لأرز غيره، وسألته: من أين هذا الأرز؟ قال: من نبات سهربنور، لم أر قبله ولم أر بعده، مع أن المدينة المنورة أو مدن الحجاز كلها لا تعرف من الأرز إلا الهندي. . المزة. . الهورة . . البنوري، وإن ورد إليها في بعض الحالات الرز «التُمّن» من العراق أو بعض الأرز المهدي من الإيرانيين، وهو «العنبربو» أما المصري فما رأيته إلا بعد، وبعد الحرب العالمية الثانية طغى الأرز الأمريك على الهندي والسيامي. . أبو سيوف كأنه المزة وإن لم يبلغ شاوها، و «أبو بنت» كأنه «البنوري» وإن كان أحسن، و «أنكل بن» وكأنه الهورة وماكان الأحسن، وبعد العشاء، قال لنا قبل أن يودعنا أنتم العرب السبب في ترسيخ استعمار الانجليز للهند حين كنتم القوميين حاربتم الدولة العثمانية التي كنا نرجوها لمحاربة الاستعمار، وسكت الشيخ محمود وإن غضب وتكلمت أقول للسيد: إن امبراطوية الهند هي السبب في تمزيق الدولة العثمانية من أجل خط برلين بغداد، وهي السبب في احتلال مصر واستعمار العراق وساحل الخليج. فلولا حرص بر يطانيا على بقائها في الهند لما كان استعمارها لمصر والعراق والخليج وعدن وما إليها، لكم شكواكم من العرب ولنا شكواكنا من الهند مع أن الشكوى ينبغي أن نجتمع عليها من الانجليز، لقد حاول الانجليز ألا تحفر قناة السويس لتمنع دول أوروبا الأخرى عن الوصول إلى الهند، وحفرت القناة، فاتتها فرص الأشتراك ولم يفتها أن يشتري دزرائيلي أسهم مصر في قناة السويس لتكون رقيبة على فرنسا بل قد كانت لها السيادة على قناة السويس، وكثيرة هي الأسباب التي تسلط بها الاستعمار الإنجليزي، وما أحسن قول شوقي يرحمه الله:

وحررت الشعوب على قناها
فكيف على قناها تسترق

حررت بالرماح، فكل رمح قنا واستعمرت واسترقت من أجل القناة، يعني قناة السويس، وما جزع السيد من حواري وودعناه شاكرين.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

ترافعت في قضية بمكة فطارت الجنيهات الأربعة إلى المدينـــة

اتهمني أحدهم بأنني أشعلت الحرب العظمى

والتعلق في وطن الولادة والنشأة والصبا والحب، شديد القوة، بل وقوي الشدة، يشدني إلى البقاء فيه. لأن في ذلك الإبقاء على الغوالي، وهي القليلة ماديا والكثيرة معنوياً، فالمادة لم تركبني لأكون لبنة في جدار، وإنما هي المعاني هي التي رُكبت على النفس، تحكمني بلجام يقول لي، بل يفعل بي «إياك أن تبرح السيح والعقيق وحوش خميس» ولكنها أحوال استجدت فاستبدت، دعتني إلى أن أكون في مكة المكرمة، أسكنها وما أحلى السكن فيها وما أطيب السكينة بها، فلئن كنت مدينياً ما لكي المذهب، فإني أعترف بأن مكة بيت الله، لها الفضل

كما للمدينة ذلك الفضل، هما المكتان أبعد عن نفسي أن أفاضل بينهما، حرم الله ومسجد رسول الله، فالجلال لله عز علاه والصلاة والسلام على رسول الله.

ووصلت مكة، أحج مرة ثانية، كانت النية للحج، وكان بعض النية لدنيا أصيبها، ذلك أن صديق الوالد ثم الصديق لي، ذلك المكي الذي تمدين، حسن موسى، قال لي: الشيخ عباس قطان يذكرك بخير ولديه رغبة أن تعمل لديه سكرتيراً، وأديت الحج ولم أتصل بالشيخ عباس قطان والسبب هو أني ذهبت لزيارة الصديق حينذاك الشيخ محمد سرور الصبان أيام كان في زهو المنصب. . وبراعة الذكاء، وفي مكتب شركة الصادرات في أول القشاشية وفي اتجاه المدارس، وكأنه جزء من بيت باناجة الذي كان على المسعى، زرت محمد سرور الصبان بعد عصر يوم لا أذكره، ولم يكن هناك إلا بعض من راجعه ليرجع بنعم، محمد سرور قل أن يقول «لا» مع أني أعرف وهو يعرف أن كلمة نعم لا يطيقها إلا الرجال، أما كلمة «لا» فإنها التخلص من تبعة الكلمة «نعم» ، ولا أدري هل هو الذي طلب إبراهيم السليمان العقيل رئيس الديوان أم هو الذي طلبه، فكل ما أدريه أن الحديث بينهما عبر التلفنة كان عن عباس قطان، فاتضح لي أنهما على خلاف معه، يشتد إبراهيم السليمان وذلك أسلوبه ويسترخي عنه محمد سرور وتلك أساليبه، فلم أذهب إلى عباس قطان، فمالي أدخل معركة بين هؤلاء، فالتابع قد يناله ماتناثر من رشاش الخلاف أكثر ماينال المتبوع.

ورجعت إلى المدينة وكان ذلك في حجة العام ١٣٥٥هجرية، رجعت إلى المدينة، وإلى دار الأيتام فصحوت على مجلة الرسالة والمجلات الأخرى، ولأني أحب القراءة بالأذن أذوق جرس الكلمة الشاعرة وجدت زميلي وصديقي الأستاذ حسن إسماعيل أدعوه أن يقرأ مقالات الر افعي والزيات ودريني خشبة، وعجبت كيف أن طه حسين وصديقه الأول الزيات، كيف لا يكون كاتباً في الرسالة، وحين قرأت المساكين والسحاب الأحمر وأوراق الورد فأعجزني الرافعي أن أستشف أن أفهم لأن القراءة كانت بالبصر وحين قرأت الرافعي بالأذن كانت قراءة البصيرة، فإذا بي أرتفع بالرافعي وإن كان مصطفى لطفي المنفلوطي قد رفعني بعذوبة الجرس إلى مكان حبب إلي أسلوب الرافعي والزيات، وعقل أحمد أمين والعقاد، وترف طه حسين فيما كتب بعد أن تراجع عن أسلوب التشكيك.

كانت تلك السنون قد نمت بها حرفة الموهبة، وهبة الاحتراف ومات الر افعي برحمة الله، فكتبت مقالاً في جريدة المدينة يوم كنت لها حين كنت فيها وحين حرمت أن أكون بها، كتبت المقال رثاء للرافعي فإذا أنا أجد هذا المقال قد نشره أحمد الزيات في مجلة الرسالة، فرحت فرحاً أطربني وكأني قد نلت وسام الشرف، مقال أكتبه في جريدة المدينة ينشر في مجلة الرسالة

نقلاً عنها تلك والله فرحة وإكبار، لا أبخل على نفسي إذا ما قلت إني قد استأهلته.

وفي جمادي الأولى سنة ١٣٥٨ دعاني للإفطار حسن موسى، فول وسمن ولبن زبادي وتميس، كأنه أراد أن يدهن فمي لاتداهن مع مطلبه، قال «الشيخ حامد عبد المنان وقد عرفك في المدينة يوم زار دار الأيتام كما عرف عنك الكثير من ثنائي عليك يريدك أن تكون سكرتيراً لمشايخ الجاوة» وأبت الظروف التي لم أعد أطيقها، لا من قلة المادة وإنما من ربكة المعاني، كان الراتب ٣٥ ريالاً، لا أضيق به ولكن الترتيب الذي جرى كان فيه بعض التعذيب، فالأمر كما قال الحارث بن عباد:

لـم أكـن مـن جنـاتـهـا عـلـم الله
وإنـي بحـرهـا الـيـوم صـال

هذا البيت من قصيدة مطلعها: كل شيء مصيره للزوال: - غير ربي وصالح الأعمال

ولكنها لم تكن حرب البسوس وإنما كانت حرب «البُسوس» بضم الباء يعني القطط بلغة أهـل نجد، يجمعون كلمة «البس» على «بُسوس» لا على «بسَاس» أول ما سمعت هذا الجمع من أستاذي وشيخي صالح بن عثيمين يوم دخلنا الإذاعة، وبالمصادفة تلاقينا مع الأخ باشميل الذي كان الرقيب على ما نذيع أنا والشيخ صالح، قال له الشيخ صالح وهو يعـرفـه «ياوليدي إن كان بسـوسكم في حضرمـوت يأكلون الحشائش، فبُسوسنا يأكلون الخشاش» لأن باشميل قد أذاع حديثاً فقال «دخلت امرأة النار في هرة، لاهي تركتها تأكل من حشائش الأرض ولا هي أطعمتها» غلط لا يقول كلمة الخشاش فقال كلمة الحشائش، وتحت ضغط تلك الظروف أهدرت فيها المعاني، ركبت ناقتي السيارة وإلى مكة. . أصبحت سكرتيراً لمشايخ الجاوة، وركنت إلى الراحة، وكنت في حماية الشيخ حامد عبد المنان والكثير من مشايخ الجاوة، أنتصر على بعض الذين تلسنوا «يعني الشيخ حامد ما التقى مكاوي يصير سكرتير له جايب لنا هذا من المدينة؟!» أسمع ذلك وأقول، في المدينة أصبح عبد الرحمن مفتي الصديقي من أعيانها وزوجاً لعين أعيانها وأسعد مفتي من أعيانها وحسن موسى كذلك وغيرهم كثيرون ماقلنا لهم «إيش جابكم»؟

وانتهى ذلك بالصبر، كان المعاش خمسة جنيهات، ذهباً لم أتسلمه على هذه الصورة إلا بأشهر قليلة لأن الحرب العامة قد ثارت بعد قدومي إلى مكة بشهر ولم تأت إلا باخرة واحدة تحمل الحجاج الجاويين، فليس في وسع الشيخ حامد أن يبقى هذا المعاش فأصبح جنيهين، ٥٢ ريالاً. . / وهي لا تكفي ثم وجدت بعض الضيق أو هي المضايقة من الصديق ابن الشيخ حامد صدقة عبد المنان، فقد جاءني وهو يضحك «تعال ياأستاذ صديقك عبد الله

عريف وقد شكوتك له ولأحمد قنديل فقالوا خليه يرجع المدينة وعين الأخ أحمد قنديل بداله فقال: ثالث لا أسميه، أو عين عبد الله عريف»، قال لي صدقة ذلك فقلت «نصحوك لأنك طلبت ذلك، أبشرك سيصدر القرار بعد أيام أنتقل فيه إلى وزارة المالية، صنعه لي محمد سرور صبان وأنت حر أن تعين أحدهما». . فقال «مفاجأة تعرف ياأستاذ لا يصلح واحد منهم لنا، بعدك ماراح نعين أحد، إذا وصل الحجاج حين تنتهي الحرب يفرجها الله ولا حاجة إلى سكرتير أنا سأكون ذلك».

وصدر قرار تعييني مساعداً لرئيس قسم الأوراق خلفاً للسيد حسن كتبي ومع السيد محمد حسن فقي، ولكي تتم الذكريات فإني حين وصلت مكة في جمادي الثانية سنة ١٣٥٨هـ، صعدنا إلى الطائف وقد استأجر لي الشيخ حامد بيتاً قاعتين بمنافعها بمائة ريال من عبد العزيز بن نافع، أصبح ابنه عبد الله نافع ولدي من الرضاعة وهو الآن في جدة، نزلت مع صدقة عبد المنان وتركني أجلس في دكان مصطفى رهبيني وذهب يتسوق فإذا الشيخ محمد كاشف عرفته في المدينة لأن أخاه علي كاشف كان ضابطاً كبيراً في جيش الأشراف، رجل له وقار واحترام علاقته وثيقة بعمر فيروز والد ماجد فيروز جد هاني فيروز، وتكلم الكاشف يتلسن على طريقته المحببة وقال «أهو ايش نسوي لمحمد علي زنيل أسس مدرسة الفلاح وخلى الأولاد يتركوا صنعة الوالد، أصبحوا أفندية وطردونا من الساحة ونحن الأفندية، كان ياحبة عيني ولد النجارنجار وولد الحجار حجار وولد الطباخ طباخ . . والآن كل هؤلاء الأولاد أفندية فقال الرهبيني «يرحم الله محمد علي زينل خلانا نشوف الأدباتية» وأكلت هذه «الرزعة» من محمد كاشف يرحمه الله وقد كان ذا لسان ماترك أحداً ولكنه كان يُطاق ولا يطيق، فمرة سمعت منه بعد أن أصبحنا أصحاب، فقال (شايف العجيبة هذه «الباقر» يعني جد محمد باقر كان شيعيا يجمع كعك السطوح ناشف، وهو يعني الغائط، يسحقه يحطه في علبة مفضضة ويزور أحمد هزازي ومحمد علي لاري حين يجتمعان يطلب الشاهي، هاتوا الشاهي تذوقوا العنبر ويخرج العلبة الفضية بقدر حُق الكبريت ويأتون باشاهي ويذر كعك السطوح باعتباره عنبر ويشرب محمد لاري ويشرب أحمد هزازي هذا الشاي المعنبر بكعك السطوح، ونضحك ونترحم على كل هؤلاء حتى محمد كاشف.

أحوال ومثال

وقد وجدت رعاية من الشيخ حامد عبد المنان، لأني أجدت عملاً وأستجاد المشايخ معاملتي، طردت كثيراً من المشاكل، ولعل الظروف القاسية ساعدتني على ذلك، فانقطع الحجيج من الجاويين، واشتعلت الحرب العامة الثانية واضحكوا لهذا الشرف بهذه التهمة،

فقد توسط الشيخ حامد عبد المنان لدى وزير المالية آنذاك عبد الله بن سليمان حيث طلب قرضاً لمشايخ الجاوة، يوزع عليهم بنسب مختلفة، وقمت بتوزيع القرض تحت إشراف الشيخ، وجاء أحد المشايخ من بيت كبير فقلت له «هذا القرض ليس لك خاصاً، فابن عمك طلب أن يقسم بينك وبينه» فغضب وقال «أهو أنت اللي جبت المصيبة هذه سببت في اشعال الحرب»، وضحكت فلو كنت قد جننت لفرحت بهذه التهمة، وقلت له «يعني أنا أوحيت لهتلر وموسيليني وتشمبرلين ولافال وستالين، أن يشعلوا هذه الحرب، إذا أنا طاغية الزمان أعظم من جنكيزخان». سخرت من هذا وناديت الشيخ حامد ليصرفه بلطف وليصدر أمره إليه، فقد كان هذا المتهم لي من جماعة الزايرجي وأبو معشر الفلكي وشموس الأنوار، فهو من الذين قالوا: إن هتلر بحساب الجُمّل، يعني حساب أبو معشر هو خالد ابن الوليد.. واضحكوا من ذلك كله.. وأنشد قول المعري.

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً
تجاهلت حتى ظن أني جاهل
فيا موت زر إن الحياة ذميمة
ويانفس جدي إن دهرك هازل

والتبعة على المعري لوصفه للدهر، فالزمن لاشأن له، فالله هو الفعال لما يريد.

وموضوع آخر في الباخرة الأولى والأخيرة وصلت تلفن نقيب الوكلاء لمشايخ جاوة، الشيخ محمد نور جخدار، وكان ذا مكانة وذا إمكان، تلفن للشيخ حامد عبد المنان يقول: أربعة حجاج، قضى السؤال عن الشيخ «شيخ منا» يعني من شيخك؟

فنطقوا «أحمد مقلان» ثم أبرزوا كرتا باسم محمد مقلان فلمن يسلوا للشيخة ميمونة مقلان، لأن أحمد ولدها حسب النطق، أم لمحمد مقلان أخوها حسب الكرت؟ وبالمصادفة كانت هيئة الأمناء مجتمعة فأخبرهم الشيخ حامد بذلك فأجمعوا على تطبيق النظام، سؤال الابن لأمه، سؤال الصبي لعمه، فأشار الشيخ حامد للجخدار أرسلهم نضعهم أمانة عندنا حتى نصدر القرار وفي الوقت نفسه صدر قرار الأمناء وحسب النظام بأنهم حجاج يسلمون للشيخة ميمونة مقلان، لا للشيخ محمد مقلان، ووصل الحجاج ليبقوا أمانة حتى يصدر أمر النيابة لتنفيذ القرار حسب النظام، إذ لا عبرة بالكرت قبل النطق أو بعد النطق، فالعبرة بالنطق.

وأحالت النيابة القرار إلى هيئة التمييز، يرأسها الشيخ محمد لبني يرحمه الله، فصادقت هيئة التمييز القرار لأنه حسب النظام، ورفع للنيابة فأحالته لمجلس الشورى وصدر القرار

من مجلس الشورى خلافاً للقرار، والحجة أن الحجاج الجاويين لا يفرقون بين اسم أحمد ومحمد، فهم أرادوا بالنطق والكرت أيدً ذلك.

لقد كان هذا افتراضاً وإلا فخبرة محمد نور جخدار وأمانة فطنة إلى اسم أحمد لا اسم محمد، وجاء قرار مجلس الشورى من النيابة للعلم به ولأنه في نطاق التنفيذ.

وكرب الشيخ حامد وقال: فين السواق خليني أوصل لعبد الحميد خطيب وعلي كتبي، ليكتبا الرد على القرار، فقلت له: تمهل، هما عضوان في مجلس الشورى وافقا على هذا القرار أنا أكتب لك قراراً يرجع به مجلس الشورى للنظام، بس يدك على الكيس تعطيني أربعة جنيهات أجرة هذا القرار أسدد بها دين، قيمة مشلح أبو شهر، فقد أكرمني صاحب الدين الشيخ عبد الله بن عمرو، رئيس هيئة الأمر بالمعروف بالمدينة، فليس يمنعني من السفر وأمهلني ثقة منه أن أرد المبلغ ولو أقساطاً يرحمه الله، ولك علي شرط إذا أخفق القرار وأصر مجلس الشورى على الأول احسم الأربعة جنيهات من راتبي كل شهر اخصم جنيه، وأسرع الشيخ يرحمه الله يناولني الأربعة جنيهات، وقلت له اجمع الهيئة وذهبت إلى المكتب القرار يعرض على الهيئة فقد أشتد عزمي بالأربعة جنيهات للخلاص من الدين.

واجتمعت الهيئة وقرأت القرار فوافقوا عليه، لقد بنيت القرار على نقطة واحدة هي أن الحجاج الجاويين لا يقبل منهم الإسلام إلا باسم محمد إنه إتهام للملايين المسلمة من الجاويين بأنهم لا يعرفون اسم محمد، فالأذان والإقامة، والدخول في الإسلام بالشهادتين كلها يعرفها الجاويون لأنهم المحمديون، فلا يقبل إسلامهم إذا لم ينطلقوا باسم محمد في الشهادتين. إن هذا الأفتراض فيه تجريح للملايين المسلمة.

ورفع القرار إلى النيابة وأحيل لمجلس الشورى وصدر قرار المجلس وفيه شيء من العدول عن القرار الأول والقناعة بقرار مشايخ الجاوة، وسُلم الحجاج للشيخة ميمونة مقلان، وطارت الأربعة جنيهات للمدينة وقال الشيخ: شكراً ياواد أهو كده وإلا فلا، وأكبرت مجلس الشورى لم يأخذهم العنت ولا العناد، فكانوا رجالاً نترحم عليهم.

وحكاية أخرى، فقد استوحشت لقب الجرارين يطلق على صبيان المطوفين حول الكعبة، فاقترحت أن نعمل مشروع نظام تحت اسم نظام الصبيان، وكان العون للرجل العارف بأحوال المطوفين والصبيان نقيب مشايخ الجاوة «محمد معاجيني»، المعرفة منه والصياغة مني، ورفعنا النظام للنيابة وأحيل للجنة التمييز فصدقت عليه ووافقت ورفع إلى النيابة وأحيل لمجلس الشورى، وتلفن مجلس الشورى للشيخ حامد ليحضر هو ورئيس المطوفين الشيخ محمد هرساني، ورئيس مطوفي الهنود الشيخ عبد الرحمن مظهر يرحمهما الله،

ليحضروا حيث شكلت لجنة من عبد الحميد خطيب محمد مغيربي عبد الرؤوف الصبان لتدارس النظام معهم. . . . يرحم الله الجميع وأطال الله عمر أخينا محمد المغيربي فتيح.

وكان الشيخ حامد معتل الصحة كف بصره يجب أن يتستر حذراً من الشامتين فكلف نائبه الشيخ عبد الرحمن عبد الشكور وهو من بيت كبير من مشايخ الجاوة، وأرسلني معه، وانعقدت اللجنة فإذا الشيخ محمد الهرساني يسأل عن الشيخ حامد لماذا لم يحضر؟ قلت: إنه مريض وأناب عنه نائبه وكلفني أن أكون عوناً له، فغضب الهرساني وقال:

«هـو الشيخ حامد ما يعرف إن المطوفيين أكبر من مشايخ الجاوة»، قلت: إنه يعرف مشايخ الجاوة أكثر ويقدر المطوفين، إن بيوتاً في مكة من مشايخ الجاوة لها مقام كبير، فليس في المـطوفين الآن كوشك والقونق وأحمد بخاري لأن حجاجهم قليل عرب ولا غير، من مشايخ الجاوة والبتاوى والعراقي وعباس قطان والفطاني والآشي وعبد الشكور وحمزة شيت، كلهم من أكابر مكة، وأنت تعرف الفرق بينك وبينهم، فغضب وخرج من اللجنة، ولم يتحرك أعضاء مجلس الشورى بكلمة فأخذت عليهم ذلك.

ورجعنا وعرف الشيخ حامد الحكاية فقال:

ـ سامحه الله كيف لا يحترم عبد الرحمن عبد الشكور، وأخوه حسن، هو أول من رشح الهرساني للرئاسة لأنه كان صديقه، لكن علي أن أرضى الهرساني، وبعد أيام دعا الشيخ الهرساني إلى حفل غداء فاخر في بيته في جرول وتصافيا، وانزاح من الهرساني غضبه مني، فإذا أنا وفي إدارة الحج أجد منه الود والاحترام.

وتلك أيام خلت وقد كانوا يرحمهم الله رجالاً.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

خادم الحرمين .. فتح الثغور وسقى المدن
جادت الأرض بخيرها فجادت عزائم أبناء عبد العزيز

الماء في المدينة والثغر آبار.. صهاريج.. كنداسة فالعين والتحلية

والذكريات أكتبها تارة ببصري المشاهد خضع لواقعة وتارة ببصيرة الشهيد على مسيرة التاريخ، أفليس سقيا الناس مادة حياة ورغيد عيش؟ لهذا أسجل أسئلة عن واقع الذين حكموا هذا البلد، فكيف لم يغيثوا إنسانه بالماء؟ الأنهم كانوا عاجزين، عجز الفقر؟ أم أنهم كانوا المحجوزين بحواجز الفصام والخصام بين سلطان الطوائف والعثمانيين ومن إليهم وبين سلطان الأمير في المدينة، أي مدينة، والأمير في القرية، والأمير في القبيلة، أي قبيلة.

في المدينة المنورة ومكة المكرمة .. أبار يشرب منها الناس وفي عرفات يحمل الناس الماء

في قرب، لأنه لم تكن هناك العين، فالآبار في المدينة بقيت السقيا منها إلى عهد أمية، فقالوا إن مروان بن الحكم أوصل الماء بالعين يمتد ماؤها من بئر أريس في قباء، أعني بئر الخاتم، كما قالوا إن مروان أخذ يحفر يستنبط عيناً في وادي قناة من حرة قريظة إلى مجمع الأسيار برومـا، حتى أن الحفـار نبش قبر حمزة بن عبد المطلب وعبد الله بن حرام حيث دفنا في مصرعهما، فنقل جسد كل منهما لم تأكله الأرض إلى الحزم. . هكذا السماع، ولعلي أذكر بخطأ الأدلاء حين يسلمون على حمزة، يذكرون اسم عبد الله معه ويقولون إنه عبد الله بن جحش دفن مع خاله حمزة، فالصواب كما أعتقد أن الشهيد الدفين معه هو الذي وجد معه في المصرع ألا وهو عبد الله بن حرام والد الصحابي الراوية جابر بنِ عبد الله بن حرام، ويعني ذلك أن أصبحت في المدينة عين الزرقاء تعهدوها بالتعمير جيلاً بعد جيل، وقالوا لنا إنها سميت الزرقاء نسبة إلى عين مروان بن الحكم وقد كانت زرقاء، ورواثة من الجدات.

أمـا الآبـار، فهي بئر حاء مالكها الصحابي الخير أبو طلحة الأنصاري وهي في باب المجيدي كما بعدها وعلى نفس الوادي (مشعط) قريباً منه بياضة وصيادة، وفي العالية العوالي البصة وغرس والفقير، الحائط الذي زرع رسول الله والصحابة صنوان النخل وفاء بما كاتب عليه سلمان الفارسي ليعتق من الرق فارسي ما استرقه إنسان إلا حين استرق نفسه يبحث عن الهدى، يصل إلى المدينة وهو يجوب الأقطار بحثاً عن الإيمان، فإذا هو (سلمان منا آل البيت)، أصبح يأخذ الفيء وكأنه ند من بني هاشم كما العباس وعلي.

وسوالة وقد كانت ملكاً لعبد الرحمن بن عوف تداول عليها ما لكون بعد، حتى شاهدنا أنها أصبحت ملكاً للشريف علي الجمازي والد الشريف شحاز.

وفي الشمال وفي مجمع الأسيال كانت بئر روما ملكاً ليهودي، عذب ماؤها يشرب منها الناس بقيمة حددها صاحبها، فاشترى عثمان بن عفان ذو النورين نصف البئر، لاتقسم نصفين وإنما القسمة يوم لليهودي يشرب الناس بقيمة ويوم لعثمان يشرب الناس بلا قيمة، اشتراها عثمان فسبلها حين ضاق اليهودي لا يأتي إليه شارب ماء في يومه المحدد؛ فاضطر أن يبيع قسمه إلى عثمان وما أكثر ما تصدق عثمان. . جهز جيش العسرة يقول رسول الله عن هذا (ماضر عثمان ما فعل بعد اليوم) ولكنهم اغتالوه، فلولا قوة هذا الدين بسلطان القرآن والإيمان لما تم فتح ولما نبغت حضارة.

وفي مكة المكرمة كانت الآبار، ولم تكن في عرفات ركية فيها ماء، فإذا حفيدة العباس ابن عبد المطلب أم المؤمنين زبيدة زوج الرشيد تأبى إلا أن تكون لها السقيا في عرفات، انتزعت بذلك عرق، فجدها العباس كانت له السقيا من زمزم، أوصلت زبيدة العين إلى

عرفات ولم تمتد يد حاكم على مدى الزمن بعد ذلك توصل الماء من زبيدة إلى مكة إلا على يد رجال أخيار في طليعتهم المسلم الهندي (وحيدانة).

ونسأل ملوك الطوائف والعثمانيين والمماليك والأيوبيين والأمراء في هذا البلد، كيف لم ينشطوا إلى إغاثة ثغرنا جدة وثغرنا ينبع والثغور الأخرى بمد الماء من العيون التي تبعد كثيراً، فقد كانت جدة طوال عهدها تشرب من ماء الصهاريج والبرك والقرب يحملها على الجمال يبيعونها لشارب الماء، وينبع كذلك.

إن جدة . . الثغر لا تبعد عن عيون وادي فاطمة إلا أربعين كيلو متراً أو أكثر قليلاً، فلم تمتد يد حاكم أن يجلب الماء لها من وادي فاطمة، كأنما الله قد أدخر ذلك لينعم به على عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الإمام السلطان الملك، يمد الماء وماكان المال كثيراً وإنما كان العزم كبيراً والنية الصالحة أكبر، فوصل ماء العين من وادي فاطمة إلى جدة، تذهب الكنداسة التي ما كانت تكفي وينتهي عهد الصهاريج والبرك . . كم كان ذلك أثراً مؤثراً في حياة الناس لحياة الناس منَّ الله به على عبد العزيز.

والثغر ينبع، ليس بينها وبين عيون ينبع النخل إلا مسيرة ليلة على الجمل أقل من أربعين كيلوا متراً لم تمد يد حاكم أو سلطان تحت اسم خادم الحرمين إلى أن يجلب الماء من خيف المبارك أو خيف البركة أو من ماء وراءهما الجابرية وعين النوى وخيف حسين، لو صلحت النيات ولم يكن الخصام والفصام لاستطاع الحاكم أن يغيث ينبع بماء العيون، مع أن الرجال كأفراد تعاونوا على مد العيون في الخيوف، فالرجال مدوا عيون وادي فاطمة والرجال مدوا عيون ينبع النخل والرجال مدوا عيون المدينة، إن عين الزهرة حفر منابعها وسير مجراها رجل واحد اسمه محمد محروس، وكانت المسافة لا تقل عن عشرين كيلو مترا من الأعياص (سلطانة) إلى الزهرة امتدت العين، وكذلك العيون الأخرى لم يصنعها حاكم وإنما صنعتها عزائم الرجال.

وحين جادت الأرض بخيرها نعمة من الله جادت عزائم الملوك من ولد عبد العزيز بالحفاظ على العيون وجلب الماء من العيون ونبغت عزيمة الملك فهد خادم الحرمين الشريفين فإذا هو يصمم على إنجاز التحلية يسقى الثغور ويسقى المدن بالماء المقطر العذب. إن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد حين نذكر عزائمه لا نقتصر على المدارس أكثرها ونشرها، ولا على الجامعات ثبتها ونصرها، فله عزمتان قل ذكرهما له، إصلاح الموانى جهداً انتظمت به فلم تعد باخرة تتأخر في الميناء إلا ساعات أن تفرغ حملها، وماء التحلية يصل إلى الأعالي، التحلية على سطح البحر والأعالي على السراة بخ . . بخ فالله ولي النعمة وهو يجزي المحسنين لما أحسنوا.

السلاطين والحكام والأمراء استأخروا ليتقدم عبد العزيز وبنوه. . لا أكتب هذا استجداءاً ولا نفاقاً ولا تملقاً وإنما هي الحقيقة ينطق بها قلمي وحرفي من استنطاق وجداني، فلعل لساناً غير شاكر يصمت، تخرسه الحقيقة. وماذلك إلا عن حب لهذا التراب توحد في مملكة واحدة بعد أن كان مزقا بين الخصام والفصام، فنحن جيل الحمد نواكب جيل الشكر وحسبي أنهم الأكثرون الذين إذا نظروا حولهم قالوا (الحمد لله والشكر لله).

الكنداسة

ومادام الشيء يذكر فإن لدي حكاية عن الكنداسة سواء كانت في جدة أو في ينبع، لماذا لم تكن أكبر مما كانت؟ ولماذا الاستكانة والصمت عن العمل للحيلولة دون العراك والصراخ والامتيازات بأناس دون أناس حول ماء الكنداسة وتوزيع ماء الكنداسة؟

والذكريات تجرني إلى حكاية حيث كنت موظفاً محرراً في قسم الأوراق تحت رئاسة الصديق شاعرنا الكبير السيد محمد حسن فقي أمد الله في عمره، ومن عليه بالعافية، يناولني الأوراق مشروحة بالتوجيه من المدير العام المساعد لوزارة المالية الشيخ عباس صيرفي الذي لم يكن يرتاح إلي والذي حين كنت له كان الحفي بي الصديق، ولذلك قصة بعد يرحمه الله. . وبدأت أكتب المذكرات طبق الشرح فإذا بخطاب من مدير مالية ينبع محمد الناجم الذي خلف حمد الميمان وله منزلة عند وكيل وزارة المالية حينذاك حمد بن سليمان يرحمه الله، فكلاهما من عنيزة، قرأت الخطاب يطلب صدور الأمر بإعداد سيارتين كبار تحملان خبرتين من خوياه يحطبون الحطب يجلبونه إلى ينبع البحر من شعاب رضوى (الجهينة) أو من شمال ينبع جهينا بلويا أو من غرب ينبع حربياً حدد الطلب بسيارتين والخبرتين لجلب الحطب لأن متعهد الحطب للكنداسة لم يف بالتزامه، قرأت الخطاب والشرح للموافقة على هذا الطلب والشارح عباس صيرفي يرحمه الله، توقفت أستعرض الحال وماذا ينجم عنه ولم أسأل عن ضخامة التكاليف، فحمل الحطب كانت قيمته في المدينة المنورة لا يزيد عن نصف ريال أو ريال، فلماذا تجلبه المالية على هذه الصورة باهظة التكاليف، صرفت النظر عن التكاليف لم أجعلها حجة أطلب تعديل الشرح فحجتي هو ما ينجم من فتنة فلربما رجال المالية يقطعون شجراً من شعاب رضوى فيقاومهم بعض الجهنيين أو من شمال ينبع فيقاومهم بعض البلويين أم من غربها فيقاومهم بعض الحربيين كانت الفتنة أمام نظري وما استطعت أن أقنع السيد حسن فقي بأن يطلب تعديل الشرح، فقد قلت الاحتطاب على هذه الصورة لن يكون بشرح الموظف بل لا بد من إذن يصدر عن الأمير فيصل يرحمه الله أو عن جلالة الملك عبد العزيز تغمده الله برحمته، فلو ثارت رصاصة من خوى على جهنى أو من جهنى

على خوى لغضب الملك عبد العزيز ولربما أرسل جيشاً يؤدب من أطلق الرصاص وخفت أن يكتبها غيري فتمضي . . كتب هاك الشرح بالموافقة وأرسلت إلى كاتب الآلة سراج الدين ابن ياسين وتلبثت قليلاً ثم ذهبت إلى كاتب الآلة أطلب منه حيث شرحت له الوضع أن لايكتب الموافقة عاجلة، وتأخر ت في الخر وج ليرسل الملف إلى التوقيع وليست فيه هذه الموافقة، وفي صباح اليوم التالي بكرت في الحضور آخذ الخطاب والمذكرة أدخل على عباس صيرفي أقول له: إذا لم تسأل كيف توافق، إذا لم تسأل عن التكاليف لم يخطر ببالك ما ينجم عن الفتنة أرجو أن يكون الشرح اشتروا الحطب من السوق واطرحوا توريده للكنداسة على ملتزم تثقون به، وكأن عباس صيرفي قد تنبه حين عرف العواقب وعدل الشرح اشتروا الحطب من السوق، وليكن ملتزماً آخر.

وهنا أسأل كم تستهلك الكنداسة من الحطب في اليوم؟ عشرين حملاً بعشرين ريال أو حتى بخمسين ريالاً أفمن أجل ذلك نستجيب لهذا الطلب، وكتبت المذكرة ورآها السيد محمد فقي فلم يرتح لصنيعي غير أني قلت له إن الدم إذا سال من سعودي بيد سعودي أمرلا يحتمل، فاعذرني إذ فعلت ذلك، وماكان هذا مني إلا لأني بدوي أعرف أشبار أرضى، وصحـراءهـا وأشجارها، فقد نشأت في بيت شعر وأنشأتني ينبع النخل كما نشأني الخرج وشماريخ السراة وعمق تهامة.

وحكاية أخرى

ونقلت سكـرتيراً للمجلس المالي يرأسه الشيخ الوقور أحد المحاربين القدماء في وزارة المالية محمود شلهوب، والمجلس مكون من رؤساء الدواوين عبد الرازق هنداوي المحاسبة عبد الوهاب آشي الواردات علي عامر الموظفين عبد العزيز جميل التفتيش محمد حسن فقي الأوراق، وحولت إلى المجلس معاملة كان الطلب مقدماً من أهل المدينة المنورة لتأسيس قسم ثانوي بعد الاعدادية في المدينة المنورة، فأقر مجلس الإدارة في إمارة المدينة ذلك، وحين عرض على مدير المعارف وقد كان السيد طاهر الدباغ أقر المبدأ كما أقر التأجيل لأن الظرف لا يسمح بذلك لأنه كان في أيام الحرب العالمية الثانية في أول الستينات وأحيل لمجلس الشورى فأقر وجهة نظر المعارف، وقبل أن يجتمع المجلس بعرض الموضوع عليه خطرت لي فكرة نهضت أعرضها على عبد الرازق هنداوي وعبد الوهاب آشي وعلي عامر لأني أثق بهم وهم يثقـون بي، كانت الفكـرة الموافقة على رأي المعارف غير أن لا تغلق ميزانية تحضير البعثات بشكل سنوي بل ينبغي أن يظل الصرف على عدد الطلاب شهرياً، كان الطالب يكلف ١٩ ريالاً وكانت الفكرة أن يظل هذا المصرف لكل طالب سواء المنتسبين فيها حين التقـرير أو الذين يلتحقون بها من المدينة وجدة والمدن الأخرى، وافق الذين استشرتهم

وكتبت القرار ليعرض على المجلس وقد استعرضت الوضع كله طلب أهل المدينة قرار مجلس الإدارة قرار مجلس الشورى ثم وضعت النتيجة بقرار المجلس على أساس أن يبقى المصرف شهرياً يسع واقع المدرسة كل من يستأهل الانتظام فيها من أبنائنا العرب السعوديين، ووافق المجلس على هذا حين استحسنوا الرأي ، فكان عباس صيرفي مدير المالية العام المساعد عضواً في المجلس والانشغال بهالديه قل أن يحضر الجلسة فذهبت بالقرار الموقع بالأكثرية حتى إذا بدأ يقرأ كانت هناك فقرة بهذا النص «والمدينة دار الهجرة تستحق أن يؤسس فيها قسم ثانوي غير أن ظروف الحرب قد أجلت ذلك» . . وسقت بعدها الاقتراح وقرأ عباس يرحمه الله «والمدينة دار الهجرة فإذا هو يضع القرار ويقول بلفظ ساخر يعوج به لسانه والمدينة دار الهجرة والمدينة دار الهجرة، فانتزعت القرار منه أقول هي الهجرة فلا أنت الوليد بن المغيرة ولا أنا سعد بن معاذ ولكني الآن سأتلفن لصديقك السيد حمزة مرزوقي لا يصحبك إلى المدينة كل عام مادمت تقول ذلك، وافاق عباس فإذا هو يرتجف يقول: لا . . لا . . لا كأنه قد أخذ بزلة بينما هو يرحمه الله من الذين نعرف أنه يحب المدينة .

فالمكيون كلهم يحبون المدينة، فلو كان واحد منهم قد أسرف على نفسه قبل أن يصل إليها فإنه لا يفعل ما يؤخذ عليه لأنه يعتقد أن الزلة في المدينة يعجل الله بها العقاب .

تلك ميزة للمكيين وما كان عباس إلا هكذا، وأحيل القرار إلى مجلس الشورى بشرح من محمد سرور ليكون هو مندوب وزارة المالية وقد استحسنه وأقره مجلس الشورى وما أكثر من انتظم في تحضير البعثات من المدينة وجدة وغيرها .

ويأتي الصفاء مع عباس صيرفي حين أوقف عن العمل لخصومة بينه وبين عبد العزيز جميل، يأخذ عبد الله بن سليمان معه إلى الرياض والخرج وقد انتقلت حين ذلك من المجلس المالي إلى رئيس القسم الحسابي السيار أكون في الخرج وسيطاً بين أوامر عبد الله السليمان ودواوين وزارة المالية .

وسافر عبد الله السليمان ومكتبه الخاص من مكة إلى الرياض في آخر الليل ومعه عباس صيرفي ومكتبه الخاص برئاسة محمد علي خزندار، ولم نخبر بهذا السفر لأنا كنا ذاهبين، وأخذ المكتب الخاص سيارات «بوكس» جديدة يمتطونها ومعهم عباس صيرفي، وصحونا نركب سيارة فورد صغيرة موديل أكل الدهر عليها وشرب، كان الوقت ضحى وكنا ثلاثة أبو بكر زمخشري ومحمد مغربي وصاحب الذكريات وكحت السيارة لم تستطع العبور إلى الحدود. فرجعنا وأسعفنا وكيل وزارة المالية حينذاك الأخ الصديق سليمان بن حمد بن سليمان وارتفعت الشمس واصلحت السيارة، فوصلنا عشيرة وقد وجدنا عبد الله بن سليمان ومن معه معطلين لأن البوكسات تتكسر فيها «الاكسات» حتى إذا جاءهم المدد لم يصلوا إلى المـوية إلا بعدنا

نحن ركاب السيارة القديمة. وأشفقت على عباس صيرفي وقد تقدم عبد الله بن سليمان مسرعاً إلى الملوية وسيارتنا وراءه فأكرمني عباس إذ أكرمته أحمله في سيارتنا، وكان سائق السيارة سائقاً مجيداً اسمه حبيب من جماعتنا التكارنة فوصلنا الملوية مع عبد الله بن سليمان، وتأخر الرفاق وبعد العشاء أعد العشاء فإذا بعض كتاب المكتب يؤذن عباس صيرفي بتصرفات غير لائقة فخرجت أطلب سعود بن ثويني أستأجر القاعة التي هو فيها بمائة ريال أدفعها أنقل عباس معنا فيها، أكرمه عن صحبة أولئك أقوم بخدمته ووصلنا الخرج سيارة ابن سليمان أمامنا فورد جديدة بكفرات بالون ونحن بالسيارة الفورد القديمة فإذا الوزير من ساعتها يأخذ حبيب هذا السائق سائقاً لسيارته مع الآخرين.

وأثمر هذا الفعل مع عباسٍ صيرفي وأخذه ابن سليمان يسلم على جلالة الملك عبد العزيز ليعفو عنه يرد إلى مكانه معززاً مكرماً، وحين رجع من المقابلة الكريمة قال:

«سأطلب محاكمة عبد العزيز جميل، قلت: العفو عنك سيضيع بهذه المحاكمة لا تستأنف القضية فأبى وذهبت مسرعاً أكلم عبد الله بن عدوان وعبد الله سعد وعبد الوهاب آشي وكانوا هيئة في موضوع يمس عبد الله قاضي يرحمه الله وهومن أهل الطائف وإليه



الملك عبدالعزيز



الملك فهد

ينسب المهندس عمر قاضي الأمين ببلدية المدينة المنورة، أخبرتهم بخطأ عباس فوعدوا أن ينصحوه ورجعت إلى مكاننا ووجدت زميل الطفولة في ينبع النخل وينبع البحر جاراً في المبارك ليس بين باب بيتي الفران وبيت الشريف بادي زوج أمه إلا زقاق ضيق لا يبلغ ثلاثة أذرع وزمالة المدرسة بينبع البحر ألا وهو مدير مالية الأحساء حينذاك زكي عمر، له حظوة عند الملك عبد العزيز «ابن سليمان عندنا زكي تعال» يبرق بها الملك عبد العزيز، دخلت أقرأ السلام فلما نهض الصديق زكي يستقبلني صديق زمالة وجلست فإذا هو يلتفت إلى نصف التفاته يقول «سيك بالخير» بلهجة نجدية وقلت له: لا يازكي تحيتك «صباه الخير اقشام شريف» بلهجة تركية لأنه يرحمه الله تركي العرق ولم يغضب فقد عرف حق الزمالة فإذا أنا الكريم لديه نتزاور في جدة يوم أصبح أميناً على الجمارك يرحمه الله . . ومن حق زكي أن يذكر بخير لوفائه على كل من عرف من أهل ينبع وبعدها وحين رجع عباس صيرفي إلى عمله، وفي الصيف أنا في الخرج وعائلتي في الطائف كان عباس صيرفي ومن عادته أن يتنفس الهواء مع صديقه السيد حمزة مرزوقي في قروه قرب عجلان فلا يمر إلا ويقف أمام بيتي ليسأل عائلتي عن حاجتهم وفي مرة سألهم فقالوا له: اشترينا كيس حب كيس حنطة من التمويل وجدناه وقد أكله السوس فالتفت إلى السيد حمزة يقول له «لا تمشي انتظرني آخذ كيس الحب المسوس وأحمل لهم عوضاً عنه كيساً من الحنطة النظيفة»، وأخرجوا له الكيس حمله في السيارة ينزل به إلى داخل الطائف يأتيهم بكيس حنطة جيدة.

ما أجمل الوفاء في الرجال وما أجمل الصبر على الخصومة يقتلها صاحبها بالسماحة.

وسألني محمد سرور «ايش سويت لعباس صيرفي» قلت: خاصمني قبل أن يعرفني وصافاني حين عرفني واصطفيته حين عرفته.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

في الخرج . . أقمت وليمة ملوخية من البرسيم!
حين هبت «السموم» صنعت لنفسي مكيفاً من الحصير


عبدالله بن عدوان

صحراؤنا ونفودنا، تكفهر إذا ما اكفهرت السماء . . وتبتسم تهتز وتربو تنبت من كل زوج بهيج إذا أغاثها الله بماء السماء يرسل السحاب الثقال.

وكنا في المدينة نفرح بالمطر ونجري وراء البرد نجمعه نشربه نطبخ الرز والعدس، وسرنا من الملوية فإذا الطريق ينعم برياح باردة وبنسيم عطر . . وأشرقت الشمس وأقبلنا على نفود السر . . طعوس من الرمل كثبان نتوقى المرور عليها نخشى (تغريز) السيارات، فلا نمر بها إلاّ فى هدأة ليل، كأنما الرمل

ينام هامداً نتخطاه لا يعوقنا شيء، نتجنب المرور في النهار لأن الرمل استيقظ كأنما هو يمنعنا من الوطأة عليه، حتى رملنا شاعر . . كتبت هذه الكلمة ودمعت عيني من نار الحب لهذه الأرض ونور الحب لإنسان هذه الأرض، صدقوني لأشكر، وإن كذبتموني فأمر ألفته فلن يكربني . .

وما كدنا نخطو الشبر الأول من نفود السر حتى وجدتني في جنة مزهرة، عجيب هذه الأرض هكـذا تمرع إذا أغيثت، تلبد الرمل تحت الأزاهير، فالزهر من كل لون . . أحمر وأصفـر وأبيض كأنـما كل زهرة تعاشقت مع الأخرى، فالنفود التي كنا نخشاها أصبحنا نخشى عليها من وطأة السيارات . . نخشى أن يطأ سائق السيارة زهرة أو يقتل شجيرة، وأمطرت السماء رذاذا هتانا، فيالها من فتنة الغيث . . فتنة الجمال، ويالها من رحمة الغيث أفاض على الأرض رحمة فإذا النفوذ تراحمت ينبت فيها الزهر، وقلت للسائق . قف، قال: الوزير سبقنا نخشى أن يفوتنا، قلت: سنلقاه في المكان الذي يصل إليه، هو إلى القصر ونحن في المربع في الرياض، فدعنا نقف لحظة نهنأ بحياة الزهور لنجد زهرة في حياة النفوس التي عشقت الجمال تؤدي التحية للكمال، وقلت لصاحبي : أرأيتم هذه الزهور فلتعرفوا أن العربي بلغته الشاعرة وبأرضه هذه الشاعرة وبروحه الشاعرة حين وصف الزهور لم يصف زهراً مستورداً أو زهرة رآها على شاطىء الفرات أو وصفوها له حول بردى أو على ترع النيل، إنه لم يصف إلا الزهر الذي عرفه، فالأقحوان والورد والياسمين والفل والشيح والقيصوم كلها رآها . . عشقها حين عرفها ذخراً على ترابه كان مدخراً تحت ترابه، نبشه الغيث . . سقاها . . فأمرع، لحظات كنت فيها وبها ولها ومعها . .

ووصلنا إلى الرياض وإلى الخرج وقد كثرت فيه المزارع، فالخرج كما الأفلاج لم تحبس الماء تفجر فيها في عين الضلع ومحيسة وسمحة، حين امتلأ جوف الأرض من عطاء طويق عطاء الحجر، حجر اليمامة، أبت أرض الخرج والأفلاج أن تختزن الماء فتفجرت عيونها، ولا أنسى الخفس خفس دغرة، عين انحنى عليها الجبل، كأنها انحناءه ضلع على عين الضلع وما انحبس الماء على الخليج، فماء الخليج ارتوازي أو في نوافير من عطاء الأعلى من وادي الرمّة من وادي حنيفة من وادي الدواسر، وحتى من هضبة الدوادمي وحتى من شرائع السراة، المزارع يسيل إليها الماء من العين سمحة رُكبت عليها مكائن تمتح الماء من عدٍ لا ينضب، يسيل في قنطرة ثم يتجدول جداول إلى كل فلج إلى كل بستان، المزارعون وزعت عليهم قطع الأرض، الكثرة من أهل القصيم إلا واحد هو من أهل المدينة بل من عين أعيانها على أبو الجود ومعه أخوه الكبير حمزة أبو الجود الذي كان يوم أن كانت الدنيا ناعمة، من أنهد الفتيان في المدينة تياها، فإذا هو ينسى التيه الذي كان من وفرة الرخاء ويخضع إلى تيه من قسوة الشظف.

وأمسكت بمكتبي فعرفني أهل الخرج حين كنت أعرفهم بالسمات والبسمات، إنهم من قومي العرب إنهم من أمتي المسلمة، فقد قلناها من قبل نحن في هذا الكيان الكبير مسلمون على الذروة عربيون على السنام تزاوج لا ازدواجية، فقد طرد الإسلام كل نعرة تفرق وما أنكر أن ينتسب مسلم إلى قومه (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، أنا من ولد النضر) فلا قومية تباح وهي تتنكر للإسلام كما ينكر الإسلام على غير العرب أن يتنكروا على العرب (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون).

ورجع الوزير عبد الله بن سليمان إلى جدة وأبقاني في الخرج وفي يوم أبيض شرف الخرج بوصول المجمع الإمام السلطان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن، فإذا أنا أتعرض لمشكلة لا شأن لي بها فلا ناقة لي ولا جمل، فما أنا إلا كاتب في مكتب الوزير أرأس قسماً حسابياً، وكانت المكائن المركبة على سمحة ثلاث عطلت واحدة لأن (تزيتها) بزيت الخروع وبعيد أن يصل في أيام الحرب، وكانت المكينتان كافيتين غير أن تشغيلهما يطول، فلو كانت الثالثة تعمل لما طال شغلهما، وكسرت مكينة من المكينتين فإذا المكينة التي تعمل لن تكفي، فأسرع المزارعون إلى مدير الخرج، يخبرونه عن شح الماء، المكينة الواحدة لا تكفي، وقالوا للمدير: توجد مكينة في مخزن بني عليها بن سليمان بابا من اللبن، وكان في إمكانه أن يتصرف غير أنه تبرأ، وأغرى المزارعين يكتب لهم برقية إلى جلالة الملك عبد العزيز الموجود في الخرج يشرحون الوضع وقد كتب فيها «الزيدان حاجز مكينة في المخزن» وكما تقول العامة «ياغافل لك الله» فمن يطيق غضب عبد العزيز، هل أطيقه أنا المسكين، وادركتني رحمة الله بالمصادفة فقد كان أحمد سعيد العربي المصري السوداني الذي كان ينقل أخبار الراديو إلى جلالة الملك عبد العزيز، والمصادفة قادت أحمد سعيد إلى الديوان فرأى الشكوى سأله نائب رئيس الديوان فقد كان عبد الله بن عثمان غائباً يومها فقال أحمد سعيد زيدان لا علاقة له بذلك، أرجوك آخر الشكوى لا تقدمها إلا بعد العصر سأذهب الآن، ليكون الحل، وأخبرني أحمد سعيد مسرعاً وما كدت أسمع الخبر أخاف الغضب أرهب التأديب حتى ناديت المهندس واسمه حبيب كان مهندساً بارعاً ذا خلق فأسرعت معه نهدم الباب نخرج الماكينة نحملها على اللوري يذهب إلى مسحة وما أسرع ماركبها وما أسرع ما تدفق الماء ولم نكد نصلي الظهر حتى تدفقت مياه سمحة كأن ماكينة لم تكسر ولم أقنع بذلك فاتقان الغضب لجريرة لم أفعلها جعلني ابرق لعبد الله بن سليمان أخبره بأني هدمت الباب وركبت الماكينة ولعلي أعطيت صورة إلى الديوان من برقيتي وجاءني الجواب من الوزير: أحسنت بارك الله فيكم ومضت الشكوى كأن لم تكن وإن كان من عقابيلها.. وفي صبيحة اليوم الثاني وصل إلى مكتبي نوري السعداوي وعبد الله السعد وما أدري أكان الثالث عبد الله بن

عدوان أو غيره فقد نسيت . . سألوني عن حجز الماكينة كأني أنا الذي حجزتها لأن الشكوى قالت ذلك فأخرجت البرقية وفيها الجواب ابن سليمان هو حاجزها لا يمنعها وإنما كان ذلك حيطة منه حتى وجدناها المغيثة لمزارع الخرج وقنعوا بما رأوا ولا شيء من المزعجات قد وصلت إليه نعمة الله أولاً ووفاء الصديق أحمد سعيد ثانياً وفضل فهد العثمان ثالثاً وقبل كل شيء فالفضل لله وبعد كل شيء السماح لمدير الخرج حينذاك لم يجيء عليَّ عقاب وإنما كان العقاب لهزيمة الشكوى.

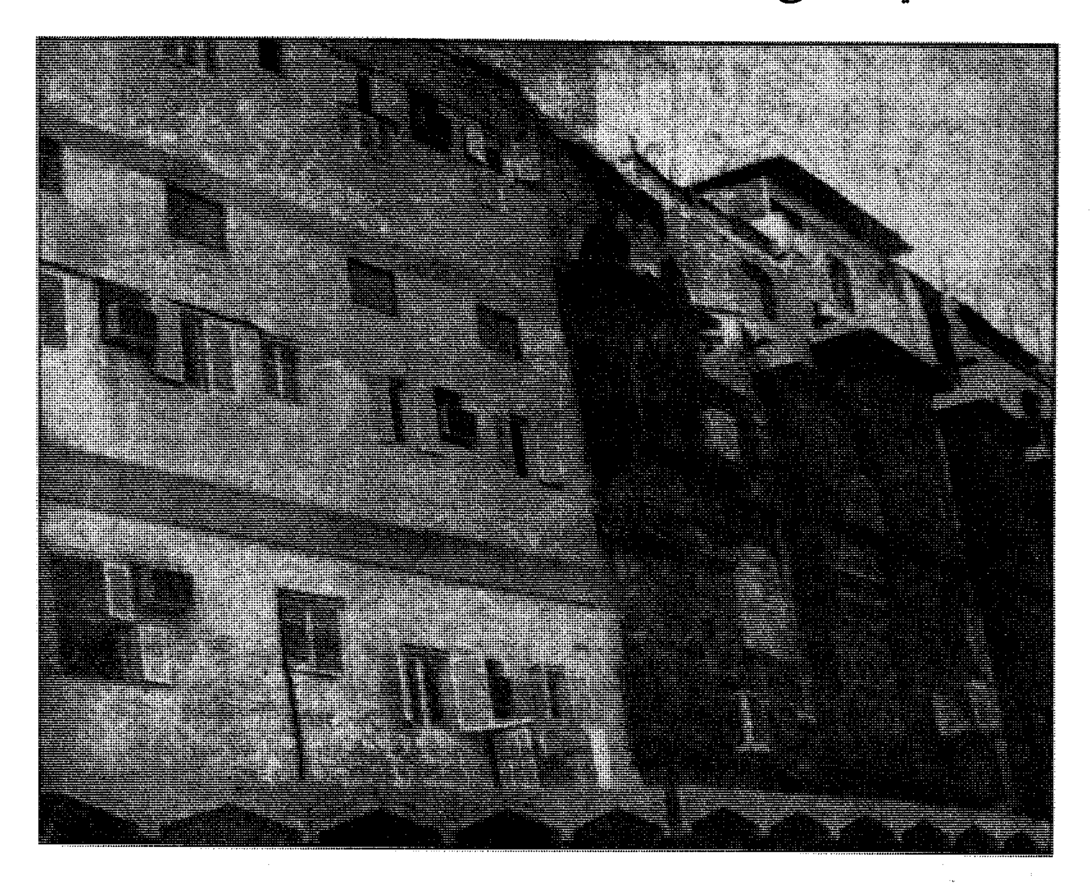
وحكاية أخرى: عن الذرة والحنطة وفي خفس «دغرة» وقد كانت هناك مزرعة كبيرة لمشروع الخرج المكلف بها «إبراهيم الحبودل» من كبار الخويا عند عبد الله بن سليمان وكان رجلاً يحمل المسئولية ويؤدي الواجب كاملاً . . زرع الحنطة . . زرعة شتوية وحصدها فيي أبانها ثم حرث الأرض يزرع الذرة زراعة صيفية وهاجت الذرة اثمرت حتى استوت كيزانها على أعواد حشها حشاً . . حبات الذرة يجمعها والقصب علف حيوان ولكن العجيب حين حش الذرة وجد الحنطة في سنبلها يجمع أكياساً منها نبتت تحت الذرة حين بقى من نثارها في الأرض فإذا هي تنبت مليئة السنابل يجمعها كعجيبة كيف تنبت الحنطة في الصيف ولكنها الذرة التي هاجت صنعت بيئة مناخاً لنبات الحنطة كأنها ظل العيدان من القصب قد أحدثت برداً أمرعت بسبب الحنطة . . فالظل الظليل من القصب والبرودة أعطت الأرض أن تكون وكأنها المشتية ينبت فيها القمح . . أكتب ذلك لا لأنها العجيبة ولكن لعلنا نستفيد من هذه الظاهرة أي قد نصنع بيئة لنبات في وقت لم يكن صاحب البيئة.

وفي الخرج قد نحتاج إلى الخضروات نأكلها ولكن لا نستطيع ذلك لأن الحصيلة لغير الخضروات ولان الموجود منها وهو قليل لا يكفي ساكني الخرج . . وسمعت أن حسن عشي الطباخ الماهر قد طبخ للشريف عون البرسيم على أنه ملوخية وأردت أن أجرب سلقت اللحم الدسم من الفص والاضالع وقطع من اللية وكثرت الثوم نيئا في المسلوق وقطفت ورق البرسيم وفرمته كأنه الملوخية وطبخت في السلوقة وأجدت كشنة الثوم وأعددت الغذاء للزملاء . . أقول لهم اليوم غذاؤنا ملوخية . . وأكلوا فقد أضاع الدسم واللحم والثوم رائحة البرسيم . . فأكلوا حتى شبعوا لم أخبرهم إلا في اليوم الثاني لئلا تتعكر معدة أحدهم وما قالوا شيئاً وما أنكروا حين أكلوا لكن الملوخية هذه لم تكن إلا البرسيم.

واشتد الصيف فكيف أتوقى السموم وتفتقت لي الحيلة أقص لي حصيرة على مقاس النافذة وكانت طويلة عريضة وضفرت البرسيم ضفراً أنسجه على الحصيرة وعلقته على النافذة أرشها بالماء والبرسيم يمسك الماء لا يجف إلا بعد وقت أرش الماء مرتين أو ثلاث فإذا هو مكيف صحراوي . . حلوة تلك الأيام القاسية لأنها قوة في النفس وقوة في العضل

فالشظف يحيا به الرجال والترف قد لايحيا به الشباب.

وكان هناك شباب من المدينة أعدهم ابن سليمان عوناً منه يمارسون العمل كان راتبهم قليلاً فأصدرت أمراً عن أمر الوزير بزيادة الراتب وتقدم الابن عبد الاله درندري إلى مدير الخرج يطلب بعض الخضرة ولعل المدير كان مشغولاً ولم يعرف الشاب حق المعرفة فقال «مافيش خضرة، يعني أنتم في بيتكم تأكلون خضرة» فجاءني الفتى جاء يشكو فقلت له الآن سيعرفك وذهبت إلى المدير أقول له: هذا عبد الله درندري أبوه أمين درندري من أعيان المدينة كان له امتياز وجده لأمه لعلك تعرفه إنه الصدر الأعظم، الرجل الأول عند السلطان عبد الحميد صهره الشريف عون له يد على عمر نصيف وله يد على إسماعيل خديوي فشاب هذا جده ومن أبناء المدينة المليئة بالخضار لا يأكل الخضار في بيته؟ فكرب المدير حين عرف وعطف على الشاب وكما قالوا: الدم مايصير مويه، والعرق يحن للعرق.. كلاهما يمت كل منهما إلى الأتراك.. وكما يقول أبناء الكتاتيب تمت السورة وضاعت العصايا المكسورة وانتهت رحلتي إلى الخرج.. أعود إلى مكة وإلى أكثر من عمل يأتي ذكره بعد..



طيبة.. رحلة في الزمان والمكان (٣٦)

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

الملك عبد العزيز . . الحج والأمن
بعد اجتماع رضوى . . تدفق الحجاج من مصر
دعاة القومية العربية من أولهم إلى آخرهم كانوا لعبد العزيز وبه ومنه . .

وقاربت الذكريات على النهاية، وما أحسبني أن كتبت عن (الأنا) لأني حريص على أن أكتب ما شاهدت . . ما علمت، ولئن جاء بعض (الأنا)، فليس ذلك من التحدث عن النفس وإن تنفس بعضهم عاتباً أو غاضباً، سيّان، فالأنا صرخت وأنا أملي لأشكر هؤلاء الذين شغلوا أنفسهم بواحد . . أسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا.

والمقدمة هذه أتنفس بها ولا أنافس، ولأدخل في شرح العنوان، وما كنت أستعجل تاريخ البطل لأكتبه، ولكن شاباً من المثقفين قال لي يوم أن أملي هذه الذكريات في ظهر يوم الخميس الرابع والعشرين من هذا الشهر، وقد جاء ذكر المهرجان في المنطقة الشرقية حتى

إذا امتد الحديث قال أعجبني الكاتب الصحفي **محمد حسنين هيكل** حين كتب مقالاته عن الملك عبد العزيز، فقلت له بسرعة البديهة وبالإسراع إلى العودة إلى ما أعرف، قلت محمد حسنين هيكل صوت سيده **جمال عبد الناصر**، كما أن جمال عبد الناصر وقد أعلن القومية وأعلن عروبة مصر لم يكن إلا صوت **عزيز علي المصري وعبد الرحمن عزام وحمد الباسل وأحمد زكي** شيخ العروبة، الذين تواكبت أصواتهم مع الكثرة من أهل الشام، كلهم قوميون بل كلهم الصدى لساطع الحصري، إلا عزيز علي المصري فقد كان صوت نفسه، **فالملك عبد العزيز وأباؤه آل سعود**، كلهم كانوا في نظر القوميين نهضة قومية عربية، حتى أن ساطع الحصري كتب عن اجتماع حاكم عكا الجزار وأمير لبنان **بشير الشهابي**، وحاكم دمشق (اليوسف) قال: إن هؤلاء الثلاثة اجتمعوا في عكا يأتمرون ويتآمرون للقيام بحركة قومية ينتزعون استقلال الشام كلها فلسطينها ولبنانها وسوريها من الدولة العثمانية، وبينما هم مجتمعون سمعوا أن موجة عربية وقبائل عربية قد اتسع وصولهم إلى الشام، فقالوا هذه نجد وصلت قبائلها تحمل حركة آل سعود ودعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، فانفض اجتماع الجزار واليوسف والشهابي ليدافع كل واحد عن إقليمه وكان تعليق ساطع الحصري إن آل سعود قد أنقذوا الدولة العثمانية من ثورة الشام ثم هو يقول إن حركة آل سعود ما هي إلا حركة قومية، هكذا القوميون نظروا إلى آل سعود هذه النظرة، ولعلي لم أعثر على موقف الدولة العثمانية مع اليمن، كتبه ساطع الحصري مع أنه حلبي نشأ طفلاً في صنعاء وتنشأ تركياً في الأناضول، كأنما حلب وصنعاء جعلتاه قومياً، مع أن لليمن حقاً عليه، غير أنه إن لم يتنكر لموقف اليمن من الدولة العثمانية فلربما أن حركة اليمن وحرب الدولة العثمانية عليه، لا يراه ساطع الحصري قومية، لأن الزيدية مذهب حجزه عن ذكره اليمن قوميين، ولم ينظر إلى الدعوة السلفية نهض بنصرها آل سعود، لأن تأثر ساطع الحصري بقبائل العرب في نجدو الصحراء ومعرفته لما نصروا وبم انتصروا، عاد إلى كامن المعرفة فأظهره، لأن ظاهر معرفته باليمن لم يتخذ له كميناً في وجدانه، كما أن وتلك عجيبة أن فيصل بن الحسين ملك العراق، كما أخبرنا جميل مردم لم ير زعيماً في العرب يقود نهضة العرب إلا عبد العزيز بن عبد الرحمن فالحصيلة ان دعاة القومية العربية من أولهم إلى آخرهم كانوا لعبد العزيز وبه ومنه.

أما الإسلاميون على اختلاف مذاهبهم ورغم سلطان الاستعمار عليهم كانوا المؤيدين لعبد العزيز، فأهل الحديث في الهند إسلاميون سلفيون انتصروا بعبد العزيز فناصروه، والمذاهب الأخرى فرحت بعبد العزيز ورحبت به رغم اختلاف المذهب، لأنه جمع الشمل وأمّن الحجيج رفع الإتاوة وأزاح الخفارة حتى إن المؤتمر الإسلامي المنعقد في مكة وقد مثلت فيه الكثرة من المسلمين . . مسلموا الأناضول . . مسلموا التركستان بزعامة موسى جار الله



د . محمد حسين هيكل



محمد حسنين هيكل

. . مسلمو الهند أهل الحديث . . جمعية الخلافة . . وغيرهم قد بايع ممثلوهم الملك عبد العزيز سلطان نجد ملكاً على الحجاز.

فإذا بيعة المؤتمر الإسلامي ، وصداقة القوميين العرب في كل الأقطار العربية ، قد أعطت للملك عبد العزيز إلغاء كل ما كان قبل المؤتمر لأن بيعة الاجماع المسلم في المؤتمر وفي طليعتهم الذين مثلوا الحجاز، قد محت كل ما كان قبل المؤتمر، فأصبح اللقب ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها، وكان اليوم الأغر يوم ١٧ الجدي سنة ١٣٤٤هـ.

ولم يكن ذلك عن علاقة شخصية بعبد العزيز فعلاقة الإسلاميين صون الحرمين والحجيج والأمن وعلاقة القوميين أن وجدوا البطل فتحركوا به القومية العربية بزعامة من كان لها.

وتنفس الشاب يقول: لكن الكاتب البعيد أو المتمرد يحمد الله أن يقترب وألا يطغى على الحقيقة بالتمرد، وأبى ألا أن يثيرني، يسألني عن كاتب المقال السياسي فقلت له نحن من جيل عرفنا كتاباً أربعة هم أبرع من كتب المقال السياسي الطويل، شاميان ومصريان سامي السراج وأيمل الغوري شاميان . . والدكتور محمد حسين هيكل ومحمد حسنين هيكل مصريان، أما المقال السياسي القصير فلبناني واحد ميشال أبو جودة وشامي تمصر داوود بركات ومصري من الصميم عبد القادر حمزة، وليس في ذلك ما انتقص قدر العقاد وإحسان عبد القدوس في المقال الطويل كما لم ينتقص قدر علي ومصطفى أمين في المقال القصير، غير أن صلابة الرأي بتطرية الأسلوب هي غير الفكرة الطريفة عن الواقع التي لم ترجع إلى التليد.

إن مقالاً للدكتور محمد حسين هيكل عن الزعامة المقدسة، مازلت أطلبه أجري وراءه لينشر اليوم، كتبه هيكل رداً على مكرم عبيد يوم لقب النحاس باشا بالزعيم المقدس، قالها يوم كان يصطفيه النحاس، ولكنه لم يحترم كلمته فإذا هو الذي دنس النحاس بشهادته في إحدى محاكم الثورة، مكرم تلحقه المعابة ونسأل الله المثابة للنحاس.

وعن الأمن والحج.. مازال ذلك ماثلاً إلى الآن ولكن دهشة كل من اتجه إلى القبلة عظيمة يسألون أنفسهم كيف استطاع عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أن يصنع هذا الأمن، حتى إذا عجبوا قالوا (تلك نعمة الله).

وكان الحج على الجمال يعيش الحجاج آمنين لا يدفعون إتاوة ولا تحرسهم خفارة وحين كثرت السيارات وتأسست الشركات وتوحدت الشركات، استراح الحجيج يمتطي السيارة ولم يعد الجمل مطية، والغيت القوامة والخراجة وأنعم الملك عبد العزيز على المقوم والمخرج بعون كلفت أن أقوم بصرفه كسكرتير لإدارة الحج وكعارف بهؤلاء المقومين والمخرجين، كلهم من حرب، وابن المدينة الحربية من الغابة للآبة والذي نشأ بدوياً يعرف هؤلاء.

ولعل من جزع أول الأمر حمد ذلك آخرالأمر، فإذا هم يعملون حضراً ويتخرجون من الجامعات دكاترة وفي الجيش والحرس ضباطاً وجنوداً، كان الانصراف عن كل مامضى هو النعمة لكل من هم فيه أو ما هم فيه.

وكلفت كسكرتير لإدارة الحج التي كانت مرتبطة بوزارة المالية والتي كلف محمد سرور الصبان بأن يديرها، وإذا نحن في جدة، وقد حلت البطاقات بقيمة ما يدفعه الحاج من رسوم وأجور فلزم الأمر بإلغاء ما كان سابقاً باسم الكوشان، وإذا المنة بعد ينهض بها عبد العزيز يلغي رسوم الحجاج فلا يدفع الحاج إلا رسوم الخدمات والسكن للمطوف والوكيل وما إلى ذلك.

وكلفت بأن أدير الحج لترحيل الحجاج في جدة وكان الحجيج من العرب يصلون بالبواخر من مصر ومن الشام ومن الشمال الإفريقي، وكان اجتماع رضوى بين الملكين، الملك عبد العزيز والملك فاروق يرحمهما الله قد تكاثر به الحجاج من مصر، بل وما فعله طلعت حرب لتيسير الوصول بالبواخر التي أعدها تابعة لبنك مصر، كان مساهمة في كثرة الحجيج. ولماذا أذكر ذلك؟! لأن فيها ذكريات لابد أن تذكر:

١ - دخل إلى مكتبي في جدة صديقنا ونحن في المدينة باشكاتب التكية المصرية محمد المرسي، الذي كان عشيراً لا يتخلف عن (بشكتنا) تعجبه طبخة (الشكشوكة) يصنعها منشي كرامه، دخل على غير محرم وصل من مصر وهو لا يحمل البطاقة، فأمسك صالح

نور مدير الجوازات جوازه، لأنه لم يدفع كحاج، وبعد أن سلم قال: يا أخ (نحن الآن بقينا إخواناً بعد ما اجتمع الملكان في رضوى قلت له: غفر الله لك، لقد كنا أخواناً بالشهادتين وباللغة وبالمسجد وبالأزهر، قبل اجتماع الملكين، وإن كنا نحمد للملكين ما فعلا، فالوئام بين كل العرب هو خير لكل العرب، وتلفنت **لصالح نور، محمد المرسي** باشكاتب التكية لا يعامل معاملة الحجاج سيذهب إلى المدينة وسيحج منها.

٢ ـ وتلفن إلى **أحمد جبر** القائم بأعمال السفارة المصرية: عندي **أحمد باشا عبد الغفار ومحمود سليمان غنام وجلال حسين**، تعال شرفنا ندبر أمرهم إلى مكة، وذهبت فأحمد عبد الغفار عضو الأحرار الدستوريين وأحد أعيان المنوفية من البيت الذي نما فيه أنور السادات ومحمود سليمان غنام أحد وزراء الوفد، دبرت أمرهما بالطلوع إلى مكة وإذا جلال حسين يقول لي: شوف الولد صالح نور سحب جوازي هو ما يعرف أنا صديق عبد الله سليمان وصديق محمد سرور فقلت له: والحاضرون يسمعون، صالح نور ما هوش ولد أدى واجب الوظيفة، أنت وضعت نفسك في هذا الموقف لم تحمل البطاقة فسحب الجواز، فإما أن تتلفن الآن لعبد الله سليمان أو محمد سرور يسمحون لك بالجواز وإلا أن تدفع المطلوب، وتكلم أحمد عبد الغفار بكل الصلف الذي يحمله: أنت جبت هذا لنفسك، فقال أحمد جبر:

أرجوك أن تتلفن أنت، وتلفنت لمحمد سرور وسحبنا الجواز حيث أعفى من الرسوم.

٣ ـ وكلفنا أنا وعبد السلام غالي أن نستقبل بعثة الطب المصرية، وتم استقبالهم برئاسة الدكتور عبد الرحمن عمار، ورجعت إلى مكتبي فوجدت مدير الشئون المالية في إدارة الحج عابد قزاز يرحمه الله، وقد ركبته أزمة لأن الشيخ يوسف ياسين قال له: لديكم أمر استقبال البعثة الطبية المصرية، لماذا لم تنفذوه، وما صبر حتى يتلقى الإجابة من عابد، كلمني عابد بذلك فطلبت السيد يوسف ياسين في الخارجية ومكتبها كان داخل البلدة، فإذا الصديق الابن فريد بصراوي وكان سكرتيراً للشيخ يوسف علي التليفون، قلت له: أخبر الشيخ يوسف أنّا أستقبلنا البعثة في الباخرة وكاذب من قال له غير ذلك مهما كانت قيمته، وبعدها بوقت قصير، كلمني فريد قال: لقد اتصل الشيخ يوسف بالسفارة المصرية وعرف الحقيقة وهي التي بلغت الخبر الأول وعلم أحمد جبر بذلك، وبالمصادفة كان محمد سرور بالمكتب فجاء أحمد جبر يعتذر عن هذا الخطأ، الذي أحرجنا مع الشيخ يوسف.

٤ ـ وجاء اليوم الثامن والسيارات قليلة وفي جدة ثلاثة عشر ألف حاج سوريون مصريون

مغاربة أتراك، واليوم يوم التروية ،والحج غداً، وتلفن إلى محمد سرور من الحوية في خدمة الملك عبد العزيز: ماذا لديك؟ قلت: ١٣ ألف حاج ونحن بعد الظهر ولا سيارات، قال: تفضل الملك عبد العزيز فأمر وزارة الدفاع أرسل لكم الآن الأمير منصور بن عبد العزيز ٥٠ سيارة أف دبليو تحمل الحجاج الذين عندك وألق القبض على كل سيارة فاضية، قلت له: تلفن لخليل هجانه مدير الشرطة يكون معي، قال: افعل ما شئت على مسئوليتي، فكلمت منتظر طرابزوني عن نهاية التفتيش في الباب وكلمت رئيس المطوفين: لا بطاقات، البطاقات بعد الحج، وكلمت محمد صالح أبو زنادة مدير الشركة، سيارات الدفاع ستحمل الحجاج، حساب الشركة بعد الحج على حساب الجوازات التي حجزتها عند صالح نور، ووصلت السيارات لم أتركها تذهب إلى بيت الوكلاء، كلمت النقيب عبد الله بنقش: أن الحجاج يحضرون إلى الكراج يركبـون بدون عفش فلا مجال للتـأخير وإلى عرفات مكثت في الكراج ومعي خليل هجانه، ولم يكد ينتصف الليل حتى رحل الجميع.

٥ ـ وتلفن إلى الشيخ يوسف ياسين في ذلك اليوم العصيب يقول لي قدم السوريين، قلت (لو قالها غيرك يا أبا عبيده) فضحك وفهم لأنه لا يمكن تقديم حاج على حاج يرحمه الله.

٦ ـ وفي صبيحة ذلك اليوم جاء الحجاج المصريون بكثرة كاثرة إلى مكتبي وهم يهتفون يحيا أبو السعود. . يحيا فاروق، فقال عابد قزاز يرحمه الله هيا فك العجة، ووقفت على الشرفة أقول: لا رفث ولا فسوق في الحج لبيك اللهم لبيك، لا هتاف لأحد أنتم في الحج اذهبوا وأرسلوا الوكيل مفيش هتافات، وانصرفوا. .

وذكريات أخرى ما نسيتها ولكنها ثقيلة تمس بعض الأفر اد من ناحية البطاقات. . وقد قال جل جلاله «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين».

وانتهت ذكـريات الوظائف. . خسرت فيها راحة النفس فما أسعدني يوم كنت معلم صبيان وما أسعدني حين أحلت إلى التقاعد، لأنها أعطتني أن أكون المتنفس ما أريد صواباً أو خطأً وأعمل بنصيحة شيخنا محمد عبد القادر الكيلاني التونسي فقد قال: اكتب رأيك صواباً أو خطأً وإياك أن تكون الكاتب النذل.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

خمسة ملايين ريال .. تطاردني!

وفارقت المدينة الجريدة، لم أفترق عن المدينة وطناً، وإني أجد نفسي في مكة المكرمة مكياً من أهل المدينة، مدينياً من أهل مكة، ولا يقتصر ذلك على المكتين لأني أعيش الحب لكل شبر من أي أرض عربية أو من كل أرض ارتفعت المآذن فيها وكثرت المحاريب والمنابر وعُمرت المساجد، فالأذان على المنارة إنارة، والقرآن في المحراب هداية ونور، والكلمة على المنبر إعلان وإعلام، إعلان الشهادتين وإعلام الإمام للمصلين يدعوهم إلى التمسك بالجماعة «إن يد الله مع الجماعة» و «إن يد الله على الجماعة».

وأكرمتني مكة، وأكرمت نفسي فيها، أمسك الطريق المستقيم لاهم لي إلا أن أقوم بالواجب على قدر الأستطاعة وألا أحرم الحق من واهب أو من سيد العمل، وما استطعت أن أعود إلى الصحافة كاتب مقال، لأن رؤساء التحرير ماكنت خليطاً بهم، فقد كانوا أول الأمرمن أهل الفوق.. عظامين فلم يتسعوا إلا لأنفسهم.

وكـان حمزة شحـاته يبتعد عن النشر، لأنه كان يرحمه الله عظامياً بثقافته يتعاظم على المتعاظمين، شعبياً تعاظم به الذين لم يكونوا من المتعاظيمن، عرفته في جدة يوم رحلتي إلى الهند، وكنت معجباً به، ولكن من هو الذي يستطيع إعجاب حمزة شحاته؟

وفي ليلة من ليالي الأقـامة في بيت الأفندي نصيف، وصل حمزة شحاته يزور صديقه الأستاذ حسين محمد حسين نصيف وسأل من هذا، عرفته باسمي ولعله قد سمع به من احترافي الخطابة ومن صلتي بجريدة المدينة، فأراد أن يمخض الزبد بأسلوبه الساخر فقال: إيش رأيك صادق عرنوس ماهو أشعر من شوقي؟ فقلت له ضاحكاً: هذا يعني أن شاعر المسفلة البنغـالي الذي يقيس ميزان الشعر بالمسواك هو أشعر من حمزة شحاته، وأعجبته الإجـابة لأن صادق عرنوس يرحمه الله كان يتعرنس في مجلة الفتح أما شوقي فقد افترس المثقف العربي من الخليج إلى المحيط، وقلت له: لقد تحدث إلى أحد علماء شنقيط حتى إذا امتد الحوار قلت للشيخ: أنتم أهل شنقيط حفاظ اللغة مازلتم أعراباً أقحاحاً في الصحراء الإفـريقية، لهذا حصرتم أنفسكم في شعـر الجـاهلية وأكـبرتم شعـر هُذيل، فقال العالم الشنقيطي: إذا قال المحدثون مثل هذا البيت حفظناً لهم وأنشد:

لكـــن أخــوخــيــل حمي صهــواتهـا

وأدار من اعــرافــهــا الهــيــجــاء

قلت له: هذا البيت لمحدث هو شوقي من قصيدته في رثاء عمر المختار، فقال: أولا ترانا لا نحفظ شعر شوقي!

ومرة أخرى كان حمزة شحاته يرفع خليطه ولا شأن له بالذين لم يختلطوا به. من هنا دفع الصديق عبد الله عريف إلى أن يكون بجدارة عرفها الناس له، كاتب مقال رئيساً لتحرير البلاد السعودية، وتوطدت الصلة بيني وبين العريف، فأخذت أكتب من حين لآخر في جريدة البلاد السعودية، وحمزة شحاته أعطي لعبد الله عريف سمعتين شهيرتين، فقد كان حمزة ليرفع من عريف يكتب بحثاً مستفيضاً عن الجمال بتوقيعه، ثم يكتب الرد على هذا البحث يعتمد المفارقة في الأسلوب ينشره عبد الله عريف موقعاً بإمضائه، والسمعة الثانية التي لم يكن حمزة الوحيد فيها، بل كانت هناك مشاركة من أحمد قنديل ومحمد عمر توفيق وكاتب الذكريات، ذلك طرح أفكار وتحليل شخصية يستوعب ذلك عبد الله عريف فأخرج كتابه تحت عنوان «رجل وعمل» عن محمد سرور صبان، أكثر الأفكار من حمزة ومن قنديل، أما الأسلوب فأسلوب عريف وإن كان بعض الحلية لواحد من هؤلاء حـتى تسمية الكتاب كنت صاحبها، فتوطدت العلاقة بيني وبين عبد الله عريف، وكانت أكثر توطيداً مع محمد عمر وأحمد قنديل، فقد كانا العون له في التخطيط للجريدة وإخراج الماكيت أول الأمر، أما

علاقتي به فلم تشبها شائبة، لانكاد نفترق، يسهر عندي وأسهر له، حتى أن تسع مقالات كانت حملة على زعيم عربي نقداً لموقفه من المملكة العربية السعودية أمليتها على عبد الله عريف وما تحاشيت أن أوقعها بإمضائي، ولكن عبد الله عريف نصح بأن تكون للجريدة لتصبح أشد وقعاً، فرضيت أمليها يكتبها ينشرها موقعة باسمه. ومن الغرابة بمكان أن رجلاً من الكبار قال لكبير مسئول إنه هو صاحب المقالات.

ويكفي كاتب الذكريات كما تقول العامة «نعيرها» حيث لم يركب بعيرها، بل عز عليه أن يركب عَيْرَها. وافترقنا ولذلك أسباب حتى إذا كان نظام المؤسسات واختاروني رئيساً لتحرير جريدة الندوة، لم أجد نفسي أن أكون لعبة لأحد فاستقلت وأكثر الناس علماً بذلك هو عبد الله عريف هو محمد عمر توفيق، هو العظيم الكبير الذي سأل حتى إذا عرف أنصف وكان السائل منتدباً منه محمد عمر توفيق فإذا أنا بعد ذلك أعيش في أمن ودعة وإن تكدر ذلك بعض الوقت، لأني كُلفت وأنا في مصر أن ألقي خطاباً في حفل تكريم لجمال عبد الناصر يقيمه السعوديون المقيمون في القاهرة، يشرف الحفل الملك سعود حين يصل إلى القاهرة من سويسرا، وكان التكليف بإصرار من محمد سرور وإبراهيم السليمان وعبد الله محمد الفضل فلم يقبلوا اعتذاري وكان من السعوديين من يستطيع ذلك.. فؤاد شاكر حمزة شحاته أحمد قنديل ضياء رجب، غير أنهم أرادوني لذلك.

ورأيت بطاقة الدعوة، لأن الأخ الأستاذ محمد خليل عناني، سكرتير محمد سرور، ورشدي ملانياز لديهما التنفيذ والاتصال بوزارة الخارجية المصرية، رأيت البطاقة وإذا فيها «الجالية السعودية» تدعوكم.. إلخ، فرفضت ذلك أقول لهما: العربي في أي أرض عربية ليس جالية وإنما هو مقيم في أرضه وإن اختلفت الزعامات وعدلت البطاقة، فأخذها رشدي ملا يستشير وزارة الخارجية المصرية، فأقروا ذلك، وقد دعى للحفل كل أعضاء مجلس الثورة والكثير من المؤرخين والأدباء والإذاعيين، واستقبل الضيوف خيارنا من السعوديين ليس أولهم السيد عبيد مدني وليس آخرهم عبد الله محمد الفضل.

وألقيت الخطاب، وتصنعت أن أكون قوياً فطلبت من عبد المجيد شبكشي ومحمد سعيد باعشن أن يكونا سنداً أتكىء عليهما لأحفظ نفسي من الأرتعاش وكان الشيخ يوسف يس حاضراً في معية الملك سعود يرحمهما الله، وخلاصة الخطاب هكذا..

ياصاحب الجلالة.. ياصاحب الفخامة.. أيها الحاضرون..

إقبال سعود واستقبال جمال يعني أننا الأمة الواحدة، «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» ياصاحب الجلالة.. من بلدك دار الهجرة المدينة المنورة تفرعت لمسيرة الفتح

قاعدتان، بعد عهد الخلفاء قاعدة في دمشق شرّق منها الفتح ولا سباب لم يعرب، وقاعدة الفسطاط «القاهرة» غرب منها الفتح فعّرب.

ياصاحب الجلالة وياصاحب الفخامة. . لئن قدس الدين إسلامنا مكة والمدينة وبيت المقدس فقد قدّس العرف والدم والتاريخ والمصير دمشق وبغداد والقاهرة والرياض وكل شبر من أية أرض عربية، لم تكن الكلمة الأخيرة أقولها لأول مرة فقد قلتها في المدينة المنورة وفي صالـون المـدرسة في حفل تكريم أقمناه نحن جماعة المحاضرات، تكريماً لأمين الحسيني ورياض الصلح وعزت دروزه وبشير السعداوي، زائرين للملك عبد العزيز وصلوا إلى المدينة مسجديين ومسلمين، كما قلتها وفي جماعة المحاضرات في حفل تكريم أقمناه نحن جماعة المحاضرات في تكريم شكري القوتلي يوم كان زائراً وحين كان صديقاً للملك عبد العزيز تغمدهما الله برحمته.

وانتهى الحفل، وكان ولدي الدكتور فيصل زيدان مازال طفلاً يجري وراء زكريا محي الدين ينادي: زكريا. . زكريا، هذا أبويا. . وابتسم زكريا، وكان صديقنا أحمد لاري في الصـدارة من الحفـل وبجانبه أحد الرجال الكبار من الرديف لمجلس الثورة يقول لأحمد لاري: ليس هذا خطابـاً إنما هو ميثاق، نسيت اسمه ولكنه كان في آخر أمره وقيل مراد غالب، سفيراً في الاتحاد السوفيتي.

ورجع إبراهيم السليمان العقيل السفير، بعد أن ودع الملك سعود وجمال عبد الناصر يخلع ساعة «فيشرون» من معصمه، يهديها إلي، وناداني عبد الله عبد الرحمن لنجاوي مدير مالية الرياض يناولني ثلاثمائة جنيه مصري عن أمر الملك سعود ولم يكن غير ذلك وكذبة كبرى أن كان غير ذلك.

وبخل علي العارفون بهذا السؤال طرحه جمال عبد الناصر على السفير: من هذا؟ يسأل عني، فسماني إليه فقال جمال: ماكنا نحسب أن عندكم مثل هذا، لم يقلها لي محمد سرور ولا إبراهيم السليمان، ولكن الذي قالها لي بعد ثلاث سنوات الصديق الوفي عبد الله السعد سمعها من إبراهيم السليمان في بيروت حين أقصى عن السفارة، لقد بخلوا بالمال فما لهم يبخلون بالثناء؟

تلك أيام مضت أتطرى بذكرها حين أستريح إليها، راحة العجوز الذي عاد طفلاً.

وتـأتي أضحـوكـة، لقد طبعت نسخاً من الخطاب تناولها الصحفيون، وجاء مندوب الأخبـار يطلب نسخة قلت: هيا إلى البيت وركب معي الصديق أحمد لارى والمراسل، وصعدت إلى الشقة أحمل النسخة أسلمها لمندوب الأخبار، فقال «هو أنت اللي كتبت هذا

الخطاب؟ فقلت ساخراً: لا، رحت لدرويش من دراويش السيدة بريالين كتب لي هذا الخطاب، فعرف السخرية، قال: آسف، قلت: هكذا كثير منكم لا يعترف بأن في العرب من يكتب أو من يخطب.

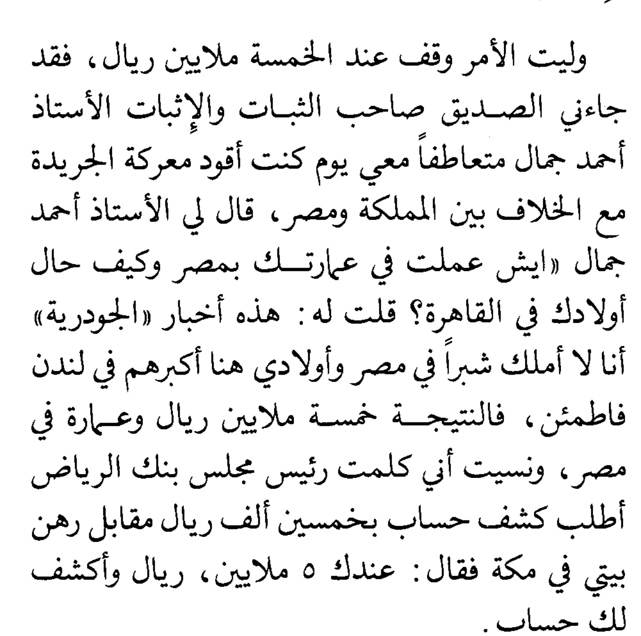
وكنت صديقاً لكمال الملاخ فسلبني وطنية السعودية، يكتب أن أصلي من أسيوط صعيدي ويعني ذلك أني البدوي لكمال الملاخ كما هو. سالف أهل الصعيد» وقال لي بعدها محمد سرور وأمام سليمان الحمد: استكثروك علينا، قلت: كلام جرايد، وإلا فأنا سعودي، لقد رفضت الإقامة في القاهرة يوم عرضوا علي ذلك بجعل وكان جوابي: هل كان أجر مباديء أم عمالة؟ إن المباديء لا تستأجر والعمالة لا أرضاها لنفسي، ماذا أصنع لكم هنا إلا أن أكون من مشرب إلى مشرب من كفتريا إلى أخرى، كما فائق السامرائي كما عبد الله التل كما فؤاد الركابي، سأذهب إلى أرض كل شبر فيها ملكي ولن أقيم في أرض أجدد الإقامة كل حين لا أريد أن أكون الأخير في بلد تعداده ثلاثون مليوناً، أريد أن أكون في بلدي قد أكون واحداً من هذا الرقم مليوناً أو خمسة ملايين، فالواحد من هذا المليون يشرفني وفي أرضي من أن أكون الآخير في نهاية الثلاثين مليون، ورجعت إلى بلدي أحمل ديناً بعث من أجل سداده بيتي في الطائف ٣٢ ألف ريال نصفه كمرفق للطريق ونصفه بعته عن طريق السيد علي عامر للصديق الأخ محمد باحارث ولم أستطع تسديد الدين كله، فزرت الملك سعود يوم كنت رئيساً لتحرير البلاد فطلبت تسديد الدين فمنحت ٢٣ ألف ريال وليس غيرها منحة من الملك سعود.

وجاءني الأخ عبد الله عريف يقول لي: لابد عندك الكثير، اكتب ماعندك وأرسله لعيد ابن سالم، قلت: ماعندي شيء ولو كان عندي لما اكتب لامثال عيد بن سالم، ولم أكتب حرفاً وعرفت بعد ذلك أنها كانت توريطة يغضب مني من لا يرضيه ذلك، وكان ردي فيه السلامة. وحسبي الله ونعم الوكيل.

وصلت مكة وكان راتب التقاعد ١٧٠٠ ريال أو على رأي العامة «بايدي فك حلقي» فزارني الصديق الوفي بعد ذلك والي كل ذلك، السيد عبد الله جفري أخذ مني حديثاً وكان مع الصديق محمد عمر توفيق الذي كان يدير مكتب جريدة البلاد في مكة يثق به رئيس تحريرها الصديق حسن عبد الحي قزاز، ولم ألبث إلا وقد جاء العون من الصديق محمد عمر توفيق يختارني فيرشحني مديراً لتحرير البلاد، فاستقبلني حسن قزاز بالترحيب والراتب ١٨٠٠ ريال فأصبح دخلي ٣٥٠٠ ريال، يكفي وزيادة يبحبح به كاتب الذكريات المتلاف.

وأضحوكة أخرى فقد قال الأستاذ فؤاد شاكر الشريك في رئاسة التحرير اسماً رديفاً لحسن

قزاز قال لمحمد سرور: كيف يرضى الزيدان أن يكون تحت حسن قزاز وعنده خمسة ملايين ريال، فأجابه محمد سرور «اتلهي على عينك، الزيدان مايعرف يجمع» وركبتني إشاعة الخمسة ملايين ريال فقد شكاني أحد الدائنين إلى مسئول فقال له: الزيدان ما ياكل حقك عنده خمسة ملايين ريال ارجع إليه يعطيك، وكربت، راتب التقاعد المجمد لتسعة أشهر ١٥٣٠٠ ريال وقيمة البيت ٣٢ ألف ريال ومنحة الملك سعود ٢٣ ألف ريال.. أجمعوها تجدوها ٧٠ ألف ريال لم تسدد كل الدين بقيت ٩ آلاف ريال عرفها محمد سرور فوهبني التسعة آلاف وتخلصت من الدين، ويعني ذلك أن إقامتي في مصر تكلفت بها الثمانين ألف ريال تقريباً ومع هذا لا زلت عند بعض الناس أملك خمسة ملايين ريال.. هيا ما أحسن هذا المثل «لأن أكون الرجل المحسد خيراً من أن أكون الرجل المشفق عليه»، فبعض الإشفاق شماتة.



وليت الأمر وقف عند الخمسة ملايين ريال، فقد جاءني الصديق صاحب الثبات والإثبات الأستاذ أحمد جمال متعاطفاً معي يوم كنت أقود معركة الجريدة مع الخلاف بين المملكة ومصر، قال لي الأستاذ أحمد جمال «ايش عملت في عمارتك بمصر وكيف حال أولادك في القاهرة؟ قلت له: هذه أخبار «الجودرية» أنا لا أملك شبراً في مصر وأولادي هنا أكبرهم في لندن فاطمئن، فالنتيجة خمسة ملايين ريال وعمارة في مصر، ونسيت أني كلمت رئيس مجلس بنك الرياض أطلب كشف حساب بخمسين ألف ريال مقابل رهن بيتي في مكة فقال: عندك ٥ ملايين، ريال وأكشف لك حساب.

وكنت مديراً لتحرير البلاد ثم رئيساً لتحريرها رضوخاً لأمر لا شهوة ولا إعتداء مني على الأخ حسن قزاز فلست الخؤون بل إني رفضت عرضاً يعطيني ملكية أسهم شركة التوفير والاقتصاد في جريدة البلاد. وعزلوني من رئاسة التحرير، ثم اختاروني رئيساً لتحرير الندوة فاعتزلت كما



حمزه شحاته



محمد توفيق

ذكـرت، وبأسلوب آخر أصبحت أذيع «كلمة ونصف» كان أجرها غيثاً. . وجاء التلفاز فتلفزت الأحاديث التي تعرفونها، ثم اختارني الصديق الكريم وزير التعليم العالي الشيخ حسن آل الشيخ عضواً في مجلس إدارة الدارة ورئيساً لتحرير المجلة، أباح لي أن أصدرها في جدة فأبيت ألا أن تصدر في الرياض والراتب كان ٣٠٠٠ ريال، تذاكر السفر منها وأجرة الأوتيل منها وأجرة السيارة منها وماعملت ميزانية خاصة للمجلة كما غيرها، وكربت كثيراً وصبرت أكثر ونلت الشرف عضواً في مؤسسة الملك عبد العزيز، فما أسعدني بهذا التشريف بأسلوب التكليف.

ولم تبق في الذكريات إلا واحدة عن الطفولة والإقامة والوطن وبيت الشعر والأب والخال.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

منثورات.. من هنا وهناك

ماتت أمي فأصبح لي أربع أمهات!
باع أبي حماره وغادر الصعيد إلى المدينة المنورة.

وتأبى الذكريات أن تنتهي، مع أني كنت أريد النهاية لها تحت وازع الحياة، يلزمني ألا أكون جهير الصوت أنطق من سكت الزمان عنه، فمن المعابة بمكان أن تثير فاضحة ولو كانت واضحة.

وجعلت العنوان منثورات استعرته وما سرقته من الكتاب (رياض الصالحين) للإمام النووي يرحمه الله.

●● المنثورة الأولى

عن هؤلاء الذين كانوا بأسلوب المعارضة، يساريين بينما هم اليوم طليعة اليمين في هذا

البلد الميمون، كأنهم قد عادوا لِنُحِبَّهُمْ أكثر، وإن كانوا ومازالوا على حرف، لأن جفوتهم لما تقضي عليها صفوتنا، ترحيب حين اللقاء وجفاء إذا ما خلوا يذكرون ماضيهم، فقد كنت في عداد الذين ليسوا وطنيين، حتى أن بعضهم وكان عضواً في مؤسسة البلاد، يلح على رئيس التحرير أبي فوزي عبد المجيد شبكشي، ألا ينشر لنا ما نكتب، لأننا.. ولأننا.. ولأننا، وكأنما نسى أن عبد المجيد شبكشي كان واحداً منا، إيجابياً لا سلبياً.

ولا أدري عن الفائدة من السلبيات، ألا يعرف أنه في المركز المرموق لم يصل إليه إلا بالإيجابية، قال لي واحد منهم وفي القاهرة: أنت من أصحاب الملايين.. قصور وعمارات، أما فلان فقد أدى، وأعوذ بالله من قوله، لقد أدى (مهمة نبي) وهو الآن لا يملك ما ملكتم، أنت وأعمامك وأمثالك، قلت له: هيا إلى الشهر العقاري أكتب تنازلاً عن كل ما أملك مقابل أن يكتب صاحبك التنازل عن نصف ما يملك، وبهت وأخذ يكابر (ايش.. ايش) وشرحت له بأسلوب المقارنة، فقال: ما كنت أدري، قلت ها أنت الآن تدري، فقال: يعني هو منكم؟!

قلت: يشرفنا أن يكون منا، ويكلفه الشطط أن يكون منكم.

●● المنثورة الثانية

وتلسن بعضهم، وقد أصبح من أصحاب الثقة والحظوة على الخادم المخلص للملك عبد العزيز عبد الله بن سليمان، قال: أهو بساتين في الخرج وحداء والشرائع، حتى أخذ بستان فرج يسر بجدة، وسمعت ذلك فقلت لمن أسمعني: لئن انتشرت البساتين في الخرج، فما كان ذلك إلا لأن الخرج ثكنة عسكرية سياج حماية للرياض وللطريق، أصبحت مدينة لها شأنها، وما أكبر شأنها الآن، ولم يكن ذلك إلا بأمر الملك عبد العزيز. أما حداء فقد كانت بؤرة لقطاع الطرق، فكم من جريمة ارتكبت في زقاق حداء، فاشتراها ابن سليمان وبأمر الملك عبد العزيز، سياج حراسة للطريق لا يأوي إليها شريد أو طريد أو قاطع طريق لأن الأمن للطريق بين مكة وجدة من دواعيه أن تكون حداء ملك الدولة، صوناً لها وصيانة بها، وكذلك الشرائع، مركز تفتيش وحراسة أمن بين الطائف ومكة يوم كان الطريق من مكة إلى الشرائع إلى الزيماء إلى العدوة اليمانية من الوادي (مر الظهران) الذي عند المضيق على رأس العدوة الشامية يسمى وادي الليمون حتى إذا سال بعد وادي الليمونه يسمى وادي فاطمة، يصل إلى حداء ثم إلى البحر، رأيته وقد سال في عام واحد إحدى عشرة مرة.

فالشرائع نقطة حراسة لا مكان نزهة، وأرض فرج يسر من أهل جدة الذي جلب عين الوزيرية من تخوم الرغامة، إلى هذا البستان كان من الواجب أن يكون ملكاً لابن سليمان،

اسماً بينما هو ملك الدولة فعلاً، حتى إذا عز لجامعة الملك عبد العزيز المكان كان هو الإمكان لأن تكون المكان الذي هي فيه الآن، كل ذلك لم يكن إلا بأمر الملك عبد العزيز، فحري أن تكون الجامعة في أرض هي قبل كل شيء وبعد كل شيء ملك لعبد العزيز ملك لجامعته وأرض الكندرة، كان شراؤها لا لفندق الكندرة وإنما لمطار الكندرة.

وأستوعب من سمع، أسجل ذلك الآن لمن لم يسمع من الذين ظنوا في أنفسهم أنهم بالسلبية والتلسن هم الوطنيون، بينما هم الآن بالإيجابية أصبحوا ملء السمع والبصر. والليالي من الزمان حبالى، ولا أريد أن أكون الحبلى ألا ألد هذه الذكريات، أخشى أن يقال (حبلى ولا تكاد تلد).

●● المنثورة الثالثة

عن هذا الطفل يكتب الذكريات عجوز لا يتطفل على أحد وإنما طفولته شيخوخة بالعدم الذي كنا نعيشه وشيخوخته طفولة بأحلام اليقظة التي يعيشها.

ولدت كأي طفل من أم بدوية قبلية اسمها فاطمة أبوها رجاء بن فضلون، قال لي خالي محمد بن فضلون إنهم من الفضول ومن عالية نجد، جده فضلون كان فارساً شجاعاً، ولم يزد على ذلك غير أن عشيرنا في حوش خميس ومن أكابر أهله، يوسف الجيار وهو من الأحامدة أهل الفقرة، قال جدك فضلون هو الذي يقول (خيالها يوم الزنابير فضلون إلي شرى عود القنا بالثنية) قال ذلك حين كسرت قناته فأشرى قناة بثنية من الأبل.

وماتت الأم بالديفتيريا فضاع الحنان. أعيش بالحنين وما عرفت الأنين، هل لأن كان الذين حولي من الأمهات وهم حول جدتي الكسيحة العمياء، وفي بيت الشعر وسط حوش خميس، هل كان كل واحدة منهن الأم الرؤوم؟ من هن؟ هن أربعة.. شماء ومنيرة الأختان لأمير عقيل حينذاك (سيف العوجان) ووردة وموضى زوجتا حليفنا بادي بن جميعان العمري من بني عمرو شرق المدينة، من أهل وادي الفرع والريان وأبو ضباع، كلهن أمهاتي.

ولا أدري كيف أصبحت الجدة العجوز موضع الرعاية من هؤلاء.. أزواجاً وزوجات، سهرة الليل عندها في بيت الشعر.

فهل كانت كبيرة القدر فعرفوا قدرها؟

ويوم كنت مريضاً بذات الجنب وفي ليلة افتتح المجلس محمد بن مطر، يقرأ في كتاب سمعت منه هذه الكلمة حفظتها وأنا طفل فما نسيتها وتلهيت أن أجدها في مرجع كما ذكرت من قبل، ولعل شيخنا أبا تراب يمدنا بالمرجع، يعلمنا عن مدى الصحة فيها، قال: قدم جمع من مزينة يبشرونه بنصر، فقال ﷺ (كما نحيت بينكم) يعني اسم واحد منهم، اسمه

نحيت، ولا زال هذا الاسم باقياً، فأبن نحيت لازال الشيخ في مزينة وصاحب الراية في قبيلة حرب كلها حين تجتمع إذا لم يكن هناك واحد من أبناء عسم، أفليس في هذا أعرف منه مكانة الجدة، وحنت علي الجدة تمسك بي لا أفارقها حتى ماتت، خافت علي من البرد لئلا أصاب مرة أخرى بذات الجنب، فبنت داخل بيت الشعر حجرة من الطين، تسعني أنا وهي لو وقفت لمس رأسي سقف الحجرة.

●● المنثورة الرابعة

وماتت الجدة فإذا أنا في كنف أبي وكان مزواجاً، وقد بلغت السابعة أو الثامنة من عمري ولقد تزوج والدي إحدى عشرة امرأة ولم يكن له ولد إلا من ثلاثة من زوجته الأولى التي عاشت معه طويلاً ومن أمي ومن زوجته السادسة. الزوجة الأولى اسمها (بختيه) نسبة إلى النوق البخت، وهي من قبيلة من صعيد مصر أبوها اسمه ضرار من أكابر الأحامدة وأثريائها، وعشت أسأم الجفوة من زوجات الأب، لكني وبعاطفة الأب قد تكون لدي عضل نفسي، أعتزل الزوجات في الدكان، كما يقول البدوي (حنا استجلال وهن استجلال) يعني الاستقلال، فسلمت من أن أحدث كدراً للوالد أو أجلب تكديراً للزوجات.

والدي من صعيد مصر ومن مديرية أسيوط ومن قرية (القطيعة) التي بدل اسمها فجعلها المطيعه ابنها الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية، فقد كان يرحمه الله نصيراً للقصر الذي يحمل بعض الكراهية للقطيعة لأنها لم تكن المطيعة للقصر كأنها بزعامة الباشا في ساحل سليم تقف حرباً على القصر، وكان لها ابن قبل محمد بخيت لم يطوعها كما طوعها محمد بخيت، لأنها لا تتواءم معه. فمن هو؟ هو الخديوي الثاني إسماعيل صديق المفتش الذي حكم مصر بنفوذ أخيه من الرضاعة الخديوي إسماعيل، فقد أرضعت أم المفتش إسماعيل الخديوي، فنشأ ابنها ربيب القصر وكأنه وقد أصبح عظامياً يحكم مصر فاستترك إن لم يقل له (أفندينا) فقد أصبح بالنفوذ الأفندي الوحيد بعد الخديوي، ولعل امه أنحدرت من القطيعة ترتزق في القاهرة وأحسب أنها هربت من الضيم، فإما أنها لا تملك أرضاً أو أن أرضها سلبت منها كما سلبت الأراضين من غيرها، السالب العمدة عبد الرحمن أبو كريشه لحساب أحد الباشوات، وكأن اسماعيل المفتش قد انطبق عليه قول شوقي:

فدعي الطير وحظاً قسماً
صير الأيك كدور الأنس
وإذا الخير لعبد قسم
سنح السعد له في النحس

البيتان من موشح شوقي عن عبد الرحمن الداخل عارض به موشح ابن الخطيب لسان الدين، فهل هناك نحس أشد من النحس الذي أصاب عبد الرحمن الداخل، وهل هناك سعد أنعم الله به على عبد الرحمن الداخل، وهل هناك نحس أشد من أن تكون أم اسماعيل المفتش مرضعة بأجر، وهل هناك سعد أن يكون هذا النحس نعمة على إسماعيل يحكم مصر؟؟

●● المنثورة الخامسة.

وما تنكرت لنسبتي للصعيد مصر، بل كنت فاخراً بها لأن قبيلي ترك أرضه حين سامه الضيم فوجد العزة في المدينة المنورة، ففي أيام العصا والسيف والبندق كان قبيلنا (القطايعة) لا ينالهم ضيم أنصفوا فانتصفوا، فكثير هي المواقف التي انتصروا لأنفسهم بها، كانوا تجاراً وحمالاً بنوا الدور وزرعوا البساتين انتسبوا إلى قبائل ثلاث.. الاحامدة.. أبو طقوش وقد كان تاجراً يشار إليه.. وضرار كما ذلك حسين عبد العال البارم، ملك الدور والبلاد جاراً لنا في البيت والبلاد وبيت أبو فرع والعامرية حسوبة وعيد فراج وحسن أبو الدهب وعليوه العقاسية.. زيدان ونور الدين شيخ الحمال وعمران وأخوه أبو زيد والعقالي وبخيت مزير، كل هذه القبائل عزوة واحدة ما ارتفعت عصا على واحد منهم إلا وكانت عصيهم تكسر تلك العصا، ولكن كيف وصل أبي إلى المدينة؟

لو تركنا السبب لقلنا وصل كما وصلوا، ولكن لا بد من إيضاح السبب، والسؤال ليس عن السبب وإنما هو عن هذه الكثرة الذين سكنوا المدينة من القطيعة وأبو تيج من أسيوط ومن مديرية قنا وليس من غيرهما.

لقد وصل والدي إلى المدينة قبل الثورة العرابية، يعني قبل احتلال الإنجليز، وقبل أوائل القرن الثالث عشر للهجرة كان عمره سبعة عشر عاماً، ترك أمه وأخاه الأصغر حسن وأخته وردة، هارباً من الضيم فالعمدة عبد الرحمن أبو كريشة ولعله من طهطا، فهو من مديرية سوهاج نصبه صاحب نفوذ لعله محمود سليمان باشا والد محمد باشا محمود، فقد أعلن العمدة ترحيل الشباب باسم الجهادية ليكونوا عمال تراحيل في أي بلد آخر، لتفرغ الأرض وليحتل الباشوات الأفدنة، أعلن أن من كسرت ثناياه لا يأخذ للجهادية فأمسك والدي الشاب دبارة ربطها في أصبع رجله وشبك الدبارة في ثنيتيه ينفض رجله يقلع الثنيتين ليصبح أدرد بلا ثنيتين، فعل ذلك ليبقى في أرضه يزرع طينه يحمي أمه وأخته، ولم ينفع ذلك فقد أعلنوا أن مكسور الثنتين لا يعفى من الجهادية فباع حماره (الحصاوي) بستة جنيهات ومركبه رجلاه والثوب جلده ينحدر إلى أقصى الصعيد يصل إلى القصير على الساحل البحر، يركب سفينة شراعية وإلى ينبع البحر مشى على قدميه ولكنه ركب الجمل من ينبع إلى المدينة وترك

أخاه الأصغر لايدري عن أسرته شيئاً، وإذا بالعمدة يعلن أن الأعور لا يؤخذ للجهادية، وشب عمي حسن زيدان وخاف أن يأخذوه فوضع رأسه على فخذ أخته ورده فقلعت عينه اليسرى يصبح أعور فلا يؤخذ، ولعل غيره فعل ذلك، فأعلنوا أن الأعور يؤخذ فهرب كما هرب أخوه ووصل إلى المدينة.

أي ظلم كهذا، ولماذا حل هذا الظلم على قرية القطيعة؟ إنها تابعة لمركز أبو تيج، وأبو تيج تحت نفوذ ولد السليني، وسيدهم يوم ذلك محمود سليمان باشا، فلم يهاجر من مديرية أسيوط إلا واحد هاجر من البندر وهو أستاذنا حافظ القرآن الذي كانت إليه الرحلة حسن الشاعر، ولم يهاجر من الباقور وهي بجانب القطيعة كما هي بلد الشيخ أحمد حسن الباقوري يرحمه الله، لم يهاجر منها إلا واحد اسمه عبد العال الباقوري، ولكن الهجرة ما أكثرها من أبو تيج ومن القطيعة، ولم يكن لغير هذين الاسمين من هاجر إلى المدينة، لقد كانوا الكثيرين في المدينة، من مديرية المنيا لم يهاجر أحد، فهل كان الشيخ تمي وشعراوي وململوم وعمر سلطان يتعاطفون مع لابس اللبدة الفلاح فلم يقسوا ولم يضيموا فهجرة الصعيدي إلى المدينة من أسيوط كما ذكرنا ومن قنا فليس أحد من سوهاج ولا من المنيا ولا من أسوان، الهجرة من قنا لم تكن من ضيم حاكم، وإنما من قسوة العيش من المعارك بين الحميدات وهم من جهينة بقية الدولة التي أسستها جهينة جنوب مصر وشمال السودان، وبين الأشراف الحجازيين الذين تركوا المدينة لأبناء عمومتهم وسكنوا مديرية قنا، فأربوا على مئة ألف، وكانوا أصحاب الشوكة يستفحل العراك بينهم وبين الحميدات فإذا قبيل ثالث وهم الجبلاويون، كثرالمهاجرون منهم إلى المدينة.

فلماذا كان ذلك؟ كان من الضيم واحتل الإنجليز مصر فرجع والدي إلى القطيعة يترك أخته مع زوجها ويحمل أمه وابن أخيه محمد حسن زيدان إلى المدينة آمناً، فلو لم يجد العيش الرخي في المدينة وما ملك فيها لعاد إلى وطنه، فقد انتهى العمدة وسكن الباشا محمود سليمان القاهرة في بيته الكبير في شارع الفلكي، ولعل محمد باشا محمود ابنه كان لديه ردالفعل فإذا هو النبيل يرفع الضيم يفتح باب بيته لكل من هو من الصعيد ولا يستقبل عدلي يكن وعبد الخالق ثروت وأمثالهما إلا بتحديد موعد أما أهل الجلابيب واللبد فالبيت مفتوح. كثير من الأبناء يأخذهم رد الفعل لئلا يكونوا كما آباؤهم.



الخديوى اسماعيل

وكان والدي قوي العضل عصب وعظم وقليل من اللحم طوال يستعمل عقله لتفعل يده، كم هي الحكايات التي حاز النصر فيها، هي أكثر من معركة لكني أذكر هنا معركة العقل حمل بضاعة من ينبع البحر إلى الفريش، مركز الجيش العربي بقيادة الشريف علي ابن الحسين يوم حاصر المدينة، كما وادي العيص مركزاً للجيش بقيادة الشريف عبد الله بن الحسين كانت البضاعة بقيمة ألف جنيه ذهباً، ثلث الألف ملكه والثلث للشيخ حسن موسى وشريك ثالث سليمان الناقور، وهما مكيان من شعب عامر.

وفي آخر الأيام قد باع البضاعة كلها جاء إليه شخص يعرفه اسمه جربوع من عبيد بني على أهل العوالي كان يقعد الطريق هو وزميله العليبي بين المدينة والعوالي ينهب الضعفاء، وقف جربوع ووالدي كان يعرفه: سلام ياحسين، أهلاً ياجربوع، قال: حسن أبو تيج زعلان منك هو مسجون عند منديل عبد الشريف على قائد الخيل زعلان يقول حسين زيدان مازارني، وعرف والدي المكيدة إذا وصل إلى المخيم أمسكوا به يسلبون ماله يسجن بتهمة أنه يسابل إلى المدينة معينا لفخري باشا، فقد سلبوا مصطفى عزوز مرتين وقتلوا حسن أبو عوف أخو محمد سعيد أبو عوف، لصلته بحسين ابن مبيريك أمير رابغ عن طريق بخيت ابن بنيان، عرف ذلك والدي فقال أخي ياجربوع تدري عن حسن وما تقوللي، هيا اسبقني أخذ معايا رأس نيف وعيش وبصل أتغدى أنا وحسن هناك، وفرح جربوع بالصيد فذهب وما تريث والدي لم تبق عنده إلا ستة صناديق شاهي، أسرع إلى عابدين بغدادي وخليل بصاص، عندي ستة صناديق شاهي تشتروا، وكانت قيمة الأوقة اثنين وثلاثين قرشاً، قالوا نشتري بثمانية وعشرين، فباع وقبض الثمن ذهباً يربطه مع الذهب حول ظهره وبطنه، وذهب إلى الخيمة يلبس عباءته وسيفه ويشق الخيمة من الخلف يترك بابها مفتوحاً والميزان تركه ليطمئن جربوع لو أتى لم يذهب غير بعيد، فوجد جمالاً من الرحلة يقول أنا في وجهك ياابن أخي تراني دخيل ضربت واحد مكاكوي وأخاف من منديل، وأشرع الرحيلي بندقية وقال: أنا ماني ذاهب لينبع سأمر على الديرة أجلس عند المعزبة ثلاثة أيام فقال حسين زيدان: هذا ما كنت أبغى صرت دخيل وضيف، وركب جمله ولم يبعد حتى انحدر البدوي إلى شعب من شعاب وادي سجسج بعد الصدارة وجلس والدي ثلاثة أيام، الخبز ملة وتمر وعسل ولبن، وركب إلى ينبع وصلها، وقد تيقن أنهم تبعوه إلى ينبع ليمسكوه في الطريق، وقبل أن يدخل إلى البيت ذهب إلى بيت الشريف معلا، من أشراف ينبع النخل ذوي هجار، دخل عليه دخيلاً يحميه، وكان يعرفه فقال: بلغني أن جربوع ومحمد شربه في ينبع أذهب وقل لهما أنا في وجه معلا واسحب سيفك إذا لم يقوموا راحلين قطعهما وأنا وراك ووصل

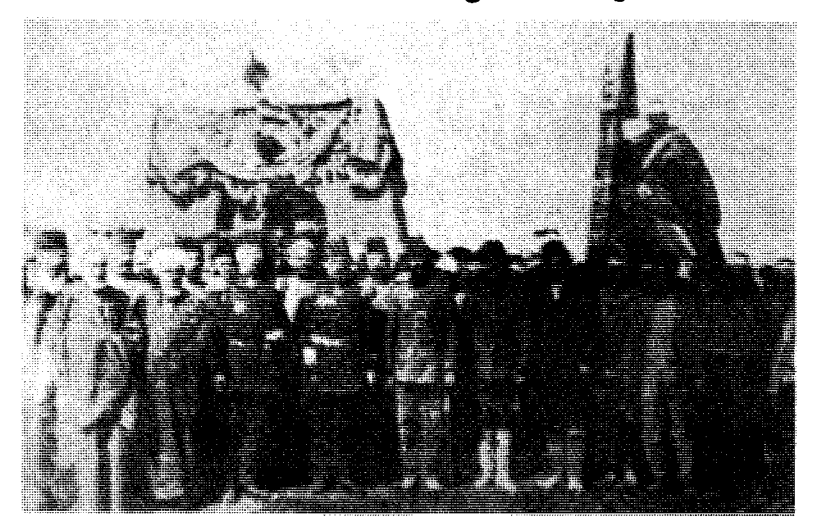
والدي إلى المقهى فدهش محمد شربه وجربوع ، محمد شربه خان الجوار هو من عبيد العيون وكنا نلعب مع بناته أطفالاً في القاضية وأرض محبت، وقف والدي يقول: أنا في وجه معلا قوموا ووالله إذا لم تركبوا خليكم وترجعوا إلى الفريش لقطعتكم الآن وسحب الجردة، فرجعوا خائبين وقد سمعوا منه أنه لن يعود إلى الفريش سيبيع ويشتري في وادي العيص في جيش عبد الله بن الحسين وقد كان أشد أمناً من الفريش.

عمل العقل وعزيمة الفعل يوم كانت العزة للكامل والهوان للخامل.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

المنسيات العشر..

كشفت سر «ذئبة المهل» فنلت الشكر.. والانكار أيضاً!



الذكريات

ذكريات منسية

ذكريات منسية، ليس ذلك من نسيان الذاكرة، وإنما هو من تناسي إنسانها يرتاح إلى نسيانها، ولكن الخاتمة لهذه الذكريات بعد هذه تكملت الأربعين فرضت علي، أن أذاكر الذاكرة كأني طالب دخل الامتحان ليخرج بنتيجة تحفظ عنه ولا تجلب الحفيظة عليه.

المنسية الأولى: وأصبح الحجاز وبقداسة الحرمين الشريفين دار هجرة للكثير من المسلمين والقليل من العرب، فبعض الذين هاجروا من قديم وصلوا إلى الحرمين فاختار بعضهم مكة واختار أكثرون المدينة المنورة، فالقدامى، كبيت البري وبيت براده وبيت هاشم وصلوا إلى المدينة فاتصلوا بالمسجد يعلمون فيه ويتعلمون، جاءوا وفي يدهم عراقة وفي جيوبهم مال، فتأصلوا، مئات الأعوام وأعطتهم الأصالة، فلم يجحفوا لأحد وما طوعتهم الفرامانات وما تعاصوا بالفرامانات.

ولكن كيف اتسعت الهجرة إلى المدينة وما أسبابها؟

المنسية الثانية:

وكما قلت، فقد كانت الهجرة أولاً للكبار زروق باشا المغربي. . السخاوي «الزمخشري صاحب الكشاف. . مُلا علي قاري الهيتمي. . ابن حجر. . ابن فرحون، هجرة طاعة وسكنى تقرب.

المنسية الثالثة:

ولكن الاستعمار للأقاليم المسلمة كان ضيماً حمل الأفغانيين والتركستانيين أن يصلوا إلى مكة وما أكثر الأفغانيين فيها حتى بنوا حارة السلمانية في مكة وحارة السلمانية في الطائف، وقليل منهم كان في المدينة، فهجرة التركستانيين من ضيم روسيا ومن استبداد العملاء وهجرة الأفغانيين من ضيم الحرب التي شنها الإنجليز عبر الهند أيام حبيب الله الملك.

أما ترك الأناضول فلم يتكاثروا، وهجرة الأفارقة كانت من ضيم الاستعمار. . إفرنسياً على الشمال الإفريقي، أعني العرب المسلمين، كما هجرت الأفارقة ماليين سنغاليين نيجريين وما إلى ذلك، ولم تكن من السودان العربي هجرة، بل كان طلب العيش وبعض الضيم امتدت به هجرة إلى السودان قبيلاً عربياً ما أكثره أو سيداً عربياً ما أجله، فالتونسي والجزائري والمراكشي وصلوا إلى المدينة أثرياء، بنوا الدور منهم طلاب علم ومنهم العلماء ومنهم أهل زرع وضرع.

المنسـية الرابعـة :

أما العرب فقليل هاجروا إلى المدينة، ضيق العيش في حضرموت جلب الكثيرين من الحضارم سكنوا مكة وجدة لم يكن في المدينة منهم احد، إلا السادة العلويون، كثروا في مكة والمـدينـة، كما تكـاثروا في اندونسيا وماليزيا، فأهل الشام قد حماهم من الضيم في عهد السلاطين العثمانيين حكام منهم، فبيت المؤيد العظم وهم في الأصل البانيون (ارنؤوط) كانوا الحاجز للضيم من السلاطين لأن بقاءهم في السلطة جعلهم في حاجة إلى الشـعـب، كما بشـير الشهـابي في لبنـان كما الجـزار في عكـا كانوا الحماية والوقاية وإن لم يسلموا من الاستبـداد، فقلت الهجـرة من الشـام، وبعض الذين وصلوا للمدينة كانوا تجاراً اعتزوا وأعزوا، من أشهرهم بيت الخوجا والعطية والطربيشي وعبد الحكيم والمفتي

المنسية الخامس :

أما الهجرة من مصر، فكانت على العكس، فقبل أن يحتلها الإنجليز كان الضيم والفقر سبب الهجرة من صعيد مصر.

كما ذكرنا من قبل وحين استعمار الإنجليز مصر أيام الخديوي توفيق وبعد هزيمة الثورة العـرابية، لم يهاجر أحد من صعيد مصر، أما من شمال مصر فقد وجدنا في المدينة بيت الجلوني الذين كان لهم بستان الجلونية وخيف السيد والبيت الكبير في باب الشامي، ومحمد بدوي والد عبد الحميد باشا لم يطل بهم زمان فرجعوا.

فلئن كان الاستعـمار ضيماً أكثر الهجرة من الذين أضامهم، فإن الأمر قد أنعكس في مصر، سلبية الصعيدي ضد الحكام والعمد، فلم يخضعوا لطغيان الأهل، وأزاح عنهم الـطغيان المستعمـر، وتلك غريبـة، ومن الغرابة بمكان أن ما جرى بعد من حرب على الاستعمار الانجليزي كان انتصاراً لمصر، بل وكان به النصر لثورة عرابي، فلئن هزم أحمد عرابي، فلقد انتصر الذين كانوا به، فإذا هم بالانتصار كانوا له.

المنسية السادسة :

أما اليمن فما وصل إلى مكة إلا علية من اليمنيين وقليل منهم كانوا الحرفيين.

وهكذا عمر الحجاز بحواضره، غير أن الفصام بين الحاكم والحاضرة، رسخ الخصام بين الحاضرة والبادية فامتن الله على الحجاز، بل وعلى جزيرة العرب كلها بوحدة هذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية.

المنسية السابعة :

وسمعنا ومن الأستاذ مصطفى الصباحي يرحمه الله، هذه الصورة المضحكة «كاريكاتير»

لم تكن مصورة على الورق كرسم تشكيلي وإنما هي قد صورت بالكلام، قال: كان الفلاح من أسيوط جالساً في ظل شجرة يرتكز على عصاه (الشومة)، فوقف عليه فلاح آخر من جماعته. . (سلاموا عليكم) فقال الجالس (وعليكو سلام. . ومنين جاي) (من المديرية) قال الجالس (وايه هناك؟) قال الواقف (معلقين) قال الجالس (وليه) قال الواقف (الكبير اللي في مصر جاي) قال الجالس (عاوز إيه؟) قال الواقف (جاي يطل) قال الجالس (هو بتاعنا وألا اللي ركبوه الا نقرين) قال الواقف (اللي ركبوه الا نقرين) فقال الجالس بسخرية (يعني وحشناه قوي) هو يعني بكلمة (بتاعنا) الخديوي عباس أما بتاع الانجليز الملك فؤاد.

وهكذا تعطيهم هذه الصورة المرارة من الاستعمار الإنجليزي ومن القصر، ولعلهم لم يحبوا عباس من قبل ولكن عزله من الانجليز رفع قدره لديهم.

وهكذا الشعوب بعضها خضع لضيم المستعمر حيناً، فإذا هو بالخضوع المؤقت يناضل ليقود حرباً على المستعمر، وبعض الشعوب يخضعهم الذين تزعموا، فإذا هم العاجزون عن محاربة هذا الزعيم لأنه يستطيع وهو ابنهم أن يشطرهم أشطاراً، كأنما الشعب بزعامة ابنه، يقتل نفسه عجزاً عن المقاومة بل وحتى العجز عن الصبر.

إذا عقك الأدنى الذي أنت حزبه
فوا عجباً إن سالمتك الأباعد
وظلم ذوي القربي أشد غضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

المنسية الثامنة:

وقلنا من قبل إن الاستعمار أثار الشعوب عليه، بل وحد الشعوب التي استعمرت تحاربها، (حمل عصاه ورحل)، أما الاستقطاب فقد فرق الشعوب، فباسم الصداقة وضع الزعماء الذين تفرقوا في وضع لا تحمد عقباه، وعجيبة أن المستعمرين كبريطانيا وفرنسا تصوروا أن الشباب من الشعوب المستعمرة لهم سيكونون عوناً لهم على شعوبهم، وقد انعكس الأمر، فالشباب الذي تعلم في بريطانيا وأجاد اللغة الإنجليزية أو الذي تعلم منهم أصبحوا، وهم الحرب على الاستعمار. . غاندي ونهرو. . محمد محمود ليبولد سنجور، عباس فرحات. . نيكروما. . وأمثال هؤلاء، هم الذين حاربوا الاستعمار فأنالوا شعوبهم الاستقلال، كما أن الاستعمار ترك الأثر الوخيم حين عمد إلى المستضعفين فجعلهم جنوداً، قد كانوا حرباً معه ينصرونه أصبحوا اليوم يحاربون شعبهم بالثورات حيث تعددت الزعامات.

والمثل أضربه بطائفة السيخ كانوا الجنود لجيش الإنجليز وهم الآن كما أمثالهم أصبحوا الحرب على شعبهم وأرضهم، هذا المثل أستطيع ذكره، أما الأمثال الأخرى فمازلت فيها أو عنها أو بها الضفدع في فمه ماء ولكن أضواء التاريخ مازالت واضحة فاضحة.

المنسية التاسعة:

والسؤال هنا كيف قرأت وماذا قرأت؟ كنت ولما أبلغ العشرين مشغولاً بدرس المسجد عزوفاً عن القراءة، مشغولاً بالحب طاهراً عفيفاً ولكن جريدة (ألف باء) الشامية وقعت في يدي صفحة منها، اتسخت بالحلاوة الطحينية يحبها أستاذنا أحمد صقر، رمى الصفحة فأخذتها لا ألحس الحلاوة وإنما لحست المكتوب، وقرأت هذين البيتين لشاعر عراقي:

أنت عندي بمنزل لم ينله غير سلمى وابنها إسحاق

أنا مخرمبق وغير عجول ولقد طال في الهوى خرمباقي

وأخذتني الكلمة (خرمباق) فوجدتها وكأنها الذي أعد نفسه متحفزاً متطلعاً يريد أن يصل إلى سلمى وابنها إسحاق، من يومها تتلمذت على القراءة التي أنا مدين لها بكل ما أعرف، قرأت الكثير من كتب التراث والكثير من كتب الميراث وكل المجلات والكثير من (الجريدات)، لا أنام إلا قارئاً حتى كان الكتاب هو الصديق:

فخير صديق في الورى سرج سابح وخير رفيق في الأنام كتاب

المنسية العاشرة:

وفي مدينة لكنو في الهند وفي مكتب أستاذنا تقي الدين الهلالي وقد كان في ندوة العلماء، وجدت دائرة المعارف مجزأة يصدرها الجامعيون مترجمة عن الإنجليزية، فوقفت عند التعريف (بجزر المالديف) وضعوا ترجمة التعريف وكأنما هم قد استعانوا بشيخ العروبة الأستاذ أحمد زكي، فإذا على الهامش هذا الشرح (جزائر المالديف هي جزر «ذيبة المهل» فأصبحت بالإضافة وبلغة الأعاجم «مهل ذيبة» لتصبح مالديف) حفظت هذا، ورجعت إلى المدينة المنورة فإذا في مجلس الإدارة قضية وهي أن تقرير هذه الجزر كحجاج مدون بالاسم العربي بالفرمان لبيت السيد مكي بافقيه يرثه ابنه السيد عبد الله بافقيه، ورأى أحدهم على الخريطة المجغرفة هذا الأسم (جزر المالديف) فطلب أن يمنح له حجاجها كدليل لأمر ملكي، وصدر الأمر يعطيه أن يكون الدليل لجزر المالديف، فشكا السيد عبد

الله بافقيه وأحيلت الشكوى إلى مجلس الإدارة فالسيد يقول إنها جزائر ذيبة وليست على الخريطة بهذا الاسم فاستفتى مجلس الإدارة أستاذنا أحمد صقر مدير المدرسة وأستاذ الجغرافيا، ولم يتسع له البحث لعله موجود في كتب الرحلات كما هو موجود في دائرة المعارف ودائرة المعارف موجودة في مكتبة المدرسة، فأجابهم رحمه الله : ليس على الخريطة هذا الاسم (ذيبه)، فلم يكن لكن السيد إبراهيم عطاس تحدث إلي عن ذلك، فكتبت له شرح شيخ العروبة على هامش دائرة المعارف بأن جزر المالديف هي جزر ذئبة المهل، ووثقت الإجابة بالمصدر والصفحة فصدر قرار مجلس الإدارة بعودة الحق لصاحبه، ولم أنل مكافأة إلا شكر السيد عبد الله بافقيه وإلا نكر السيد إبراهيم عطاس الذي أثار علي ثائرة كما أسلفت في هذه الذكريات، وبقيت المنسية الهامة رحلتي إلى الولايات المتحدة فهي الحلقة الأربعون الخاتمة.

ولربما يسألني من يكتب المقدمة؟ فأقول المقدمة كتبها الذي أحاط بي من كل جانب واحاطني بكل الجوانب كاتب المقال في مجلة قافلة الزيت واردفها بتقريظ من الأستاذ عايض الردادي فلا حاجة إلى مقدمة غير هذين.

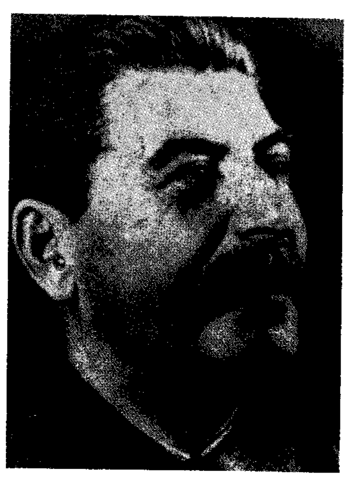
ملحوظة

وفي سالف الذكريات جاء اسم الشيخ مأمون بري فأرسل إلى حفيده أنور عبد الغني بري صورة للشيخ مأمون أنشرها تقديراً لجده وشكراً له.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

رحلتي في بلاد العم سام
كنيدي قال لا .. فاغتاله اليهود..


جون كنيدى


ستالين

رحلتي إلى الولايات المتحدة

ورحلت إلى الولايات المتحدة، ولم أكن غادرت بلدي من قبل إلا إلى مصر والهند، إلى مصر أكثر من مرة والهند قبل الولايات المتحدة ثم رحلة أخرى بعدها، كنت على اتصال بصديقنا عيسى خليل الصباغ الذي كان سفيراً بلا سفارة، يثق به الذين تعاملوا معه كما وثق به حينذاك سفير الولايات المتحدة (باركر هارت)، وهذا السفير فيما عرفته منه وعنه كان من الذين يحبون للولايات المتحدة أن تكون صديقة مصادقة للعرب حتى أنه تعلم العربية بلغة الخطاب، ولعله أقصي عن مكانه في وزارة الخارجية بعد من غطرسة اليهود، فقد كانوا حرباً عليه كما كانوا الحرب على عضو الكونجرس السياسي البارع (فول برايت) وعلى كثير غيرهما من الذين لم يتصهينوا فلم يصهينوا. يسكتون عن نصح الإدارة الامريكية، لأنهم يلتزمون بالولاء الواحد والإخلاص لامبراطوريتهم.

فما زال رجال الولايات المتحدة من أجناس شتى، تأمركوا يخلصون لوطنهم الجديد، ولربما مشرقي تأمرك لم يكن مثل بولندي أو ألماني أو أيرلندي تأمرك فالمال في يد اليهود يصنع الميل لهم، ولكن بعض الأمريكان لم يستأجرهم اليهود.

ورحلت أصل إلى لبنان (لبانة أخنوخ) الجنة وارفة الظلال لا تكاد تطأ أرضها إلا ويفوح عبير الصفصاف والأرز والتفاح، لتلتفت وراءك تذكر الفينيقين الكنعانيين القحطانيين الذين ملكت سفنهم البحر الأبيض والذين بقيادة (هاني بال) (هانىء البال) القرطاجي فينيقياً، عربياً، احتل روما، فإذا النهر يطلقون عليه اسم (طبرية) أي نهر التيبر، وهكذا العربي يحمل الاسم العزيز عليه يسمى به نهراً أو مدينة أو جبلاً أو أرضاً كاملة باسم المسمى الحبيب إليه.

ومكثت في بيروت التي تقادم عليها العهد فظلت فتاة بارزة النهد؟ جنة أصابتها جُنة، بجنون أبنائها الذين اختلفوا طوائف وائتلفت كل طائفة مع من يستقطبها لتدمر لبنان، فلو ائتلف مرة أخرى لما كان جيش ماروني عميلاً لإسرائيل ولما كانت طائفة تطوف حول وثق حسبته قد صنع بيد الطهر، فإذا هو قد صنع بسلاح القهر.

وتلفنت من بيروت إلى سفارة المملكة العربية السعودية في روما المحطة الأولى التي أنزل فيها أركب منها إلى المحطة الثانية في ألمانيا الغربية، وما أشد قلق بيسمرك، أعني تاريخه، وما أشد دموع هندن بورغ، أعني عسكريته، حين يسمعان أن ألمانيا قد انشطرت شطرين، شرقي وتبلشفوا بالقهر، وغربي يتأمرك ليزول القهر، كما ظنوا، تلفنت إلى سفارتنا في روما أسأل عن الابن الصديق السيد ماجد البرزنجي لاستقبله في المطار حين يستقبلني يشتد به

أزري أفرح برؤية واحد من وطني ولم أجده، حل في مكانه ابن صديق هو الذي أجاب وهو الذي استجاب وأسمه عبد العزيز بن ناصر بن عبد الله العقيل، هو ابن المدينة ولدها فلم تلده عنيزة، حتى أبوه لم تلده عنيزة بل ولدته المدينة، والمدنيون قد يتباعدون داخل مدينتهم ولكن ما أشد ألفتهم ورعايتهم حين يتلاقون خارج المدينة، ولو لم يبتعدوا إلا قيد مرحلة، واستقبلني عبد العزيز بن ناصر العقيل، وتعمد أن يكون نزولي في الفندق (جراند أوتيل) لأن فطنته وذوقه جعلني أنزل هناك لأن الأمير فيصل بن عبد العزيز

وقد وصل من أمريكا كان قد نزل في هذا الفندق، وبعد وقت قصير تشرفت بزيارة الأمير فيصل بن عبد العزيز تغمده الله برحمته، سألني: ماذا لديك؟ ماذا هناك؟ قلت: كل ما هناك وكل من هناك ينتظرون وصولك فالأمل معقود عليك، وكان ذلك الوقت والحرب في اليمن شديدة الوطأة، وقد كانت المملكة العربية السعودية فيها ولها لئلا، تكون بها، وسأل أكثر من سؤال، ولعله استحسن الاجابة (وما كل ما يعلم يقال)، شعرت بسكينة آمنة حين وجدتني في كنف الرعاية منه أميراً وملكاً.

ووصلت هامبورج أقصدها عمداً لأرى ولدي فريد زيدان الذي هو الآن دكتور فريد محمد حسين زيدان الأستاذ في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، والمكلف بما يشرف به الرجال، وقد كان في مدينة (لنابورج) يتعلم اللغة الألمانية، فقضى دراسته في الكهرباء في مدينة (كارلسرو) فركبت السيارة من هامبورج إلى لنابورج تمتد يدي إلى سائق السيارة بشىء يمتصه فامتنع يشير بأنه لا يتلهي عن القيادة فالطريق زحام، وكان طول الرحلة أكثر من مئة كيل، حتى إذا ابتعدنا خلا الطريق من البشر، أخرج سيجارة يمتصها، أكبرت ذلك منه وتذكرت أن سائق سيارتي في جدة وهو من بلحارث من أشرافها، وكان زوجاً لابنة خالي على بن رميضان الرميح، يسكن في ناحية من بيتي في الكندرة، تذكرت أن أطفالي ركبوا معه، ومعه ابنته الطفلة يسوق السيارة ويميل بعد لحظة وأخرى يلتفت إلى ابنته يقبلها كان الفرق كبيراً بين السائق الألماني لا يشرب السيجارة في الزحام كل همه قيادة السيارة، وبين السائق العربي يقبل ابنته وهو يقود السيارة، وما دام الشيء بالشيء يذكر، وكما تقضي به الذكريات، فقد رأيت وأنا نازل من الهدى سيارة نازلة مثلي، بعض أسرته في الخلف وزوجه بجانبه، أمسكت (اللي) تناوله زوجها سائق السيارة المنحدرة من الهدى يمتص الجراك، ألم يصبر حتى ينتهي من مهمته؟ ! ذلك لم يمتص السيجارة وهذا يمتص الجراك.

وفي الشارع العام في جدة، وأمام بيت سالم بن محفوظ رأيت سائق سيارة شاباً أخرج المشط يسوق السيارة وينظر في المرآة يسرح شعر رأسه وهو يسوق في شارع ما أكثر زحامه.

هكذا الفرق بين من يحترم المسئولية وبين من يحترف الترف ولا يحترم المسئولية . . وعدت إلى هامبـورج أصل بائعة التذاكر يدلني الطريق يترجم لي شاب لعله الدكتور القطان أو أخوه، قلت: أريد السفر إلى برلين لأرى السور شطر برلين إلى شطرين، لأشاهد ما فعلته غطرسة استالين على (ترومن) و (هتلر)، على الولايات المتحدة التي أصبحت امبراطورية عظمى وعلى بريطانيا التي لم تعد بريطانيا العظمى.

وهكذا هتلر أسقط إمبراطوريتين بريطانيا وفرنسا وأقام إمبراطوريتين إمبراطورية البيت الأبيض وإمبراطورية الكريملين.

قالت الفتاة: سأحجز لك غرفة في فندق يوجد فيه عربي من تونس ليترجم لك، فمن المحزن أن تفرح بهؤلاء يعاملونك لأنك تدفع قسطاً من مرتباتهم كما يحترمونك لأنك ولو نمت ليلة في الفندق تدفع قسطاً ينمو به التوازن بين الوارد والمنصرف، ووصلت برلين وكان عند الفندق الخبر. المترجم أمامي والغرفة حاضرة، قلّ أن تجد هذا عند غير الفرنجة، وأشرفت على السور ومعي المترجم وكانت تلك الأيام أيام الخوف عام ١٩٦٢ ميلادية، أيام أزمـة الصـواريخ في كوبا، فالرئيس جون كندي أمسك بعظمة الولايات المتحدة يرفض غطرسة السوفيت، فالصواريخ في كوبا هي غيث الحرب في كوريا. . هي غيث سور برلين، كانت وقفـة كنيدي صارخـة كصرخة روزفلت يلزم ستالين أن يسحب جيشه من حدود إيران، فالولايات المتحدة أمس واليوم تستطيع أن تفعل ما تريد إذا لم يكن اليهود وراء أن تفعل ما يريدون. . جون كنيدي اغتاله أوزوالد، واغتال أوزوالد روبين يهوديان وكل هذا يعني أن كنيدي كان يقول: لا، لليهود فاغتاله اليهود، قال لي أحدهم: ألا تخاف أن تشتعل الحرب من خلال أزمة الصواريخ، قلت: إذا وقعت الحرب فالهلاك لإنسان الأرض هناك أو في هناك آخر، وقد سبقت بهذه الإجابة الدكتور طه حسين، سألوه: لماذا لم تسافر هذا العام إلى أوروبا؟، فقال: صرفتني صارفة، قالوا: لعلك خفت ألا تعود إذا ثارت الحرب، فقال طه حسين: كان ذلك قبل اسلحة الدمار فإنسان الأرض هالك في أوروبا وفي غيرها، لهذا لا يفكر في حواجز العودة، كان بالأمس يفكر أن يعود أما اليوم فلا يفكر في ذلك.

ووصلت إلى لندن لأرى ابني حسين زيدان وكان يدرس هناك، وركبت التاكسي ومعي العنوان، وقبل منتصف الطريق وقفت السيارة فإذا السائق صاحب التاكسي يعتذر بلطف ينـادي سيارة أخـرى، وقبل أن أركب مددت يدي إليه أحاسبه عن المسافة التي قطعها فرفض، ومكثت في لندن ثلاثة أيام، ورغم أني كنت في الحرب العامة الثانية نصيراً بعواطفي نحو لندن، فإني أصبحت الحسير مما فعلته في العرب . . لندن.

وركبت الطائرة أصل إلى نيويورك التي تبلبلت بالكثير من الناس ولكنها حصرت في أن تكون تل أبيت الجديدة في أمريكا يعتصرها القليل من الناس فلئن اتسعت للكثير . فإنها قد باعت سعتها لليهود، وفي المطار وجدت المترجم فلديه الخبر عن الرحلة وعن الزائر وكان فلسطينياً اسمه فؤاد (قري)، لم أمكث في نيويورك إلا ليلة واحدة، وارتحلت إلى واشنطن ليذهب بي المترجم إلى مكتب مستر (هدلي) لعله كما عرفت من أسرة (لورد هدلي البريطاني الذي أعلن إسلامه، والذي مازال يذكره الأستاذ عمر أبو ريشة) فاستقبلني مستر هدلي لنضع أو هو يضع لي برنامج الزيارة التي وجهت إلي من سفارة الولايات المتحدة في جدة كتوجيه من وزارة الخارجية الإمريكية لها، وتم وضع البرنامج لأزور فيلادلفيا . . بفلو . . شلالات نياجرا . . دودريد وشيكاغو . الشاطىء الكندي . . دالاس . . الجامعة في القرية من الريف الامريكي (بانكا) . . تكساس . . هيوستن . . سدهوفر . . لاس فيجاس . . كلورادو (دانفر) . . لوس انجلوس . . سان فرنسيسكو . هونولولو . لأرجع عن طريق اليابان . وبعد تمام البرنامج جرى حوار، قال مستر هدلي : إن سكان إفريقيا انحدروا إليها من الشمال، قلت : أي شمال تعني؟ الشمال العربي أم تعني أوروبا، لقد كان الانسان في هذه القارة يوم كان لا إنسان في أوروبا، يوم كانت أوروبا مغمورة بالثلج، لم يصل إليها إنسان إلا بعد، وفكر يقتنع إذ قلت له : الإنسان أول ما كان آسيوياً ثم أفريقياً وأمريكياً قبل الإنسان في أوروبا، فالهنود الحمر كالزنوج آسيويون من قبل .

وارتحلت أتطوف حسب البرنامج، فوصلت إلى فيلادلفيا، وقبل ذلك ولئلا يفوتني التسلسل زرت البيت الأبيض وبيت واشنطن لأجد سرير الجنرال (لافيت) الفرنسي يشارك جورج واشنطن في حرب الاستقلال، فقد كانت فرنسا مع الولايات المتحدة حين ذلك فانتزع واشنطن ورفاقه الاستقلال من بريطانيا، فهم البريطانيون على الأكثر تخلصوا من الاستغلال البريطاني كأنماهم أصبحوا جنساً جديداً تأصلت به الأمركة ليكون أي مهاجر من أي جنس أمريكياً إلا اليهود فمازلوا جنساً وحدهم . . تأمركوا بالمعايشة والسكنة ولم يتأمركوا بكامل الانتماء، ولا يقاس عليهم اللبناني فإنه إذا تأمرك يصبح أمريكياً محضاً وإن حمل الجنسيتين .

وفي فيلادلفيا لابد أن أزور بيت (الجرس) . . جرس الاستقلال . . طرقه طرقات يعلن بها الاستقلال (جيفرسون) دخلت ونسيت أن أخلع غطاء الرأس (قلبق) طربوش خرساني، فإذا الحارس يطلب مني أن أخلع القلبق، فالتحية لديهم كشف الرأس والتحية لدينا غطاء الرأس، تذكرت جيفرسون أحد بناة الولايات المتحدة وتذكرت «توماس بين» صاحب الجريدة أو المجلة (الحصافة)، توماس بين يهودي ينادي بشعار الحرية يقول : (حيث لا

توجد الحرية ينبغي أن يوجد توماس بين ليحارب عنها)، فقد كان شعار جيفرسون ورفاقه طلب الحرية، لكن توماس بين قال لجيفرسون: لا حرية بدون استقلال. . حاربوا من أجل الاستقلال، فحاربوا ليستقلوا، وكان الأمريكان حتى عصر روزفلت حرباً على الاستعمار، تومـاس بين لم يجد قبراً يدفن فيه فأبعدوه، واليوم وبالأمس يتمثل صوت أمريكا بكلمات توماس بين عن الطغيان، أخذوا منه الشعار وطردوه عن الأشبار من الأرض الأمريكية، كان ذلك أمس، أما اليوم فكل شبر من الولايات المتحدة يملكه اليهود بسلطان الامتلاك لا بصك الامتلاك.

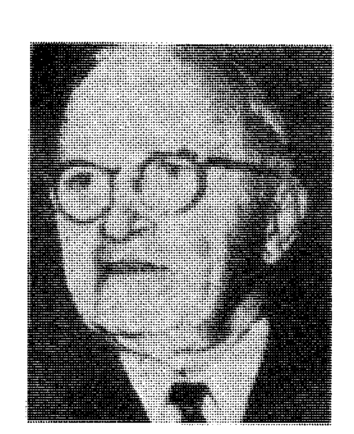
فيلادلفيا اسم يوناني سميت به مدينة عمان (البلقاء) فهل يعني هذا الاسم بلاد الفيء أي الظل، فعمان سميت به قبل تسمية المدينة الأمريكية؟
والرحلة طويلة وإلى حلقة أخرى.

استدراك

لقد ذكرت اسم الابن عبد العزيز بن ناصر العقيل وماكنت أدري وأنا أملي اسمه أنه قد توفي يرحمه الله فقد كان رضى الخلق طيب السريرة فالعزاء لأهله جميعاً وإنا لله وإنا إليه راجعون.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

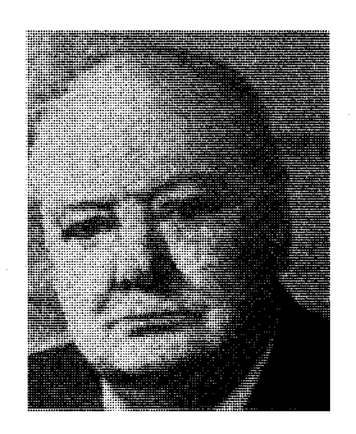
خسر ترومان تجارة القماش فقامت إسرائيل!



ترومان



ايزنهاور



تشرشل

والرحلة إلى أمريكا . .

ورحلت من فلاديلفيا أصل إلى «بفلو» مدينة وكأنها قرية، وقرية اتسعت لتكون مدينة، فهي تجمع بين عطاء المدينة وحفاوة القرية . . أعجبتني، فلو تأمركت لكانت إحدى المدن التي أتـامرك لها، هي في الشمال ولم يكن شهر أكتوبر قاسي البرد كما هو أكتوبر الأمس، ودعـوت المـترجم والمضيف: هيا بنـا نشـاهد شلالات نياجرا تلك العجيبة من عجائب الشلالات، وصلت أتخطى شاطىء النهر الأيمن لم يأخذني مرآه شوهوه بما تراكم حوله حتى لكأنهم الآن قد عرفوا مدى تلويث النهر بما تقذفه المصانع، وما أسرع ما دخلت إلى كندا لا تفتيش لا خوف، عرفوا أني زائر فقالوا: تفضل، لأنهم شعب يعيش الأمن لا يشعر بالخوف فقبل أن تسهر الحكومة على الأمن، كان الشعب هو حارس أمنها، فالشعوب التي يركبها الخوف أسيوية أو وأفريقية لا يدخلها الزائر إلا وهو يرى عيوناً ترقبه، وجوازات تفحصه وجمـارك تبحث حقائبه كأن كل زائر يحمل التخويف للبلد الذي يزور يحسبونه مهرباً أو هارباً، كما كان ذلك بالأمس أما اليوم فالرقابة تحيط به يحسبونه إرهابياً.

وشاهدت الشاطىء الأيسر، فياروعة ما صنع الله وياالحفاوة الإنسان يصون ماصنع الله، ولقد كان الشاطىء الكندي بريئاً نظيفاً امتلأ بالشجر ليس على صورة الغابة، إنما هو على على صورة بستان، يبيعون عقوداً من حجر ملون، ليست من المرمر الأبيض ولامن المرمر الأسود، وإنما هي من المرمر الذي زخرفته أشعة الشمس بلون التصق به ليس له إشعاع وإنما التلوين يشيع في النفس حلاوة الحجر. زخرفته طبيعة التكوين من صنع خالق الكون.

ورجعت إلى «بفلو» أركب الطائرة إلى دالاس حيث يسكن ابني «د. فيصل محمد حسين زيدان» يطلب العلم مبتعثاً كما إخوته الطلاب الذين يبتعثون، ومالي نسيت الأستاذ عبد العزيز المنقور الذي كان من خير الموظفين يرعى الطلبة السعوديين وكأنه أخوهم الأكبر. لم يكن مسخراً لأحد، ولم تركبه طبيعة الإنحياز لفريق من الطلبة دون فريق، كان أستاذاً سعودياً عليه بصمة الكيان الكبير . . وإنه لكبير في تلك الأيام التي رفع فيها الفصام بينه وبين الطلبة، فإذا هو الأب أذكره لأشكره.

وقبل أن أصل إلى دالاس عجلت من (بفلو) إلى ديترويت وشيكاغو، ورأيت مصانع فورد، وما أكثر إنتاجها من السيارات، لكن فورد سيبقى اسماً يلمع في التاريخ الأمريكي، بل وفي تاريخ الإنسان، لأنه صنع السيارة يركبها الإنسان قربت المسافات وتناولت البعيد، فهي أكثر حرية من القطار، بل إنها أضاءت الطرق لسيرها وعبدت الطرق لمسيرتها فلئن

كانت ذاتها عملاً مدنياً فإنها ستصبح عملاً حضارياً، فلئن أحيت الموات فإنها أكثرت الأموات، فالسيارة هي القاتل الأول. . إنها لا تقتل ولكن القاتل هو سائقها هو الطيش والتهور، كما قال المتنبي:

كلما أنبت الزمان قناة
ركب المرء في القناة سنانا

فورد صنعها . . عملا أمريكياً فإذا هي الآن وقد صنعتها اليابان فأصبحت صناعتها من أسلحة الحرب الاقتصادية.

إن فورد . . وروكفلر . . واديسون، رجال صنعهم الاستقلال وأبرزتهم الحرية، ولكنهم صنعوا الدعائم الأولى، تكونت بها امبراطورية الولايات المتحدة، فأيما جيش ليس وراءه ذخيرة صنعها الرجال لتفوق المدينة، يصبح في التاريخ جيشاً تترياً. . سواء كان قائدها «أتله» أو كان قائدها جنكيزخان.

فالجيش الأمريكي قلب الموازين ليس بقوة السلاح وإنما بقوة التسليح النفسي، التموين بالمعلبات والتنفس للجندي بماوراء الخطوط من عوامل الترفيه، بل إنهم يرسلون محاضرات الجامعات لشباب الجيش لا يفوته الدرس، بل وأرسلوا أسئلة الامتحان.

كانت الجيوش أول الأمر حتى جيش ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وروسيا، وما إليها من جيوش أخرى، إذا احتلوا مدينة يعيشون من مدخرات المدينة يشبع الجنود ويجوع الشعب المحتل.

أما الجيش الأمريكي وبالمعلبات من كل نوع، فإن ذلك كما ما هو تموين للجيش تموين للشعب المحتل.

نوادر

وما دام الشيء بالشيء يذكر، فهناك نوادر ثلاث عن الجيش الأمريكي وقادته، كان الجيش الأمريكي وهو يحارب اليابانيين يوم استغولت اليابان في الشرق الأقصى، قد أبرق قادته «للبنتاجون» حين أكل الجنود بعض الأعشاب فلحقهم مضرة، سألوا عما يأكلون من الأعشاب، فأجابهم علماء البنتاجون، كلوا مما تأكله الحمير»، وتلك شهادة من العلماء أقرت بعلم الحيوان، يعرف النافع من الضار من تلك الأعشاب.

والثانية، سألوا أحد القادة الأمريكان: من أشجع من الذين يقاتلون في الغابات؟ فقال اليابانيون، فقالوا له: والأمريكان؟ قال: «هؤلاء يزيلون الغابات.



احدى ناطحات السحاب في امريكا :

والثالثة . . قال ايزنهاور قائد جيش الحلفاء في الغرب وهو من مهاجري الألمان لكنه تأمرك فتفبرك بالوطنية فلم يكن مثل كيسنجر تأمرك ومازال يهودياً، قال ايزنهاور لتشرشل: لقد انتفع جنودنا من معاشرة جنودك، تعلموا كثيراً من التهذيب، تعلموا أدب الخطاب للضباط ولم يكد ينتهي من كلمته حتى وقف جندي أمريكي أمام الجنرال ايزنهاور وتشرشل جالس معه، فقال الجندي الأمريكي يخاطب ايزنهاور: أرجو أن آخذ سيارتك لقضاء غرض فناوله ايزنهاور، وعجب تشرشل يقول: أي تهذيب في هذا، كيف يجرؤ جندي أن يطلب سيارتك، قال ايزنهاور ياهذا، فإنهم قبل أن يعاشروكم فإنه يأخذها دون أن يستأذن.

ورأيت شيكاغو، ولها سمعة لدى القارىء العربي سيئة عن رجال العصابات، وقد رأيت عمارة تكونت من ستة وستين طابقاً، من تلك الطوابق تسعة عشر مواقف للسيارات، ولا أدري هل هي بلدية دوترويت أم بلدية شيكاغو التي لدى بنايتها مواقف للسيارات تسع عشرة آلاف سيارة.

وكان المضيف رجلاً أبيض طوالاً تخطى الشباب إلى الكهولة، قال لي: ما أكثر الغابات يوم بدأ الأمريكي يعمر الأرض وما أكثر الأفاعي، ولكنه أزالها يقتني الخنازير يسلطها على الأفـاعي، فإذا الأرض ممهدة للعمارات، ويعني ذلك أن عمران الأرض في تلك الأيام، مدينة للإنسان الأمريكي كما هي مدينة للخنازير.

وامتد بنا الطريق وهو يسوق السيارة يقول لي: أنتم العرب تتوعدون اليهود تلقون بهم في جوف البحر، قالها ساخراً وما أحسبه إلا يهودياً، قلت: لو احتلت كندا الشاطىء الأيمن لشلالات نياجرا ألا تغرقون غزاة كندا في النهر أو تلقونهم في البحر، ولو خطر للمكسيك أن تغزو بعض ما حولها من غرب أمريكا ألا تلقونهم في البحر، ها أنتم أحرقتم اليابان بالقنبلة الذرية، وها أنتم بكل القوة لديكم منعتم الصواريخ أن تكون في كوبا، بل وأنتم خضتم حربين عالميتين، فأهلكتم من تحاربون وهلك منكم الكثيرون، فكيف تلوم العرب أن يفعلوا ما تنكر لتخليص أرضهم من الغزاة؟، ولكني أقول لك بعد ذلك سيأتي يوم ستشعرون بطغيان اليهود عليكم فتلقونهم في البحر تفعلون ما فعلت أسبانيا.

ووصلت إلى دالاس وكان الوقت ليلاً أنظر إلى تحت فإذا الأرض كلها وكأنها مصباح كهربائي واحد، فتذكرت قول البحتري يصف البركة في دمشق «كأن سماء ركبت فيها» وتذكرت «أديسون» مخترع الألف اختراع إنه الأمريكي الأول دون منازع، ليس بالاختراعات الألف، وإنما بهذا المصباح الكهربائي، اكتشف بإجراء التجارب وعلى أساس من قانون الطبيعة التي خلقها الله، فإذا هو يهدي للإنسان النور، فلئن كان مكتشف النار أهداها، خطت بالإنسان خطوات واسعة للتقدم فإن اديسون بهذا المصباح أعطى الإنسانية خطوات أوسع إلى التقدم.

وإن كان سهر الليل قد يعبث به العابثون، ولاديسون موقفان من صنع الذكاء، بل ومن صنع العواطف النبيلة فيه، لقد أراد أن ينير المصباح كل ظلام الليل في أي مكان، فالأسلاك التي جربها أول الأمر غالية الثمن وهو يريد سلكاً رخيص الثمن لينتشر المصباح، قالوا إنه جرب مئات الأسلاك من الذهب والفضة والبلاتين والنحاس وغيرها. . وغيرها حتى اهتدى إلى ماهو الآن، فلم يقتصر المصباح على أن يكون في البيت الأبيض إنما هو قد انتشر حتى أصبح ينير الأكواخ في المشرق والمغرب.

لم يكن اديسون كأحد الكهنة في المشرق يختزن الأسرار، فلو وصل أحد كهنة المشرق إلى هذا المصباح لانحصر نوره في بيت الامبراطور و الفرعون ومعبد بوذا. إن طبخة البامية من أسرار الطباخ الكبير لا يعلمها لصبيانة، وهكذا دفنت أسرار المشرق واتضحت اختراعات الغرب.

قال اديسون: إن التفكير في الاختراع سهل، وإبراز الاختراع قد يكون من السهل، ولكن تعميم النفع بالاختراع هو الصعب إنه في هذه الكلمة أسقط سلطان الامبراطورية وأعلن سلطان الإنسانية، لهذا وجد السلك الرخيص، المصباح في البيت الأبيض والمصباح في قرية نائية في الصحراء.

وله فكرة جانبها الصواب قال: «النوم عادة وليس هو طبيعة فإذا هو أول من ينام لأن النوم طبيعة لا عادة».

كنت أتصور كما هي طريقتهم أن يكون له في كل ولاية تمثال، ولكن لم يكن ذلك، لكنه مثال في تاريخ البشرية مدون في قراطيس فلئن أهدى المصباح فقد أهدى لشعب الولايات المتحدة مجداً في التاريخ إنه أعظم من فورد وروكفلر ولكن تقف عظمته تحيى عظمة جورج واشنطن وابراهام لنكولن.

وخاطر قالوا إن أمريكياً ركب الأتوبيس في اليابان، فمر ينظر قصر الامبر اطور فقال للياباني الذي بجانبه: منذ متى بنى هذا القصر؟ قال الياباني: قبل أن تكون الولايات المتحدة.

ورأيت في دالاس القرية لا المدينة الجامعة لا العمارات الموتيلات الأوتيلات ريف جميل، يبنون الجامعات في القرى والريف، وكان ولدي د. فيصل محمد حسين زيدان، طالباً في الجامعة مبتعثاً من الدولة، أقمت أياماً وفي اليوم الثاني، زارني فتى من طلاب الجامعة أمريكي يدعوني باسم والده الجنرال القديم المتقاعد إلى العشاء في ليلة «عيد الشكر» كما هو تقليدهم ورثوا ذلك عن الهنود الحمر يشكرون حين تغيثهم السماء، قلت لابني: كيف عرفني ولماذا يدعوني. قال: كدت أفتح باب سيارتي لأصل من البيت إلى الجامعة فوجدت هذا الشاب ومعه فتاة من الطالبات في الجامعة، قد جلسوا في المقعد الخلفي من سيارتي، كدت أرجع لأترك لهم فرصة اللقاء، لعله خطيبها، فإذا هو يدعوني.. شكراً فيصل، ولم تكن بلغة العرب وإنما بلغتهم، أرجوك أن تصل بنا إلى بيت الفتاة فسيارتي ليست معي، وليست معها سيارة، فركب فيصل وأوصلهم إلى حيث يريدون فإذا الفتى صديق لفيصل، وكان فتى فارع الطول علمه أبوه أن يكون «اسبرطياً» يعرف كل الألعاب حتى المصارعة، نزل مرة يسبح في الأمزون، النهر العظيم في البرازيل، فلم يشعر إلا وقد التف حول وسطه حنش، فلم يفزع ولم يصرخ لأنه «اسبرطي» كان مستعداً لذلك يتمنطق بحزام فيه خنجر فاستل الخنجر يقطع وسط الحنش يتخلص منه، وهكذا حين تكثر الآفات في أي أرض يتعلم الرجال كيف يتخلصون من الآفات.

وذهبنا إلى قرية الفتى لتناول العشاء يستقبلنا أبوه وترحب بنا أمه وتضحك لنا أخته، فإذا العشاء ثريد عليه ديك «رومي» ذلك من تقاليد المسيحية الأولى، أخذها الحواريون الأول، كما أخذوا القلانس والعباءات التي كان يصنعها الفنيقيون من الادرجوان من قشر السمك.

وجلسنا على المائدة، وجاء ذكر المسيح بن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام،

فشرحت عقيدة الإسلام في المسيح أول الأمر إنا نعتقد أنه رسول نبي أمه مريم العذراء وليس له أب، شرحت ذلك بتوسع فقال الجنرال وهو يسمع ذلك يترجم له ابني فيصل: إن القساوسة لم يعلمونا ذلك، إنكم تحترمون عيسى على الوجه الصحيح، وتكلم الجنرال مرة أخرى كأنه يجاملنا من أجل فلسطين قال: إنا نحن الامريكيين لا ننسى ثلاثة أحداث زلزال سان فرنسسكو وحريق شيكاغو وخسارة «ترومن» في تجارته «المنى فاتورة» أي تجارة القماش، قلت: وما علاقة «ترومن» لا تنسون خسارته، قال لو لم يخسر لما استحوذ عليه اليهود ساعدوه أن يكون نائب الرئيس ليكون الرئيس وليكون عليكم مع اليهود.

وانتهينا فإذا الجنرال يلبس حلته كاملة يتحضر بمسدسين ليصل بنا إلى البيت لأنه يخاف علينا من الطريق ومن العابثين، كان يسوق السيارة حتى وصلنا إلى بيتنا.

وهكذا يعرف بعض الامريكان تاريخهم ينكرون الاساءة على بعض الشعوب ويفخرون بما صنعوا لأنفسهم ولبني الإنسان.

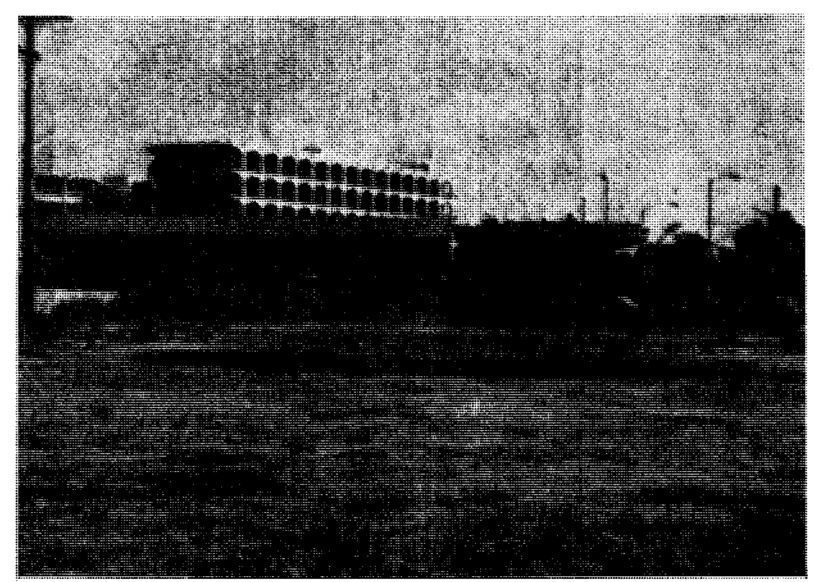
وجاء الفتى يودعني فأكبرت الوفاء منه واحترمت علاقته بابني وقلت: أمريكا سخت عليها السماء تمدها الأنهار وما بخلت الأرض تخرج الثمار وما عجز الإنسان أن يصنع هذه الامبراطورية التي أصبح قمحها واقتصادها سلاحاً قوياً أقوى من أسلحة الدمار.

ومن دالاس إلى تكساس رأيت طلابنا وكانوا كثراً وعرفت في هيوستن الصديق الكريم الدكتور بكر عبد الله بكر مدير جامعة الملك فهد وكم هو كبير عندي في اليوم الذي عرفته وإلى اليوم بما صنع لي من معروف.

إن تكساس تذكرنا بأي إقليم على خط عرضها، وهناك ملحة، فقد كان الجيش الأمريكي في الجزائر أيام الحرب العالمية الثانية وأكثره من تكساس علم أنهم يفاخرون بتكساس فقال لهم: إن الجزائري يعتز ببلده ويفتخر بها كما أنتم، فلا تغضبوا الجزائريين بالفخر عليهم، إنهم أصحاب ماض سيحاربون من أجل استقلالهم لتكون الجزائر فخراً للعرب كفخر الامريكان بتكساس قال لهم ذلك قائدهم الجنرال الذي كان يحارب فلول رومل والذي انتصر في نهاية الحرب على جيوش المحور.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

في هونولولو.. أكلت نبت الربان!



لوس انجلوس

وغادرت دالاس وتكساس ولعلي كنت شديد الرغبة في أن تطول أيامي في ريف دالاس. فالقرية في الولايات المتحدة حلوة، والريف له جلوة، كأنما هم وإن عاشوا في المدينة وإن كبرت المدينة، أشد احتفالا بالريف لأن ماينتج في الريف ماهو إلا الذي أعطى الولايات المتحدة القوة والتفوق.

إن القمح والأرز والذرة من قبل ومن بعد وإلى اليوم هو السلاح جالب الفلاح فاليوم أقوى ما تسلحت به الولايات المتحدة هو نمو اقتصادها وكثرة قمحها ووفرة أرزها تتفوق بكل ذلك على الاتحاد السوفيتي فقنابل النواة والصواريخ لم يعد كل منها جالب التطويع للاتحاد السوفيتي فالتطويع له هو التفوق الاقتصادي بل هو التفوق الزراعي، فالاتحاد السوفيتي يشتد إلحاحه لتخفيض الأسلحة المدمرة ليس لأنه غير متفوق به، ولكن لأنها تكلفه الكثير الذي أثقل كاهله وأفقر خزانته كل مايريده الاتحاد السوفيتي هو الاتفاق على طريق الوفاق، لعله يستفيق يتوفر لديه مال وإنتاج فالحالة إذا تعني أن الحرب الباردة بين الامبراطوريتين لم تكن بالسلاح المدمر، وإنما بالقمح المعمر، والأرز المعمر.

وهكذا لاندري ما أصاب أرض الأنهار في إفريقيا وفي الهند بالذات من قصور أسقط الزرع وأقل الضرع. إن استراليا ليست الارض الممرعة كأرض الهند والسودان ومصر وكأرض أندونيسيا. ولكن الإنسان الاسترالي هو الممرع يشقى يتصبب العرق ليكون العرق على صورة أخرى مرقاً عليه الثريد وليس هو ثريد الأرغفة وإنما هو ثريد المال المكتسب من تصدير القمح، يزرعه الاسترالي. رغم تقلب الأجواء، ورغم بعد المسافة.. يقترب بها الانسان يطوي مسافة البعد إلى القربى من النجاح.

ووصلت ألف رحلتي لفاً.. أشاهد «سد هوفر» ونيفادا ولاس فيجاس «مدينة القمار» فرأيت كما هو من قبل الشعب يستقبل الزائر كأنه يرحب به ليكون مهاجراً، يستقبلون المهاجرين لان شعب الولايات المتحدة لم يكن إلا من المهاجرين الدين هجروا ضيم الأرض إلى رخاء الأرض فهم من بناة الهجرة يرحبون بالمهاجر، وليست الولايات المتحدة قبل جزيرة العرب استقبلت المهاجرين يستوطنون ليكونوا من شعب الجزيرة فمصر والسودان كما جزيرة العرب.. عمرها المهاجرون، ولعلي أذكر الطرفة المليحة في الخبر عن رسول الله سيدنا محمد ﷺ عن الولاء والحلف والجوار فقد قاد رسول الله جيش العسرة يصل إلى تبوك ليعلم قيصر الروم في الشام أو ملوك الشام من أولاد جفنة أن محمداً لديه جيش يصل إلى مشارف الشام، لأن أولاد جفنة الغسانيين ومعهم برهاء وكلب، وعليهم سلطان القيصر قد أنعلوا خيولهم. كأنما هم يريدون حرباً على الإسلام خوفاً على نصرانيتهم ومر وهو في المسيرة المباركة فإذا هو ﷺ يسأل: «ما بال الثط الطوال حلفاء أسلم» أو قال غفار: «وما بال القصار الجعاد حلفاء

غفار» أو قال أسلم فالثط الطوال هم «الزط» نطقها أفصح الناس يستبدل الزاي بالثاء، وهم من شرق الجزيرة لعلهم من البلوجستان أو من السند ومن لف لفهم، أما القصار الجعاد فهم أفارقة من شرق إفريقيا أعني الأحباش ومن لف لفهم، كما أن بعض من كان من هؤلاء الزط يسمى «بالجلابخة» حلفاء تميم، فلم يكن كل هؤلاء أرقاء مع أن في وسع العرب استرقاقهم، وإنما كانوا الحلفاء، والعرب حين استرقوا، «العبدى» أكرموهم فالرقيق الذي استرق أو استعبد بالشراء أو بالأسر، أطلقوا عليه «المولى» لتكون كلمة المولى من الأضداد فالمولى هو السيد والمولى هو العبد، والشاهد في هذه «مولاك.. يامولاي صاحب حاجتي».. ويطلقون على النساء من هؤلاء «الفتاة» أو الجارية وإن أطلقوا التعريف بالأمة والشاهد في هذا.. القرآن «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا» فقد كانوا يبيحون أن ينال البغى جارية ممن أرخصها للبغاء، فأدبهم القرآن الكريم ألا يجبروا الفتاة إن لم تكن راغبة فيه، وقد نسخت هذه الآية بتحريم الزنا قاطبة، وإن كان بعض الناس في إقليم من أقاليم الناس لايرى نسخها، يستكثرون من الفتيات ليكثر عبيدهم، وما أعظم الإسلام في ذلك كله احترم الولاء ولم يسقط الحلف «مولى القوم منهم.. حليف القوم منهم» لكنه كره أن يتزوج الحر رقيقة فهي ملك سيدها كما أن ولدها من الحر هو تابع لها يلحقه الرق ليكون ابن الحر عبداً، أراد أن الحرية ينبغي أن تكون كاملة لا تسترقها الشهوات.. عظيم هذا الإسلام.

ولعلي استطردت في ذلك لأثبت أن العرب استقبلوا المهاجرين قبل أن تكتشف أمريكا.. بدافع المقارنة وبوازع التوسع فيما يستطيع الكاتب أن يتوسع فيه بأسلوب المقارنة ليقطع دابر المفارقة.

طويت رحلتي طيا حتى وصلت إلى لوس أنجلوس وأول مصادفة أدهشتني أن أرى المضيفة التي كانت في الطائرة «بان امريكان» كنت فيها من لندن إلى نيويورك كانت جميلة الخلق.. جميلة الخلق، تترفع عمن يستجلبها بالحديث وتتواضع أمامي حيث لا أعرف الحديث فما من طلب أريد وبالأشارة أعبر إلا فهمت وإلا أجابت، ولم يأخذني جمالها وإنما أخذني رفقها وحنانها فقصرت الرحلة لا تكون سبع ساعات وليتها طالت سبعين ساعة.

وفي الطائرة إلى لوس انجلوس رأيتها وليست المضيفة وإنما هي المرتحلة.. ارتحلت عن وظيفتها لتصل إلى أهلها، ورأتني ومن عجيب أن عرفتني.. غريب أخرس، فأنطقتني بالتحية، رؤية الطائرة أصبحت من رؤى أحلام اليقظة، نسيتها يوم كنت لا أحلم ومازلت أذكرها وأنا الطفل العجوز، حنت علي «حنو المرضعات على الفطيم» وأبى من أملي عليه إلا

أن يعرف من أين جاءت الكلمة «حنو المرضعات. . فأنشدت لا علمه هذه الابيات من شعر الأندلس:

وقانا لفحة الرمضاء واد
سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
تروع حصاه حالية العذارى
فتلمس جانب العقد النظيم

وما أعجبتني لوس أنجلوس مدينة كبيرة كأنها هي كل كاليفورنيا وعلم صديقنا د. صالح أمبا وقد كانت بيني وبينه مودة فدعاني للعشاء فإذا إخوة من الطلاب أكثرهم من أكابرنا وفيهم الكبير «الكبير من أكابرنا، وإذا محمود نصيف يرحمه الله يشارك في صنع الطعام حتى «البريك» وجرى الحوار ساخناً أول الأمر فتمهلت ثم أخذت أطرح قالب الثلج على الساخن من الحوار أبشر بالأمل القريب تنمية وعمراناً، فإذا الذين كانوا هناك هم الذين كلفوا بالتكوين هنا، كل ماكانوا ينشدون أصبح بهم نشيد التفوق اليوم، كلفوا فإذا هم يتشرفون بهذا التكليف كأنها حوارهم هناك وفيه شيء من الحيرة أصبح اليوم هو الذي أسقط الحيرة إلى مانحن فيه الآن ولله الحمد.

وصلت سان فرانسيسكو، وخفتها لأني لا أخاف الزحام وإنما لا أحبه، حتى في الحب لم أتزاحم على حبيب لأني أكره العراك ولا أمارس المصارعة. . سلم لمن سالمني بل وسلم لمن حاربني.

ومن سان فرانسيسكو إلى تلك الأرض المليحة «هاواي» «هونولولو» تلك المغولية الشرقية التي بقيت لايمسها جنون التأمرك، وصلت إلى هونولولو وكأنها هي «هناءة اللؤلؤ» نهارها سرمدي صبحها كظهرها وضحاها كعصرها، قلت للصديق السيد ياسين طه مرة وقد أزمع الرحيل إلى أمريكا، إذا وصلت هونولولو فانظر إلى الماء تره بلون أبيض يتشكل بلون إنائه لو رسب في كأس أخضر لرأيته أبيض وحين عاد قال: لقد صدقت لون الماء في هونولولو أبيض.

وفي هذه الأرض المغولية والبركانية أكلت من نبت الربان الأستاكوزة فما أكثرها هناك، لأول مرة أذوقها ولأول مرة أحاسب أنفسنا عن هذه الاستاكوزة إنها على ساحلنا الشمالي في البحر الأحمر حول الوجه وضباء حتى العقبة كثيرة، لا يصيدونها ولا يأكلونها حتى قالوا أن يونانياً أرسل باخرته على ساحلنا الشمالي لا يصيد الاستاكوزة وإنما يشتريها تحمل بالأكياس

ببضع ريالات وقد أعد في باخرته أحواضاً يخرج الاستاكوزة تعيش في الأحواض حتى إذا اكتفي رحل فباعها لمن يعرفها يشترونها فكسب نصف مليون جنيه يوم كان الجنيه الاسترليني جنيهاً، قيمته تزيد عن قيمة الجنيه الذهب بقرشين ونصف، ولكن اليوم أصبحنا يصيد قومنا الاستاكوزة تباع عند شلاح بالريالات الكثر.

واسترحت في الهاواي، وكأنما هي أصبحَت هواي، ومنها إلى طوكيو، وسألت نفسي لماذا نسيت في هذا الاستطراد «كلورادو» فقبل لوس انجلوس أي قبل كاليفورنيا وصلت إلى كلورادو وأعجبتني دانفر كما أعجبتني «بفلو» وقبل أن أرى ما أعجبني في الهاواي، وأخذني المترجم أصعد إلى الجبل فإذا هي ريح تكاد تطرحني على الأرض لأنحدر إلى هوة تماسكت أنا والمترجم كل منا يثقل الآخر لئلا يسقط، وابتعدنا إلى وسط الجبل فأخذ المترجم آلة التصوير يلتقط لي صوراً، وإذا شاب أمريكي يقول: أنت يأخذ لك صوراً تحلم بأنك ملك، قلت: لست أحلم وإنما لتعلم أني من شعب أبو الملوك. . أبو الامبراطوريات فلا حاجة إلى الأحلام، إنما أنتم تتحدثون عن جون كنيدي بأنه يريد أن يكون ملكاً تنافسون بريطانيا لديهم ملك وأنتم بلا ملك، نسيت ذلك الأمريكي الذي يكلم الملك جورج الخامس وهو في سيارته يقول للملك أنت مثلي يامستر كنج فلقد تصور أن الملك على صورة أخرى غير صورة الإنسان.

ونزلنا إلى المدينة وتناولنا العشاء في مطعم صيني، احتملنا طعام الاندونيسيين بلا ملح ومن السهل معالجة ذلك وعز علي أن أحتمل طعام الصيني وكله سكر، أكلت أستحليت أول الأمر حتى إذا انتهيت. . غاشت علي نفسي فأسرعت أقول للمترجم. . هيا إلى السوبر ماركت، فاشتريت زبدية لبن حامض ورأس بصل ورأس ثوم ورغيف عيش، وضعتهم في لفافة أحجز ذلك عن الفندق فأنا في حاجة إلى الخروج من سكر الصين إلى اللبن الحامض وزخم البصل والثوم لأطرد الغاشية من ذلك السكر.

وإلى طوكيو بعد في حلقة قادمة أذيلها بخاتمة الرحلات إلى تركيا.

والذكريات ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي، ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون .. أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

اليابان كسرت قاعدة الذهب



اليابان



الملك
جورج
الخامس

ومـا أدري ماذا أقـول هل ارتحلت من الغـرب إلى الشرق، أي من هونـولـولـو إلى طوكيو؟ أم أنا راحل من الشرق إلى الغرب . . ليل هونـولـولو نهار طوكيو، وليل طوكيو نهار هونـولـولو فهل اليابان هي الشرق أم الخط ١٨٠ طولاً نهاية الـغــرب بداية الشرق أو العكس؟ هو الله سبحانه وتعالى «يكور الليل على النهار» فليس هناك شرق لا يكون غرباً، وليس هناك غرب لايكون شرقاً.

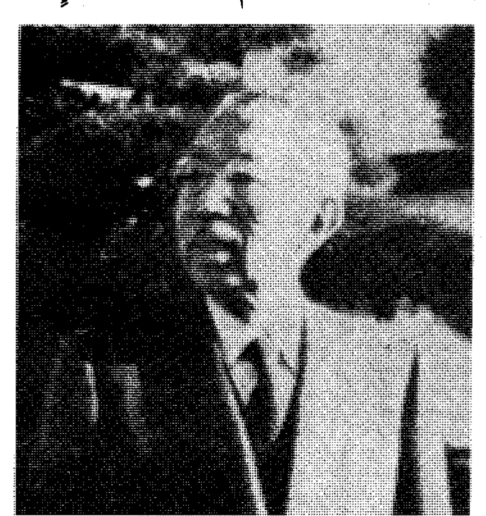
ولا أدري، مرة أخرى، كيف أقبل، بل وكيف يقبل ما نعلمه الآن عن هذه المشارق والمغارب، إن أي خط طول هو على أي رقم هو شرق لخط طول بعده، وهو غرب لخط طول قبله، كيف يقبل من متحدث يقول «وليس هناك نهار على الأرض يخالف النهار الذي أنت فيه» هل هو قال ذلك عن علم جاهل أو عن مجاملة تحترف العلم ليرضى عنه بعض من يظن أنهم يعتقدون قوله . . نحن على خط عرض ٤٠ مثلاً شرق خط الصفر «جرينتش» الذي تعارف عليه الناس الآن، بينما العرب فيما سبق كان خط الصفر لديهم هو مايحمل رقم «١٠» الآن تقريباً الذي حددوا موقعه على جزائر «الخالدات» أي جزر الكناري غرب المغرب الأقصى، كما أن الفرنسيين وفيما سبق جعلوا الخط المار على باريس هو خط الصفر مبدأ لخطوط الطول، إذا كنا على الخط الأربعين وطوكيو على الخط «١٤٠» فالبعد بيننا وبين طوكيو «١٠٠» درجة أي «٤٠٠» دقيقة أي ست ساعات وأربعون دقيقة، تشرق الشمس على طوكيو وبعد تلك الساعات تشرق علينا، وإذا كنا مرة أخرى على الخط «٤٠» شرق ومدينة نيويورك على الخط ٧٤ غرب فالبعد بيننا وبينها هو ١١٤ درجة أي ٤٥٦ دقيقة، فحين تشرق الشمس علينا تكون نيويورك غارقة في الليل لا تشرق عليها الشمس إلا بعد سبع ساعات وست وثلاثين دقيقة.

فكيف صح لهذا المتحدث أن يجعل النهار في طوكيو وفي جدة وفي نيويورك نهاراً واحداً؟ ألم يعلم وأحسبه الفقيه أن نصا في فقه الإسلام من الصدر الأول حدد هذه الحقيقة، فالنص هو «إذا مات اثنان متوارثان في وقت واحد فالغربي يرث الشرقي، فلو أن أبا مات وقت الغروب في الجبيل ومات ابنه في ينبع في وقت المغرب أيضاً، فإن الابن في ينبع يرث الاب في الجبيل، ولهذا نسمع الاذاعة أو التلفاز حين يعلن عن مغرب الرياض مثلاً يرشدنا إلى

فروق التوقيت فالنص الفقهي يرث الغربي الشرقي إذا ماتا في وقت واحد برهان أضعه أمام هذا المتحدث ليعرف أن القرآن علمنا عن المشارق والمغارب فلو لم تختلف هذه المشارق والمغارب لما كان النص بهذا الجمع.

وتلفنت من هونـولولو إلى سفارتنا في طوكيو أطلب موظفاً عرفت اسمه من سفارتنا في واشنطن، ولقد نسيت الاسم وما زلت أحفظ نسبته إلى بيت البتاوى، كأنه من ولد أحد أعيان مشايخ الجاوة بل وأعيان مكة محمد علي بتاوي يرحمه الله، تلفنت إليه أطلب عونه يستقبلني في المـطار، وما أسرع وفي تلك الأيام قربى الاتصال، وركبت الطائرة، وكأني سأطـوف حول الأرض لأني وصلت إلى هونـولـولـو من جدة الشرق إلى هونولولو الشرق أوالغرب، ورحلت من هونولولو الغرب شرقاً أو الشرق غرباً إلى طوكيو الشرق بالنسبة إلينا واستقبلني البتاوي وأحسن إلي أحسن الله إليه، ولم أكد أستريح في الفندق حتى ذهبت للسفارة وقد كان السفير يومها الأستاذ، الصديق أحمد خليل عبد الجبار، فقد تعودت ألا أصل إلى بلد إلا وأزور السفارة أو القنصلية بدافع الاحترام وبوازع ما تدعو إليه الحاجة، لأن السفارة هي البيت السعودي فإنها الموضوع والشكل إذ تمثل المملكة فإنها المعين والسند لكل عربي سعودي.

إن اليابان أو طوكيو بالذات ليس فيها من يتلكأ في الطريق لا يتسكع إنسان، ليس في إنسانها فضول حتى إني قلت لو أن أحد المارة صدمته سيارة وسقط على الأرض لا يلتفت إليه أحد، لا شأن لهم به ذلك شأن الإسعاف، كأنه لا وقت لديهم للفضول، أعادوا بناء.



الامبراطور هيروهيتو

في طوكيو لم أر متسكعاً واحداً!!

هزموا اليابان بالقنابل.. فانتصرت عليهم صناعتها

اليابان دولة اقتصادية، فاقتصادها من بناء الصناعة يقف أمام اقتصاد الدول الصناعية الكبرى، حتى الولايات المتحدة وعظمتها الاقتصادية لا تنكر، تفاوض اليابان بشأن نظم الصادرات والواردات الفندق نظيف والرعاية شاملة لم أذهب عن طوكيو ولم أقم إلا ثلاثة أيام حرصت أن ألتقي بالشيخ «عمر ميتا» المسلم الياباني والداعية إلى الإسلام في اليابان، تشرفت بزيارته تحدثت إليه أكبر جهوده، فرح بي لأني من أبناء القبلة من الأرض التي سطع عليها نور الإسلام، وتعلمت منه هذه المعلومة، قال: «إن في منشوريا شمال الصين وعاصمتها «موكدن» يوجد فيها خمسة وثلاثون مليون مسلم، كلهم على مذهب مالك» خبر لم أعرفه وشدني إلى أن أبحث مفكراً كيف أصبح هؤلاء المنشوريون على مذهب مالك؟ فلو أن الإسلام وصلهم عن طريق كاشغر «تركستان الشرقية» أو عن طريق بكين وما إليها لكانوا على مذهب أبي حنيفة، غير أني وأحسبني على صواب إن لم أجد من يخطئني أعتقد بالراجح من الظن أن المبشر بالإسلام الداعية إليه قد وصلهم إما من اندونيسيا أو من المغرب رأساً، فالإسلام أول ما انتشر في أندونسيا كان الدعاة مغاربة فإذا المسلمون فيها على مذهب مالك، فالاندونيسيون أول الأمر كانوا مالكيين، غير أن تواتر الكثرة من حضرموت واليمن قد نشروا مذهب الشافعي، ويعني ذلك أن المنشوريين تلقوا مذهب مالك من دعاة أندونيسيين أول الأمر أو مغاربة، وما أدري هل بينهم وبين الرابطة الإسلامية في مكة اتصال أم هو لم يتم بعد؟

ومن الطرافة أن نذكر انتشار المذهبين مالك وأبي حنيفة، فأقول مذهب مالك أقدم انتشاراً في المغرب والأندلس، ومذهب أبي حنيفة أوسع انتشاراً في المشرق سواء عن طريق بغداد أو عن طريق الترك في التركستان شرقية وغربية أو من الأناضول. .

ولا بد من كلمة عن اليابان وليس ذلك عن الامبراطورية الاقتصادية فحسب وإنما ذلك عن الامبراطورية العسكرية أو هو عن الماضي والحاضر والمستقبل.

إن اليابان سكرت بخمرة النصر على امبراطورية القيصر في روسيا فإذا الجنرالات أباطرة على الامبراطورية، وتعاظمت صناعة اليابان فإذا هي التي تضطر بريطانيا تخرج عن قاعدة الذهب، فصادرات اليابان من الصناعة وخصوصاً النسيج، صدرته بالثمن الرخيص، فإذا النسيج في مانشستر يترنح، يصاب المصدر من الأقمشة بنكسة حتى كان بعض التجار في شرقنا قد تأثروا بهذه النكسة، فإذا عبد الغني الأدلبي في جدة وصادق الخوجه يصفيان أعمالهما، كأنما هو، وتلك خاطرة لا بد أن أذكرها وأعني التصفية لهؤلاء في جدة، كانت ضربة الحظ لحسين العويني ونجيب صالحه وإبراهيم شاكر، فالعويني جلس مكلفاً من الأدلبي

لتصفية البيت التجاري ولسبب ما أصبح هو صاحب حظوة، عميلاً للحكومة، أي المملكة العربية السعودية، ويحظى معه إبراهيم شاكر، ويأتي دور نجيب صالحة فإذا هم أصحاب الثروة الواسعة حتى أن العويني بما منحته المملكة أصبح رئيس الوزراء في لبنان، ليكون نجيب صالحة الدرزي، وزيراً في وزارة العويني. أما إبراهيم شاكر فهو ابن البلد يتلبنن حينا ويسكن المدينة يتوفاه الله فيها.

اليابان دعت، الملك جورج الخامس يدعو رئيس وزرائه مستر رامزي ما كدونالد رئيس حزب العمال رئيساً للوزارة في المرة الثانية لحزب العمال في أواسط الثلاثينيات الميلادية، جرى الحوار بين الامبراطور ورئيس وزرائه عن أزمة الصادرات، فعرض رئيس الوزراء الاستقالة لكن الملك جورج قال له: لابد أن تقود السفينة إلى النجاة، فقال ماكدونالد حين خرج يلتمس الحل «خير للطالب ألا يكون الأول في فرقته» وخرجت بريطانيا من الأزمة بالخروج عن قاعدة الذهب ليباع النسيج بقيمة تزاحم سعر اليابان.

فهذا التفوق بالنصر على روسيا والانتصار في الصناعة أصاب الجنرالات أن يغزوا الصين، وما أدركوا أن الصين أرض واسعة وبشر كثيرون لا تنال بالسهولة، لقد أخطأ الجنرالات وجاء الخطأ الأكبر يدخلون الولايات المتحدة ميدان الحرب العامة الثانية. إن بريطانيا وفرنسا، لحقتهم الهزيمة من هتلر كما لحقت الهزيمة بلجيكا وهولندا والشعوب الاسكندنافية، يستصرخون كلهم المستر روزفلت لينصرهم كما نصرهم في الحرب العالمية الأولى، ولكن شعب الولايات المتحدة مازال يفكر مازال يحمل الضغينة على بريطانيا «لويد جورج» وعلى فرنسا «كليمنصو» فهما بعد النصر سخرا من رئيس الولايات المتحدة «ويلسون» أسقطوا المبادىء الأربعة عشر لأنهم حين ملكوا النصر لم يستجيبوا للتخلي عن الاستعمار، ومن تلك السخرية كلمة «لويد جورج» حين خرج من قصر فرساي وكان مجتمعاً مع «كليمنصو» فرنسا و «ويلسون» أمريكا، سأله الصحفيون ماذا هناك؟ قال: لقد تركت في القاعة رجلين أحدهما يريد أن يكون نابليون «كليمنصو» والآخر يريد أن يكون المسيح «ويلسون»، لقد تأخر دخول الولايات المتحدة الحرب، ولكن حماقة الجنرالات في اليابان دعت الشعب الأمريكي أن يدخل الحرب وذلك حين هاجمت طائرات اليابان السفن الأمريكية في الهاواي. «بيرل هاربور» اعتدى اليابانيون على أمريكا، يعني أن الحرب وصلت إليهم، فدخلوها بالقوة العارمة، احتلوا الكثير من الشرق الأقصى يهزمون اليابانيين، وطلبوا الانتصار عاجلاً يحرقون هيروشيما ونجازاكي بالقنبلة الذرية فإذا الشعب الياباني يستفيق يسقط الجنرالات يخضع للسلم، ويومها قلنا إن اليابان جلبت النصر لأوروبا حين دخلت أمريكا الحرب.

إن هزيمة اليابان في هذه الحرب كانت سبب النصر في الحرب الاقتصادية اليوم، فمن مزايا اليابان أنها لا تجتر الماضى تقف أمام هيروشيما ونجازاكي لا تتحرك إلى الحاضر والمستقبل، تناست كل الماضى بينها وبين الولايات المتحدة وسالمت لتصنع الحاضر والمستقبل، فإذا هي تتفوق اليوم، الأحقاد لم تمت ولكنهم أناموها، أمريكا مدت يدها للسلم عزلت الجنرال الأبيض قائدها المنتصر «ماك آرثر» لأنها لا تريد البطل يطغى، وإنما تريد السلم مع اليابان..

وهكذا تناسى الماضى والعمل للحاضر والمستقبل تفوق في السياسة، فمثلاً كم هي العداوة التقليدية بين ألمانيا وفرنسا؟ فقد ذاقت فرنسا أكثر من هزيمة، ولكن الفرنسيين والألمان وضعوا الماضى يصندقونه حقداً دفيناً وعملوا للمستقبل، بينما قومنا العرب مشكلتهم الكبرى أنهم يعيشون الماضى بأحقاده ولا يعترفون بالواقع، فمازالوا في موقف الهزيمة من اليهود وأمام الذين مع اليهود.

لو أدرك العرب الحاضر لعملوا للمستقبل وليبق الماضى حقداً دفيناً قد يجود التاريخ بالانتقام له إذا ما تفوق العرب في حاضرهم لمستقبلهم.

ورجعت أركب الطائرة لمدة تسع عشرة ساعة، لأن الطائرة لم تواصل السير، نزلنا في هونج كونج فكلكتا فدلهي فطهران فبيروت.

ليست إلا جغرفة للأرض، أرض المدينة
والذكريات كما أنها مشاهد تاريخية، ليس منها أن تكون مذكرات شخصية، فلن أقحم نفسي متحدثاً عن شخصي وإنما هو الحديث عن المدينة المنورة في عهد الدولة العثمانية العهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عهد الأشراف ثم العهد لهذا الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، فالذكريات تاريخ من التاريخ عن الأحوال والاتصال والانفصال والرجال وكيف ابتليت بمن حولها وكيف طاب لبعض أهلها أن يعيشوا الفصام بلا خصام ما أشد قربهم لبعض حين لا تكون المادة جراية أو صدقة وما أقوى فصامه حين تكون المادة أحباباً يتقاربون وبالعنعنات كثيراً ما يتباعدون . . أكتب هذه الذكريات ليس فيها «الأنا» وإنما كلها الـ «نحن».

سرقتني بيروت!

الرحلة إلى لبنان . .

وصلت إلى بيروت لأرحل من المطار أعود إلى جدة، ولكن رائحة الثرى والأرز والصفصاف والوجوه العربية واللغة العربية في الأرض العربية، دعتني كلها لأن أنزل إلى بيروت أقيم أياماً . . ، في طوكيو كنت عجلاً أصل إلى جدة، ولكن بيروت سرقتني أن أبقى فيها، كأنما أنا وصلت إلى جدة، لهذا سميت بيروت بهذا الأسم (السروق)، فأي مدينة تسرق الإنسان يقيم فيها ولا يعجل إلى بلده إلا وهي السروق . . إلا وهي الحبيبة . . ، ولكن أهلها اليوم سرقوها حين استرقوها، كأنما عاشقها قد عشق هلاكها، فعلى أي شيء يتقاتلون؟! . . لبنان الجنة على الأرض يصبح أهلها مجانين . . ماذا جرى؟ بعض المسلمين يقتلون إخوانهم المسلمين، ألم يكن من العقل أن تضم قوة الفلسطينيين إلى قوة الشيعة إلى

قوة السنة إلى قوة الدروز، ليكونوا الأقوياء يفرضون المصالحة مع طائفة أخرى لبنانية مثلهم، وإن كانوا غير مسلمين؟!

إن السبب هو الحرمان من فهم القرآن، فأحمد الشدياق والبازيجيون والآباء اليسوعيون، ذاقوا البيان.. أشرق في قلوبهم بيان القرآن، فإذا هم العرب للعرب.. وإذا أحمد الشدياق تأخذه بلاغة القرآن وبيان اللغة الشاعرة إلى أن يسلم.. يرفع من قدر العروبة بما ارتفع به من قدر الإسلام..، أي شيطان نبغ في لبنان؟.. أحال لبانة أخنوخ إلى لبنات شيطانية.. حصرت الفلسطينيين يموتون جوعاً يأكلون الكلاب والقطط والفئران ليباح لهم أكل الموتى من الفلسطينيين.

إنه ظلم القربى:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة. على المرء من وقع الحسام المهند.
إنه ظلم المشاعر.. إنها نزعة شيطان في يده أن يكف القاتلين.

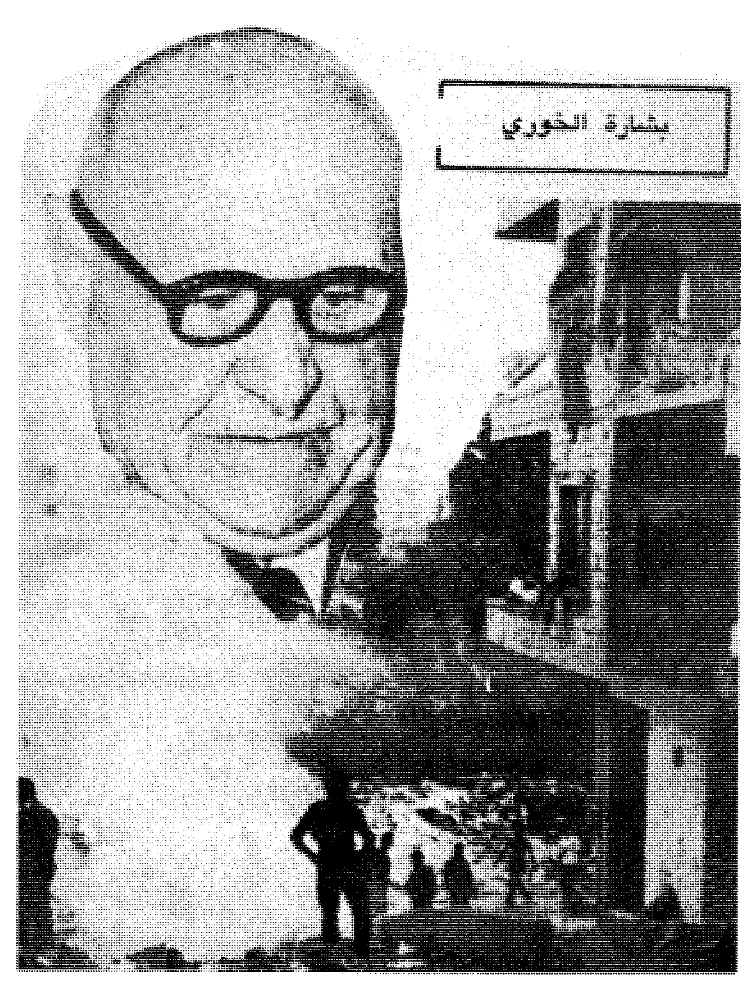
إن اليهود يحتلون أرضاً من لبنان، فلا يتوحد اللبنانيون، كأنما بعضهم يتصافى مع اليهود ويتجافى مع العرب.. إنها كارثة ليست على لبنان، وإنما هي على الذين يكترثون بها.. بل على الذي يعيش المأساة يحسبها ملهاة.

وطرفة عن الشدياق أحمد فارس، فقد أراد بعض القساوسة أن يهذبوا ترجمة الأنجيل، لا تبقى بأسلوب اليهود، فدعوا أحمد فارس الشدياق إلى لندن يترجم الأنجيل إلى العربية، فترجم بعض مقاطع من الأنجيل فإذا هي بيانية باللغة الفصحى، وإذا هو الله حافظ الذكر جل جلاله يصرف القساوسة عن ترجمة الشدياق قالوا: إنها ترجمة بأسلوب القرآن أي بيانية.. يقرأها مسيحي فيعشق البيان لا يجده إلا في القرآن. وأرجعوا الشدياق إلى لبنان ولم يترجم الأنجيل باللغة الفصحى، أي بأسلوبها البياني، ورجع شدياق ليكون برهاناً على أن المثل لم يكن إلا صدقاً (أبت اللغة العربية إلا أن تنتصر) فما أكثر بعض النصارى يعدون من أصحاب البيان يكتبون باللغة الشاعرة مشاعرهم، إذا ما قرأ غيرهم من العرب لم يجدوا أنفسهم البعيدين عن بشارة الخوري وعن شبلي الملاط والشاعر القروي ورشيد سليمان وأنطوان الجميل وداود بركات ومن إليهم، فأي شيطان نبغ في لبنان يتجسد في صورة بشر اسمه سعيد عقل.. يكتب بالفصحى.. يتحدث بالفصحى.. ولكنه يقتل بيانه بهذا التباين، بين موهبته كاتباً عربياً وبين عقده طفلاً، نشوئه عدواً لبيانه وإنسانه.

وانتهت الرحلة، سجلتُ بعض ماكان وليس في الإمكان أن يكون غير الذي كان، غير أن في الإمكان أن أكتب بعض ما يعرف من هذا التكوين الطائفي في لبنان.. إن الشام

كلها منذ أن كانت دمشق عاصمة الامبراطورية الأموية، أخذت القومية تستأسد، يثبت لها كيان كلهم قوم واحد، ولعلي لا أتجاوز الصواب أن عرب الشام من أسلم ومن لم يسلم كانوا عيبة واحدة، فلم تكثر العياب ولم تتبعثر الحقائب، حتى أن الظن وبعضه إثم، يأخذني إلى القول بأن العربي في عهد القومية وإن كان نصرانيا لم تطلق عليه كلمة الذمي، ولم تفرض عليه جزية.

ومن هنا أضع التقسيم لنصارى العرب على ثلاث صور، في أول الأمر كان أمر الإسلام ألا تقبل الجزية من عربي، لا تفرض عليه وترفض منه، لأنه إما أن يسلم لتنتظم الوحدة في ظل كلمة التوحيد، ولتكون الأمة واحدة، فاختلاف العقائد تتبعثر بها الأمة، بل إن اختلاف المذاهب في ظل العقيدة بعثرة الأمة، وباسم العقيدة، وإما أن يخضع للسيف أعني



● هكذا فعل الجنون بلبنان

أن العربي إما أن يسلم وإما أن يقتل، وأسلم العرب جميعاً في تهامة والسراة ونجد، بينما عرب الشام وعرب آخرون في مصر وما إليها كان لهم شأن آخر، أمتد بالخطوة الأولى حين أخذت الجزية من نصارى العرب وهم قلة من (لخم) في الحيرة ومن تغلب ومن إليها في الطرف الشمالي الشرقي في الجزيرة.

فالصورة الثانية هي في ضرب الجزية على (لخم وتغلب) فإذا هم أصبحوا شاميين حملتهم عقيدتهم إلى أن يكونوا في حرز قبائل الشام غسان.. وكلب وبهراء.

لتأتي المرحلة الثالثة وهي كأنها الامتياز لهم لا تؤخذ منهم جزية، وشغل العباسيون عن الشام كما أشغلوا جزيرة العرب، لايتعقبون غير المسلمين وقد انصب عقابهم على الكثرة من المسلمين العرب، لأنهم تشيعوا لغيرهم، ليكون التمذهب هو السيد الذي حكم العرب وحكم به سلطان العباسيين العرب.

ومن هذا كله قويت شوكة التمذهب في الشام ضد العباسيين كما قويت شوكة المسيحيين في لبنان، ولكن هؤلاء النصارى في لبنان كانوا عرباً.. عرباً ولا جدال في ذلك، أعني أن عروبتهم احتمت بالإسلام وقليلاً ما تحاملت على المسلمين. وجاء عصر العثمانيين فإذا هم يبتعدون عن العرب كما يبتعد العرب عنهم.. هوناً مّا.. هوناً مّا حتى إذا ضعف الرجل المريض أصدر أوامره لا يجند إلا المسلمين، فلا يجند النصاري ابتعاداً عنهم كما أنه يمارس الإذلال لهم، فإذا رجال مسلمون في لبنان يتنصرون في طليعتهم بشير الشهابي يفر من التجنيد وليحفظ أمارته وقد تنصر غيره..، تلك سياسة الضعفاء وهروب المستضعفين، وأخذ لبنان بهذا الموقف يتعاطف مع فرنسا ومع غيرها، فإذا نحن اليوم نتجرع الغصص من الذين كانوا قوميين ومن الذين لم يعرفوا حكم الإسلام في رعاية الذميين، غير أن لبنان مازال في نفوس العرب وفي قلب المسلمين هو الذي نهض فأنهض، فالجرائد الكبرى في غير لبنان كانت لبنانية والمجلات الكبرى في غير لبنان كانت لبنانية، فلبنان الشامي كان العربي ولكن العروبة اليوم لسان بلا قلب.. قلب تمذهب ولسان كاد يذهب.

والعلاقة بين العربي قبل الإسلام وبعد الإسلام، تأصلت مع مجاوريه في عهد الاكاسرة والقياصرة، وفي عهد التجارة تعبر أرضه تجلب من الشرق تباع في الغرب، أو يمر به الراحلون أو هم الرحالة من الغرب وإلى الشرق.

لهذا لم يكن العربي يجهل ما حوله ومن حوله، ولا هو بالذي تجاهله من حوله، وصال وانفصال.. صداقة.. وعداوة.. حرب.. وسلام، كأنما كل ذلك عدّ العربي ليحمل عقيدة التوحيد.. وتوحيد الكلمة. ومن هنا كانت الهجرة إلى الحبشة، يستقبلهم النجاشي ملك الحبشة.. ومن هنا مرة أخرى قوله ﷺ «اتركوا الترك ما تركوكم.. وذروا الحبشة ما وذروكم».. ومن هنا مرة ثالثة قوله ﷺ «لو كان العلم معلقاً بالثريا لتناوله رجال من فارس».

ذكريات الرحلة إلى تركيا

والترك الذي عناهم هم تركستان شمال خراسان وبشرق خراسان، فلم يكن الأناضول أرض ترك، بل كانت أرض الأناضول حيثية في سالف الدهر.. رومانية في ذلك العصر، فالأمر الذي نشأت عليه واتصل بي كل ذلك، أعرفه ولا أنحرف عنه، فلم أذهب إلى الحبشة مع أن الانسياح فيها يشهدني أرضاً جميلة، ولم أذهب إلى فارس مع أن الذهاب إليها يزيد ثقافتي، ولكن رحلت إلى تركيا، أعني إلى الأناضول إلى أسطنبول، وما كنت المبغض لشعب الترك وإن رزأني المتعصبون بجهالة الفهم أو بفهم الجاهلية، أنيَّ أسب الترك، وهل يستطيع مسلم أن يسب محمداً الفاتح الذي أسقط امبراطورية الروم التي لم تسقط بسيف الأمويين أو بسلطان العباسيين أو بهمة سيف الدولة، لكن هذا الاتهام صبه علي ما ذكرته في محاضرة ألقيتها في «جماعة المحاضرات» التي كنت أحد أعضائها، وقد كانت عن التعليم في المدينة المنورة، وذكرت أن فتح ثماني عشرة مدرسة تحضيرية والمدرسة الإعدادية، ودار

المعلمين استغلها الاتحاديون، يوم أسقطوا السلطان عبد الحميد عن عرشه ونصبوا السلطان محمد رشاد على عرشه فالاتحاديون بحماقة القومية الطورانية، أرادوا بهذه المدارس نشر التتريك، لقد كانوا أذكياء فكيف تسلط عليهم الغباء، فإذا العرب اعداء وإذا الترك أعداء، كلهم لم يحتجبوا في ظل الإسلام وإنما هم اعتصبوا قوميين، ألقيت هذه المحاضرة تناولت الفكرة ولم أسب الشعب، فكتب بعضهم يثير السفير التركي في جدة يشكو إلى وزارة الخارجية يسأل وكيل إمارة المدينة عن الموضوع، فيكلف أميري حينذاك الأمير عبد الله السعد السديري يرحمه الله، يكلف أستاذي السيد أحمد صقر، وقد كان يسمع المحاضرة حين ألقيتها ليسألني بدافع التكليف عن هذه التهمة، ناولته المحاضرة قرأها، كتب تقريراً ينفي التهمة، لا يجاملني ولا يتحامل علي، فلم ينلني عقاب وإنما بعد ذلك نلت الثواب أدعى لزيارة تركيا بعد أن متعت بالسكينة في مكة المكرمة.

وأضحوكة، أقبل علي واحد من أواسط الناس في المدينة يقول لي: «كيف تسب الأتراك؟ أنت ما تعرف أن جدتي أم أمي تركية» قلت: لم أعرف هذا المانع العظيم، لكني أعرف حق السلطان على من هو في عنقه بيعه، ياولد الحلال أنا ما سبيت وما حبيت.

وفي مكة المكرمة . . وفي المسعى أمام بيت في الخاسكية، قابلني صديقنا واسمه شفيق تركي أصبح مكياً يسكن محلة أجياد، التي كانت منازل مخزوم مس ترابها الطفل عمر بن الخطاب يوم ولدته أمه المخزومية كما مس الطفلين خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل والمسيب والد سيدي سعيد بن المسيب، كما كان من أنسالها عمر بن أبي ربيعة، قابلني يسألني: لماذا تسب الأتراك؟ فقد بلغته الإشاعة، وتمهلت لا أجيب استأنيت قليلاً حين شاهدت، تلميذي وابن أستاذي الصديق علي مدرس، أبوه الشيخ سعيد المدرس، فأبوه كان أستاذي وأستاذ معلمي السيد أحمد صقر كما هو كان الأستاذ الأول لعبد الحميد بدوي باشا العلم في مصر، بل والعلم في عالم القوانين أحد الذين صاغوا ميثاق سان فرنسسكو.

أقبل المدرس، سلم علينا، قلت يا علي مين أحسن؟ مصطفى كمال وإلا السلطان عبد الحميد؟ فتلسن على مصطفى كمال وترحم على عبد الحميد، فقلت لشفيق: أسمعت؟ فهل ما قاله علي وهو تركي تأخذه سباً للأتراك ؟ قال لا، قلت وهكذا أنا، قل لمن أخبرك عني كلمة «لا».

ومنذ أصبحت أكتب طاب للسفارة التركية في جدة أن أتلقى دعوتها لزيارة تركيا الحديثة، فإذا الرفيق معي في هذه الرحلة الصديق شكيب الأموي ومعه أم بنيه السيدة المحترمة.

وصلنا إلى أنقرة عاصمة تركيا الجديدة، أتخذها مصطفى كمال حرزاً تصان به الدولة من

عدوان بلقاني بلغاري، فهو حين أنتصر على اليونان ما كان ذلك إلا الأنتصار على تشرشل بالذات وعلى بريطانيا حينذاك، فمصطفى كمال حين أنتصر لم ينقذ الإمبراطورية العثمانية فقد أنتهت، وإنما أنقذ شعبه دولة في الأناضول، ولكن أنتصاره على بريطانيا جلب الانتصار لبريطانيا نفسها على نفسها، فمد مصطفى كمال يد الصداقة لها فإذا هي تصادقه، لم ينلها عقوق من تركيا يوم أشتعلت الحرب العامة الثانية، أقصى العلاقة بين تركيا وألمانيا وحدد العلاقة مع روسيا وجدد العلاقة بالحياد مع الحلفاء، إن لم يكن هو في يومها، فقد كانت سياسته هي في كل أيامها وقد أراد لتركيا أن تكون وحدها، كتب باللاتينية لئلا تكون الحروف العربية، وترجم الأذان لكن إسلام الشعب التركي مازال باقيا وقوياً، حتى هو نفسه لم يستطع تبديل أسمه، فما زال اسمه مصطفى كمال وإن أضاف إليه لقب أتاتورك، وكل أعوانه بقيت أسماؤهم عربية عصمت.. كاظم.. فتحي..، لم يستطيعوا تبديل أسمائهم لأن قلوب الأطفال فرضت سلطانها على الرجال، فأنقرة يعرفها العربي، أفليس أمرؤ القيس قد زارها وأصابته القروح كأنما هي عدوة مرض الزهري التي تسميه قبائلنا «الشجر»، فذو القروح أمرؤ القيس، ذهب يستنجد القيصر ليأخذ بثأر أبيه «آكل المرار» حجر الملك على أسد، هو من كندة ما استكثرت عليه أسد أن يكون ملكها، ولكنهم قتلوه.

ولعل مصاهرته لتغلب يوم كانت وائل ببكرها وشيبانها وتغلبها المستعلية على العدنانية كلها فربيعة الفرس بوائل ومن إليها كانت على غير ما يشتهيه المناذرة وعلى غير ما يفرضه الأكاسرة.

إن معرفة أمرؤ القيس لأنقرة، ومعرفة العرب للأحباش ولمصر ولقبائل الشام وللروم وفارس، برهان على أنهم كانوا يعرفون ما هم عليه وما هم فيه، فالأمية لم يكتبوا الحرف، ولكنها لم تكن أمية الفكر.

وصلت إلى أنقرة واستقبلنا المضيف المترجم حتى إذا أخذتنا سكينة الراحة، كان جدول الزيارة يبدأ بعد أنقرة إلى مدينة «قونية» عاصمة السلاجقة عليها سمت القدم وبصمة العراقة، يحترمها الأتراك لأنها إحدى عواصمهم ولأن فيها ومنها جلال الدين رومي صاحب المثنوي كتاب ينسب إليه.. جزء من ثقافة الأتراك وركيزة من ركائز الطرقيين «البكتاشيين»، تجولنا فيها وكانت الزيارة لشيخ مسلم اسمه أحمد صاحب مكتبة كبرى اقتناها واعتنى بها، ليس لديه رياش ولا أثاث.. رياشه وأثاثه وفخره في هذه المكتبة.. فيها مخطوطات وفيها ماسة لم تتبلور كأنها قطعة من الكلس، فهي لم تزل خامة.. كبيرة الحجم لو بلورها لأفاضت عليه ثمناً كثيراً.. سقف بيته أشبه ما يكون بسقف بيوتنا من اللبن، مسقفة بأعواد العرعر (العثم)، ترجموه في الموسوعة الميسرة (الأثم) أخذوه من لغة الفرنجة ينطقون العين

همزة، كما فعل أمين سعيد في كتابه عن الثورة العربية، تجد فيها (ابار بن حصاني) التي تقابل الأبواء، كتبها (أبار بن حسان) كما كتب (الخنق) المضيق بين وعيرة وحرة قريظة حين ينجد المدينين، كتبها (الخانق).

وأستقبلنا الشيخ أحمد وتركنا نزور المكتبة قالوا إن بعض الفرنجة دفعوا له ملايين الدولارات ليشتروا المكتبة الحافلة، بالمخطوطات والجوهرة فلم يبعها، وكان جالساً على الأرض، وقد شكا لنا أن عربياً زاره وصور مخطوطة طبعها في بلده العربي فلم يرسل لصاحبها الشيخ أحمد نسخة من المطبوع، حرم الشيخ لذة الإحسان وحرمنا نحن العرب من ثناء الشيخ وكلفنا سوء ظن الشيخ.

ورجعنا نسير من أنقرة إلى العاصمة الثانية المسلمة، عاصمة العثمانيين الأولى (بورصة)، شاهدنا الحمامات الساخنة، رأينا آثار العراقة، فالمدن القديمة تبهرك عراقتها، أما المدن الجديدة فزهو نفسها بالأزدهار في عين زائرها.. وصعدنا إلى الجبل في صندوق كهربائي (الترفريك) ساعتها خفت من أن يقطع السلك أو تنطفىء الكهرباء.. لقد خفت ولكن الله سلم، وفوق الجبل شاهدنا عظمة الخلق من بها الخالق على من خلق وما خلق (وإن من شيء إلا يسبح بحمده)..

وأنتهت زيارتنا إلى (بورصة) ووصلنا إلى المدينة التي هي مجال فخر كعاصمة من عواصم الإسلام، كأنما دمشق والفسطاط وبغداد وأصفهان وتونس وفاس وقرطبة، قلت (للأستانة) قسطنطينية أسطنبول.. أهلاً وسهلاً.. ومرحباً، فبك قد سقطت إمبراطورية الروم، وما زال فيك قبر أبي أيوب الأنصاري ذلك الصحابي الجليل الذي لم يأنف يسير إلى الجهاد ولو كان أميره يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

وتجولنا نشاهد مسجد السلطان أحمد وفيه العجيبة لو قلت.. لو نطقت في أي ناحية الكلمة (الله أكبر) لسمعت صداها يملأ أروقة المسجد ومحرابه ومنبره، كأن تاج محل العجيبة في الهند مثل مسجد السلطان أحمد في تلك الظاهرة تسمع الصدى كأقوى من المكبرات الصوتية (الميكروفون)..

وزرنا (أيا صوفيا) كان كنيسة سميت باسم القديسة صوفيا، فأصبح مسجداً رفع الصليب منه ودوى في جنباته صوت الآذان وآيات القرآن.. بناء فخم من أثر حضاري، وكأنما الكاثوليك في أسبانيا أحالوا مساجدنا إلى كنائس يثأرون لأيا صوفيا، فإذا الأندلس تبكي مساجدها كما بكى آخر ملوك (بنو الأحمر) أبو عبد الله يوم قالت له أمه:

أبكي مثل النساء ملكاً مضاعاً

لم تحافظ عليه مثل الرجال

وبعدها زرنا عجيبة الشعب التركي كيف حافظ على الآثار، لقد جاع وقاتلوا اليونانيين حفاة، فلم يبيعوا ما ادخروه في دار آثارهم (طوب قوباي) زرنا هذه الدار ذكروا لنا أن هذا المصحف مصحف عثمان بن عفان وأن هذا السيف هو ذو الفقار وأن هذه بردة نسبوها إلى رسول الله ﷺ، أما ذات الثمن الكثير. . الكثير! فهي الجوهرة (الماسة) التي اسمها الكوكب الدري، كانت معلقة في الحجرة النبوية، أمسك بها فخري باشا وأرسلها مصونة تحفظ في (طوب قوباي) إنها ماسة كبيرة، قيمة الجوهر وقيمة المكان الذي كانت فيه، لو أن مصطفى كمال حينما جاع باعها للامريكان لأنعل جنوده الحفاة وكسى جنوده العراة،

وزرنا القصور ومشينا على جسر البسفور الذي وصفه شوقي يعلن قدمه وخرابه:

أميـر المـؤمنـين رأيـت جسـراً
أمـرُّ علـى الصـراط ولا عليـه

وتناولنا العشاء في مطعم وفي ناد ليلي وسمعنا الآذان وقد كان بجانب النادي مسجد صغير، فقال لنا المترجم وهو ضابط طيار. . سمعتم الآذان؟ لقد تناول العشاء يوماً اتاتورك، يعني مصطفى كمال وحين سمع الآذان أصدر أمره بهدم المنارة والمسجد، ولكن المسجد بقي والمنارة بقيت بقاء الشعب التركي على إسلامه، كأن الأستانة مازالت عاصمة التاريخ المسلم في الأناضول، وذهبنا نقف أمام قبر الصحابي الجليل خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري، لم ندخله وإنما نطقنا بالترضية عنه وكان معنا الأستاذ (صالح أوزقان) عضو الرابطة الإسلامية يمثل الشعب التركي فقال: أنا هناك.

وانتهت الزيارة يستقبلنا رئيس الوزراء سليمان دمرال ووزير العدل كلاهما قال: لقد حفظنا عهدنا للإسلام فما رضينا أن نمكن اليهود من فلسطين، وحين رحلنا بحرب الغرب علينا تمكن اليهود من فلسطين، قلت: ليس هم العرب وإنما هو وعد بلفور وإنما هو ما تعرف أكثر مني، لماذا عندكم سفير لإسرائيل، قال: تلك ضرورة ولو رجعتم إلينا ورجعنا إليكم لأمكن ألا يكون، هذه قصورنا مفتوحة وهذه صادراتنا لا تمنع عنكم، واصلونا نصلكم، لقد كنا في ضيق فلم نفرط بشبر من أرضنا والآن قد يتسع الضيق إذا اتسعت قلوبكم لنا ولو بالسياحة عندنا، ومضت سنون وجاءت هذه الأيام فإذا نحن العرب نقترب وإذا هم الترك لا يبتعدون.

طيبة رحلة في الزمان والمكان

الحلقة الأخــيرة

وانتهت الـذكريات في أربع وأربعين حلقة، وتزيد المقدمة كأنها الواحد على تلك الـذكريات، فالمقدمة أخذتني أفكر هل أستجديها من صديق يتصدق بها علي، إذا ما صادق المسـيرة، أو قرأ الـذكريات. . وسألت نفسي من. . ومن؟! وبينها أبعد هذا أو أبتعد عن ذاك، فإستجداء المعاني فيه من كرب الاستعطاء، لأن إستجداء المادة سد لحاجة أما إستجداء المعاني، فإستكبار إن كان لبعض ما فيك أو ماهو لك، فإنه قد يكون تزيداً بمنحك بعض ما ليس لك.

وتلفنت إلى إبنتنا الغالية !الأستاذة المديرة إبنة المدينة المنورة (نورة عبد العزيز الخريجي) تخبرني عن مقـال نشر في المجلة (قافلة الزيت) كتبه الدكتور مصطفى إبراهيم حسين: قالت: سأبعث المجلة إليك، وتسلمت من البريد المجلة، وأخبرني الابن الكريم الأستاذ عبد الكريم الخطيب عن كلمة فياضة كتبها الدكتور عايض الردادي، فإذا بي أستقرىء بالأذن لأجـدني أسـير هذا التكـريم من الكـاتبـين ومن المخبرين، أقول لنفسي ما قاله (أرشميـدس) لقد وجدتها، أعني المقدمة وهي مكونة من مقال الدكتور مصطفى الذي أحاط بي ببعض ما نسيت وأحاطني بكل التكريم، وعايض الردادي كذلك، فهو من أعراق طابت حين تأصلت ميموني سالمي حربي، فالردادة لا نعرف عنهم إلا الخير يحمـلون الحاج يأمن بهم ويحملون المؤونة إلى المدينة من ينبع وهم المؤتمنون عليها. . مثلهم كأبناء عمهم الحجلة والـرحلة والمحـاميد ومثلهم كأبناء عمهم المراوحة الحوازم. . جمالة، وهـم اليوم أنجبوا الدكاترة والأساتذة.

وجدتها مقدمــة للذكريــــات

ولهذا كله سأنشر مقدمة الدكتور، ما استجديتها وإنما كأني استهديتها . . ولا أجد إلا الشكر له ولعايض الردادي، فالشكر لن أكتمه وإنما أعلنه:

هو محمد حسين زيدان، الأديب الكاتب، والخطيب والصحفي والمحاضر. ولد بالمدينة المنورة عام ١٣٢٥هـ، وتخرج بالمدرسة الراقية الهاشمية في عام ١٣٤٣هـ، وانخرط، منذ صباه، في حلقات العلم التي كان يعقدها كبار الشيوخ بالمسجد النبوي الشريف، فدرس

علوم: النحو والفقه والتفسير والحديث، وغيرها.

وقد شغل «زيدان» العديد من الوظائف الإدارية والصحفية والعلمية والتربوية، فاشتغل بالتدريس في المدينة المنورة، في كل من «المدرسة السعودية» و «دار الأيتام». وذلك في الفترة من عام ١٣٤٦هـ إلى عام ١٣٥٨هـ. وشغل بعض الوظائف الإدارية المختلفة، مثل: رئيس قسم الأوراق بوزارة المالية، فسكرتير مديرية الحج، إلى أن كان مساعداً للمفتش العام بوزارة المالية.

أما في حقل الصحافة، فقد كان الأستاذ محمد حسين زيدان مدير تحرير جريدة «البلاد» بجدة، فرئيس تحريرها، كما رأس تحرير جريدة «الندوة» بمكة المكرمة أيضاً. وهو الآن عضو بمجلس إدارة «دارة الملك عبد العزيز»، التي تعد بمثابة مركز للأبحاث التاريخية، هذا إلى جانب توليه رئاسة تحرير مجلة «الدارة»، وهي مجلة علمية محكمة، توجه عناية خاصة للتراث التاريخي والأدبي، وتصدر بصفة فصلية، ومايزال «زيدان» يرأس تحرير هذه المجلة حتى الآن.

زيدان مؤلفاً

وتتعدد مجالات النشاط الأدبي والثقافي لدى «زيدان»، بين التأليف، وتحرير المقال الصحفي، والمقال العلمي، والحديث الإذاعي والتلفزيوني، والمحاضرة، سواء في الأندية الأدبية أم في المحافل الثقافية والمؤتمرات. وقد جمع الكثير من أحاديثه ومحاضراته ومقالاته في كتب حملت كل طريف شائق من العناوين، والمفيد الجاد من الموضوعات. وأهم هذه المؤلفات الجامعة لإنتاجه.

★ تمر وجمر، ويضم مجموعة من المقالات.

★ حصاد عمر وثمرات قلم، ويضم بعض المحاضرات والمقالات، فضلاً عن طائفة من تراجم الصحابة وسير الأبطال.

★ محاضرات وندوات في التاريخ والثقافة العربية.

★ ثمرات قلم.

★ صور.

★ أشياخ ومقالات.

★ كلمة ونصف.

★ أحاديث وقضايا حول الشرق الأوسط.

ومايزال لـ «زيدان» عدد من المؤلفات قيد الطبع، منها:

★ خواطر مجنحـــة.

★ الذكريات، مشاهدات ورحلات وذكريات.

★ عبد العزيز والكيان الكبير.

أما محاضراته التي شارك بها في مجالات ثقافية مختلفة فمنها:

★ رعاية الشباب، وهي محاضرة ألقاها بجمعية الإسعاف بمكة المكرمة عام ١٣٥٨هـ.

★ الإسلام والحضارة، ألقاها بجامعة الملك فيصل عام ١٣٩٧هـ.

★ جمال الدين الأفغاني، ألقاها بنادي جدة الأدبي عام ١٣٩٧هـ.

★ بنو هلال بين الاسطورة والحقيقة، وهو موضوع ندوة علمية تاريخية، شارك فيها «زيدان»، وانعقدت في مدينة (الدوحة) بدولة قطر الشقيقة، ونظمتها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب عام ١٣٩٧هـ.

★ العرب بين اللأرهاص والمعجزة، بحث ألقاه بمركز دراسات الشرق الأوسط في كامبردج عام ١٩٧٦م.

★ رحلات الأوربيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية، محاضرة ألقاها في قسم التاريخ، بكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض عام ١٩٧٧م.

ولا يخفى أن الأتجـاه إلى البحث التـاريخي، هو أبرز الاتجاهات وأغلبها على كتابات «زيدان» ومحاضراته.

زيدان كاتب السيرة

عالج «زيدان» فن السيرة في مجموعة من المقالات، جمعها في كتاب واحد، جعل عنوانه (سيرة بطل)، ضم تراجم تاريخية لطائفة من الصحابة والصحابيات، رضى الله عنهم، بلغ عددهم ستة وستين صحابياً وصحابية، من بينهم: قدامة بن مظعون، ومصعب بن عمير، وأم المؤمنين خديجة، وسلمان الفارسي، وهند أم سلمة، وأسماء ذات النطاقين، وعبد الله بن جحش، وأبو دجانة، وعمرو بن عبسة.

ويهدف الكتاب، كما تشير مقدمته، إلى هدفين أساسيين، هما:

★ تلبية حاجـة الأجيال الجـديدة إلى هذه السير، بما شخصته من قيم روحية، ينبغي أن يستضيء بها الشباب المسلم، لبناء حاضره ومستقبله.

* أن يتعرف شبابنا رجال تاريخه وأمته، بعد أن جهل سيرهم، يقول في المقدمة: «هذه باقة عطرة من سير صحابة رسول الله ﷺ الذين نضروا وجه التاريخ الإنساني بخلقهم وبطولاتهم ومثلهم، ننشرها اليوم، وقد أصبحت أجيالنا الجديدة، في كل شبر من عالمنا الإسلامي، في أمس الحاجة إلى هذا النور المبين، تمشي به عبر الظلمات الكثيفة، التي تكتنفها، وتكتشف على ضوئه، زيف الحياة المادية والشعارات البراقة، التي تلعلع من حولها و تستعين به لتخطيط حاضرها ومستقبلها». إلى أن يقول) «وإنه لمما يحزن القلب أن يعرف شبابنا عن مشاهير الأمم، من شرق وغرب، أكثر مما يعرفون عن أبطال أمتهم وصناع تاريخهم، الذين أضاءوا الدنيا، وغيروا وجه التاريخ».

أما عن منهج الكاتب في كتابة «السيرة»، فإنه، في إيجاز، يقوم على: رسم صورة حياة بشكل موجز، مع إبراز أهم ملمح في حياة الشخصية ومواقفها وخصائصها، وذلك بعد أن يلم في البداية بنسب الشخصية ومكانتها.

وكذلك يتحرى الكاتب، في ترجمته، الوقوف عند مواضع العبرة والتنبيه إليها، مع عناية واضحة بربط سيرة الشخصية بالواقع المعاصر، والحاضر الذي نعايشه.

ولغة الكاتب تتوخى البساطة واليسر، مع الأداء البياني الذي يجعل قراءة السير أمراً محبباً شائعاً. كما يلحظ قارىء هذه المجموعة من السيرة جودة إلمام الكاتب بعلم الأنساب وتاريخ القبائل العربية، والموازنة الحاسمة بين الأنساب المتشابهة، والتي يدخل التشابه بينها، في بعض الأحيان، اللبس على الدارسين، والقارئين على سواء هذا إلى وفرة ما طالعه الكاتب ورجع إليه من المصادر، مع سعة المعرفة بالتاريخ الإسلامي: رجالاً ومواقف وأحداثاً وأنساباً.

زيدان محاضراً:

سلفت الاشارة إلى أن الأديب «محمد حسين زيدان» يشارك بالمحاضرة في المحافل والندوات، وقد جمع بعض ذلك في كتاب عنوانه: «محاضرات وندوات في التاريخ والثقافة العربية».

وعنصر التاريخ، كما يتضح من العنوان، هو الغالب، وهو مزيج من التاريخ العربي الإسلامي.

ونلتقي في هذه المحاضرات بتلك العناوين:

- رحلات الأوربيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية.
- بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة.

- العرب بين الإرهاص والمعجزة.
- جمال الدين الأفغاني.
- الإسلام والحضارة.
- العرب وجزيرتهم.

ومحاضرته عن «رحلات الأوربيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية» تكشف عن الدور المريب الذي لعبه الرحالة الأوربيون لدراسة شبه الجزيرة العربية من النواحي الاجتماعية المتعلقة بحياة البدو بصفة خاصة، والناحية الدينية بالحج ومناسكه، ولما كان هؤلاء الرحالة غير مسلمين، ومن ثم لا يسمح لهم بارتياد مكة والمشاعر، أو زيارة المدينة، فقد اضطروا إلى اعتناق الإسلام كذباً وزوراً، كما أتقنوا اللغة العربية، ودرسوا الإسلام وارتدوا ملابس البدو، كما وثقوا علاقتهم بالبدو، وكسبوا صداقتهم وثقتهم. وقد تناول هؤلاء الرحالة بالدراسة «الحركة السلفية بقيادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب» وأثرها في شبه الجزيرة العربية، والدور الذي قام به «محمد علي» في النيل من الحركة السلفية الإصلاحية والتي كان لها تأثير عميق في حياة الشعوب الإسلامية، وإنشاء أول دولة إسلامية في العصر الحديث، تحتكم إلى شريعة الله، وأهمية هذه المحاضرة تتمثل فيما يلي:

- كشفت عن واحدة من الوسائل الخبيثة التي مارسها الأوربيون ضد المسلمين المعاصرين، ووقائع حياتهم الاجتماعية والدينية.
- استشعار الأوربيين الخطر الذي يتهددهم ويفسد عليهم مخططاتهم، من جراء حركات الإصلاح واليقظة الإسلامية وتقديرهم لحجم الخطر الكامن في الدعوة السلفية.
- علاقة الرحالة الأوربيين بقادة الحركة الاستعمارية، وبخاصة نابليون والحملة الفرنسية على الشرق العربي، وخضوع هذه الرحلات للتخطيط والتوجيه والتمويل.
- إن معلومات الرحالة الأوربيين عن العالم العربي بعامة، وشبه الجزيرة العربية بصفة خاصة، كانت مفيدة للغاية في توجيه الحملة الفرنسية، وتحقيق الكثير من أهدافها.

أما محاضرة «زيدان» عن بني هلال والهلاليين ، فعنوانها «بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة». إن أهم ما يقدمه «زيدان» للمثقف العربي، يتمثل في الدور الذي اضطلع به الهلاليون في تعميق حركة التعريب العرقي واللغوي، سواء في مصر أم في دول الشمال الأفريقي، خلال القرن الخامس الهجري وما بعده.

لقد استقرت قبائل «الهلالية» بمصر، بعد أن قدمت إليها موجة أثر موجة، وتحركت بعد هذا إلى بلدان المغرب العربي منذ عهد «المعز الفاطمي» حين أغرى قبائل الهلالية بغزو

«القيروان» للقضاء على دولة «الصنهاجيين» الذين أعلنوا المذهب السنى بديلاً للمذهب الفاطمي الشيعي، وخلعوا طاعة الخليفة الفاطمي في القاهرة.

وتتلخص أهمية هذه المحاضرة فيما يلي:

- أن موجة بني هلال تمثل، بالنسبة لمصر، الموجة العربية الر ابعة، منذ موجة الفتح الإسلامي.
- أن الهلاليين عرب من بني قيس قدمت موجاتهم إلى مصر من «نجد» التي أدت مع سائر مناطق شبه الجزيرة العربية دوراً تاريخيا بارزاً في سبيل تعميق الوجود العربي.. عرقياً، ولغوياً. وبالتالي عمقت الوجود الإسلامي، المرتبط بالوجود العربي دائماً.
- أن «الهلالية» ليست أسطورة، بل هي حقيقة، ودورها في المنطقة العربية دور أصيل.

ومن الواضح أن بحث «زيدان» عن «الهلالية» قد أفاد كثيراً من النتائج التي توصل إليها مؤرخ تونس الكبير الراحل «حسن حسني عبد الوهاب» في كتابه «ورقات عن الحضارة العربية في أفريقيا». إذ كان من أوائل المؤرخين المعاصرين الذين نبهوا إلى دور «بني هلال» في حركة التعريب، بعد أن اقترن خراب القيروان بالهلاليين.

ولو شئنا أن نخلص إلى رؤية شاملة لكتابات «زيدان» التاريخية ومحاضراته،. لقلنا: إن هذه الكتابات والمحاضرات، تحرص، دائماً، على الارتباط بهدف معين، هو تأصيل الانتماء العربي الإسلامي، ووصل الماضى التالد بالحاضر الواعد، وحث الشباب، بخاصة على قراءة تاريخه واستطلاع تراثه لأن الأمة التي تجهل تاريخها، تجهل طريقها.

زيدان والمقال السياسي.

عالج «زيدان»: المقال السياسي، كما عالج ألواناً شتى من المقال، على نحو ما سوف نبين بعد، فأصدر كتاباً كاملاً، جمع فيه ما نشره مفرقاً من مقالاته السياسية، وأهمها:

- **إسرائيل والواقع العربي.**
- **الصراع بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية.**
- **أساليب الاستعمار المعاصر في الاتجار بالسلاح.**
- **الخطر الشيوعي.**
- **كامب ديفيد ومكامن الخطر فيها.**

وأول ما نسجله من الملاحظات على «مقال زيدان السياسي» أنه وثيق الارتباط بالحاضر

العربي، وبما يجري على الساحة العربية من الأحداث، ومن هنا يأتي مقاله السياسي تعليقاً على هذه الأحداث، وتحليلاً لها، ونقداً للانحرافات، نقداً مغلفاً في أسلوب ساخر لاذع.

و «زيدان» الذي يهتم بالتاريخ، ويخصه بالأبحاث، لا يفوته أن يمزج «المقال السياسي» بالتاريخ. ويرد ذلك عنده على صور شتى: منها، على سبيل المثال: بدؤه مقاله بذكر حادثة سياسية، ثم الانطلاق من هذه الحادثة القديمة إلى موقف حديث يناظرها، فيحلل ذلك الموقف، ويعقد الأواصر بين الماضي والحاضر.

وقد لا تكون الإشارة التاريخية، لديه، نقطة البداية، بل ترد في ثنايا المقال، مع الموازنة والمقارنة.

وهكذا يتحول «التاريخ» في «المقال السياسي» عند «زيدان» إلى درس آخر، يؤصل لديه الرؤية السياسية ويعمقها ويجعل «المقال السياسي» لديه أكثر من مجرد محاولة للتعليق على الأحداث والأخبار، عربياً وعالمياً، بل هي درس يبقى بعد زوال الحدث، ليصبح امتداداً حياً في واقع الأمة.

ثمة ملحظ آخر عن «المقال السياسي» لدى «زيدان»، وهو عنايته بالحدث العالمي، وعنايته بالحدث العربي وتناوله الحدث، العالمي، من وجهة نظر المثقف العربي، مع الربط بين الحدث العالمي والواقع العربي في حلقة واحدة.

ومن خصائص مقال «زيدان» بساطة الأداء اللغوي، مع مزج التحليل والتعليق بروح الدعابة، التي لا تخلو، في الكثير من الأحيان، من السخرية اللاذعة.

كذلك يحرص «زيدان» في مقاله السياسي على العنوان الطريف المثير، مثل:

- **استرخاء موسكو وتوتر واشنطن.**
- **لمسات، ورفعنا لك ذكرك.**
- **تجارة السلاح بلطجـــة.**
- **من المؤامرة إلى المغامرة.**
- **منحة التوقيت.. نعمة التوفيق.**

زيدان والمقال الاجتماعي.

عالج «زيدان»، من خلال «المقال الاجتماعي»، العديد من الموضوعات الاجتماعية،

التي تصور وتنقد بعض التقاليد والعادات، والظواهر الاجتماعية العارضة، مع الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، ومن بين القضايا الاجتماعية التي تناولها: المغالاة في المهور، الإقبال على الاقتران بالرجل الثري، دون النظر إلى الاعتبارات الأسرية، بعض مظاهر أنانية الآباء في معاملة الأبناء.. الخ.

ويميل الكاتب، في مقاله الاجتماعي، إلى التركيز والإيجاز وتحري الواقع وصدق الوقائع. كما يغرم كثيراً بأسلوب الحوار، يلجأ إليه ويمزج به الصورة الحية النابضة، مما يضفي على المقال ملامح قصصية، ويشد إليه قارىء الصحيفة، ويكشف، في الوقت ذاته، عن حس فني لدي الكاتب، يعينه على تجسيد الفكرة الا جتماعية.

كما يلجأ الكاتب، في بعض الأحيان، إلى استخدام «الكلمة العامية والتركيب العامي»، حتى يضاعف من الطاقة الجاذبة للقارىء، ويقترب بقلمه من الواقع، هذا إلى نزوعه نحو الفكاهة، التي يستعين بها أحياناً في النقد الساخر المغلف.

في مقال له عن نقد بعض العادات المتبعة في حفلات العرس، يقول: «ونسأل الله أن يتم على العرائس والعرسان نعمة الفرحة في ليلة العمر، وفي أيام العسل، وفي الأيام التالية، من عمر مديد وحياة سعيدة. يغلبها بالمال، وتغلبه بالعيال، ويتغلبان على حياة، زاخرة بالمتغيرات والمتناقضات، بالعلم والمعرفة والصبر والشكر. مقدمة لابد منها، ندخل بها على الأمهات والآباء، فهم يأبون إلا الزيطة والزمبليطة» تكثر فيها المصاريف ذاهبة هباء، لو صانوها لصانوا الكثير من المربح والمفرح والمعين..».

زيدان كاتب الصورة.

مارس الكاتب تحرير لون من ألوان «الكتابة الصحفية» يمكن أن نطلق عليه الصورة أو «اللوحة» وذلك إلى جانب المقال، الذي أوجزنا الحديث عنه فيما سبق. وهو عادة يعنون لهذا الشكل: أي الصورة، بعنوان «صور...».

وقد خص بهذا الشكل النثري كتاباً كاملاً، جعل عنوانه «صور».. كما لم تخل منه سائر ما جمعه من الكتب الأخرى مثل: ثمرات قلم، وكلمة ونصف، وأحاديث وقضايا حول الشرق الأوسط.. وفي كتابه «صور» الذي اختصه بهذا الشكل النثري، يحاول أن يحدد لنا المقصود من لفظ صور»، فيقول: «إن هذه الصور قالة من مقالة، كليمة من كلمة، قد يكون فيها الكلم لمن تجرح، وقد تكون قالة من مقالة، كليمة من كلمة، وقد تكون لما هو أكثر، أو لما هو أقل. هي بضاعة مزجاة، فعسى أن تلقى القبول».

وإذا كانت تلك السطور لا تعطينا مفهوماً محدداً لفن «الصورة» لدى الكاتب، فبوسعنا أن نتعرف على هذا المفهوم من خلال قراءة مستقصية، تستخلص الخصائص، وتحدد هذا المفهوم. فالصور على هذا لمحات قصار تتتابع في موضوعات شتى، من الدين إلى المجتمع إلى الأدب إلى السياسة، وغير ذلك.

وقد تكون هذه الصورة تسجيلاً لذكرى من ذكريات الكاتب، أو لخاطرة عابرة، أو لفكرة مقروءة، ألم الكاتب بها فيما يلم به من مطالعاته، وقد تكون خبراً من الأخبار السيارة، أو حقيقة تاريخية أو علمية.

أما من حيث الشكل فهي، إلى جانب التنوع والاستطراد الموضوعي، تتسم بأنها أقصر، وأكثر تركيزاً من الشكل المقالي، الذي اعتاد الكاتب ممارسته.

كذلك قد تكون الصورة حواراً خالصاً، أو حكاية خالصة. كما قد تكون سرداً مباشراً مجرداً من الحوار أو القص. هذا إلى جانب عناية الكاتب، في الأعم الأغلب من «صوره» بعنصر التصوير، حيث يكون حظ صوره منه أوفر من حظ المقال.

وإذا كان البحث العلمي عند «زيدان» قد اتسم بالرصانة وعكس لنا تنوع المعرفة، مع عناية خاصة بالتاريخ، فإن «المقال الصحفي» لدى الكاتب، قد اتسم بالخفة والظرف أيضاً، وعكس لنا «الحس الفني»، لديه، مع ارتباط واضح بالواقع المعيش، إقليمياً، وعربياً، وعالمياً. اجتماعياً وسياسياً ودينياً. ومن هنا تنوعت منازع القول والتعبير لدى «زيدان» سواء من جانب المعرفة العقلية، والوجدانية الفنية، كما تنوعت وتباينت، في الوقت نفسه، ثقافاته ومعارفه، في مصادرها ومواردها.

ذكريات الزيدان

أخذ الكثير من أدبائنا المعاصرين في هذه الأيام يدبجون مذكرتاهم وتجاربهم في مسالك هذه الحياة الواسعة إن طالت أو قصرت ولكن كما قال أستاذنا محمد حسين زيدان في ذكرياته التي ينشرها تباعاً في جريدة عكاظ: «الذكريات ليست إلا جغرفة للأرض. . إلى أن قال: أكتب هذه الذكريات ليس فيها الأنا وإنما كلها النحن» وذكريات أستاذنا الزيدان هي عن أطهر بقعة في هذه الأرض وأكرمها عن مدينة النور والضياء، طيبة الطيبة بلد سيد المرسلين ﷺ في عهد الدولة العثمانية والعهد الحميدي والعهد الرشادي ثم عن الأشراف ثم أطل على عهدنا هذا عهد الكيان الكبير المملكة العربية السعودية. وأجمل ما في هذه الذكريات أمانة تاريخية صادقة أوردها أستاذنا وأثبتها لهذه الأجيال والأجيال القادمة إذ يقول: «من ذلك اليوم السبت التاسع من جمادي الأولى سنة ١٣٤٤هـ أصبحت المدينة تعيش الأمن والاستقرار، آلاف الحجاج يصلون في المسجد بلا إتاوة ولا خفارة ولم تستقر أحوالها ولم يتسع مجالها ولم يأمن رجالها إلا حين رد لها الاعتبار عبد العزيز بن عبد الرحمن».

لعلنا نلمس في هذا التاريخ شيئاً جديداً لم يتطرق إليه أحد من قبل من كتابنا ونلمس الجمال والصدق في الأمانة التاريخية التي أوردها وسجلها وأثبتها صاحب اليراع الجاد والكلمة المجنحة أستاذنا الزيدان الذي ستظل ذكرياته سفراً ومرجعاً هاماً من المراجع الهامة في المكتبة السعودية عبر تاريخنا الطويل، وجاءت الذكريات الأمينة أثراً مستقلاً متكاملاً لحقبة تاريخية من تاريخ المدينة دبجها يراعه بثقافته الغزيرة والواسعة ومطامح شيخوختناته الناضجة، فبارك الله فيه وأطال في عمره وكلمة حق نوردها هنا أمانة للتاريخ أن شيخنا الزيدان خير من يستحق الجائزة التقديرية وهو أهل لذلك لما تركه لنا من الأثر في دنيا الأدب السعودي وهو سمة بارزة وقمة من قمم أدبنا المعاصر في التاريخ، فهو الذي واكب النهضة الصحفية السعودية من السفح إلى القمة وتمرس في مجالاتها العديدة وعمل فيها رئيساً لتحرير جريدة البلاد. ويعمل في وقتنا الحاضر رئيساً لتحرير مجلتنا الغراء «الدارة» ولا يزال شيخنا الزيدان عنده العطاء والعطاء وإذا جلست معه يحدثك عذب الحديث في شؤون الحياة وأخبار الأولين والحاضرين فهو بحق موسوعة علم ومعرفة ونتيجة قراءته الكثيرة من بداية حياته وهو شاب لمختلف أمهات الكتب ولا سيما التاريخ القديم والجديد، وأعظم نعمة على الشيخ الزيدان أنه يتمتع بقوة الذاكرة وحضور البديهة، أدعو أن يطيل الله في عمره ليعطينا الكثير والكثير.

عبد الكريم محمود الخطيب

محمد حسين زيدان

هو من مواليد المدينة المنورة في سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م، وبها نشأ، وفي مدارسها تعلم، فتخرج من المدرسة الراقية الهاشمية فيها في سنة ١٣٤٤هـ. بدأ حياته العملية مدرساً، ثم التحق بسلك الوظائف العامة، وتدرج فيها إلى أن تقاعد في سنة ١٣٧٤هـ، متفرغاً للأدب والكتابة، فاشتغل بالصحافة مديرا لتحرير جريدة (البلاد) بجدة، ثم رئيساً لتحريرها، ثم رئيساً لتحرير جريدة (الندوة) بمكة، ثم اختير ليصبح أول رئيس تحرير لإحدى المجلات المتخصصة في الدراسات والبحوث رفيعة المستوى، وهي مجلة (الدارة) التي تصدر عن (دارة الملك عبد العزيز) بالرياض، ولا زال الأستاذ محمد حسين زيدان محافظاً على مستواها الرفيع مادة، وإخراجاً، وطباعة، وتحريراً.

ومحمد حسين زيدان هو أكثر كتاب الصحف السعودية شعبية عند جمهور القراء على جميع مستوياتهم. وهو كاتب مقالة من طراز فريد، يتفنن في كتاباته، ويستلهم التاريخ القديم والحديث، ويربط أحداث الماضي بالحاضر في تحليل واستنتاج الباحث المتمكن القدير.

ومحمد حسين زيدان في أسلوبه يحسن التصوير في جمل يتفنن في صياغتها في ديباجة سهلة مشرقة، وفي إقناع منطقي واضح. وهذا يجعله محبباً إلى نفوس كل قراء الصحف التي تتسابق في نشر مقالاته، القصيرة، والطويلة، والتي عادة ما يواكب فيها الأحداث بفكر نير أصيل، ووعي وطني مخلص، وحس مرهف.

ومحمد حسين زيدان يبدو في كتاباته غزير المعرفة واسع الاطلاع موسوعي الجوانب في الأمور التي يتناولها بلا تحديد. وهو على علمه وشعبيته الواسعة عظيم التواضع لغيره من العلماء، وهذا يزيده رفعة، ويجعل القراء، مهما اختلفت مستوياتهم الثقافية، أكثر تعلقاً به، وإقبالاً على كتاباته المتأنقة الرشيقة، الممتعة المفيدة.

ومحمد حسين زيدان محاضر وخطيب لبق يشد الأسماع إليه بأسلوبه الجذاب الذي يتفنن فيه ارتجالاً ـ في معظم الأحيان ـ كما يتفنن في مقالاته المكتوبة. وقد جمع محاضراته أكثر من مرة وأصدرها مطبوعة، كما أصدرت له مؤسسة تهامة ثلاثة كتب في سلسلة الكتاب العربي السعودي، الأول منها برقم (٢٨) في السلسلة، وعنوانه «ثمرات قلم» والثاني برقم (٥٨) بعنوان «كلمة ونصف» والثالث منها برقم (١٠٨) وعنوانه «خواطر مجنحة»، كما قدم محمد حسين زيدان عشرات الأحاديث والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، وكان يتفنن فيها في تقديم

الرأي والمعلومة في صور مشرقة من الكلام الجميل الذي يحسنه، بأصالة خاصة في التفكير والتعبير.

إن محمد حسين زيدان فنان كلمة، يحلق بها في سهولة ويسر لا غموض فيهما، فيأخذ معه القارىء إلى جوه الحالم في رقة قد تفوق رقة الشعر، مثل وصفه لأصيل يوم جميل من أيام جدة، في حوار قال فيه: «الأصيل تعطل اليوم.. أخرج في لحظاته أرى كما قالوا: ذهب الأصيل على لجين الماء».

لم أجد هذا الأصيل.. كأنما الشمس قد تبرقعت بالحياء.. من هذه المزنة.. هتانة على جدة فأصبح لجين الماء.. قد أذاب ذهب الأصيل.

كان عصراً من أيام الجنان.. لا هو بالمظلم المعتم، ولا هو بالصاحي الوضوح!!

كانت مزنة في السماء.. أشرقت بها فرحات في القلوب.. كأنما النعيم قد وافانا وما تخطانا، نعيم نحسه على أجسامنا من روح في وجداننا.. واستراحة لعضلاتنا.. وأمل في نور الربيع، من نور اللجين على ذهب الأصيل.

هتانة فتانة.. أنعشت شاباً كان بجانبي.. كاد يطير.. قلت: تطير ياعروس الندى، لتترك أرملة؟!

لم يعد لصاحبك أرملة.. فإن العشق زوج لا يموت.. بعيد هذا العاشق عن الترمل، والثكل، واليتم.. لأنه كل يوم في حياة»[1].

ومحمد حسين زيدان شيخ متجدد الشباب دائماً، يعرف كيف يخاطب الشباب، وكيف يوجههم بطريقة غير مباشرة، في جمال أسلوب، وصدق إحساس، وقدرة على التحليل بمهارة فائقة، فهو يشعرهم أنه منهم، فهو في (حوار) عنهم كتب يقول: «قال: أنت شيخ تصابي.. تتعلق الشباب ليزفوك في هودج!! فحينما فقدت عرس الحياة جئت تطلب التعويض.

- قلت هذا غير ملائم للواقع.. فحبي للطفل أبي الرجل.. أملي في الرجل صانع التفوق في المستقبل.. هو دافعي من أول يوم وقفت فيه معلم صبيان.. في كل مرحلة لم أبخس إنساناً حقه.. في كل رحلة رافقت المقدمين على نجاح.

برئت من إلحاد.. وتبرأت من كلمة قالها أحدهم قبل خمسة وثلاثين عاماً: أنت تشجع فلاناً! ألا تعرف أنه إذا تفوق سينساك ويملك؟

- قلت: إذا ما ذكر نفسه بالتفوق فيه.. فإني أنسى نفسي واضع لبنة في بناء اعتز بصونه ونمائه.

---

(١) كتاب «كلمة ونصف» تأليف محمد حسين زيدان، ص ١٦٣.

● وقال آخر: أنت تجبن عن مصارعة هؤلاء الشبان ومقارعتهم . .

ـ قلت: لم اختلف معهم على شيء ينالني منهم . . بل إني أحبذ أن يكون أول حجر يرمون به هو الحجر المسلط على الخطأ، ولو كنت هدف الحجر إذا ما كنت من الخاطئين.

أما إن اختلفوا على أنفسهم . . فلست عليهم بمسيطر!

وإن تخلفوا عن الحق، فشأن غيري أن يردعهم عن الباطل.

فقد أسعى جهدي لتحرير رأيه . . ولا أحب أن أكشف اللحم في السوق!!

● هما قالا ذلــك . . فلم أنهزم . . لأنــه جرأة على الحقيقـة، ولا يهمني إلا دافعي ووازعي . ولكن . .

ـ قال الثالث: لا . . لا . . إنك تسوس عقولهم، وتوسوس لهم، وتفسد رأيهم.

ـ قلت: هنا يكمن الخطر . هنا دافع حقدك، وسوء قصدك . . فليت ولدي من صلبي يسير على إيماني ورأيي في ترابي وقومي ووطني.

قال غير هذه . .

إني أدفـع الجـرأة . . وأتسلط النشـاط . . وأحـاور الـرأي لأني أحب الجهـر . . وأكره الهمس . . وأرفض الكبت . .

ثق أنك حينما تقول هذا لواحد، فأنت تريد أن تسلبه كفاءته في تمييز الأصدقاء والرجال.

لا حقد، لا إفساد . . إنما هو الحب لكل التفوق والمتفوقين . . أما سواد القلب والحقد القاهر، فمتاع الذين يحبون أن يعيشوا وحدهم».

إن محمد بن حسين زيدان فنان كلمة يسمو فيها بصدق أحاسيس الإنسان، الذي ينشد الخير وينشر الحب، ويزين الحياة بالبهجة، والأمل المشرق، أمد الله في عمره.

مقدمة

بقلم سباعي عثمان

من خلال سطور هذا الكتاب في تحفظ. تلفَّت حولي ـ كالمستغيث ـ من أي المداخل، أتلمس طريقي إلى هذا الخضم الواسع من فكر محمد حسين زيدان، ولا أخفي ما شعرت به من حيرة أمام هذه الموسوعة المتنوعة، ولكن عزائي. هو أنني لا أتناولها لأقول ما ينقصها، أو ينقص كاتبها من قول. ولا لأشرح ما استغلق من أفكاره ـ فأسلوب الأستاذ الزيدان معروف بسهولته الممتعة ـ وإنما أنا أستجيب لدعوة كريمة من المؤلف. ربما أراد بها تشجيعي. أو ترشيحي لاستقبال القارىء على أبواب هذا السجل القيم. . ولعلي ثاني تلميذ يقدم لأستاذه. بعد الصديق الأستاذ عبد الله جفري الذي قدم لكتابه: «ثمرات قلم». . وفي مثل هذا التواضع منه تكمن عظمة العلم. ويشع جلال العلماء. وسماحة المفكرين. .

وأستاذي الزيدان ـ وإن كان في غير حاجة إلى التعريف ـ إلا أن هذه فرصة نادرة بالنسبة لي. . لا لأعرفه، وإنما لأعلن عن معرفتي به من زوايا ـ ربما ـ لا يعرفها غيري من البعيدين عنه، وذلك من خلال صلتي به. قارئاً، ومتابعاً لفكره، وأدبه. منذ الثمانينات. ومتلقياً لأماليه. خلال عملي بصحف الندوة ـ وكان رئيساً لتحريرها. . وعكاظ وكان واحداً من أسرتها. وكتابها. وأباً روحياً لمحرريها ـ والبلاد. والمدينة. وهو أحد كتابها البارزين. ولا يزال قلمه يفيض من معين لا ينضب. ولا يجف. !

ومن خلال هذه التجربة. عرفت أستاذي الزيدان. كاتباً. حاضر البديهة. . يتمتع بقدرة فائقة على ترتيب أفكاره. خلال ارتجاله المألوف لدى عارفيه. وهو من أقوى من عرفتهم ذاكرة، وحضوراً، ولا يكاد مستمعه يفرق بين أسلوبه كاتباً. عندما يقرأ له. أو محدثاً عندما يصغي إليه. . وقليل من الناس يتمتعون بهذه الخاصية التي تنم ـ عادة ـ عن التمكين والأصالة، وسعة الأفق. .

ونحن أبناء هذا الجيل نعرف الأستاذ الزيدان معرفته ببعضنا. فهو أقرب أدباء الرعيل الأول إلينا. موجهاً. ومحدثاً. ومناقشاً لمحاولاتنا، وتجاربنا الغضة منذ بداية عهد بعضنا بالأدب. وبعضنا بالتأدب. أو الصحافة. و«التصاحف» إن صح هذا التعبير. . وبما يحكم

لقاءاتنا المستمرة به . . زائراً . أو كاتباً . أو مراجعاً . أو ممليًاً لكتاباته . .

بين دفتى هذا الكتاب مجموعة منتقاة من مقالات الأستاذ الزيدان المتنوعة، يسعدني أن كثيراً منها . من أماليه عليّ، في الندوة . أو البلاد . أو عكاظ . أو المدينة . . لا أذكر . . ولكنني أتذكر بعضها الآن كلمة . . كلمة، وأتذكر كثيراً مما استوضحته من عباراتها عبر الهاتف، فكان يعيدها عليّ ـ كما لو كان جهاز تسجيل ـ فكنت أعجب لذلك أشد العجب . . ثم ـ مع مرور الأيام ـ أصبح أمراً مألوفاً لدي . لا يثير ما كان يثيره من دهشة . !

وفيما بين يدي القارىء ـ مما ضمه هذا الكتاب ـ يتنقل الأستاذ الكاتب . بين الأدب، والتاريخ، والسياسة، والاجتماع، والتربية، وشؤون أخرى من هموم المجتمع، وقضاياه . فيما نسميه السياحة الفكرية . فيوفي كل هذا حقه من خلال رؤية مستنيرة . وفكر ذي خصائص أصيلة . ومتميزة . . إنها حصيلة . غنية بالتجارب الطويلة في ميادين مختلفة . مع الحياة . والناس . . فيها المعاناة بين الإخفاق والنجاح . والتطلع والإحباط، فكان هذا العطاء الرائع الذي يقدمه للناس .

والأستاذ الزيدان من أكثر كتابنا انفتاحاً على الفكر المعاصر . بصفته الموسوعية، وصفة المتابعة التي لازمته، ولازمت كثيراً من أدبائنا الكبار، فهو يقرأ في كثير من مجالات المعرفة . ويكتب ـ أيضاً ـ في مجالات شتى . . ربما، انطلاقاً من التعريف التراثي للأدب . بأنه «الأخذ من كل فن بطرف» . . !

وكما سبق أن قلت ـ في بدايات هذه المقدمة ـ إنني لا أحاول أن أقوم (بتشديد الواو وكسره) ـ هذا العمل، ولا أحاول تفسيره، أو تقدير قيمته . فتلك مهمة، أنا دونها، عندما يكون موضوعها، هو فكر الأستاذ الزيدان . . وإنما أستجيب لاستضافته التي أعجز عن التعبير عن امتناني لها . .

أما مبدأ جمع المقالات المنشورة في كتاب يصدر للناس، فمبدأً، أتحفظ تجاهه أشد التحفظ . وهي ظاهرة تكاد تتفشى بين كتاب الشباب في غياب جهة تُعني بتقويم و«تقييم» ما يطرح على الساحة الأدبية من منشورات . . على الرغم مما في بعضها من الأفكار الخلاقة، وما في بعضها من بوادر إبداعات موفقة . . إلا أن التسرع في النشر ـ قبل نضجها ونموها ـ يجهضها في فترة التكوين . !

ولتحفظي تجاه جمع المقالات المنشورة في كتاب أسباب :

١ ـ أنها تجيء عادة تعليقاً على خبر، أو تحليلاً له، أو هو بين التحليل، والتعليق وقليل منها تكتب كتابة فنية، عميقة التناول . ومعظم هذه الكتابات تكتب في ظروف عاجلة

للوفاء بالتزامات صحفية يومية، أو أسبوعية . .

٢ ـ كثير من هذه المقالات تكون وليدة مناسبات تستنفد أغراضها . بصدق هذه الأغراض أو تبدل ظروفها مع الزمن، تجاوباً مع هذا الرأي، أو ذاك، فالصحافة مرآة المجتمع وانعكاس لآماله، وتطلعاته التي يترجمها الكتاب عادة . .

٣ ـ هذه المقالات لا تنشر ـ أصلاً ـ لضمها، فيما بعد، في كتاب، ولهذا الاعتبار قيمته وأثره على الفكرة . والأسلوب . !

بطبيعة الحال . . لا ينسحب هذا القول على إنتاج أدبائنا الكبار الذين لم يعرفوا ظاهرة التسرع لأنهم :

١ ـ نشأوا على أسس علمية متينة لا ينشأ عليها الشباب اليوم . . لا في مناهج التعليم . ولا في حصيلتهم الثقافية الحرة . . لغة . وأسلوباً . وإدراكاً، وهضماً، وقدرة على توظيف محصلاتهم العلمية والثقافية . .

٢ ـ لأن حصيلة أدبائنا الثقافية والعلمية غزيرة، ومتنوعة، وموصولة . .

٣ ـ لقلة دور النشر في فترة شبابهم بالصورة التي نشهدها اليوم .

٤ ـ إن أدباءنا الكبار يحرصون ـ عادة ـ على مراجعة مقالاتهم المنشورة لتهيئتها للطبع، إلى جانب . أنها ـ أصلاً ـ ذات قيمة أدبية وفكرية كبيرة .

وهذا شأن كتاب الأستاذ الزيدان الذي بين يدي القارىء بعنوان «كلمة ونصف» الذي نشرت موضوعاته في العديد من صحفنا المحلية وأذيعت من إذاعة المملكة العربية السعودية . . وكان لها أثر كبير، وستظل ذات أثر ممتد لأجيالنا القادمة، علماً، وفكراً، وتوجيهاً، وإصلاحاً، شأنها شأن كل فكر أصيل . ذي روافد أصيلة . !

بقلم الأستاذ عبد الله جفري

جون كرواك: أديب أطلقوا عليه في أمريكا صفة: كاتب الغضب، ولكنه كان يكتب عن الأحلام كثيراً، وكان يهتم بالشباب، ويردد: طالما أنني أرى نفسي (أحياناً) في هذا الشباب، أو أحس بهم في تفكيري.. فأنا لن أشيخ أبداً. بل سأظل شاباً مهما بلغ بي العمر!.. ولكن الكاتب الأمريكي الغاضب الحالم الشاب«كرواك» لم يعمر كثيراً. مع ذلك بقيت كلماته تتردد، واعتبره بعض النقاد امتداداً للكاتب «وليم فوكنر»!

ومن كلماته التي تضخمت بعد رحيله.. قوله: الذين يحدقون إلى سقف الغرفة ينامون مبكرين!!

ولا بد أنها عبارة حزينة بترف، أو أن ترف التعبير الملحوظ في كلمات «كرواك» مستمد من زحام الإرهاق النفسي، وهو بذلك يصنع التعويض أو المواءمة بين الحزن في النفس والترف في صياغة الكلمة.. كأنه يرسم ويُسقط قلبه، وأحياناً يرتفع بقلبه إلى استرخاءة الناس، ولكن.. لا المفكرون ولا الفلاسفة ولا الفنانون ولا الشعراء أصبحوا قادرين على التحديق طويلاً في سقف الغرفة، أو في سقف العالم كله!

ولكن ذلك كله لا يوصف بشعور الكآبة.. بل لابد أن تنبعث من نفس الأديب الكاتب: ومضات من الأمل، ونبضات من الحب، وتأملات للحياة بالأماني!

وأحسب أن هذا المدخل يقربني كثيراً.. لأكتب من داخل صدر أستاذ جيلي، «**محمد حسين زيدان**»، هذه المقدمة لأحدث كتاب يضم بعضاً من نهدات فكره، وبعضاً من غضبه، وبعضاً من أحلامه، وبعضاً من روحه الشابة!

ولكن «الغريب» في هذه المقدمة التي أصر الأستاذ زيدان: أن يكتبها تلميذ من تلامذته، وابن من أبنائه الكُثر الذين تعلموا واستفادوا ونهلوا من فكره ولمحاته وأدبه، فوجدت نفسي في موقف صعب وحرج، وحاولت أن أعتذر فلم يمكنني، بل قال لي:

ـ دعني أسمع وأقرأ مشاعركم، ودع هذا المخاض في جيلكم يمنحني حياة أخرى تمنع عن رأسي التفكير في نسيان الناس!

إذن.. فكيف أمنع عن نفسي هذه القيمة التي منحها لي.. لأكتب مقدمة كتاب من تأليف: مفكر وأديب ومؤرخ ونسّابة، وفنان كلمة؟!

إن صدر هذا الرجل مليء بالشجن، وبالتجارب، وبالحكايات، ويفيض دوماً بالمحبة للناس.. إن الضغينة عنده هي سياسة وليست شعوراً، والكراهية ـ في رأيه ـ هي نداءة وليست وجداناً، لكنه حين يسقط واحداً من نفسه فإنه يحتقره، وهو يقول: إن الاحتقار نسيان للإساءة، فأنا أحتقر لئلا أحقد، ولئلا أعطي من أحتقره فرصة أن يكون نِدّاً لي!

أما الحب عنده فهو الحياة، وهو المؤشر الذي يبقي على شباب الإنسان مهما بلغ من العمر.

ودعـوتـه إلى الحب.. دعـوة إنسـانية شاملة.. يستشرف منهـا توثق الأبنـاء بآبائهم وأمهاتهم، وارتباط الوالدين بفلذات أكبادهما. ونماذج المجتمع جماعة متماسكة تقدر على العمل والإبداع والتطور، ونهضة العالم بالتركيز على صفاته الإنسانية، ونبذ العنف والتدمير.

ودعـوته إلى الحب.. دعوة عاشق «واثق الخطوة» يرى في من يحب شباب المستقبل، ورؤية الحاضر، وذكريات الماضي، فلا انفصام بين المراحل الثلاث في الحب، بل هي حزمة واحدة من العمر، ومن الرؤى، ومن الوجدان، ومن قدرة الإنسان على الوفاء لصفاته النبيلة.

ومن دائرة الصدى في صدره تشع أحلى الكلمات التي يكتبها حتى اليوم عن الإنسان في كل مشاعره..

ومن منطلق الفكرة في ذهنه تنبثق فلسفاته، وهو يكتب عن التاريخ، وعن الأبطال في مسيرة الدعوة الإسلامية، وعن الرجال في صناعة الأمم والنهضات. وهو يكتب عن الفكر جامعةً، وكلمة، وكتاباً، وتوعية، وثقافة ترتفع بمكانة الإنسان. وكان رأيي الذي قلته له من سنوات بعيدة أنت مفكراً أكثر منك أديباً. ولكنه لم يهضم هذا الرأي مني.. بل قال: لا تفصل بين الفكر والأدب، فهما واحد، وهما معاً نضارة العقل، وارتواء الروح!

ومن نبض صدره يسري النغم دائماً في كلماتـه التي يرسلها حينما يكتب عن وجدان الإنسان، وهو في مكابدة أحزانه لا ينكمش وإنما يتمدد كالضوء، ولا يسقط وإنما يركض كالزمن.. إنه لا يرتاح إلا حينما يضع رأسه على الوسادة في الليل..

أو كأنه يتذكر معي هذه العبارة التي قرأناها ذات صباح لكاتب ضاع مني اسمه: (إنني أحتمي بطفولة الليل... تاركاً رأسي على ركبة الصباح، ولا ميعاد ينتظرني)!!

لحظتها ـ كما يقول ـ أطرد كل الشجون والأفكار والأحزان والمشاكل وأمتلك قدرتي على ذلك لأنام قريراً، ويبقى شباب الروح وشباب العقل. ولكني لا أرتاح طويلاً، فالراحة حينما تطول تتحول إلى تفاهة، ولا أسلّم نفسي للضياع، فالضياع ليس عشقاً إذا كان العشق كما

يقولون يولد الضياع. إن كل ما يركض نحوه الإنسان هو الوقود لتجديد الحياة، والوقود يأتي في الألم وكما هي فلسفة «**أرسطوس القورنتي**» التي عبر عنها جبران في قوله: ابتغوا اللذة في الألم، وابتغوا الألم في الحب!

والـوقـود يأتي في الفراق، وفي الارتفاع بالوجدان من تحديد التناول إلى شمول الوفاء للحظة، ولكلمة تقال، ولماضٍ، ولذكرى، ولموقف، ولخفقة!

فهل يمكن لنا أن نقول: إن هذا الرجل ما زال يحلم؟!

لا شك أن الإنسان حينما يفقد أحلامه يشيخ ويموت.. لا تبقى له طموحات ولا أمنيات.

والزيدان عندما يتهيأ لإملاء ما يكتبه في رأسه، وبلسانه، وعلى تعبيرات وجهه.. تشعر أنه يمتلىء حلماً ويفيض بعد ذلك. وقد يبلغ به هذا الفيض حدود الدمع، فتراه - فجأة - وهو يملي عليك كلمته ينخرط في البكاء. ولعلي أسعد الناس بهذه الميزة منه، أو أكثر الذين يمـلي عليهم فيض نفسـه وفلسفة فكره، وقد ألاحيه أحياناً وأوقفه عند عبارة لا تعجبني كقارىء مدمن عليه، فيناقش معي فكرتي.. إنه لايغضب لذلك، لكن غضبه الشديد يتدفق وهو يكتب عن واقع العالم العربي.. وعن أحلام الإنسان العربي في الحرية الشاملة لكل الأرض العربية، وعن تاريخه الطويل الحافل بالبطولات وبمواقف الرجال، وتشييد الأبطال.

يغضب من أجل الحب، ويغضب من أجل الحرية، ويغضب من أجل الصفة النبيلة في الإنسان.

إن غضبه يترابط بفواصل الموت.. ذلك أن الأحياء لم يعد لديهم اكتراث كثير بالمحبة، حتى أنهم قبروها في مشاعر الموتى، ويضيع إنسانها في بحثه الدائم عن الحرية، وكرامة الإنسان، والخوف من إهدار الصفة النبيلة التي تميز الإنسان عن سائر المخلوقات.

حزنه العميم زاخر ببواعث الهوى، وبالحنين إلى الأمل، وبالغبطة بالتقسيط في عصر مرابي!

إنه يبتسم ويردد قائلاً: لقد كان سيد المرسلين جلّ ضحكه التبسّم! رأسه تتطوح أحياناً حينما تتكاشف معاناة الفكرة، أو تتصاعد بالشجن من صدره إلى رأسه، فلا يقدر أن يجسد الفكرةِ، ولكنه يبحث فيها ومن أجلها ويضني.

صدره، وكل الخفقات الصادرة عنه، وثيقة إنسانية ترتاح بعض الحين في الأحلام، وتتجدد أكثر الأحيان في شباب روحه، وهو يواصل دراميته هذه. ويوحَد بين الحدث والرغبة. وبين الاضطرار والشجب. وأجدني أستطرد خلفه بعض الوقت. . أحاول اللحاق بأفكاره، والتزامل مع شجونه، ويتلفت نحوي مبتسماً فيقول: إننا ننادي بـ «العودة إلى الإنسان» . . الإنسان ينسلخ من نفسه من أجل أن يفقد نفسه، والشيء المفقود هي نفس الإنسان من هذا الإنسان المعاصر الذي تغربت عنه ذكرياته ونزفت الشقة فيه ومنه، وانشرخ الحنين في صدره لتمتلىء الشروخ بالرمل المبتل!

والزيدان يكتب بأسلوب متفرد بحيث تقرأه دون توقيع، فهو يجمع بين الأسلوب المباشر، والمخاطبة السريعة أو التلغرافية. . حينما يكتب في السياسة يفعل ذلك، وحينما يكتب النقد الاجتماعي أيضاً، ولكنه حينما يكتب التاريخ ويكتب الوجدانيات. . يعطيك عبارة مجنحة مموسقة. . عبارة تصويرية بالألوان، ومن رأيه أن التاريخ ـ وإن اعتمد على الحقائق ـ فلا بد أن يكتبه المؤرخ بعبارة وجدانية!!

وهو لا ينكر تأثره في مطلع تعشقه للأدب وللكلمة بعبارة «الزيات» وطريقة بنائه لها. ولكن هذا التأثر كان مبتدأه الإعجاب بالأسلوب وبالمعالجة للفكرة، وتسمعه يردد أسماء فرسان الكلمة الذين أعطوا وأبدعوا أيام صدور مجلة «الرسالة»، ولم ينطفىء إعجابه وتأثره حتى الآن بهؤلاء: محمد حسين هيكل، الزيات، شكيب أرسلان، الرافعي، العقاد، طه حسين. وقبل هؤلاء جميعاً فقد نهل من التراث وتوقف طويلاً عند أدب ابن المقفع والجاحظ، ونهج البلاغة. .

وذات يوم كنت أجلس إليه نتحاور في أبعاد الكلمة المعاصرة عن الأسلوب الأدبي. وعن الصورة البيانية المتينة، وعن الكتابة الوجدانية. .

ـ إنك ما زلت حتى الآن تشتاق إلى استعادة بعض عبارات الرافعي، فهل تستعيد شبابك بها؟

ـ قال: ومن قال لك إنني فقدت شبابي يوماً؟ . . إنني شباب حتى الموت، ولكن بعض الحنين، وبعض الذكرى يأخذك من ممارستك إلى أحلامك المعلبة! إن الإنسان يتشابه في عواطفه، ويتنافر في مادياته، فهل أسمعك الآن بعض ما تبقى في ذاكرتي من ذلك اللون الأدبي المهدر. . مما كتبه الرافعي ذات يوم؟

وقرأ: (أريدها لا تعرفني ولا أعرفها. . لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها. . تتكلم

ساكتة، وأرد عليها بسكوتي. صمت ضائع كالعبث، ولكن له في القلبين عمل كلام طويل).

الفرح بالجمال لذة تقتل نفسها، ولا يمسك على الجمال روح النعمة خالدة في القلب إلا الحزن به: كيوم الغيم. . ترى في سمائه قطعاً كأنها الهاربة من الليل تختبيء الشمس فيها ثم تسطع من بعد سطوعاً يخيل إليك أنها ما توارت في خيمة الغمائم إلا لتضنوا غلائلها الشفافة وتتعرى. يريد الجمال المعشوق أن يثبت فينا فيغيب عنا. إذ كان بذله يفني منه على قدر ما يعطي، فإذا هو امتنع وعزّ مناله. . كان جماله في نفسه بمعانيه، وجمالاً فينا بالمعاني التي هي فينا، وكان له من اجتماع الحالتين حالة جمال ثالث هي في ألم الرغبة المستمرة، أو ألم الغيظ المجنون، ومتى خلق لنا الجمال من قصر الزمن طول الزمن، ومن المتاع بالحسن العذاب بتمنيه. . فقد ارتفع عن إنسانيتنا وجاءنا من ناحية سره الإلهي)!!

وأضاف: ذلك في الزمن السابق، وقد كان منعماً بالعاطفة. رغداً بالحس، أما اليوم، فإن الإنسان لا يبحث عن التعبير، ولكنه يمارس ويفعل بحيوانية

وبهذه المناسبة. . تذكرت محاورة قديمة بين الأستاذ زيدان وبيني. . كان الطرف المتوثب والمشع فيها صديقنا الغائب مشعل السديري، فالتفت نحو الزيدان يقول له:

- دعني أفلسفك ولو لم تسمح لي. أنت أروع ما فيك: معرفتك الواضحة لتحديات العصر الذي تحياه. كل الاتجاهات في نظرك تقودك إلى روما، شريطة أن تعشقها، وروما هي الغادة الحسناء، أو هي المثل الأعلى. إنك حينما تعجز من الولوج إلى شيء. . تذهب إلى نقيضه لتفتته، ثم تعود لتصنع منه تمثالاً رائعاً!

وإذا تحدثنا عن الزيدان كصاحب كلمة لها صدى. . فلا بد أن نتعرف على بعض إيجابياته من خلال مسؤولية الكاتب فيه:

- إنه أول كاتب تحدث عن العلاقات الإفريقية - العربية، وواكب ذلك فيما بعد مع رحلات المغفور له الملك فيصل إلى الدول الإفريقية في مناداته بدعوة التضامن الإسلامي، وقال الزيدان حينذاك: إننا نكسب الكثير باستمالة إفريقيا إلينا، ودعمها مادياً، ومعاونتها على تطوير نفسها وواقعها.

- طالب بتأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وواصل كتابته حتى تحقق حلمه هذا.

- دعا إلى تغيير اسم إذاعة «صوت الإسلام» ووافقه الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز وأمر بذلك.

ـ ألحَ بعدم تزيين مكة المكرمة لأي ضيف قادم إليها، وكان يقول: إن مكة المكرمة مزينة بقيمتها، وهي التي تضفي زينتها على كل وافد إليها.. ويكفي أن زينتها تتمثل في هذا النور المشع من روحانيتها.

وبعد..

تلك هي قطرة الامتنـان التي لا تجف في صدري نحو هذا الرجل الذي أوقف عمره منشداً للكلمة حيناً، وحزيناً معها حيناً آخر. هذا المفكر الذي أثرى أدبنا بثقافته الواسعة حتى وصفته بـ «الموسوعة التي تمشي على قدمين». وأغنى العبارة العربية بالعديد من الصور واللمحات، فجاءت ملامح مشرقة ووسيمة، وروى أفئدتنا ببوحه عبر الكلمات المجنحة والملونة كريش عصفور.

إن أستاذنا الزيدان لم يفعل مثل «جون كرواك» في اتجاهه الفكري.. ولكنه مثله في تطلعاته الشابة التي لا تترمد: ولم يكتب بأسلوب «وليم فوكنر» ولكنه مثله في تلك الرؤية الملاصقة لهموم الإنسان. وهو يسمح لنفسه أن يحدّق في سقف الغرفة بعض الوقت لينام مبكراً، ولكنه حينما يصحو مع ميلاد كل نهار.. يجد الفجر في عينيه وصدره.. لأنه لم يفقد أحلامه، ولم يخذل أمانيه..

ولا أحسب أنني بالغت بما صوّرت به عطاء هذا الكـاتب المبدع.. بل أجد تقصيراً نحوه، وأضع محاولة لقراءة فكر ونفسية هذا المفكر.. لكنها قراءة أتهجّى بها فعل الأديب والمفكر من أجل طموحات وأماني أمته!!

عبد الله جفري

عبقري الكلمة المجنحة وفنانها . .

مذقت

أكثر من عشرين ورقة أكتب أسطراً عديدة وأمزق الورقة، لست أدري كيف ابدأ وأكتب عن هذا الأستاذ العملاق؟ كيف انتقي الكلمات لأدخل إلى هذا العـالم الممتـليء بكـل فكـر . . وثقافة . . وأدب وتاريخ وشعر وسياسة ولغة وأنساب . . (ومراهقة!!)؟

نعم مراهقة، قد تتعجبون أن هذا الرجحل الكبير سناً مازال قلبه يرتع في خمائل الحب والعشق والجمال، مازالت الغانمية والمحترقة وبنت الثلج وماسحة البلاط، كل اولئك وغير أولئك مازلن يمرحن ويسرحن ويجبن فؤاده ووجدانه يتمتع هو بذكرياتهن وهن يتمتعن بحبه الكبير وقلبه العامر النابض بالحب.

كأنـه بشـار عنـدمـا يقـول (يرى الفؤاد مالا يرى النـظر) (و الأذن تعشق قبل العين أحياناً) . . بشار أعمى وهذا العملاق المارد أعشى . . ، عجباً وكل العجب أعشى ويعشق الجمال كيف؟ بقلبه وبأذنه.

مازال يحب وأراني أقف أنشد أمامه ما قاله فكري أباظه:

قالولي بتحب	قلت باحب عقبالكم
الحب مش عيب	وانتو ياغجر مالكم؟
قالوا لي كبرت . .	فال الله ولا فالكم
ده أنا بأرثي لكم . .	وأبكي على حالكم
باحب أي والله	وانتو ياغجر مالكم
الطب بيقول لكم	باطني وروحاني
القلب ياخلق شيء	والعمر شيء تاني
فيه قلب شايب عجوز	في جسم صبياني
وقلب كله شباب	ساكن جسد فاني
باحب أيوه بحب	وانتو ياغجر مالكم
أنا خبير القلوب	ولا فيش خبير ثاني
فيه قلب تلقاه رُطَبْ	والتاني حياني
وقلب زي الملاك	والتاني شيطاني

وقلب زي الذهب	وقلب براني
باحب أيوه بحب	وانتو ياغجر مالكم
ياللي ادعيتو الهوى	ليه تنسوا فارسكم
وأنا عاجنكم،	وخابزكم ودارسكم
وأنا اللي من الحب	كايدكم وفارسكم
ماخدتهوش من الكتب	ولا من مدارسكم
باحب أيوه باحب	وانتو ياغجر مالكم

نعم مازال هذا المارد الفكري الثقافي التاريخي الأدبي العاطفي، مازال هكذا.

ويقـول هذا المارد (إذا اضمحلت فحولة الرجل تسعرت فيه أربع عيناه للنظر ويداه للمس وشفتاه للتقبيل واذناه للسمع) وهذا هو يقول أيضاً، وهو يكره البغض والحزن (ليس عندي وقت للكراهية والانفعال، ولا للحب ولا للغضب ولا للحزن، فتلك اثقال تحملتني شاباً فقد كنت حملاً عليها ولا أستطيع أن أتحملها شيخاً فلست مطالباً بالوفاء لها) ويعود إلى الدموع ويقول (إن الدموع رسالة يبعثها الوجدان يستفيق بعدها العاشق، يكسب منها لذة الذكرى من عمق الوصال أو متعة من شقوة الهجر) وما أروعه حين يقول (المحب إنسان، ولا متعـة لإنسان إلاّ أن يكون في حلبة المتناقضات، فالسرمدية على حال واحد إملال، وتقلب الأحوال فيها نضوج التجارب وتجارب النضج) ويقول (فالدموع شموع.. في كلا الحالين تضوع ولا تضيع.. لأنها ضوء جديد يشرق من الوجدان).

يقول عبقري الكلمة المجنحة في فلسفته عن الياسمين (لعلك لم تعرف من قبل أني أحب الياسمين اللون، بصفرته الناعمة في الزهرة الندية، ولا أحب الياسمين العطر، فالياسمين اللون أعتـز به ولا ابتزه، وهو يذكرني بصورتها.. بيضاء قد ابيضت صفرة الياسمين في وجنتيهـا. أمـا العطر.. عطر الياسمين.. فما هو إلا عصارة أحالت الزهرة، وأرخصت جمالها، يبيعون عطرها بثمن غال بينما الزهرة هي الأغلى.. قد لا أشمها ولكن لا بد أن أراها..

فاللون عندي هو هي!

إن عطر الياسمين تجارة، والجمال نسترخصه إذا ما كان يستحيل إلى تجارة (!!) فكم من الجواري في سوق النخاسة كن من الجميلات، بعضهن وردية وغيرهن قمحية والسيدة فيهن هي التي لها لون الياسمـين ولكن بيعهن في سوق النخاسة نجاسة، لا نرى من اشترى إحداهن عن حب، وإنما عن متعة الذكر بالأنثى!

أبعد عني عطر الياسمين! إنه يذكرني باستعباد الجميلة) وقال. . وقال ذلك العملاق عبقري الكلمة المجنحة وفنانها ومازال يقول، ترى هذا الرجل الذي يخطر تياهاً في الرابعة والثمانين يقول مثل ذلك القول. ؟ إنه الحب جعل من ذلك الكم الكبير من السنين الطويلة قمماً زيدانية شامخة مكسوة بالعواطف والأحاسيس الجميلة مجوفة بوجدان يدفع بهذه الأحاسيس والعواطف تسيل من أعالي القمم إلى سهول وأودية الحياة فتفرشها رونقاً من الجمال.

إنني ـ وبكل فخر واعتزاز ـ شرفت بأن أكتب عن أستاذي وأستاذ جيلي والأجيال التي سبقتني الأستاذ محمد حسين زيدان، كما أن الشرف يزداد شرفاً عندما أقول إنني أنا الذي أملى عليه الأستاذ الزيدان ذكرياته التي بين أيديكم، وأقول بكل فخر وإباء وتيها إنني أحد تلامذة المدرسة الزيدانية زميلاً لكبار الكتاب والصحفيين الذين تتلمذوا في هذه المدرسة، تعرفونهم ويعرفون أنفسهم.

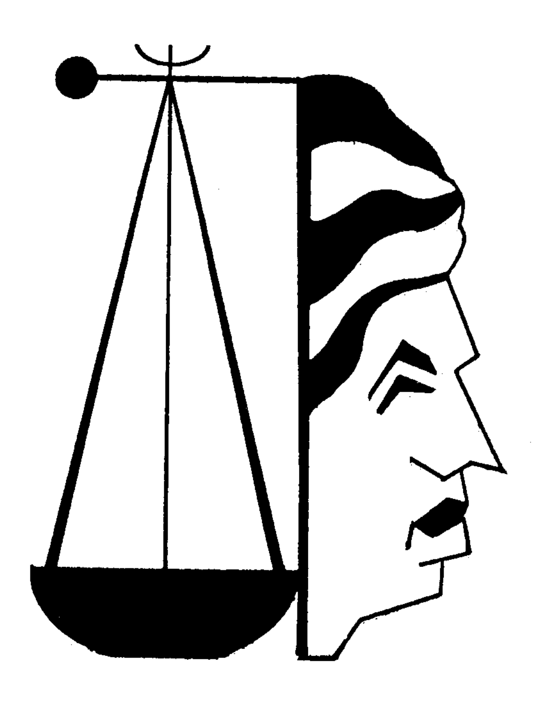
. . إنه شرف كبير وصلت إليه ومنحني إياه إكليلاً مضمخاً بالأبوة والأستاذية أضعه وساماً على عنقي، واعذروني إن وصفته بالعبقري وأكثرت من ذكر الكلمة. . .

تمضي كأنك فارس	كل الفوارس يرهبونك
وأراك بالودِّ الجميل	تعفُّ عمن يجرحونك
ترنو إلى الصفح الكريم	أضاء مشعله جبينك
ما أروع الخلق الرفيع	إذا رعيت به شئونك
تبكي الكرامة. . والدموع	الحمر قد غطت جفونك
تبكي على تلك الأصائل	حين تستهوي شجونك

أخيراً أيها الأستاذ العظيم. . أقول لك شاكراً هذا الشرف الذي طوقتني به: أنت كذلك دائماً وكل ذلك، تمد يدك للشباب تساعدهم.
ماأعظم يدك البيضاء تمدها لي تشرفني بها كاتباًعنك

كمال علي عبد القادر

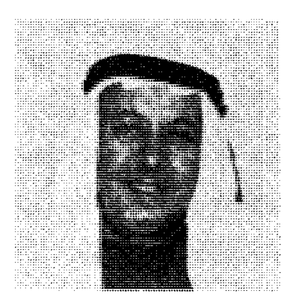
محكمة الذات



بقلم:
«بنت العدالة»

يعلن بصراحة

- أنا عاجز عن اتخاذ قرار التوقف عن الكتابة.. !
- أسرفت على نفسي قومياً عربياً.. !
- قلت سابقاً: الخلافات بين الزعماء السياسيين وقت.. وعلاقات الشعوب زمن!!
- ليس عندي سر ولكن عندي من أسرار المجتمع ما لا استطيع أن أنشره!
- أغلى كلمة كتبتها وعاشت في نفسي ما كتبته عن ريم ثلج.. !
- ما سحة البلاط أحالت قهري المادي إلى صهر المعاني في حياتي.. !
- أشعرني اليتم بأن لا أكون عاقاً للأمهات وكل أنثى عندي أم.. !
- الآن فهمت لماذا قال والدي «أنت شجرة مُرَّة تطرح بركة»!
- الكاتب حزين.. والقارىء حزين.. وتلك هي الهزيمة!
- ليس الحرمان أن لا تجد، وإنما الحرمان أن تفقد ما وجدت.. !



الكاتب الكبير محمد حسين زيدان في محاكمة... ذاته!

محاكمة الـذات اليوم. . . تثير ارتباكي . . لأنها تجعلني أقف أمام أستاذ لعدة أجيـال وفيلسـوف. . تخضـع الكلمات بين يديـه فهو لا يركض وراء المعنى. . لأن الحـروف تأتي إليـه طواعيـة ليشكلهـا كما يريـد لها أن تكون. . ، في المعنى والقالب الذي يريد!! إنه الكاتب والفيلسوف الكبير الأستاذ محمد حسين زيـدان. . . إنـه كاتب يتميـز بقـدرات لا نعهـدها فيمن يكتبون. . لا يمزق الورق. . لا يشطب. . لا يمحو حتى ما هو مدون على صفحات فكره لا يموه الكلمة والمعنى. . في زحمة الحروف. . ! لا يخفي نفسه وراء السطور. . فنفسه حقيقة معلنة. . وأفكاره تفلسف رؤيته. . وخبرته بالحياة. . فنشعر معه أننا لا نقرأ فكراً فقط بل نشهد في هذا الفكر. . الحكمة! كما أنه ليس قلقاً. . أو متوتراً. . وإن كان فهو صراع الفكرة مع الحقيقة ولكنه ليس صراع النفس. . وإن كان فقلق النفس على الحقيقة! وعندما نسأله. . لا ننتظر الإجابة. . بل نندهش لأننا نشعر معه بأنه أعطانا. . قبل أن يأخذ منا. . ! وعندما نجلس معه. . . لا نرقب أصابعه على القلم والورقة. . بل نجده يتطلع إلى البعيد. . كأنما يفتـح كتاب الحياة ليقرأ لنا منه ما يغمض علينا. . فنفهم ما لا نفهمه بعد منها. . ! مما يشعرني بأنني لا أجلس مع شخص أو كيان واحد. . بل أشعر بأنني أجالس الحياة وحركة التاريخ تفيض في هذا الشخص! لذا فإنني اليوم عندما أستأذن في الدخول. . وفي الخروج أشعـر بأنني دخلت. . وخـرجت من بوابـة التـاريخ!! والآن استأذنت في الدخـول. . وطرقت باب التاريخ. . وبدأت بأول سؤال في المحاكمة. . . ، ولأول مرة أشعر بأنني مع مثـل هذه الشخصيـة. . لا أحتـاج أن أقول هل أنت على استعداد لمواجهة الأسئلة. . والتلميـح بالاتهـامـات! بل كنت أسمـع نفسي وهي تقـول لذاتي. . هل أنت على استعـداد. . ؟؟ هل استحضرت نفسـك على هذه المـواجهـة. . مع أستـاذ كبـير لعـدة أجيال. . ؟؟ كنت أنا في حاجة للاستعداد النفسي. . في هذه المحاكمة اليوم!! وحسمت الصراع والقلق. . وطرحت أول سؤال.

الأستاذ زيدان. . لو أمامنا الآن مرآة وطلبت منك أن تحدق فيها فماذا ترى. . هل تطيل التحديق. . . أم تشعر في لحظة أنك تريد إطفاء النور. . !؟

وتطلع أستاذنا إلى البعيد. . كأنما يحتاج إلى أن يخرج من نفسه. . حتى يتأملها من بعيد جيداً. . يراقب كل اختلاجة فيها. . ويحدق حتى يصف ما يرى في حياد. . . فقال عن لوحة عمره وحياته الآتي:

سؤالك رومانسي. . ويريد الجواب على صورة غير رومانسية، فحينما انظر للمرآة. . قد أصدق نفسي. . وأصادق المرآة. . لأنها على كل حال صديقة لا تخفي شيئاً من المعايب. . ولا تبدي شيئاً تكذب به كطري المحاسن. . !

المرآة صديقة لأنها جماد لا يتحول عن ذاته. . . من هنا تبدو الصداقة عميقة فيها. . ومتغيرة بنظرة من يحدق فيها. . وليست المرآة وحدها هي الواضحة. . أو الفاضحة. . وإنما الرائي هو الذي إذا تستر أوضح. . وافتضح. . فالإنسان مهما تخفى فيما يشعر به. . أو فيما يفعله رغم أنفه. . هو يعلن عن ذلك. . غير أنه يرتاح للإعلان على صفحة المرآة. . ويرتاح إذا ما كان هو المرآة بنظرة إنسان آخر إليه. . !

● **الضمير هو المرآة. . !**

«وبفلسفته التي عهدناها في أستاذنا الكبير أضاف. . . » هذا من ناحية الشمول والعموم أما من الناحية الخاصة. . فالنفس الأمارة تبتعد عن الوضوح. . والنفس اللوامة هي النقد الذاتي. . فأما أن أصغي إلى اللوم. . مرآة النفس للنفس. . وأن استريح إليه لأصل إلى النفس المطمئنة. . فالضمير هو النفس اللوامة. . هو المرآة!

● **الإنسان يعيش المتناقضات. . !!**

ياترى ما هي اللحظة التي شعرت فيها بأنك تريد أن تصافح نفسك في صداقة عميقة. . ومتى كانت اللحظة التي شعرت فيها بأنك تريد أن تخرج من ذاتك بلا عودة. . !!

هنا يشعل أستاذنا سيجارته. . . وتتشكل في دوائر الدخان (كما تتراءى له) خيوط قصته مع نفسه. . وتتجسد في الدوائر مواقف متعددة يتطلع إليها وأحاول أنا أن أقرأها وأشاهدها مثله. . . في خياله!! وإذا به يقول: **الإنسان محاط بهذين الوضعين. . أصافح نفسي صديقاً لها حينما أخضع لوازع الخلق. . لدافع الرحمة. . بالشعور، إني مع الناس بالناس. . للناس، أصادق نفسي لأني أرى في عين من أحببت. . من أحسنت إليه. . كأنما أنا بالخلق. . بالرحمة. . بالإحسان. . لم أحسن إلا إلى نفسي. . وأبتعد عن ذاتي. . من**

أفعال ذاتي، وذلك حين أرتكب الخطيئة في حق الناس.. في حق الوطن.. في حق الأبوة.. وحين لا أحترم الأمومة، فالإنسان يعيش المتناقضات... فقوام الشخص في حياته يتم بالتناقض. ولكن قيمة هذا الشخص ترتفع حين لا يكون التناقض مجحفاً يجر إلى خطيئة.. إلى جريمة..!!

● في أكثر من حالة.. أرفض نفسي..!! أستاذ الجيل.. هل أنت حقاً تشعر بأنك راض عن نفسك..!!

قال.. بلا تردد.. وبلا حاجة للتفكير. فخبرة وحكمة السنين تجعله مهيأ للإجابة التي تأخذ الطابع الفلسفي بلا تفكير في صياغة المعنى.. والفكرة.. إنها خبرة السنين التي تتحدث فقال: هناك فرق بين الرضا عن النفس.. وبين القناعة بالواقع، لو ادعيت أني راض عن نفسي.. لجانبت الحق والخلق.. في أكثر من حالة أرتاح إلى نفسي، وفي أكثر من حالة أرفض نفسي.. أما القناعة فهي الرضا بما يقع علي.. وليست هي الرضا بما يقع مني على الآخرين..!!

● عشرة أصدقاء..

عشرة أعداء!!

أستاذ زيدان.. أحياناً الإنسان في مشوار حياته قد يأتي موقف يشعر فيه بأنه يقف ضد نفسه.. فهل فاجأتك بموقف جعلك ضد نفسك.. وكيف كان؟؟

وجاءتني الإجابة في صيغة سؤال.. وقال: هل يمكن أن يكون الموقف الذي جعلني ضد نفسي.. لخصَه والدي بكلمة؟!

قال والدي لي.. «أنت شجرة مُرَّة تطرح بركة»!!

لم أكن حين قالها إلا متمادياً.. أقترف الأسباب التي جعلته يقولها.. قالها حين أقمت حفلة الغذاء لكثير من الأصدقاء.. كلفتني وقتها ٥٠ ريالاً وذلك قبل ٥٠ عاماً.. وسألني والدي وقتها كم أنفقت؟؟ قلت: ٥٠ ريالاً قال وكم هم..؟؟قلت: عشرة أصدقاء. قال: لقد صنعت عشرة أعداء.. تساءلت: لماذا...؟؟ لم أصدق ذلك، ولم يكونوا العشرة أعداء.. وإنما كان العدو أكثرهم التصاقاً بي.. وأشدَهم أخذاً مني...، اقترف الخيانة.. خان الأمانة.. أفزعني.. وأجزعني، كان واحداً لم يرد مني أن أكرر ذلك.. ولكن ازددت إسرافاً.. فإذا كلمة الأب تصدق حين أصبح هم الآكلون على مائدتي.. والذين امتلأت جيوبهم مني.. كانوا أكثر من عشرة..!!

بعضهم رفعتهم من الحضيض. . وبعضهم ارتفع بي إلى اسم لامع ولكن كاد بعضهم أن يجرني إلى هلاك. . لم يخش الله في الصداقة ولم يخف الله في أن ييتم طفلاً لي. . !!

يومها. . وبعد أن علت السن. . عرفت معنى الشجرة المُرَّة!!

لقد نسيت. . . !!

ماذا يأستاذ زيدان لو امتلكنا الآن ساعة زمنية لديها القدرة على إعادة الزمن إلى الوراء. . فيا ترى لو امتلكتها ما أهم القرارات التي كنت تفضل أن تتغير. . أو لو تأخذها بشكل آخر. . !!

يتطلع أستاذنا إلى ساعة زمنه الداخلية في أعماقه. . كأنما يدير عقرب الساعة إلى الوراء. . ليتوقف نبض الزمن عند لحظة ما. . هنا يتحدث الأستاذ قائلاً: لقد نسيت. . ؟ فالكثير ينسى. . لا ليس من الذاكرة. . وإنما من التذكير به!!

القرار الذي لم أنفذه. . واطعت قراراً من الوالد والأهل هو. . «الزواج»! ولكن أطعته فأسرعت. . فكان قراري لو نفذ خطأ. . !! وكان قرارهم حين نفذته جلب على المسعدات والمشقيات. . !!

فالحياة - كما قلت - تلبس التناقض. . كأنما الإنسان في هذه المتناقضات يقوي بها عضل النفس. . وزهوة الرغبة. . وشكوى التنفس والرغبات. . أما القرار الذي أنا فيه الآن. . ولا أحيد عنه هو أن لا يكون ما كنت أتمناه. . !

وعجيب هذا التزاوج في الموضوع. . أراد أحدهم أن يحسن إلي. . يرفع من مقامي. . وعارضه آخر لأبقى كما كنت. . !

عاجز عن اتخاذ قرار التوقف

ويستوضح الصورة في اعماقه أكثر. . . وينفث الدخان في قلق ودهشة. . .، ويقول: جزعت أن لا أكون كما أراد المساعد. . ولكني الآن اشهد ثناء على الذي عارض. . لأنه يمتعني بأن لا استخذي. . فالفاقد لمقام مؤقت. . تأخذه حسرة الفقد. . يستخذى لأنه قد ضاع منه ما ارتفع به. . . وعلى ذلك ينطبق قولي:

«ليس الحرمان أن لا تجد. . وإنما الحرمان أن تفقد ما وجدت».

ويستطرد قائلاً: أشكر صاحب العطاء. . كما أشكر صاحب النفي كلاهما مُحسن. . !!

أما القرار الذي ندمت على تنفيذه. . هو أني قرأت وكتبت. . فأنا عاجز عن أن أتخذ قرار التوقف. . !

● **ليتني لم أكتب. . !!**

ويهز رأسه. . إلى ذات اليمين. . وأخرى إلى اليسار. . كأنما يجتذبه من جانب الحب. .

ومن الجانب الآخر. الحسرة.. فيقول:

ليتني لم أقرأ.. ليتني لم أكتب..!! ليتني عشت بلا هذه الأضواء الباهته... لأنها تكليف إن جاء بالتشريف.. بدأ الخاطفون يخطفون التشريف.. فأنا حبيب للذين يقرأون دون أن يملوا.. وممقوت من الذين لا يقرأون.. وإنما هم يجترون المذمة.. بينما هم في ضحالة العاطفة غارقون.. وأعني بعاطفة التشويه.. من شوهوا أنفسهم.. لا.. لأن التشويه يلبسهم..!!

● **الكاتب والقارىء حزينان..!!**

في رأيك.. ما هو أجمل انتصار.. وابشع هزيمة في حياة الإنسان..!؟ وماذا عن الانتصار والهزيمة في حياتك..!؟

وإذا بأصابع يده تتحرك.. كأنما كانت تريد أن تتحسس وسام النصر وشكل الجرح.. في أعماق نفسه!

وقال: الإنسان... تتعدد انتصاراته.. وتكثر هزائمه..، كل وما يشعر.. كل وما يصنع.. أما الانتصار في حياتي فهو ما أنا فيه حين اسودت وجوه الذين لم أنلهم بسوء... وأرادوا على ورق أسود من نفوس سوداء أن يصنعوا بي السوء.. بهتاناً.. تشبع به نفوسهم الحاقدة.. فإذا هم الآن في حسرة لأني أعيش طارداً الحسرة فعليهم وزرهم.. وعليّ أن أقول عفا الله عما سلف...!

وعند قوله لكلمة الهزيمة... كأنني رأيت في لحظة واحدة... كيف تحولت أحاسيس الانتصار التي كانت تشكل في عينيه قوس قزح.. إلى غيمة تحجب عنه الأحاسيس بالفرح.. ولكنها لم تحجب عني إحساسه بالحزن.. ولكن قبل أن أستوضح بالسؤال جاءتني كلماته قائلة...

أما الهزيمة.. فأنا فيها بهذه العشوة.. لا أستطيع أن أقرأ.. واستجدي الاستقراء.. لأنني لا أستطيع أن أعيش بدون أن أفقه.. بدون أن أقرأ..!!

فالكاتب حزين... والقارىء حزين.. وتلك هزيمة!

الكاتب حين تفتحه يشعر بالسعادة.. سعادة العطاء منه لأنه يحيا فيك كقارىء.. ولا يريد أن يعيش مصندقاً يأكله الغبار..!!

● **أسرفت على نفسي قومياً عربياً**

ياترى.. بصراحة ما هو الشيء الذي آمنت به في حياتك، وكشف لك الواقع بأنك لم تكن على حق.. فجاء الاكتشاف متأخراً.. والعكس أيضاً شيء لم تكن تؤمن به.. ولكن الواقع جعلك تؤمن به..!؟

قال الأستاذ زيدان: أسرفت على نفسي قومياً وعربياً..!!

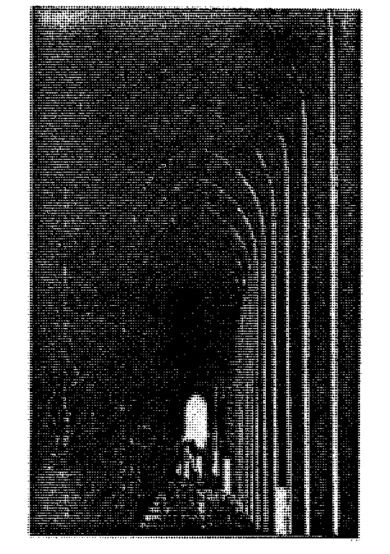
ولكن الآن.. وقد أصبحنا في شعوبية الأقاليم تفرقت بهم الأمة.. اقتنعت بأن الانحياز إلى القومية أصبح ضرراً.. فلئن كان ضرورة فيما سبق.. فليكن زوال الضرر بأن تكون القومية في نطاق الإسلامية لأن القومية مبدأ يختلف على تحقيقه العرب.. ولكن الإسلام عقيدة لا ترضى بالخلاف.. فالقومية العربية تتزاوج مع القومية الإسلامية بلا ازدواجية.. فالعربي مسلم قبل كل شيء.. وقد تفوه بالإسلام فاتحاً عظيماً.. والمسلم إن لم يتكلم العربية.. فهي في وجدانه لأن القرآن في وجدان المسلم..!!

● **أصبحت سيد نفسي..!!**

كاتبنا الأستاذ زيدان.. ما هو الشيء الذي توقعت أن تفعله وفوجئت أنك خذلت نفسك..؟!

وإذا به يضع أصابعه على عينيه ويفركها جيدا.. كأنما يريد أن يقلب فيها صور الزمن.. وصور حياته.. وصفحات عمره.. في هذا الزمن.. ولكن ماذا وجد في أوراق العمر..؟

هنا يطالعني صوته قائلاً: لا أظن يا ابنتي أن ذلك وقع.. **كرغبة في التفوق.. ولكن الخذلان قد تأتي حين تبعت سيداً.. وخضعت لهذا السيد.. حينئذ خذلت نفسي.. ولم أنقذها إلا حين أصبحت سيد نفسي..!!**



● **اليتم وتشوه زوجة الأب!!**

لكل إنسان نقطة ضعف.. فما هي نقطة الضعف التي تسببت لك في تغير مجرى حياتك..!؟

يتطلع أستاذنا لمرآة نفسه.. يحدق فيها حتى يعرف أين كانت نقطة الضعف فإذا بأصابع عمره تتشبث بنقطة الضعف فتظهرها.. في الكلمات التالية..، وقال:

أشعرني اليتم بأن لا أكون عاقاً للأمهات.. كل أنثى عندي أم،فلو أن أمي عاشت.. لما عاشت في نفسي نظرة احترامي للأمهات..!!وذلك لأن الاكتفاء بحياة الأم.. قد يكون مبعداً لي..!

ويتوقف أستاذنا في حديثه.. ويتطلع لمرآة نفسه كأنما يشعر بأن هناك من يستوقفه في المرآة.. كأنها تجتذبه لرؤية أوضح لنفسه.. وإذا به يقول: **هناك نقطة أخرى... إنها القسوة من زوجة الأب... علمتني تلك القسوة الاستقلال بذاتي..!!**

إذا كانت هذه هي نقاط الضعف... فماذا عن أسباب قوتك في الحياة..؟!

قال: يا ابنتي إنني لا أخضع لقوي قد يتغطرس فأحتمل.. وأقاوم قدر الجهد ولكني شديد الخضوع للضعفاء.. فأيما ضعيف هو القوي عليّ... وأيما قوي الذي يستضعفني أحاول أن لا أرضخ له.. لأنني من الناس وبالناس وللناس.. والناس لا تعرف قيمها إلا من خلال التعامل مع الضعفاء..!!

عادة مع الإنسان يحدث صراع حاد بين العقل والعاطفة في مواقف الحياة...، فيا ترى هل عقلك أكبر من عاطفتك في مواقف الحياة.. أم العكس..!؟

هنا تطلع إلى نفسه.. فالعقل يجتذبه.. والعاطفة تتشبث به.. فكأنما أحس باشتداد الصراع في نفسه.. فقال: **في الإيجابيات.. عاطفتي أقوى من عقلي، وفي السلبيات عقلي أقوى من عاطفتي..!!**

فكأنما إجابته جاءت لترضى غرور العقل.. وعنفوان العاطفة في نفسه.. فيهدأ الصراع..!

● الظروف تقهقر من يتقهقر..!!

أستاذ زيدان.. هل تؤمن بأن الظروف تتغلب على الإرادة..، أم الإرادة الإنسانية تتغلب على الظروف إذا أرادت ذلك.. فكيف حياتك على ضوء ذلك..!؟

يتطلع إلى الأمام.. رغم أنه يقلب صفحات الماضي..!!

يقول: الظروف تقهر من يتقهقر أمامها.. فقد يغلب ولكنه بالتحمل يرفضها، وإن فُرضت عليه.. فالمطاوعة للظروف قوة.. والطرد لها فعل القوة.. أعني أن الخضوع للظروف وما تصنع.. تحمل، وطردها أيضاً هو صورة من التحمل.. للمقاومة..!!

● المرأة في نظري مبجلة!!

من خلال تعاملك مع المرأة.. ماهو المثل أو الحكمة التي خرجت بها من خلال هذا التعامل..؟!

المرأة.. هي في نظري مبجلة.. لأنها الأمومة.. فلن أتعامل معها إلا بالاحترام لها.. حتى التي أسرفت على نفسها.. أجد نفسي أمامها غطاء ساتراً لا لساناً فاضحاً.. المرأة هي أساس البناء للأسرة.. فآدم ما استطاع ان يكون أب البشر إلا بحواء.. هي الأنس.. هي السكن.. فلا بد من احترامها..!!

● هذا هو أشجع قرار اتخذته..

في هذه الحياة.. مواقف تستلزم من الإنسان أن يأخذ قراراً شجاعاً فما هو يا ترى أشجع قرار اتخذته في حياتك... وبالعكس!؟

ويقلب في ذكرياته.. كأنه لا يراني.. بل يرى صور الماضي تتبعثر. ويبدو من تحديق عينيه أن هناك صورة ما استوقفته.. وقال كأنما يقرأ حياته في عتاب غير مرئي..!!

أشجع قرار اتخذته في حياتي.. هو أن لا أعدد الزوجات.. فقد عُرض علي ذلك.. فاقتنعت ان احترم ولدي بأن لا أبعثر ولدي!! أما أضعف قرار... أم هو أكثر من قرار..!!

أنا وثقت في بعض الناس.. فإذا هم أشرَ ولكن أقول أن لا تتعذب بما نالوا منك.. وإنما عذابك بأنك لم تحسن إلى نفسك.. حين اخترت هذا الصاحب أو الصديق..!

فليس الألم فيما فعل.. وإنما الألم فيما تشعر به من ندم..!!

● الإنسان يعيش على صورتين

استاذ زيدان.. في تصورك كيف يحيا الإنسان الحياة.. وهل عشتها بنفس الفلسفة التي كنت مؤمناً بها..!!

الإنسان لا يعيش حياته إلا على صورتين.. هكذا قال ثم أضاف.. ما يصنع عليه.. وما يصنعه لنفسه..!

قلت: قليل من التفسير لهذه الفلسفة..! **قال: المرض والحاجة والأذى.. من الناس مصنوعة عليه! والحب والرحمة والوفاء.. هو يصنعها.. لأنه لا معنى لحياة إنسان إلا بالتناقض.. يعيش مع المتناقضات.. فلولا التنافر في المتناقضات.. لأصبحت الحياة مملة..!!**

● تلك التي لا أبخل عليها..!!

أستاذنا.. لو تخيلنا في لحظة.. أن حياتك عبارة عن كتاب مغلق أما م الآخرين.. فمن هي اليد الوحيدة التي تسمح لها.. بأن يكون عمرك بين يديها كتاباً مفتوحاً..!!

قال: هي التي تريد أن تعرفني.. فلا أبخل عليها إذا ما أرادت أن تكون لي.. وأن أكون لها حليلاً.. لا خليلا!!

● إنها شخصية الملك عبد العزيز

ياترى.. لو تصفحنا معاً أوراق العمر.. فمن هي تلك الشخصية التي قابلتها وأثرت فيك..!؟

ولم يحتج أستاذنا أن يقلب صفحات العمر... لأن الشخصية بدت واضحة المعالم رغم امتداد الرحلة.. وتكاثر الأشخاص!!

قال: أحسن شخصية قابلتها في حياتي.. من حيث إنها شخصية على صورة بطل.. هي شخصية الملك عبد العزيز. أما الشخصية التي قابلتها وأحسنت إلي.. كنت بها رجل

الآن. . هي شخصية الشيخ محمد العلي التركي. . أنهضني. . أنقذني. . سار بي في خطوة واحدة منه!

● هذا ما أخذته من زوجتي

عادة الإنسان يأخذ بعض الصفات ويرثها من والديه. . فلو سألناك ما الذي ورثته من والدك. . ووالدتك وأيضاً ماذا أخذت من أبنائك فماذا تقول!؟

من والدتي. . لم آخذ شيئاً لأنها ماتت وأنا طفل. . ولكن لعليّ أخذت منها ما ورثت من الرحمة والعطاء والحب. . . فقد كانت كريمة إلى درجة الإسراف. . ، وهذا ما أنا واقع فيه. . المال في يدي يميل عنها لئلا يكون فيها. . !!

ومن أبنائي. . أخذت ما أخذوه عني. . تبادل الاحترام والحب. . لا أسألهم عما ملكوا. . و يسألون عما ملكت. . ، لم أشعرهم بما أنا فيه. . . من قلة وفرت لهم. . ، ويعرفون أن الكثير لهم. . لأني الكثير بهم. . ! وأخذت من والدي. . . أن أفكر بعقل. . !!

هل تعتبر تجاوزاً لو قلنا لك. . وماذا اخذت عن زوجتك خلال رحلتكما معاً. . !؟

زوجتي. . قد فاتت علي. . لأنها هي التي أنشأت الأطفال رجالاً. . حتى إذا استرجلوا كانوا الأصدقاء لي. . حرصت على تعليمهم ولو بقوا علي. . لما وصلوا لما هم فيه. . !!

● هذه هي الكلمة المطبوعة في قلبي.

في حياة الإنسان كلمة. . أو عبارة طبعت في قلبه. . ممن كانت تلك الكلمات وماذا تحوي من مضامين. . في حياتك!؟ لايحتاج أن يفتح ذاكرة القلب. . حتى يرى ما هو **مطبوع! فجاءتني كلماته يقول فيها: إن الكلمة المطبوعة في هذه الآية القرآنية: وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً». لعلي كنت مطبوعاً على ذلك. . لكن الذي أصّل هذا الانطباع هو د. أحمد امين صاحب «ضحى الإسلام». . زار المدينة رئيساً لبعثة الجامعة ليحجوا. . ودعت البعثة الأيتام الذين كنت أستاذاً لهم والمسؤول عنهم في تلك الليلة. . . أعدوا الطعام للأيتام مائة وخمسة وثلاثين يتيماً. . فرأيت أحمد أمين تدمع عيناه ويتلو هذه الآية. . !!**

فحفظتها. . واتخذت أمرها أسلوباً. . !

وكم من أب أساء إلي. . . كنت شديد العطف على أبنائه. . .

«ولا تزر وازرة وزر أخرى».



● **إنها أغلى كلمة كتبت لي . . !!**

وما هي أغلى كلمة كتبت لك . . ومن أجلك . . ومن كانت؟؟

قال : ما كتبته عني غادة السمان . . وما كتبه عني عبد الله جفري . إذن وما هي الكلمة . . التي كتبت لك !؟ لا أتذكر الآن . . ولكن راجعي الحوادث والمقالات!!

لكل إنسان أوراق خاصة . . قد نصفها بأنها سرية . . فهل لك أوراق خاصة لا تفكر في نشرها للناس . . وتحتفظ بها لنفسك وإذا كانت . . فما هي يا ترى!؟

صمت قليلاً ثم قال . . ليس عندي سر لا أنشره . . ولكن عندي من أسرار المجتمع . . ما لا استطيع أن أنشره . . !!

يقال ياأستاذ زيدان . . وذلك شائع . . إن الكاتب ملك جمهوره والناس فيا ترى . . هل الكاتب حقاً ملك للناس . . أم ملك نفسه . . !؟

الكاتب المخلص لنفسه أولاً . . وللناس ثانياً .

فإذا لم يصدق الكاتب مع نفسه . . فبالتأكيد لا يصدق مع الناس وأعني بالصدق . . كرامة العاطفة . . لا أنانية التعاطف . . يسقط الكاتب . . حينما يقول (الأنا) . . ويرتفع الكاتب حينما يقول . . (الـ نحن) .

أستاذ زيدان . . أيهما أكثر راحة للإنسان . أن يريد ما هو كائن . . أم يرد ما يجب أن يكون . . فهل كنت كما يجب أن تكون . . أم كما يريد لك الواقع . . !؟

قال بفلسفته المعهودة فيه . . . متعة أن تكون كما تريد . . ! وذكاء أن تكون كما يريد المجتمع . . ! وكما قالوا «كل ما يعجبك . . والبس مايعجب الناس» !!

● **شعرت أنني متهم . . !!**

أحياناً . . يقف الإنسان أمام نفسه في بعض المواقف . . كما المتهم أو الجاني . . فيا ترى متى كنت الجاني أو المتهم أمام نفسك . . ؟!

شعـرت أنني متهم . . حين كنت أسهر بالليل خارج البيت . . وعندما أقضي معظم النهار في الوظيفة . . !!

أستاذ زيدان . . هناك من يستخدم القلم الجاف أو الحبر أو الرصاص . . ولكن في النهاية

قد يمحو كل ماكتبه بالمحاية. . ويُمحي كلامه فهل تستخدم المحاية كثيراً حتى تصل إلى ماتريد. . ! !

كنت لا أمحو ما كتبت. . لأن ما أكتبه. . كنت قد حضرته قبل ما أكتبه. . . لأن ما أمليه الآن قد حضرته أو استحضرته نفسي لأجيب على البديهة. . ! !

ويا ترى ما هي أقرب كتبك إلى قلبك. . ولماذا؟! **يتصفح إحساسه. . ويقول: سيرة بطل. . وخواطر مجنحة! وسيرة بطل. . لأنها تعبير عن حبي للبطل. . وخواطر مجنحة فيها التعبير عن حبي لها. . عن محبتي للناس!!**

● إنها ذكرياتي. . ! !

لكـل إنسان مشروع أو حلم يراوده ليحققه. . فكأديب ما هو المشروع الأدبي الذي فكرت فيه. . ولكنك لم تحققه حتى الآن. . ! !

إنها. . ذكرياتي. . ذكرياتي التي لم أنهيها. . لأنني لم أجد من أملي عليه!!

● أعطتني حنان الأمومة بالحب

أستاذ زيدان. . بصراحة. . ومن خلال هذه الذكريات. . ما هو الوقت أو الموقف الذي شعرت فيه باحتياجك الشديد لامرأة بجانبك. . ! !

يتطلع إلى نافذة الذكريات. . يتأمل الصور. . ويقول: عندما كنت في الهند. . أركب ظهر الفيل. . يخوض بي النهر. . كدت أغرق . . ناديت يا أمي. . يا أمي. . ! قد لا تكون هي أمي فعلاً. . ولكنها قد تكون أعطتني حنان الأمومة بالحب. . ! !

● أغلى ماكتبته لريم ثلج. . ! !

سألناك سابقاً. . ما هي أغلى كلمة كُتب لك. . وممن كتبت!؟ والآن نسأل. . ماهي أغلى كلمة كتبتها. . ولمن كانت في رحلة حياتك. . ؟!

ورغم أنه كتب ملايين الكلمات وله مؤلفات كثيرة. . وصاغ المعاني باقتدار في كل ما كتب. . إلا أنه خلص من زحام كل تلك الكلمات والمعاني. . . ذلك المعنى الذي يصول ويجول في نفسه. . . ولم انتظر كثيراً. . . بل لحظات وقال: أغلى كلمة هي التي عاشت في نفسي. . وذلك ماكتبته عن (ريم ثلج) «ماسحة البلاط»: : : ! !

● ماسحة البلاط وصهر المعاني. . ! !

تحدثت في أحدث مقالاتك عن القهر. . وتحدثت عن ماسحة البلاط وقلت إنها مسحت القهر عنك. . أي قهر تتحدث عنه في كتاباتك؟!

ماسحة البلاط. . هي أحالت قهر المادة إلى صهر المعاني. . ! فقد أشعلت في نفسي أن

أحب. . فلا قهر في الحب. . ولو كان البعد عن الحبيبة. . ! لأن الحب يجسد الحبيبة أمام المحب. . . ولو كانت نائية تتزلج على جبل من الثلج. . بينما هو يغرق في المدينة التي لا تغيب عنها الشمس. . ! فالشمس في بلدي. . تذكره بأن ريم الثلج كانت شمساً في وجدانه. . !

● **لا أمحو حباً بحب. . !!**

أعـود إلى ماكتبت. . وأتـذكـر أنك تحدثت عن الفاغيه. . وريم الثلج. . والمحترقة واتسائل. . . هل يمكن للإنسان أن يقع في الحب أكثر من مرة. . . وهل كل حب جديد ينسيه الحب القديم. . فما رأيك!

نويت أن لا أمحـو الحب بالحب. . . ! بل إذا ما طرأ حب جديد. . كان حياة لحب قبله. . فريم الثلج لا أنسى بها المحترقة . . لا أنسى بها الفاغيه. . ! لأن التصور يجسد صورة واحدة. . لهن جميعاً!!

ولماذا أسميتها. . بالمحترقة. . وهل يعني هذا أن هناك المحترق!

أسميتها بالمحترقة. . لأنها ماتت محترقة. . ولهذه قصة!

أستاذ زيدان. . إلى متى يظل الإنسان يقع في الحب. . هل يمكن أن يخفق قلبه مهما أخذته السنون إلى أعماقها. . !!

يابنتي. . الإنسان الرقيق المشاعر لا يتخلى عنه الحب. . لأن رقة المشاعر. . هي دفتر مكتوب فيه أحب. . !!

أستاذ زيدان. . ماذا تفعل بصراحة في كلمتين لو كنت المسؤول عن التعليم!؟ **أكون الأب. . الأستاذ. . والتلميذ!**

الثقافة. . !! **أقرأ. . وأقرأ. . وأكتب!**

وسائل الإعلام. . !؟ **الصدق. . والتوعية بالتراث والحفاظ على الميراث.**

حركـة النقـد. . !! **لا شيء في الإمكـان. . أبـدع مما كان!** حل الخلافات السياسية العربية. . ! **قلتها كلمة. . الخلاف بين الزعماء وقت. . وعلاقات الشعوب زمن!**

أستاذنا لو تطلعت الآن للمرآة. . كيف ترى نفسك فيها. . وكيف ترسمها المرآة وكيف ترسمها على الورق. . ولو بالكلمة!

أرى نفسي. . أو أرسمها كأنني أجد فقر اء الهند. . !

● **أيها العالم المجنون تَعَقّلْ!!**

أستاذ زيدان. . هل شعرت في لحظة أنك تريد أن تصرخ في وجه هذا العالم متى. . وماذا كانت تعبّر عنه صرختك تلك. . !؟

بل في كل لحظة أريد أن أصرخ وأقول أيها العالم المجنون. . تعقل ولو للحظة!!

في زمن الحرب. . نحن نعيش. . فلو قدر لك أن تحمل بندقية. . فعلى من تطلق أول رصاصة. . !

أول رصـاصة أطلقها على أول صهيوني أواجهه. . ! واستسمحيني رصاصة ثانية. . لأنني أريد لحظتها أطلقها على خوّان عربي!!

● لا أشعر بالندم

أستاذ زيدان بصراحة. . ماذا تعطي نفسك في محاكمتك لذاتك اليوم!؟

أعطي نفسي. . إني أخذت الكثير وأعطيت القليل. . لا أشعر بالندم وأشعر بتمام الراحة فأنا بين النقيضين أعطي لنفسي ٧٠٪

وهكذا انتهت المحكمة

مصطفى الرافعي

للأستاذ محمد حسين زيدان

ليست هذه الكلمة رثاء أرثي به الفقيد ولكنها حادثة وقعت لنا بسببه فأحب إخواني نشرها ليعلم الناس مكان الفقيد من نفس شباب الاسلام والعرب في كل قطر و مصر.

أربعة نسمر حول مائدة فانتحى اثنان منا جانباً يتذاكران اللغة الانكليزية **كنا** وجلس آخر يقرأ - يقرأ ضحى الإسلام - أما أنا فكنت أكتب موضوعاً لجريدة(المدينة) وجاء صديق يحمل (الرسالة) ولم نكن قرأنا هذا العدد الذي يحمل، إذ تأخر وصوله فقلت: الرسالة الرسالة! هاتها. فتصفحت الافتتاحية وخطوتها إلى كلمة الأستاذ أحمد أمين. فالأستاذ المازني، ثم إني قرأت للرافعي «أمراء للبيع» فلما وصلت إلى منتصف المقال ألقيت الرسالة وقلت لأصدقائي «هلموا إليَّ - هيا بنا نؤمن ساعة - أقرأ لكم الرافعي» فقالوا: اقرأ اقرأ. فأخذت أقرأ وهم سامعون ساهمون. يسمعون البيان، بيان الرافعي. ويعجبون بالبطولة، بطولة الشيخ بن عبد السلام ويهزءون بالقوة الغاشمة والامارة الكاذبة والجهل الفاضح وما انتهينا من المقال حتى ملأ الاعجاب أفئدتنا. وهذا حالنا كلما قرأنا لأبي السامي. ومن تصاريف القدر وأعاجيبه أنه لم تمض لحظة حتى وافانا البريد فطالع أحدنا (أم القرى) وفيها الخبر الفاجع المحزن خبر وفاة الفقيد. فنزل علينا كالصاعقة ولقد كدنا لا نصدق، قبل لحظة كان الرجل حياً يسمعنا بيانه وإيمانه ويطالعنا بعجيب من البطولة والصراحة والصرامة في الحق وتأييد الحق. والآن هو ميت نسمعه أنين الحزين وبكاء المتألم، وطفق أحدنا يبكي ويقول: لكم العزاء في الرافعي فقد حرمنا نحن الناشئة أديباً كبيراً نتعلم منه البيان والأدب العالي والنبل والفضيلة، حرمنا هذا في زمن اتجه أدباؤه إلى إرضاء الساسة والعامة، والعامة هم عصا الساسة يسوقون بها هؤلاء الأدباء، وإن كان هؤلاء الساسة لا يتحركون إلا بما يرضي العامة لأنهم يستمدون سلطتهم على مقدرات الأمة وشؤونها من هذه العصا العوجاء «الرأي العام» وماهو الرأي العام «يرحم الله قاسم أمين» - قلت: حسبك فقد آلمتنا وأبكيتنا قال: اكتب حادثنا وحديثنا في جريدة (المدينة) ليعرف هذا وإني أعرفك لا تستطيع أن تكتب راثياً فالرثاء شعر ولست بشاعر، وإنما أنا أبكي الفقيد بدموعي وفؤادي المحترق. قلت: أعرفك بكاء وإني لعاجز. ولكن اسمع وما أردت أن أكون دونه - اسمع لقد انهدمت الدعامة الرابعة من دعائم (الرسالة) بموت الرافعي وإنا لنرجو أن تعود، فهي اليوم تقوم على ثلاث دعائم، قال: لم أفهم

فأفصح، قلت: ياهذا ألا ترى أن دعائم الرسالة أربع:

العاطفة والشعر، فالعقل والعلم، فالتجربة والتهذيب، فالإيمان والفضيلة:

رجل العاطفة والشعر الزيات يكتب بعاطفته من قلبه وحنينه وأنينه ليلهب عواطف الأمة ويوقظ شعورها ويوقد حماسها فتتجه نحو المثل الأعلى. يفعل هذا لأن فيه طبيعة الشاعر الملهم المتألم المتأمل.

ورجل العقل والعلم أحمد أمين يكتب بعقله وعلمه ليثير عقل الأمة وليزيد في علمها من علمها وتراثها فتسير في طريق العقل النير والعلم المحص، يفعل هذا لأن فيه طبيعة القاضي النزيه والعالم المخلص... ورجل التربية والتجربة المازني يكتب من تجاريبه ودراسته للنفس والأمة ليهذب من أخلاق الشباب، فيسير على ضوء التجربة من حوادث الماضي، يفعل هذا لأن فيه طبيعة الأستاذ المربي.

ورجل الإيمان والفضيلة الرافعي يكتب بإيمانه وعقيدته ليدافع عن إيمان الأمة ويثبت إيمان الأمة وعقيدتها، فتسير بنور الإيمان ثابتة العقيدة طاهرة المباديء جريئة في الحق صريحة في نبذ الباطل، يفعل هذا لأن فيه طبيعة المسجد وشيوخ المسجد، ولأن فيه أثراً من وراثة الأسرة المجيدة والبيت الرفيع من الفاروق رضي الله عنه إلى عبد الغني وعبد القادر وأمين وعبد الرحمن ومصطفى صادق. أسمعت ووعيت؟ قال: سمعت وزد. قلت: وإن هذا الارتباط بين كتاب الرسالة بدون تعمل وتعمد من أعاجيب نهضة الأمة ورغبة الأمة وتوفيق الرسالة، فهي قد لفظت وتركت غير هؤلاء الذين شذوا عن هذه المبادىء وضمت من سار على نهجها وخطتها تركت غير هؤلاء عن غير قصد ولا عمد، وإن زعموا أنهم تركوها حاسبين أنها محتاجة إليهم مع أنها في غنى عنهم، فليسوا هم أصحاب رسالة وإن أيدوها بموقفهم السلبي ومناقضتهم، فإن جلاء الحق لا يظهر إلا بمزاحمة الباطل، أسمعت ووعيت؟ قال: هذا صحيح فزدني. قلت: ماذا أزيدك؟ وأخذتني عبرة وطفقت أنشد بيت الرافعي الذي يرثي به أحمد تيمور باشا، وما أحقه أن يرثى به.

تأتي المصائب كالتقليد في نسق ... أما مصيبتنا هذي فتخترع

وبعد فهذه حادثة واقعة وحديث جرى مازدت في ذلك شيئاً، ويرحم الله أبا السامي فقد ناضل عن الأدب وجدد في البيان. إنه خلاق المعاني وملك الألفاظ يتلاعب بها كيف يشاء. ناضل عن الأدب حتى كاد يستقر، ودافع عن الدين والقرآن والنبي ﷺ دفاعاً يجزيه الله عليه أحسن الجزاء إنه ولي الرحمة والغفران.

محمد حسين زيدان

بسم الله الرحمن الرحيم

الأحـد الموافق: ١٤٠٨/٦/٢٦هـ

في تكريم الأستاذ: محمد حسين زيدان

أقام نادينا حفلاً متواضعاً.. تكريماً للأستاذ الأديب محمد حسين زيدان في يوم الأحد ١٩٨٨/٦/٢٦م، تحدث فيه لفيف من أصدقائه ومعارفه، منهم معالي الأستاذ عبد الله بلخير، والأساتذة عزيز ضياء، وعمر بهاء الأميري والسيد هاشم زواوي، والدكتور عبد الله مناع، والشاعر الأستاذ/ محمد هاشم رشيد، والشاعر الأستاذ/ محمود عارف، والأستاذ: عبد المقصود خوجة، والأستاذ الدكتور عبد الله الغذامي، وعبد الفتاح أبو مدين.

كما بدأ هذا التكريم بدراسة موجزة عن أدب المحتفى به كتبها الدكتور/ بكري شيخ أمين من جامعة الملك عبد العزيز ـ كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية. وقد كانت ليلة جميلة، طفحت بمشاعر الود ووفاء الحب، واختتمت بكلمة المحتفى به. وكانت الكلمات التي ألقيت ارتجالاً ماعدا ماكتبه الدكتور بكري شيخ أمين، وبعض كلمة الأستاذ عزيز ضياء كانت مكتوبة، لأنه لم يتوقع حضوره، فكتب الكلمة، أو أملاها على الأصح من الرياض لتلقى نيابة عنه. ولما حضر ارتجل كلمات. ثم ألقى الكلمة المكتوبة.

وفي الصفحة التالية «أو المقابلة».. كلمة الدكتور بكري شيخ أمين، وفيها تعبير عن الاحتفاء.. والمحتفى به.

الأحـد: ١٤٠٨/٦/٢٦هـ

في تكريم الأستاذ / محمد حسين زيدان

للدكتور: بكري شيخ أمين

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم. والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد، وهدى العالم إلى سبل الرشاد.

أما بعد: إخوتي وأخواتي.. أيها السادة والسيدات الأكارم.

لعل الواجب يقتضيني أولاً إزجاء الشكر كبيراً إلى الأستاذ الكبير عبد الفتاح أبو مدين.. رئيس هذا النادي الأدبي، إذ تفضل فكلفني أن أكون في طليعة كوكبة متحدثي هذه الأمسية المتلألئة، وتلك ثقة غالية، ويد كريمة، لا أنساها له أبداً، وذلك أمر.. عليَّ طاعته.. فالمحب لمن يحب مطيع.

أيها الحفل الكريم:

إن اجتماعنا اليوم، في هذا المكان البهيج، ونحن نسعى إلى تكريم أستاذ ومعلم، وأب وأديب، ومدماك من مداميك نهضة الأدب والفكر، في هذه الأرض المباركة، المضمخة بالأريج سمة حضارة، ورمز كرامة ومبعث اعتزاز. فالأمة الكريمة هي التي تقدر أبناءها الذين بذلوا من أجلها وسهروا، وحرسوها. والأمة الهلوك هي التي تكفر حق الكرام من أبنائها، وحق كل من أسهم في رفع شأنها وراية مجدها. فهنيئاً لهذا الوطن بهذا الحفل، وبورك في الذين سعوا وجدوا حتى يبلغ التكريم أهله ومستحقه.

وإنا إذ نجتمع هذه الليلة لنقدم كلمة الشكر والحب إلى أحد رجالات هذا البلد.. تمدد على ساحاتها الأدبية والفكرية طولاً وعرضاً ما يزيد على نصف قرن.. فإنما نكرم فيه صفة العلم الذي كرمه الله، وأوجب تكريمه، ونطيع الله فيما أوجب وأمر.

أيها السيدات والسادة!

التكريم الحق الذي يخلد الذكر، يكون في جمع آثار المكرم وفي نشرها، النشر العلمي الصحيح، ثم في دراستها الدراسة الموضوعية (الأكاديمية) الرصينة، وتقويمها التقويم العادل.. هذا بالإضافة إلى التكريم المادي الذي يبدو في مهرجان حافل، أو كلمة طيبة، أو جائزة سنية، أو غير ذلك من أمور.

ولعلي أغتنم هذه المناسبة المباركة فأهيب بالسادة العلماء الأفاضل، المشرفين على الدراسات الإنسانية العليا أن يوجهوا طلابهم إلى هذا المهيع، ويقوموا في ظل إشرافهم وتوجيههم بهذا المطلب الوطني والخلقي، حتى إذا جاء طلاب العلم من الأجيال القادمة

وجدوا أمامهم مئات الدراسات العلمية النفيسة، تتحدث عن أعلام أمتهم، وبناة نهضتها، ورواد حضارتها، وحينئذ يستطيعون أن يصلوا الحاضر بالماضي، ويقرنوا الطارف بالتالد، ويتبينوا موقعهم في السلم العلمي، ويعرفوا ما إذا كانوا يتقدمون، أو يتأخرون، أو يقفون جامدين.

وليس هذا المطلب الأمل بعيداً أو غريباً عن حقل الدراسات الإنسانية العليا، ولعل أصدق شاهد عليه لو وقفتم على فهرس عناوين بعض جوانب الدراسات العليا.. في كثير من الأقطار العربية العالمية، إذن لوجدتم عشرات العناوين، إن لم نقل مئاتها، تنصب على أدباء ذلك البلد وعلمائه، ثم بعد ذلك، على أدباء غيره من البلاد وعلمائه.

كم من دراسة انصبت على أحمد شوقي أو حافظ إبراهيم أو جماعة أبولو، أو عباس محمود العقاد، أو إبراهيم المازني، أو مصطفى صادق الرافعي، أو أحمد حسن الزيات، أو زكي مبارك، أو بدر شاكر السياب، أو فدوى طوقان، أو عمر بهاء الأميري أو عمر أبو ريشة، أو بدوي الجبل، أو الأخطل الصغير، أو خليل مطران، أو ميخائيل نعيمة، أو جبران خليل جبران، أو الشاعر القروي، أو معروف الرصافي أو الطيب صالح، أو نجيب محفوظ، أو طه حسين، أو خليل هنداوي ؟.

إن في هذا البلد علماء وأدباء وشعراء وفحولا، يستحقون أن ينسابوا في فهارس الدراسات العليا، وأن تدور حولهم دراسات ودراسات.. لا يقلون قيمة وإنتاجاً عن سواهم، وقد لا يزيدون.. لكنهم، على كل حال، جديرون أن يكرموا وتكريمهم هذا ليس لهم فخره، وإنما هو للتراب والأرض والوطن من أقصاه إلى أدناه.

أيها الصحب الكرام سيدات وسادة:

من حقكم في هذه الليلة البهيجة، وأنتم تحتفلون بتكريم الأستاذ محمد حسين زيدان أن تقفوا على الجوانب العامة الكبرى التي أطرت حياته، والعوامل المختلفة التي رفعته إلى مرتبة التكريم والاحتفاء والتقدير.

ومن هذه الجوانب، نبيح لأنفسنا كشف بعض الأسرار، ونشر بعض الأخبار، وقراءة بعض الآثار.

تقول كتب تاريخ الأدب التي تعرضت لترجمة الأستاذ زيدان إنه ولد سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، ويبدوا أن معظمها كان متكئاً على ما جاء في العدد الخاص بالأدباء لمجلة المنهل، بمناسبة اليوبيل الفضي لهذه المجلة الطيبة. وأكشف لكم الليلة عن سر صغير حول عمره، قد لا يحب كشفه، ولكنا نود مداعبته، فلقد أوردت الموسوعة الإنكليزية التي

عنوانها «من هو في السعودية» ؟ في طبعتها الثالثة سنة ١٩٨٣ / ١٩٨٤ والتي أصدرتها تهامة بأن ولادته كانت سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٥م إذ زادت على ما جاء في المنهل أربع أو خمس سنوات.

ولا بأس على أستاذنا، سواء أكان من مواليد عدد المنهل أم من مواليد موسوعة تهامة. . فالجميع هنا، بل في كل مكان، يدعون الله أن يمتعه بالصحة والعافية، ويزيده فضلاً وعطاء، ويطيل عمره في الصالحات قولاً وعملاً.

أيها السادة:

ولد محمد حسين زيدان في المدينة المنورة، أي في بلد النور والعطر والشذا، والهدى ومأزر الإيمان، وعاصمة الحب والمحبة والمحبين. . وتلك أول جائزة حباه الله بالتشريف بها.

وإني إذ أهنئه على الولادة في هذه المدينة، أسأل الله ألا يحرمني من الثواء في بقيعها. ويرحم الله عبداً قال آمينا.

تقول المصادر: إنه درس في المدرسة الراقية الهاشمية في المدينة المنورة، ومنها تخرج. لكنها تغفل جميعاً الموطن الآخر الذي فيه درس وتعلم وتأدب، وهو المسجد النبوي الشريف. ولعمري إنه والمسجد الحرام يعدلان يومذاك المستوى الجامعي وما فوق الجامعي، في الحلقات التي كانت تعقد في كل ركن من أركانهما.

زيدوا على ذلك أن الله جل جلاله وهبه حب القراءة وصداقة الكتاب، فهو مدمن قراءة. أمضى حياته كلها وهو يقرأ، حتى لقد قال مرة: «كنت في الماضى أقرأ لأتعلم، أما اليوم فأنا أقرأ لئلا أتألم».

ونتساءل: ماذا قرأ زيدان ؟

الجواب عسير، ويخيل إليّ أني لا أستطيع أن أحيط علماً بكل ما قرأ، حتى لو سئل زيدان ذاته هذا السؤال لعجز عن الجواب. بيد أنا نستطيع أن نتلمس الجواب من خلال ما تشف عنه كتاباته، وآثاره المنشورة، والمذاعة والمتلفزة، ومن خلال أحاديثه العابرة والمرتجلة.

إن كثيراً من الدارسين يلجأون إلى تلمس العوامل الثقافية المؤثرة في الأديب، ليس من خلال ما يقرأونه عنه في كتب التاريخ أو الأدب فحسب، وإنما من خلال ما يتبدى في ثنايا نتاجه، ويكشف عن نفسه، حتى ليمكن للدارس أن يعرف من خلال شعر المتنبي أو المعري أكثر ما اطلعا عليه من علوم ومعارف.

إنكم ـ أيها السادة ـ تستطيعون أن تقدروا مستوى ثقافة إنسان من خلال حديثه أولاً،

فإذا ما قرأتم له، أو سمعتم منه، استطعتم أن تكتشفوا جوانب أخرى من ثقافته، ومدى معارفه، وسعة أفقه أو ضيق نظرته.

هذا الرجل الفاضل الذي اجتمعنا هذه الليلة لنزف إليه كلمة ود وشكر ولنحييه على ماقدم لهذا البلد. بل للناس، تجمعت فيه ثقافات شتى. هذه الثقافات هي كتب تراثنا، وأكاد أقول: إن ثقافته المتينة بنت الكتب الصفراء، منها رضع، وعليها بنى أسس أدبه وفكره ووجدانه، ولولا هذه الكتب العظيمة لما كان الزيدان كما هو عليه اليوم، ولما كان كما رأيتموه أو سمعتموه أو قرأتموه.

وما هذه الكتب التي أعنيها إلا الكتب المسلمة التي عرضت علوم الإسلام والمسلمين، وحضارة الإسلام والمسلمين، فيها انطوى كل شيء نعتز به، وفيها استقر كل مجد لهذه الأمة منذ أقدم أيامها.

ثقافة هذا الرجل هي ثقافة الأدب في مفهومه التراثي، وهو الذي يعني: الأخذ من كل علم بطرف.

كان الأديب في الماضي يعرف شيئاً من علوم القرآن الكريم والفقه والأصول والحساب، وتاريخ الأمم والمسالك والممالك والفلك، وشيئاً من علم الحيوان والنبات والبحار، وشيئاً من الطب وتاريخه والأطباء والأعشاب والعشابين، كما يعرف أكثر عن الشعر وتاريخه والأدب ورجاله، والشعراء وطبقاتهم، والكتاب ودرجاتهم وأخبارهم والنقاد وأعلامهم، والسير والتراجم والأساطير، والأمثال، والحكايات، ويحفظ من ذلك وعن ذلك الشيء الوفير.

ذلك كان الأدب في عرف الجاحظ وابن قتيبة وابن رشيق وسواهم من العلماء السالفين.

الأستاذ الزيدان/ من خلال ماتشف عنه آثاره ـ أديب في عرف القدماء ولقد أبانت آثاره عن هذه الموسوعية العامة الجامعة.

أما ثقافته المعاصرة، فنظن أنها لا تقل عن ثقافته التليدة، وإن جرؤت على القول بأنها قد تكون أوسع وأرحب، ويخيل إليّ أن عمله في الصحافة في مدى نصف قرن أو يزيد كان بعض أسباب هذه السعة والشمول.

أيها السادة:

كنا نتحدث عن ترجمة حياة الزيدان، ووقفنا عند دراسته في المدرسة الراقية الهاشمية المدنية، واستطردنا إلى موضوع الأدب والثقافة، وآن لنا أن نعود إلى النقطة التي وقفنا عندها لنقول: إنه بعد أن تخرج من هذه المدرسة التحق بسلك التعليم، فدرس مادة التاريخ

والعلوم الإسلامية في مدرسة الأيتام، وأمضى في ذلك عامين، ثم هجر التعليم إلى الوظيفة الحكومية، فتوظف في وزارة المالية بمكة المكرمة، وفي مديرية شؤون الحج، وتقلب في عدد من الوظائف فيهما حتى بلغ أعلاها مرتبة، ثم بدا له أن يستقيل نهائياً، ويحال على التقاعد وتم له ذلك، وهو مايزال في شرخ الخامسة والأربعين.

كتب عن هذه المرحلة كلمة قال فيها: «بقى أن تعرف أنت ومن إليك أن شر أيامي وأردأها الأيام التي كنت فيها موظفاً عبداً، وجهلت بسببها الكثير، وتعلمت منها ما جعلني أشفق على الفكر أن يوظف، يضيع وراء خشب، ويذوب زمانه في تقليب الأوراق «روتينياً» يشرح بما يلزم أو ينفذ ما يلزم مشروحاً من غيره . . يجري وراء رئيس مشغول، فلا يتلقى جواباً إلا من وراء الأكتاف، في الدهليز الموصل من الصالون إلى باب السيارة. وخير أيامي تلك الأيام التي كنت فيها معلماً، ولا أحسبني إلا فيها هذه الأيام.

لنقف عند هذه المرحلة وقفة متأنية، نتساءل عن أثر هذا العمل الوظيفي في تفكيره وثقافته وسلوكه، ويبدو لنا أن العمل في مديرية شؤون الحج، والتعامل مع الحجاج بشكل مباشر أو غير مباشر، وهم الوافدون من كل صقع ويحملون ألواناً من التفكير والثقافات والسلوك . . له أثره الكبير في كل أعماله الأدبية.

ولسنا ندري هل كان يزاول بعض الكتابات آنذاك أو كان في طور الإعداد النفسي والقراءات الجادة، دون أن يكتب شيئاً، وإذا كنا نجهل الجواب فلأن الأستاذ زيدان لم يؤرخ آثاره التي نشرها في الكتب، ولم يذكر نشرها وصدورها.

بعد مرحلة الوظيفة يبدو أن الأستاذ زيدان نزل بكليته إلى ميدان الصحافة، وكأنه كان معروفاً بأدبه أو غدا مشهوراً بقلمه، ومقروءاً بين الناس، ومقدراً في الأوساط العلمية والاجتماعية والحكومية، لولا ذلك ما أسندت إليه إدارة تحرير جريدة البلاد أولاً، ثم رئاسة تحريرها ثانياً، ثم تولى رئاسة تحرير جريدة الندوة . . أمداً مديداً.

إن عمل الأستاذ زيدان في الحقل الصحافي المسؤول جعله دائم الاطلاع على ما يجد في قلب المملكة من أمور وقضايا، وما يجري في البلاد العربية والعالمية.

من هنا . . أو من هذا الجانب تدفق فيه رافد ضخم من الثقافة والمعلومات، رافد قد لايكون زيدان تقصده عامداً، وإنما جاءه منقاداً يجرر أذياله . .

على أن هذا يجب ألا ينسينا رغبته الدائمة في القراءة وبخاصة في حقلي التاريخ والأدب اللذين يهواهما.

أيها السيدات والسادة :

إن شغف من نحتفى به الليلة بالتاريخ وتتبع الأحداث وحب الاستقصاء، دفع الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ ـ تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته ـ إلى تعيينه عضواً في مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز، وقد كان رحمه الله رئيس مجلسها، ثم أضاف إليه رئاسة تحرير مجلة الدارة، وهي ـ كما لا يخفى عليكم ـ مجلة فصلية أكاديمية محكمة، تعني بتراث المملكة وفكرها، والجزيرة العربية والعالم العربي والإسلامي، مما له صلة بالجزيرة العربية. ولا يزال الأستاذ زيدان رئيس تحريرها إلى يومنا هذا. «والآن قد يقول قائل: أين هي آثار زيدان المطبوعة والمنشورة والمذاعة.. وهل جمعت أو ضاعت أو هي بين بين ؟؟

وجواباً عن هذا التساؤل نقول/ إن كثيراً وكثيراً جداً من آثار هذا الرجل مطوية في بطون الصحف والمجلات وعبر ابقات الأثير، لم يجمعه صاحبه، ولا جمعه سواه، وإنه لينتظر الشباب الدارسين، والأساتذة المشرفين الموجهين، والأكاديميين العلميين، ليقوموا بهذه المهمة، وينهضوا بهذا الواجب الشريف.

قليل من تلك الآثار ظهر على صورة كتب.. وها نحن. أولاء نعدد أسماء ما وقفنا عليه.

(١) كتاب «سيرة بطل»، وهوترجمة لسبعة وسبعين صحابياً وصحابية، تناولها المؤلف تناولاً خفيفاً، إذ كان همه إبراز نواحي العظمة أو العبرة في المترجم له، واستخلاص المثل الأعلى من حياته وسلوكه.

(٢) «تمر وجمر»، هذا كتاب في عدة أجزاء، رأيت ثلاثة منها، أصله بعض المقالات التي كتبها في مناسبات مختلفة، في جريدتي البلاد والندوة، وقبلهما في البلاد السعودية، تحت عناوين: تمر وجمر وقراقيش. وفي صدر هذا الكتاب قال الزيدان: «نحب أن نعيد لهما الحياة في تعبير الهامش الذي يكتب» والتمر والجمر والقراقيش زاد البدوى وعدته، والبداوة التي أحن إليها في بيت شعر نشأت فيه «أرضعتني فيه أم، وحضنتني به جدة، وأعزني خال، وحماني أب، وبكت عين عم علي في يوم قاس، ولا عبت فيه أترابي في فنائه. ذلك البيت من الشعر أعرف مكانه الآن في «حوش خميس» في المدينة المنورة».

(٣) «ثمرات قلم»، ظهر هذا الكتاب وهو يحمل الرقم «٢٨» من سلسلة الكتاب العربي السعودي، من اصدارات مؤسسة تهامة سنة ١٤٠١/١٩٨١م كتب له الأستاذ عبد الله جفرى مقدمة، حاول فيها تحليل قلم زيدان وفكره، وكشف عن جوانب جديرة بالاهتمام.

(٤) «كلمة ونصف»، هذا الكتاب الضخم من إصدارات تهامة، حمل الرقم ٥٨ في

سلسلة الكتـاب العـربي السعـودي، نشر سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م وكتب مقدمته المرحوم سباعي عثمان.

(٥) «خواطر مجنحة»، من منشورات تهامة سنة ١٤٠٤/١٩٨٤م، وقد حمل الرقم ١٢٨ في سلسلة الكتاب العربي السعودي. وهو كما يظهر من عنوانه ـ خواطر وجدانية، اهتزت لها مشاعر الكاتب، وارتعش لها فؤاده ارتعاشة عصفور بلله القطر، فنقلها إلى كتاب مجموع.

(٦) «محاضرات عن التاريخ والثقافة:»، وهذا من منشورات «عالم الكتب» بالرياض القسم الأول من الكتاب كان بعض المحاضرات والأبحاث التي ألقاها في عدد من جامعات المملكة، أو في المراكز الثقافية أو في النوادي الأدبية، أو في المؤتمرات العالمية المعقودة في قلب المملكة، أو في دول الخليج العربي، أو في إحدى العواصم العالمية في مؤتمر يحضره كثير من المستشرقين.
أما القسم الثاني: فإنه تكرار لبعض ما نشر في كتاب (سيرة بطل، وكم نود أن لو حذفت هذه التراجم المكرورة من هذا الكتاب.

(٧) «عبد العزيز والكيان الكبير»، إنه كتاب في تاريخ مؤسس هذا الكيان الكبير، فيه أفاض زيدان في سيرة الباني العظيم، ورسم الآفاق الكبرى التي بلغتها المملكة في عهده، وعهد من تولى حمل الأمانة بعده.

أيها السادة والسيدات:

أسلوب الأستاذ زيدان أسلوب فريد ومتميز، له نكهة خاصة، وشخصية متميزة، يكاد يعرفه القارىء، ولو لم يوقع الكاتب باسمه عليه.. إنه أسلوب بسيط، سهل، واضح لا تعقيد فيه ولا غموض ولا التواء.

بعض الناس يجد فيه لوناً من التكلف البديعي، ولا سيما في أسلوب القلب على طريقة «عادات السادات سادات العادات»، أو على أسلوب الجناس المسجع، وبعض آخر من الناس يرى أنه صورة قريبة من أسلوب مصطفى صادق الرافعي، وأحياناً هو قريب من أسلوب عباس محمود العقاد.. ويضيف بأن في أسلوب هذين العملاقين الرافعي والعقاد شيئاً من التعقيد أو الجزالة، التي تستعصى على الفهم السهل السريع.. وكذلك أحياناً يكون أسلوب الأستاذ زيدان.

ونحن في هذه الليلة البهيجة لسنا في صدد دراسة أسلوب هذا الأديب، وتحليله وبيان ماله أو عليه وإنما نحن في عرس المحبة، وزفة آيات الثناء والاعتراف بالجميل.. مع أنا نقر

ونعـترف بأن الله أبى أن يكـون الكمال إلا له ولكتابه العزيز، أما بقية الخلق فهم بشر، يخطئون ويصيبون . . ولكل مجتهد نصيب .

أيها الإخوة الكرام :

لعلي أكون منصفاً إن قلت لكم : إن أجمل ما يكتب زيدان ، وأحلى مايكون في موقفين : حين يتحدث في التراث والبطولات والأبطال وبناة هذا الكيان الكبير، وحين يتحدث في الحب .

أما حين يتحدث عن واقع الأمة العربية ، أو عن تفاهة بعض الشباب وبعض ما اتخذوه من سلوك وعادات ، يستحي منها الخلق العربي الأصيل ، فإنه يفيض بالمرارة . . وتشعر أن السعير يتدفق في الحروف . . وأن الدمعة تكاد تظهر فوق السطور . .

أيها الأحبـة !!

لنقف معاً عند الجانب الأحلى لحظة . . لعلها تجلوا صدأ قلوبكم من متاعبها . . ويحلو سماعها لدى أستاذنا كاتبها . . وإن كانت مرة المذاق في يوم من الأيام . . مؤلمة له في ساعة . . إلا أنها تلذه في آخرالمطاف . . لأنه هو الذي يقول ويردد دائماً كلمة جبران : ابتغوا اللذة في الألم ، وابتغوا الألم في الحب .

قال الزيدان :

لا أدري كيف وضعتني الوحدة على الوسادة ساعة إن أرحت رأسي أنطق الكلمة التي لم أنطق بها وأنا طفل (ياأمي)لقد كنت طفلاً ، ماتت أمي ، ولم أقل لها (ياأماه) لأنني لم أعرف معنىَ الأم ، وإن كنت حظيت بحنان الأمومة . لم أقل (ياأماه) في طفولتي الخضراء ، وفي شبابي النضر ، وفي كهولتي ، فكيف أقولها اليوم في شيخوختي ؟

وامتلكني حزن ، كأنـما الشيخ قد عاد طفـلاً جديداً ، فالشيخـوخة طفولة مستجدة ، أتحدث إلى المخدة ، وأنا لم أكن قد تحدثت إلى أمي .

كانت طفولتي خرساء ، لا عن مرض ، وإنما لأن أمي ماتت ، ولم تقل لي «تاتي . . تاتي . . خطي العتبة . . » .

لم أقل (ياأمي) ، الكلمة التي يفرح بها الطفل ، وتفرح بها الأم ، وكلمة (ياأبي) قلتها آلاف المرات ، لكنني اليوم وإن استعذبت أن أقولها فقد أمضنى الكرب أن لم أقل (ياأماه) .

وكلمة (ياحبيبي) لم أجرؤ أن أقولها لواحدة ، أو لأي أحد ، بل كنت أقول (ياعزيزتي) . . (ياسيدتي) . . (ياغاليتي) . . (يافاغيتي) ، كأنما كلمة (الحبيبة) قد سلبتني أياها كلمة

(ياأماه) التي حرمتها.

ولست جازعــاً من هذا السلب، فالأم هي الحب، فكـأنـما هي، حين ضاعت مني أضاعت اسمها الثاني (الحب) . . اسمها الثاني (الحبيبة).

وأنتصبت أبتعـد عن المخـدة . . أطـرد الفكـرة الحزينة . . أنادي إحدى بناتي (تعالي ياأماه)، فالبنت أم أبيها وفي شمائل رسول الله ﷺ، ذكروا أنه ينادي ابنته فاطمة الزهراء بقوله الكريم وعاطفة الأبوة الراحمة (ياأم أبيها)، كما كان يقول ﷺ لحاضنته سيدتي أم أيمن (ياأماه أبيها) كما كان يقول ﷺ لحاضنته سيدتي أم أيمن (ياأماه).

أيها السادة:

لا أريد أن استقصى جميع جوانب الأدب والفضل في الأستاذ محمد حسين زيدان . . وإن كان هناك كثيرمن القول . . لكني أوثر أن أترك هذا المنبر لمحبين كثر، يتوقون إلى التعبير عن زخم عواطفهم، وإزجاء آيات الشكر إلى صديق عمرهم.

أيهاالسيدات والسادة.

هذا الـرجل أحب . . وأفاض قلبه مشاعر حب، ودفق، إخلاص للتراث، والدين، والعروبة، والوطن، ورجال البلد المؤمنين، والشباب، والناس جميعاً.

نثر حبه بسخاء طوال حياته، وعطر به دنيانا، وأفرح كثيراً من عشاق الكلمة الصافية. أفيضوا عليه التكريم والتقدير، وأدعوا الله أن يكلأه بعين رعايته، ويمده بآلاء الصحة والعافية، ويجزيه عما قدم خير الجزاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

د/ بكري شيخ أمين . .

ملحـــق الصــــــــــور



















الفهـــرس